منهج الرسول صلى الله عليه وسلم

في دعوة أهل الكتاب



الدكتور محمد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي

دار القبلة للثقافة الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - الرمز: ٢١٤٤٣ - ت: ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأخرج به الناس من ظلمات الكفر وشقائه وجهله، وختم الرسل بمحمد النبي الكريم، عليه من الله أتم الصلاة والتسليم، وختم الكتب السماوية بهذا القرآن العظيم، فاهتدى الناس بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً صادرة عن إيقان، وأشهد أنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله رسول آخر الزمان.

أما بعد فإني قد كنت كتبت رسالة الدكتوراه في دعوة النبي ﷺ لأهل الكتاب وقد ضمنتها هذا الكتاب وسميته:

«منهج الرسول في دعوة أهل الكتاب»

والمراد من منهجه عليه السلام في دعوة أهل الكتاب إنما هو السنة دون الكتاب كما يتضح ذلك.

وقد اخترت هذا الموضوع للأسباب التالية:

أولاً: أنني لم أعرف أحداً كتب في هذا الموضوع بعينه، فأردت أن أكتب فيه كتابة أشارك بها الباحثين في الدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً: إنما اخترت الكتابة في هذا الموضوع للرد على أهل الكتاب فيما يفوهون به من دعواهم أن النبي ﷺ لم يبعث إليهم، وإنما بعث للعرب الأميين فقط دون

غيرهم من سائر الناس، ولذلك لم تشملهم دعوته عليه السلام؛ فأردت أن أبين بطلان هذه الدعوى وأنه عليه الصلاة والتسليم دعاهم دعوة عامة مع جميع الناس حيث بيَّن لهم أنه أرسله الله رحمة للعالمين وأنه أرسله للخلق كافة، وأنه أرسله للناس عامة، وهم داخلون في جميع ذلك ثم دعاهم بعد ذلك دعوة خاصة بجميع وسائل الدعوة وأساليبها، كما يأتي ، إن شاء الله تعالى موضحاً.

ثالثاً : أردت أن أبرز ما أمكنني إبرازه من الأحاديث النبوية التي دلت على دعوته ﷺ لأهل الكتاب في موضوع واحد ليسهل تناولها على من أراد الاطلاع على شيء منها، ونعني بذلك أقواله وأفعاله ﷺ .

رابعاً : من الدواعي التي دعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع: الرد على ما يقوله أعداء الإسلام اليوم من أن الرسول ﷺ أدخل الناس في الإسلام عن طريق القوة والقهر بالسيف، فأردت أن أبين بطلان ذلك كما سيأتي، إن شاء الله ذلك، في غزوه لأهل الكتاب، وأنه كذب وافتراء، وأنه ﷺ ما حارب أهل الكفر سواء كانوا أهل كتاب أم وثنيي إلا بعد أن تعين عليه ذلك، واضطر إلى الجهاد.

الدكتور

محمد بن حسين بن الحبيب الشنقيطي

منهجي في البحث

لقد سلكت في إعدادي لهذا الكتاب المنهج التالي:

أولاً: ذكرت دخول أهل الكتاب في عموم دعوته ﷺ مبيناً ذلك من الأحاديث الصريحة التي دلت على بعثته ﷺ للخلق كافة.

ثانياً: أتبعت ذلك بما وقفت عليه من الأحاديث والآثار التي تدل على دعوة أهل الكتاب، خصوصاً، متحرياً في ذلك ما ورد في كتب السنة المعتمدة بادئاً بما في الصحيحين أو أحدهما، ثم أذكر بعد ذلك ما تيسر من رواية غيرهما، وربما أكتفي بالحديث إذا كان فيهما أو في أحدهما إلا إذا كانت في رواية غيرهما زيادة على ما ذكراه أو ذكره أحدهما.

ثالثاً: أنني غالباً أبدأ برواية البخاري، ثم أتبعها بما أذكره من رواية غيره وتارة أبدأ برواية مسلم إذا كانت أعمق في الموضوع، وربما ذكرت قليلاً رواية أبي داود أو رواية الإمام أحمد قبل رواية البخاري أو مسلم لنكتة كما سيقف عليه قارئ هذه الرسالة إن شاء الله.

رابعاً: أنني إذا تعارضت أمامي نصوصٌ أحاول أن أجمع بينها إذا أمكن الجمع، وإذا لم يمكن الجمع صرت إلى الترجيح بينها، فتارة أرجح ما سبقني إلى ترجيحه غيري لاقتناعي بذلك الترجيح، وتارة يظهر لي ترجيح لم أقف على من قال به قبلي.

خامساً: أنني أذكر أحاديث كل موضوع بعينه مرقمة فأذكر تحت العنوان ما تيسر من الأحاديث مسلسلة حتى ينتهي ذلك الموضوع، وهكذا مع العنوان الآخر.

سادساً: ذكرت مواضع الآيات القرآنية التي ذكرتها للاستشهاد وبينت أرقامها من سورها، وإذا ذكرت الآية كاملة نبهت على ذلك، وإذا كان المذكور منها جزءاً نبهت على ذلك أيضاً.

سابعاً: شرحت الألفاظ الغريبة التي تعرض لي في الأحاديث أو في غيرها مما يحتاج إلى شرح.

ثامناً: إذا لم أجد أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ في الموضوع ووجدت من كلام أرباب السير والتاريخ ما يتعلق بمنهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب ذكرته وذلك مثل ما يذكره ابن عبد البر في اختصاره للسير، ومحمد بن إسحاق، وابن حزم وغيرهم.

تاسعاً: ربما تكلمت على بعض رجال سند حديث حيث كنت أدعم بذلك الحديث رأياً للتأكد من صحة الاستدلال، وإلاَّ فإن الغالب عندي أن أذكر من أخرج الحديث وإن سكت عليه سكتُّ، وإن ذكر علة ذكرتها وتركت الحكم على الأحاديث لأهل ذلك الفن، فلم أتعرض لذلك.

عاشراً: بينت أن غزوهُ ﷺ لأهل الكتاب منهج من مناهج دعوته لهم لأن فيه إظهار قوة الإسلام وشجاعة أهله ورغبتهم في الدار الآخرة، إلى غير ذلك مما سيقف عليه القارئ إن شاء الله.

حادي عشر: بينت المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب وكيفية تدرجه في ذلك المنهج من معاهدة، ومصالحة، إلى دعوة باللسان بحكمة وموعظة حسنة، إلى غزو وسبي وقتل كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

ثاني عشر : إذا كان الحديث في البخاري، فإنني أكتفي بعزوه إليه في الكتاب، فأقول مثلاً أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، أو في كتاب الفضائل في باب كذا، وربما تركت الباب، لأن البخاري دائماً يذكر الحديث في الكتاب مرات ويعيده في مواضع أخرى فأكتفي بذكر الكتب التي ذكر فيها الحديث.

ثالث عشر : ربما تعرضت لبعض الأحكام الفقهية التي تستنبط من الأحاديث التي أذكرها في شأن الدعوة فأذكر من الأحكام الفقهية ما تمس إليه الحاجة، وكذلك المباحث الأصولية أيضاً إلى غير ذلك من الأمور التي اتخذتها منهجا في رسالتي هذه مثل كتابتي للآيات القرآنية برسم المصحف العثماني.

منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب

إن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه كان له منهج حكيم في دعوة أهل الكتاب فقد دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.

ومن ذلك أنه حسب استقراء منهجه في دعوته لهم نجده، دعاهم في عموم الخلق حيث بلغهم الدعوة في جملة عباد الله أجمعين، حيث دعا الناس جميعاً إلى توحيد اللَّه، فقد دعا الإنس والجن عامة إلى توحيد الله ورغبهم فيما عند الله من الثواب على الإيمان بالله وبرسوله، ورهبهم بما عنده لهم من العقاب إن لم يؤمنوا، ثم لما بلغهم الدعوة في عموم الناس اقتضى منهجه الحكيم في دعوتهم أن يدعوهم منفردين عن سائر الخلق فدعاهم وحدهم وبلغهم رسالة ربه وأخبرهم أنه أرسل إليهم بشيراً لهم ونذيراً فقد قال ﷺ لليهود: (يا معشر يهود أسلموا تسلموا. . .) وقال لعظيم الروم لما أرسل إليه رسولاً يدعوه إلى الإيمان بالله وبرسوله: أسلم تسلم)[١].

---

(١) سيأتي تخريجها إن شاء الله.

ولما لم يستجيبوا للإيمان بالله بما ذكر نَوَّع منهجه في دعوته لهم فعاهد اليهود في المدينة وأعطاهم الأمان مع قدرته على إخراجهم من المدينة والتنكيل بهم، ومع ذلك فإنه ترك إخراجهم والتنكيل بهم طمعاً في إسلامهم فلما لم يستجيبوا لما يدعوهم إليه من التوحيد ونقضوا العهود والمواثيق التي بينهم وبينه، اقتضى منهجه الحكيم في دعوته لهم أن يخرجهم من المدينة وأن يُجلِيهم عنها إلى خيبر وما وراءها كما فعل ببني قينقاع، وبني النضير ثم لما نقض بنو قريظة العهد أيضاً اضطر إلى محاصرتهم وسبي ذراريهم وقتل مقاتليهم، إلى غير ذلك مما يأتي إن شاء الله.

وكان من منهجه في دعوته لأهل الكتاب أنه كان يرسل إليهم الرسل والكتب يدعوهم فيها إلى توحيد الله عز وجل والإيمان به، وبما أرسل به رسوله محمداً ﷺ، وكان في هذه الكتب يرغبهم فيما عند الله للمؤمنين، ويحذرهم عذابه وعقابه، فقد كان في كتابه الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم كما في الصحيحين وغيرهما: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، (يا أهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللَّه، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة: .. أسلم أنت فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن... إلى أن قال: وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، إلى آخر ما سيأتي إن شاء الله موضحاً.

كما كتب إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد

فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم.. الخ)[١].

ولما لم يستجب لدعوته ﷺ من عظماء أهل الكتاب الذين أرسل إليهم رسله إلا القليل حاول تغيير ذلك المنهج من كتب ورسل إلى جيوش، وسأبين إن شاء الله منهجيّة الجهاد في الدعوة في الباب الأخير، فقد ذهب بنفسه الشريفة في جيش من أصحابه إلى خيبر سنة ست من الهجرة أو سبع كما سيأتي إن شاء الله تحقيق ذلك، وحاصر أهلها حتى فتحها الله على يده تحت راية ابن عمه عليّ بن أبي طالب، ثم أرسل جيشاً من أصحابه سنة ثمان إلى مؤتة، وذلك لما عرض شرحبيل ابن عمرو الغساني إلى الحارث ابن عمير الأزدي، وقد كان بعثه ﷺ بكتاب إلى ملك الروم، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، وقد استعمل على هذا الجيش زيد ابن حارثة وقال لهم: إن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وكان عدد هذا الجيش ثلاثة آلاف، والتقى بجيش الروم فاقتتلوا قتالاً عظيماً حتى أصيب الأمراء الثلاثة، فأخذ خالد بن الوليد الراية فقاتل المسلمون تحت رايته حتى فتح الله عليهم[٢].

ثم بعد ذلك اقتضى المنهج الحكيم الذي نهجه رسول الله ﷺ في دعوة أهل الكتاب أن أمر بأخذ الجزية منهم فإذا دفعوا الجزية للمسلمين عن يدٍ وهم صاغرون تُركوا على دينهم وأعطيت لهم حريتهم في دينهم وتُركوا أحراراً يقيمون شعائر دينهم، وهذه الطريقة كانت من أعظم أسباب دخول أهل الكتاب في الإسلام، وذلك أنهم لما اختلطوا بالمسلمين ورأوا سماحة الإسلام وحريته الكاملة وتمكنه من قلوب الذين دخلوا فيه، وتذوق أهله له كان هذا كله مدعاة لدخول كثير منهم فيه.

---

(١) سيأتي تخريجها إن شاء الله.

(٢) طالع زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١٧٣/٢ ط الحلبي وأولاده بمصر.

ثم تطور المنهج بعد ذلك حتى أمر ﷺ قرب وفاته بإخراجهم من جزيرة العرب بحيث لا يبقى دينان كما ثبت ذلك عنه ﷺ.

فتحصل: أن منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب شمل الدعوة باللسان حيث أقام ﷺ الأدلة القاطعة على إرساله لهم، وأقام عليهم الحجة حيث حاولوا غير مرة تعجيزه بأسئلة يوجهونها إليه ويجيبهم فيها وفق أسئلتهم، وشمل المعاهدة، والمصالحة، ثم الجهاد حيث لم يجد عنه مندوحة بعد أن حصل له اليأس من استجابتهم له، ولرسله الذين أرسلهم إليهم، وعدم قبولهم ما تضمنته كتبه من الدعوة ونقضهم العهود والمواثيق التي كانت بينه وبينهم.. إلى غير ذلك.

الدكتور محمد بن حسين بن الحبيب الشنقيطي

* * *

تمهيد

إن دين الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم واحد، وهو الدين الذي لا يقبل الله من الأديان سواه ألا وهو دين الإسلام قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام..﴾(١) وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخسرين﴾(٢).

ودعوة الرسل لا تختلف، وهي الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإفراده وحده بالعبادة لا شريك معه فيها كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ (٣).

فدعوتهم لا تختلف، وإن كانت شرائعهم تختلف كما ثبت عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتُهم شتى ودينهم واحدٌ» هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم في بعض رواياته: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبيٌّ(٤)» فمراده ﷺ بهذا الحديث أن الأنبياء يجمعهم التوحيد وهو الذي عبر عنه بقوله: دينهم واحد وأما شرائعهم فإنها

---

(١) جزء من الآية ١٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٣٦ من سورة النحل.

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل ١٨٣٧/٤ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الفكر بيروت.

تختلف، وقد أخذ الله العهود والمواثيق على الأنبياء، أنهم إذا بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وأمرهم أن يأخذوا المواثيق على أممهم أنهم إذا بعث محمد آمنوا به وصدقوه كما فسر العلماء بذلك قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾(١).

الدكتور محمد بن حسين الحبيب الشنقيطي

(١) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

البــاب الأول

تعريف العنوان

لم يكن في عنوان هذه الرسالة الذي هو:

«منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب»

لم يكن فيه من الألفاظ التي تحتاج إلى التعريف إلا الألفاظ التالية:

منهج، دعوة، أهل الكتاب.

التعريف اللغوي لكلمة منهج:

المنهج: الطريق الواضح، ومثله النهج والمنهاج(١)، وأنهج الطريقُ أي استبان وصار نهجا واضحاً بيِّناً، ونهجت الطريق أبنته، وأوضحته ونهجته أيضاً إذا سلكته، وفلان ينتهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه(٢).

والمنهج في الاصطلاح:

هو خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر يتتبعها للوصول إلى نتيجة(٣).

تعريف الدعوة اللغوي:

أما الدعوة فهي المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء واحد الأدعية وأصله دعا

---

(١) انظر القاموس المحيط ١/٢١٨ مادة نهج.

(٢) انظر الصحاح في اللغة والعلوم إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي ص١٢٠٩ ط دار الحضارة العربية بيروت.

وانظر المختار من الصحاح مادة نهج.

(٣) الصحاح في اللغة والعلوم ـ المصدر السابق.

ولأنه من دعوت فأبدلت الواو همزة لوقوعها في الطرف بعد ألف زائدة[1]، ويقال للمرأة أنت تدعين، وللجميع ذكوراً أو إناثاً تدعون، فتقول لجماعة النساء أنتن تدعون[2]، وللرجال أنت تدعون، وقوله تعالى: ﴿له دعوة الحق..﴾[3].

قال الزجاج جاء في التفسير أنها شهادة أن لا إله إلا اللّه، وقيل معناها أن من دعا الله موحداً استجيب له دعاؤه، وفي كتابه ﷺ إلى هرقل أدعوك بدعاية الإسلام، أي بدعوته، وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة، وقوله تعالى: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[4] معناه داعياً إلى توحيد الله وما يقرب منه، والعرب تقول: دعانا غيث وقع ببلدنا فأمرع[5]، أي كان ذلك سببا لانتجاعنا إياه، والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة واحدهم داع، ورجل داعية. إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، والتاء فيه للمبالغة، والنبي ﷺ داعي الله تعالى، وكذلك المؤذن[6].

وفي التهذيب المؤذن داعي اللّه، والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته، قال تعالى مخبراً عن الجن الذين استمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب

---

(١) على حد قول ابن مالك في الألفية...

فأبدل الهمزة من واو ويا * آخراً اثر ألف زيد..

(٢) لأن الواو لام الكلمة.

(٣) جزء من الآية ١٤ من سورة الرعد.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الأحزاب.

(٥) أي أخصب البلادَ ـ القاموس مادة مرع.

(٦) طالع لسان العرب لابن منظور ٢٠/٢٨٢ – ٢٨٤.

أليم﴾ (١) (٢)، والدعاء إلى الشيء الحث على قصده، ومنه قوله تعالى: ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه..﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿والله يدعواْ إلى دار السلام...﴾(٤)، وقوله: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاوة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾(٦) (٧).

وقد تبين من هذا أن الدعوة تطلق لغة على الدعوة إلى الله تعالى، وعلى دعوة الحق التي هي شهادة أن لا إله إلا اللّه، وعلى الدعوة إلى هدى أو ضلالة، وعلى الدعاء إلى الشيء والحث على قصده.

تعريف الدعوة في الاصطلاح:

أما الدعوة في الاصطلاح، فإني لم أرَ من تعرض لتعريفها من القدماء، وقد عرفها جماعة من المعاصرين بعض التعريف، أذكر منه البعض، وأذكر تعريفاً لها استنبطته مما وقفت عليه من كلامهم.

قال بعضهم: هي قيام العلماء والمستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم على قدر الطاقة(٨).

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأحقاف.

(٢) انظر المفردات للراغب الأصفهاني ص ١٦٩ – ١٧٠.

(٣) جزء من الآية ٣٣ من سورة يوسف.

(٤) جزء من الآية ٢٥ من سورة يونس.

(٥) الآية ٤١، وجزء ومن الآية ٤٢ من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية ٤٣ من سورة غافر.

(٧) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص ١٦٩ – ١٧٠ ط الحلبي.

(٨) الدعوة إلى الإسلام للدكتور زكري ص ٨ ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة.

وعرفها آخر، فقال: إن الدعوة إلى الله هي: قيام من عنده أهلية النصح والتوجيه السديد من المسلمين في كل زمان ومكان بترغيب الناس في الإسلام اعتقاداً ومنهجاً وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة(١).

أما التعريف الذي ذكرت أني استنبطته مما وقفت عليه من كلامهم فهو أن الدعوة إلى الله هي: قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعاً في كل زمان ومكان لاقتفاء أثر الرسول والتأسي به قولاً وعملاً وسلوكاً، وقد عرفتها بهذا التعريف في رسالة الماجستير، لأن هذا التعريف في نظري يجمع كافة الدعاة كلا على قدر طاقته، والمدعويين، وأنهم الناس جميعاً، والمدعو إليه وهو دين الإسلام والعمل به كما جاء بذلك محمد ﷺ، كما بين هذا التعريف عالمية دعوة الإسلام وأنها حتم في كل زمان، وفي كل مكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

تعريف أهل الكتاب:

الكتاب فِعال بمعنى مَفعول فكتاب بمعنى مكتوب، ويطلق الكتاب على ما يُكتَب، ويطلق على التوراة، والصحيفة، والفَرْض، والحكم(٢)، والكتاب اسم من أسماء القرآن.

أما كلمة الكتاب التي في التعريف فالمراد بها التوراة، يؤخذ ذلك من الآيات الكثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾(٣) فالمراد بالكتاب في الآية التوراة، كما أطبق على ذلك المفسرون،

---

(١) الدعوة إلى الله: خصائصها، مقوماتها، مناهجها ـ الدكتور أبو المجد السيد نوفل.

(٢) انظر القاموس المحيط ١/١٢٦ مادة كتب.

(٣) الآية ٥٣ من سورة البقرة.

والتوراة هي الفرقان المذكور لأنها تفرق بين الحق والباطل، عطف عليه وإن كان المعنى واحداً، وذلك كثير في كلام العرب كما في قول الشاعر:

وقددت الأديم لراثشيه * فألفى قولها كذباً ومينا

فالكذب هو المين، وقد عُطف عليه.

وقول الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هندوً * وهند أتى من دونها النأي والبعد

فالبعد هو النأي، مع آن النأي والبعد، والكذب والمين والاختلاف بين النأي والبعد والكذب والمين، إنما هو حاصل في اللفظ فقد أما المعنى فواحد.

وكذلك قول عنترة:

حييتَ من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فأقوى وأقفر بمعنى واحد فالاختلاف بينهما في اللفظ فقط، بخلاف الكتاب والفرقان فإن الصفات تغايرت لأن الفرقان بمعنى أنه فارق بين الحق والباطل، والكتاب بمعنى أنه مكتوب.

وإنما عطف الشيء على نفسه في هذا وأمثاله تنزيلاً لتغاير الصفات بمنزلة تغاير الذوات، فالكتاب الذي هو التوراه موصوف بأمرين:

أحدهما: أنه مكتوب كتبه الله لنبيه موسى عليه الصلاة والتسليم.

والثاني: أنه فرقان أي فارق بين الحق والباطل فعطف الفرقان على الكتاب مع أنه هو نفسه نظراً لتغاير الصفتين كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم

انتهى بتصرف من أضواء البيان فانظره[1]، ومما يدل على أن المراد بالفرقان في الآية التوراة قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكر للمتقين﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى..﴾[3] فالمراد بالكتاب هنا التوراة بلا شك، فكلمة الكتاب في هذه الآيات كلها المراد بها التوراة، وإن كان النصارى لهم كتاب وهو الإنجيل الذي أنزله الله على عبده ونبيه عيسى عليه السلام، ولكنهم متعبدون بالتوراة إلا ما أحله الله لهم مما حرم فيها على لسان عيسى عليه السلام، وعلى كل حال فالله جل وعلا أطلق أهل الكتاب في القرآن الكريم مرادا بهم اليهود والنصارى معاً وذلك في قوله تعالى ﴿يا أهل الكتب لِمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾[4] وذلك ان هذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهودية والنصرانية أن إبراهيم كان على ملته، فأكذبهم الله تعالى: وبين لهم أن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعد إبراهيم[5]، وذلك في قوله تعالى:

﴿... وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون..﴾[6].

وفي الاصطلاح فكلمة أهل الكتاب تطلق على كل من تدين باليهودية أو النصرانية، ولو لم يكن من أصل بني إسرائيل الذين انزلت على رسلهم التوراة والإنجيل.

---

(١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/٦٦.

(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنبياء.

(٣) جزء من الآية ٤٣ من سورة القصص.

(٤) الآية ٦٥ من سورة آل عمران.

(٥) انظر القرطبي ٤/١٠٧ ط إحياء التراث العربي بيروت.

(٦) الآية ٦٥ من سورة إل عمران.

أما كلمة (أهل) في قولك أهل الكتاب فأصلها أأْل: أبدلت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً والأصل أهل أبدلت الهاء همزة توصلاً لقلبها ألفا، وهذا مذهب سيبويه، وقيل أصلها أول تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فقيل: آل، وهذا مذهب الكسائي[١].

* * *

(١) انظر سراج القاري المبتدي ص٢٦، والقاموس المحيط بمادة أول، وأهل.

الفصل الأول

في

دخول أهل الكتاب في عموم الدعوة

إنني قبل الشروع في هذا الفصل لابد أن أبين أهمية الدعوة وشدة الحاجة إليها ولو بجمل قليلة، كذلك لا بد أن أذكر نبذة قليلة عن حكمها.

أهمية الدعوة وشدة الحاجة إليها:

أن الدعوة إلى الله تعالى من الأهمية بمكانة لا تدرك، وكيف لا؟ وهي وظيفة النبيين، والمرسلين وعباد الله الصالحين، فهي من الأمور التي لا غنى للبشرية عنها قديماً وحديثاً، فدعوة الرسل عليهم الصلاة والتسليم تنقذ الناس من ظل الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق ودعوة غير الرسل من علماء هذه الأمة تبين للناس معالم دينهم ومزاياه وتوضح لهم ثمرة الإيمان بالله تعالى التي هي سعادة الدارين، وتدعوهم إلى التمسك بمبادئ الدين الحنيف، وتنهاهم عما ينكره الشرع وتأمرهم بما يأمر به على ضوء ما جاءت به الرسل، من عند الله، فدور الدعاة غير الرسل لا يقل أهمية عن دور الرسل، ولم يزل الناس قديماً وحديثا محتاجين إلى الدعوة ولا سيما في زماننا هذا الذي شاع فيه الإلحاد وانتشر في أنحاء البلاد وعم بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فالحاجة إلى الدعوة الآن لا تقل أهمية عن الحاجة إليها زمن بعثة الرسول ﷺ، فالوثنية والمجوسية والجاهلية، واليهودية والنصرانية وغير ذلك مما كان موجودا زمن بعثته ﷺ، كل ذلك موجود الآن، أضف إلى ذلك ضَعف المسلمين وحاجتهم إلى

من يقوي قلوبهم على التمسك بدينهم وعدم انحرافهم عنه وإقامتهم شعائره فهم في أشد الحاجة إلى ذلك، والأنبياءُ لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم وورثهم العلماء، فيجب عليهم أن يقوموا بالدور الذي كان يقوم به مورثوهم ويأخذوا حظهم من ذلك الميراث.

حكم الدعوة إلى الله:

لقد أمر الله جل وعلا نبيه محمداً ﷺ بالدعوة إلى الله في آيات كثيرة من كتابه العزيز، كما أمر أمته بذلك أيضاً، مع أن المقرر في علم الأصول أن الأمر للنبي ﷺ أمر لأمته إلا أن توجد قرينة على صرف الأمرعن الأمة وخصوصيته به ﷺ، ولهذا موضع بحث يخرجنا عن المقصود، فليرجع إليه من شاء في كتب أصول الفقه، فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(١). وقال تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾(٤) وقال تعالى مخاطبا أمة محمد ﷺ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾(٥) وقال تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾(٦).

وقد اختلف العلماء في حكم الدعوة إلى الله بالنسبة للأمة كلها أو لبعض

---

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة النحل. (٢) الآية ١٠٨ من سورة يوسف.
(٣) جزء من الآية ٨٧ من سورة القصص. (٤) الآية ٣٢ من سورة فصلت.
(٥) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران. (٦) جزء من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

أفرادها، بعد اتفاقهم على وجوبها[1] ، فقال بعض العلماء إنها فرض عين على كل مكلف، وقال بعضهم إنها فرض كفاية تأثم الأمة جميعاً بتركها، وإذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وهذا القول عليه الأكثر.

سبب الاختلاف:

إن سبب اختلاف العلماء في هذه المسألة اختلافهم في تفسير (من) من قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير... ﴾ فقد اتفقوا على أن الدعوة إلى الخير تشمل مصالح العباد في دينهم ودنياهم، ولكن قال بعضهم إن هذا التبليغ يصح من بعض أفراد المكلفين دون الجميع، وقال بعضهم يلزم جميع أفراد المكلفين أن يكونوا دعاة إلى الله حسب استطاعتهم، فالذين قالوا إنها فرض كفاية قالوا: إن (من) للتبعيض، وقالوا إن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء، والذين قالوا: إنها فرض عين قالوا: إن (من) لبيان الجنس وإن المعنى لتكونوا كلكم كذلك، والقول الأول نصره القرطبي في مواضع من تفسيره فقد قال بعد أن ذكر القولين ما نصه: « القول الأول أصح فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينهم الله تعالى بقوله: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[2] وليس كل الناس مكنوا »[3].

قلت: إن الجمهور من أهل العلم على أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية يأثم جميع المكلفين بترك ذلك، ويسقط عنهم

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي ٣/٢١ ط إدارة الطباعة المنيرية.

(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة الحج.

(٣) انظر القرطبي ٤/١٦٥ ط ٢ دار الكتب المصرية.

الإثم إذا قام بعض الأمة بذلك، ولكن يشكل على هذا ما في الصحيح من قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، وفيه من حديث عبد الله بن سعود أنه ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف(١) من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٢)، فتعبير النبي ﷺ بـ (من) في قوله: «من رأى منكم منكراً» الحديث، و(من) من صيغ العموم، وإخباره بأن من لم يغير المنكر حسب استطاعته بأي نوع من التغييرات المذكورة في الحديث لم يبق له من الإيمان ما يزن حبة خردل يصعب معه القول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية إلا إذا دل دليل صريح صحيح على تخصيص هذا العموم تخصيصاً يجب الرجوع إليه، وإلا يتعين علينا التمسك بهذا العموم، والعلم عند الله تعالى.

قلت: هذا التصريح من النبي ﷺ بالأمر بصيغته الصريحة التي هي الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر (فليغيره) مرتباً ذلك علي ما في وسع المكلف، وإخباره أن ترك ذلك ما وراءه شيء من الإيمان وتعبيره بـ (من) الدالة على العموم الشامل لجميع أفراد المكلفين، كل هذا يدل على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لزوماً عينياً، أضف إلى ذلك أن ابن عبد البر حكى الإجماع من المسلمين على وجوب تغيير المنكر على كل من قدر عليه(٣)، ومع هذا فإن مذهب الجمهور من أهل العلم على أن الدعوة إلى الله التي لا تنفك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية،

---

(١) أي تحدث والضمير في إنها ضمير الشأن والقصة.

(٢) أخرجهما مسلم في صحيحه ١/٦٩ ـ ب المصدر السابق.

(٣) بواسطة النقل من القرطبي ٤/٤٨ ـ المصدر السابق.

وإذا حملنا معنى الآية على أن (من) للتبعيض كان ذلك مؤيداً لمذهب الجمهور.

وعلى هذا فلا بد من تلمس الجمع بين القولين، والذي يظهر لي في الجمع بين هذين القولين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من أسس الدعوة إلى الله عز وجل ولا سيما في زماننا هذا ينقسمان إلى قسمين: قسم خاص، وقسم عام.

فالقسم الخاص هو الذي يعنيه القائلون بوجوبهما وجوباً عينياً، وبيان ذلك أن كل إنسان راع في رعيته ومسؤول عنها مثل الرجل في بيته مع أولاده، وزوجاته، وجيرانه، وزملائه في العمل والتعليم والسفر، فيجب على كل مكلف أن يأمر أهله وجيرته وزملاءه بالخير وينهاهم عن الشر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد.. ﴾(١) وتطبيقاً للأحاديث الكثيرة التي ورد فيها التوكيد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ كل فرد لم يتصف بهاتين الصفتين لم توجد فيه صفة الإيمان التي وصف الله المؤمنين بها في قوله تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. ﴾(٢) ودخل في حظيرة الذم الذي ذم الله به بني إسرائيل في قوله: ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾(٣) ، ولا شك أن الغالب من المسلمين اليوم لا يجهلون الصلاة ولا الصيام ولا معنى الإسلام جملة، وذلك كاف في القيام بالدعوة على هذا النحو وهو يشمل العالم والمثقف والعامل والصانع والموظف ومن دونهم ثقافة وعلماً وعلى هذا فتكون الدعوة إلى الله فرض عين، فإذا حملنا هذه الأحاديث والآيات على خصوص أفراد

---

(١) جزء من الأية ٦ من سورة التحريم.

(٢) جزء من الآية ٧١ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٧٩ من سورة المائدة.

وجماعات وأوقات وأماكن كما ذكرنا وأوجبنا عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إيجاباً عينياً، في هذه الأوقات وهذه الأماكن، وهذه المجتمعات الخاصة بكل فرد مما ذكر، ثم جعلنا (من) في الآية معناها التبعيض وأن المعنى أنه لا بد لمن يلي أمر المسلمين أن يخصص جماعة من علماء الأمة يعرفون ما يأمرون به ويأتونه ويعرفون ما ينكرونه ولا يأتونه، وأن يجعل في كل قطر من الأقطار جماعة بهذا الشكل يدعون إلى دين الله وتوحيده وعبادته يعرفون الحلال والحرام متخصصين في رسم السبل التي تعيد للأمة قوتها ومجدها وللإسلام مكانته في قيادة الناس إلى الخير، فإذا قامت هذه الطائفة بهذه المهمة كان من سواهم من الأمة غير آثم بتركه القيام بها لأنها قام بها من هو أهل لها، وأن كان ذلك الغير مطالبا بالدعوة في حق أهله وجيرانه، كما تقدم، وإن لم يفعل ذلك من يقوم بأمر المسلمين أثم وأثمت الأمة بسكوتهم عنه، فإذا حملنا النصوص على ما ذكر فنكون قد جمعنا بين القولين، والجمع واجب إذا أمكن؛ لأن إعمال دليلين أوْلى من إعمال أحدهما، وإلغاء الآخر(١).

قال في مراقي السعود:

والجمع واجب متى ما أمكنا * إلا فللأخير نسخ بينا

ولما ذكرنا نبذة عن أهمية الدعوة إلى الله تعالى وعن حكمها وهل هي فرض عين أو فرض كفاية؟ وذكرنا مذهب الجمهور في ذلك وبينا أن نصوص الوحي تدل على فرضيتها عيناً، وأن الجمهور على خلاف ذلك وذكرنا ما فتح الله علينا به من إمكان الجمع بين القولين، آن الأوان للدخول في الكلام على الفصل الأول من هذه

---

(١) ملخصاً من كلام طويل كتبته في رسالتي (الماجستير) في الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل ص ٣٠ فما بعدها.

الرسالة... فأقول:

إن نبي الله صلوات الله عليه وسلامه أرسله الله رحمة للعباد كافة لإنقاذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن درك الشقاء والخذلان إلى السعادة في الدارين، ومن الخلود في الجحيم إلى الخلود في النعيم الأبدي فقد أخبر الله تبارك وتعالى أنه أرسله رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(١) وأخبر أنه أرسله نذيراً للعالمين وذلك في قوله تعالى ﴿تبرك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾(٢) كما أخبر جل وعلا أنه أرسل محمدا ﷺ للناس جميعاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾(٣)والآيات في هذا كثيرة جدا، كما أخبر أنه أرسله الله إلى الخلق كافة، وأخبر أنه أرسل إلى كل أحمر وأسود، وأخبر عليه الصلاة والتسليم أن ربه يدعوه ويسأله هل بلغ عباده رسالة ربه، وأنه يقول له: رب قد بلغتهم، كما أشهد ربَّه على تبليغه لهم حيث قال يوم عرفة في حجة الوداع: ألا هل بلغت؟ وقال: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وقد أنذر ﷺ جميع الخلق، وخوف من ادعى مع الله إلهاً آخر، وأخبر ﷺ الخلق أن الله جل وعلا يجمعهم أولهم وآخرهم في صعيد واحد حتى يبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ويلجؤونَ في ذلك الوقت إليه فيكون سبباً لإنقاذهم من ذلك الهول العظيم بشفاعته لهم عند ربه فيقول له يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه، وقد أخبر ﷺ العباد أن سيده أي ربه بنى دار فصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة،

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ١ من سورة الفرقان.

(٣) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

وسخط عليه السيد، وأخبر أن السيد هو اللّه، ومحمد هو الداعي والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، هكذا كان ﷺ يدعو العباد: يحذرهم ويرغبهم، ويخوفهم وينذرهم، ولقد كان اليهود والنصارى داخلين دخولاً أوَّليًا في مدلولات هذه الألفاظ الواردة في الوحي من كتاب وسنة، والتي تدعو إلى اتباع نبي الله محمد ﷺ والاهتداء بهديه ذلك لأن اليهود والنصارى لا يخرجون عن كونهم خلقا، وهو ﷺ أخبر أنه أُرسل إلى الخلق كافة(١)، كذلك لا يخرجون عن كونهم من العالم والله جل وعلا يقول في محكم كتابه إنه أرسل محمدا ﷺ رحمة للعالمين، وكذلك لا يخرجون عن كونهم من الأولين أو الآخرين، وهو ﷺ سوف يكون رحمة للأولين والآخرين حيث يشفع لهم في الموقف كما تقدم، كما أنهم لا يخرجون من مدلول لفظ (الناس) والله جل وعلا أخبر أنه أرسل نبينا محمد ﷺ للناس جميعاً، ولقد كان منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب أنه لما دعاهم في جملة الناس وبلغهم الدعوة العامة دعاهم كذلك دعوة خاصة كما سيأتي إن شاء الله موضحاً، وإليك الأحاديث التي دلت على دخول أهل الكتاب في عموم دعوته ﷺ العباد:

١ - روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(٢).

٢ - وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أيضاً قال: قال رسول الله

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء اللّه.

(٢) رواه البخاري في كتاب التيمم.

ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة»(١).

٣ - وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»(٢).

٤ - وفي مسند الإمام أحمد بسنده إلى محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الجليس أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس إبن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال: هل لكم إلى خير مما جئتم له، قالوا: وما ذاك، قال: «أنا رسول الله **بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً**»(٣).

٥ - وروى الدارمي في سننه بسنده عن ربيعة الجرشي قال: «أتى النبي ﷺ فقيل له: لتنم عينك، ولتسمع أذنك، وليعقل قلبك، قال: فنامت عيناي، وسمعت أذناي وعقل قلبي، قال: فقيل لي: سيدٌ بني داراً، فصنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم

---

(١) صحيح مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٣٧١/١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الفكر بيروت.

(٢) صحيح مسلم المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر المسند للإمام أحمد ٤٢٧/٥ ط ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت، والترمذي ٥٦/٣ ط ـ السلفية.

يجب الداعي ولم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة سخط عليه السيد، قال: فالله السيد، ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة»(١).

٦ - وفي صحيح البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: «جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا قال: فاضربوا له مثلا فقال بعضهم أنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ولم لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: الدار الجنة، والداعي محمد ﷺ **فمن أطاع محمداً** ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرق(٢) بين الناس»(٣).

٧ - وروى الترمذي في سننه عن جابر بن عبد الله قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: أني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من **أجابك دخل الإسلام**، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما

---

(١) أخرجه الدارمي في مقدمة سننه ١/٧ دار إحياء السنة النبوية.

(٢) قوله: فرق: أي فارق بين العاصي والمطيع. انظر الكرماني: شرح صحيح البخاري ٣٤/٢٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاعتصام في باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

فيها »، قال الترمذي هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله، وفي الباب عن ابن مسعود، وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من غير هذا الوجه بإسناد أصح من هذا(١).

٨ - ثم روى الترمذي بسنده عن محمد بن بشار إلى عبد الله بن مسعود، قال: صلى رسول الله ﷺ العشاء، فأخذ بيد عبد الله بن مسعود حتى خرج به إلى بطحاء مكة فأجلسه، ثم خط عليه خطاً ثم قال: لا تبرحن خطك فإنه ينتهي إليك رجال فلا تكلمهم فإنهم لن يكلموك، ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد فبينما أنا جالس في خطي إذا أتاني رجال كأنهم الزط(٢)، أشعارهم وأجسامهم لا أرى عورة ولا أرى قشراً، وينتهون إلي ولا يجاوزون الخط، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل لكن رسول الله ﷺ قد جاءني وأنا جالس فقال: لقد أراني منذ الليلة ثم دخل علي في خطي فتوسد فخذي ورقد وكان رسول الله ﷺ إذا رقع نفخ، فبينما أنا قاعد ورسول الله ﷺ متوسد فخذي إذ أنا برجال عليهم ثياب بيض الله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهوا إلي فجلس طائفة منهم عند رأس رسول رسول الله ﷺ، وطائفة منهم عند رجليه، ثم قالوا بينهم ما رأينا عبداً قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي ﷺ، أن عينيه تنامان وقلبه يقظان، اضربوا له مثلاً، مثل سيد بنى قصراً ثم جعل مائدة فدعا الناس إلى طعامه وشرابه فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه، أو قال عذب، ثم ارتفعوا واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك فقال: « سمعت ما قال هؤلاء وهل تدري من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: هم الملائكة، فتدري ما المثل الذي ضربوه، قلت: الله ورسوله

---

(١) السنن للترمذي ٢٢٣/٤ ط محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٢) الزّط جيل من الهند، الواحد زطي: القاموس ٣٧٥/٢، ط دار التعاون للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكة المكرمة.

أعلم، قال: المثل الذي ضربوه؟ الرحمن بنى الجنة، ودعا إليها عباده فمن أجاب دخل الجنة، ومن لم يجبه عاقبه أو عذبه».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، وأبو تميمة اسمه طريف بن مجالد، وأبو عثمان النهدي اسم عبد الرحمن بن مل، وسليمان التميمي هو ابن طرخان، وإنما كان ينزل بني تميم فنسب إليهم قال علي: قال يحيى ابن سعيد، ما رأيت أخوف لله من سليمان التميمي(١).

٩ - وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: فضلت بأربع: جعلت الأرض لأمتي مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الناس زار كافة، ونصرت بالرعب من مسيرة شهر يسير بين يدي، وأحلت لي الغنائم(٢).

١٠ - أخرج البخاري في تاريخه، والبزار، والبيهقي(٣)، وأبو نعيم(٤) عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي من الأنبياء، جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يكون بين يدي إلى المشركين، فيقذف الله الرعب في قلوبهم، وكان النبي يبعث إلى خاصة قومه، وبعثت أنا إلى الإنس والجن، وكانت الأنبياء يعزلون الخُمسَ فتجيء النار فتأكله، وأمرت أنا أن أقسمه بين فقراء أمتي، لم يبق نبي إلا أُعطى سؤاله، وأخرت دعوتي شفاعة لأمتي»(٥).

---

(١) سنن الترمذي ٤/٢٢٣ - المصدر السابق.

(٢) المسند للإمام أحمد ٥/٢٥٦ - ط المكتبة الإسلامية.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي عن جابر ١/٢١٢ كتاب الطهارة، ج ٦ ص ٢٩١.

(٤) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس ص ١٣.

(٥) بواسطة نقل السيوطي من كتابه الخصائص الكبرى ٣/١٣٤ ط دار الكتب الحديثةن تحقيق الدكتور محمد هراس.

١١ – وقال السيوطي أيضاً في الخصائص: وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا رسول من أدركت حياً ومن سيولد بعدي»(١).

١٢ – وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة.. قال أبو ذر: «يا نبي الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فبعثك الله رحمة للعالمين»(٢).

١٣ – وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمد رسول اللّه، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على اللّه»(٣).

وفيه أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه ويؤمنوا بما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه»(٤).

وفيه من حديث عبادة بن الصامت: قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق، وأن النار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»(٥).

١٤ – وفي مسند الإمام أحمد من حديث سمرة بن جندب: « .. أيها الناس

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٩١/١.
(٢) انظر المسند ٢٦٥/٥ المصدر السابق.
(٣) صحيح مسلم ٥٣/١ ـ المصدر السابق.
(٤) صحيح مسلم المصدر نفسه.
(٥) صحيح مسلم المصدر السابق.

أنشدكم بالله إن كنتم تعلمون أني قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي عز وجل لما أخبرتموني ذاك فبلغت رسالات ربي كما ينبغي لها أن تبلغ، وإن كنتم تعلمون أني بلغت رسالات ربي لما أخبرتموني ذاك، فقام رجال فقالوا: نشهد أنك بلغت رسالات ربك ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك ثم سكتوا... »(١).

١٥ - وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(٢).

١٦ - وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فيجعل الرجل يَزِعُهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها(٣).

١٧ - وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث أبي موسى: قال ﷺ: « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان(٤)، فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم

---

(١) المسند ٥/١٦ المصدر السابق. (٢) صحيح مسلم ١/١٣٤ المصدر السابق.

(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم في كتاب الفضائل.

(٤) هذا مثل ضربه النبي ﷺ لنفسه لما جاء به من المعجزات وخوارق العادات الدالة على القطع بصدقةً تقريبا لإفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه، وقد اختلف في تفسير هذا المثل: فقيل: أن سببه رجل من خثعم حمل عليه رجل فقطع يده ويد امرأته، فأتى قومه يحذرهم فضرب به المثل في تحقيق الخبر، واستبُعد تنزيلُ هذه القصة على لفظ الحديث لأنه ليس فيها أن الرجل كان عرياناً، وقيل النذير العريان امرأة من بني عامر بن كعبَ لما قتل المنذر بن ماء =

فنجوا، وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق »(١).

١٨ - وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ فقال: « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار »(٢).

١٩ - وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي الدرداء في القصة التي وقعت بين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما... قال ﷺ: « هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي، إني قلت **يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت... »(٣).

= السماء أولاد أبي داود وكان جار المنذر خشيت على قومها فركبت ولحقت بهم وقالت: أنا المنذر العريان، وقيل أول من قال هذا المثل أبرهة الحبشي لما رجع إلى اليمن حين فشل في محاولته دخول مكة وأصابته الرمية، وقيل إن رجلاً من خثعم كان متزوجاً في آل زبيد فأرادوا أن يغزوا قومه وخشوا أن ينذر بهم فحرسه أربعة نفر منهم فصادف منهم غرة فقذف ثيابه وعَدَا، وكان من أشد الناس عدواً فأنذر قومه، وقيل إن رجلاً لقى جيشاً فسلبوه وأسروه فانفلت منهم ولحق بقومه وكانوا لا يتهمونه بالكذب فأنذرهم الجيش ولم تجر العادة بتعريه، فضرب به المثل للأمر المحقق، وأيد ابن حجر في الفتح هذا القول الأخير، فانظره ١١/٣١٦ - ٣١٧، وانظر الكرماني ٢٣/٨ - ٩.

(١) انظر صحيح البخاري: كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾.

(٢) صحيح مسلم ١/٩٤ ـ المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في سورة الأعراف: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

٢٠ - وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي: **أما أنا فأرسلت إلي الناس كلهم عامة** وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها...»(١).

* * *

(١) المسند ٢/٢٢٢ ـ المصدر السابق.

الكلام على الأحاديث وبيان الشاهد منها

قد ذكرنا من الأحاديث الدالة على عموم دعوته ﷺ لجميع الخلق بما في ذلك اليهود والنصارى، وذكرنا من ذلك ما فيه كفاية للمنصف حيث أننا ذكرنا من الأحاديث ما هو مخرج في الصحيحين، والسنن المسانيد، وإليك نبذة موجزة عن مواضع الإستشهاد من هذه الأحاديث التي ذكرت:

أولا: حديث جابر بن عبد الله عند البخاري والذي سقناه بكامله، فموضع الاستشهاد منه قوله ﷺ: « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة **وبعثت إلى الناس عامة**» فهذه اللفظة (الناس) تدل على العموم لأن الناس اسم جمع أدخلت عليه أل إذ أصله أناس جمع أنس، أدخلت عليه (أل)[١] واسم الجمع إذا دخلت عليه أل صار من صيغ العموم كما هو معلوم، فكلمة الناس إذاً تشمل أهل الكتاب وغيرهم، وعليه فيكونون داخلين في عموم رسالته التي صرح بها في هذا الحديث مدعوين في جملة الناس، لأنه ﷺ قال: « وبعثت إلى الناس، ثانياً: كلمة الناس أكدت بقوله: عامة وذلك لأن لفظة (عامة) تستعمل في الدلالة على الشمول كما تستعمل كلمة (كل)، قال ابن مالك في ألفيته:

وكلا اذكر في الشمول وكلا * كلتا جيمعاً بالضمير موصلا

واستعملوا أيضاً ككل فاعله * من عمَّ في التوكيد مثل النافله[٢] .

فكلمة (عامة) اسم فاعل من عم الشيء إذا شمل[٣] جيء بها لتوكيد لفظة

---

(١) انظر القاموس المحيط ٢/٢٢٦ مادة نوس.

(٢) انظر ألفية ابن مالك في باب التوكيد.

(٣) ولا يضر خلاف المبرر في عامة حيث قال: أنها تستعمل بمعنى أكثرهم لأن الجمهور على خلاف ما رأه. انظر الأشموني هنا.

الناس التي هي متعلق قوله: بعثت.

قال الكرماني قوله: عامة: أن لقومه وغيرهم من العرب والعجم والأسود والأحمر قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس....﴾(١).

قال ابن بطال: فيه دليل على أن الحجة تلزم بالخبر كما تلزم بالمشاهدة وذلك أن المعجزة باقية مساعدة للخبر مبينة له رافعة لما يخشى من آفات الأخبار وهي القرآن الباقي، وخص الله تعالى نبيه ببقاء معجزته لبقاء دعوته ووجوب قبولها علي من بلغته إلى آخر الزمان(٢)، قلت: في هذا الحديث المروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ رد على النحاة حيث اشترطوا في استعمال عامة وأخواتها الاتصال بضمير المذكور قبلها سواء أكان مذكراً أم مؤنثاً أم مجموعاً أم مثنى أم مفردا؟ والعلم عند الله.

أما الحديث الثاني: فهو حديث جابر أيضاً عند مسلم، وتقدم ، ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود..» قيل المراد بالأحمر العجم، وبالأسود العرب وقيل الأحمر الإنس، والأسود الجن، والكل صحيح لأنه مرسل إلى الجميع(٣).

وقال النووي قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل المراد بالأسود السودان وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل الأحمر الإنس، والأسود الجن، والجميع صحيح فقد بعث

---

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(٢) طالع شرح الكرماني لصحيح البخاري ٣/٢١٣ ـ ط مؤسسة المطبوعات الإسلامية مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية ـ القاهرة.

(٣) انظر فتح الباري ١/٤٣٩ ط المكتبة السلفية.

إلى جميعهم[١].

فدل هذا الحديث عن أن أهل الكتاب داخلون في دعوته ﷺ مع جميع الخلق إذ لا يخرجون عن كونهم خلقاً، وكونهم من الأحمر أو الأسود على ما مر شرحه، أو من الإنس أو الجن كما رأيت في شرح ألفاظ الحديث.

أما الحديث الثالث: فهو حديث أبي هريرة عند مسلم وتقدم بسياقه ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: « ... وبعثت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون »، فمعنى قوله ﷺ وبعثت إلى الخلق كافة أي أرسلت إلى جميع الخلق ارسالة عامة تمنعهم من الخروج عن الانقياد إليها، أو المعنى:

أرسلت حال كوني كافة تكف الخلق من الكفر، والتاء على هذا للمبالغة، وقوله ﷺ: « وختم بي النبيون » فيه إشارة أيضا إلى عموم رسالته وإلزامها لأهل الكتاب، وذلك أن النبيين ختموا به ﷺ، وكملت بشريعته الشرائع، وتكفل الله بحفظ أصل هذه الشريعة الذي هو كتاب الله جل وعلا بعد أن نسخت شريعته جميع الشرائع فلم يبق لأهل الكتاب بد عن اتباع هذه الشريعة المطهرة الباقية الآمنة من النسخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد فسر العلماء قوله ﷺ: وأرسلت إلى الخلق كافة » بالإنس والجن[٢].

والظاهر أن قوله: « كافة » حال من الخلق أي بعثت إلى الخلق جميعاً، كما تقول جاء القوم جميعا قال تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً... ﴾[٣].

---

(١) انظر شرح النووي لمسلم ٥/٥ ط ٣ دار الفكر بيروت لبنان.

(٢) انظر شرح المحلى لجمع الجوامع ٢/٤١٥.

(٣) جزء من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

والحديث الرابع: حديث محمود بن لبيد عند الإمام أحمد، ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: « ... أنا رسول الله بعثني إلى **العباد** أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً . . » فكلمة « العباد » المتعلقة ببعثني جمع معرف (بأل) والجمع المعرف من صيغ العموم كما هو مقرر عند علماء الأصول، قال صاحب مراقي السعود معدد صيغ العموم:

متى وقيل لا وبعض قيل * وما معرفا بأل قد وجدا

وقال ابن السبكي في جمع الجوامع في مبحث العام: (والجمع المعرف بلام أو بالإضافة للعموم ما لم يتحقق عهد)(١)، وسواء في ذلك جمع التكسير أو جمع السلامة نحو المساجد والمشركين وما أشبه ذلك، فقوله ﷺ بعثني إلى **العباد** يستغرق جميع عباد الله الموجودين في ذلك الزمن سواء أكانوا مكلفين في ذلك الوقت أم موجودين غير مخاطبين، ثم خوطبوا بعد ذلك، أو كانوا معدومين ثم وجدوا بعد ذلك، وكل ذلك يشمل أهل الكتاب كما يشمل غيرهم فهم في ذلك مع جميع الخلق سواء لا فرق بينهم إذ لا مخصص لهذا العموم يخرج أهل الكتاب منه، فقامت عليهم الحجة، ولزمهم اتباع ما جاء به محمد ﷺ لا فرق في ذلك بين الموجود الآن منهم وبين أسلافهم الماضين الذين عاصروا بعثته ﷺ منذ بعث إلى الآن.

أما الحديث الخامس: فهو ما رواه الدارمي وتقدم بألفاظه ومحل الشاهد منه قوله: ...« سيد بني داراً وصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدارا وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي ولم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة سخط عليه السيد، فالله هو السيد، ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة ». فتصريحه ﷺ في هذا الحديث بأنه هو الداعي، وأن من لم يجبه دخل النار،

---

(١) انظر جمع الجوامع لابن السبكي في مبحث العام.

وأن من أجابه دخل الجنة يتضمن الدعوة لأهل الكتاب، وذلك أن قوله « من » يفيد العموم سواء أكانت موصولة أم استفهامية، أم شرطية، وأغلب استعمالها في العقلاء، فأهل الكتاب يدخلون بلا شك في هذا العموم لأن من لم يجب رسول الله ﷺ منهم لما يدعو إليه من الحق دخل النار بلا شك، ومن أجابه وأطاعه وآمن برسالته دخل الجنة بلا شك، وأوتي أجره مرتين إذا كان مؤمناً بما جاءه به رسوله الذي أرسل إليه من رسل بني إسرائيل كما قال جل وعلا في محكم كتابه ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليه قالوا آمنا به، انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا..﴾[1] وكما يأتي في شأن الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين إن شاء اللّه.

أما الحديث السادس: فهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله وهو في المعنى قريب من حديث الدارمي الذي قبله، ولكنه يختلف عنه في السياق وأكثر منه صراحة حيث أن في حديث البخاري أن الملائكة لما ضربت المثل للرسول ﷺ قالت: أولوها له يفقهها... فقالوا: الدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى اللّه، ففي حديث البخاري هذا التصريح بأن من عصى محمدا ﷺ فقد عصى اللّه، ومن أطاعه فقد أطاع الله جل وعلا، وما ذاك إلا لأنه تعالى ألزم جميع العباد بطاعته ﷺ فلو لم يكونوا ملزمين بطاعته ﷺ، لما كان في تركهم طاعته عصيان لله تعالى: فيلزم من هذا أن أهل الكتاب تلزمهم طاعة محمد ﷺ من كان منهم موجودا في زمنه، ومن وجد بعد ذلك إلى أن تقوم الساعة، وإلا حقت عليهم كلمة العذاب.

وقد روى الترمذي في هذا الحديث عن جابر، وعن عبد الله بن مسعود بالمعنى الذي رواه به الدارمي والبخاري، وفيه التصريح بأن من استجاب لدعوة النبي ﷺ

---

(١) الآيتين ٥٢ - ٥٣ وجزء من الآية ٥٤ من سورة القصص.

دخل الجنة، ومن لم يستجب لها دخل النار فإن النبي ﷺ ضرب للإسلام مثلاً بالدار المذكورة في الحديث فمن دخلها أكل من المأدبة التي هي الجنة التي وقعت الدعوة من أجلها، ومن لم يدخل الدار حرم من تلك المأدبة التي هي الجنة.

الحديث السابع: حديث الإمام أحمد عند أبي أمامة وتقدم بلفظه ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «... **وأرسلت إلى الناس كافة**» فقوله ﷺ في هذا الحديث: «**وأرسلت إلى الناس كافة**» فيه دليل على دعوته لأهل الكتاب وشمولها لهم وأنه ﷺ بلغهم تلك الدعوة، لأن كلمة «الناس» تدل على العموم كما تقدم، وكذلك «كافة» تقدم الكلام عليها أيضاً فلا داعي لإعادته.

وأما الحديث الثامن: فهو ما أخرجه البخاري في تاريخه والبزار والبيهقي وأبو نعيم عن ابن عباس، وقد تقدم بلفظه، ومحل الشاهد منه قوله: «**وكان النبي يبعث إلى خاصة قومه وبعثت أنا إلى الأنس والجن..**» لأن أهل الكتاب داخلون في الإنس والجن لا يخرجون بحال من مدلول هذا اللفظ، فهم داخلون في عموم الدعوة حيث أنهم من الإنس، وجميع الإنس أرسل إليهم محمد، وبلغ الرسالة بنفسه وبعث رسله وكتب كتبه إلى البلاد النائية وقال:

«... ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه..»(١).

وقال تعالي: ﴿وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...﴾(٢).

والحديث التاسع: هو ما ذكره السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى قال: وأخرج ابن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا رسول من أدركت حيا ومن سيولد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأضاحي في باب: من قال الأضحى يوم النحر.

(٢) جزء من الآية ١٩ من سورة الأنعام.

بعدي »(١)، فهذا اللفظ يدخل فيه كل كتابيٍّ عاصر البعثة أو تأخر عنها إلى يومنا هذا.

أما الحديث العاشر: فهو ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وقد تقدم لفظه، ومحل الشاهد منه إقسامه بأنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة سواء أكان من اليهود أم من النصارى ولم يؤمن به إلا دخل النار، فقوله ﷺ في الحديث لا يسمع بي أحد نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم عند الأصوليين، وعليه فكل من سمع به فإن مطالب بالإيمان به وتصديق ما أخبر به عن ربه عز وجل وهذا يشمل الأولين من هذه الأمة والآخرين.

أما الحديث الحادي عشر: فهو ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما كما قدمنا، ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: « **أمرت** أن أقاتل **الناس** حتى يقولوا لا إله إلا اللّه **فمن** قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على اللّه... ».

فقوله ﷺ في هذا الحديث: « أمرت » فيه التصريح بأن ربه أمره أن يقاتل الناس الذين من جملتهم أهل الكتاب ـ وقد تقدم ـ أن الناس من صيغ العموم ـ حتى يقولوا لا إله إلا اللّه، ولفظه (من) أيضا من صيغ العموم فهي تشمل الكتابي وغيره، وعليه فأهل الكتاب دعاهم رسول الله ﷺ إلى كلمة التوحيد مع جميع الناس لأنهم من جملة من أمر الله نبيه أن يدعوهم للدخول في دين الإسلام، وليس معنى هذا الحديث أنه ﷺ أمر بقتال الناس بالسيف قبل أن يدعوهم إلى الإسلام، ليس الأمر كذلك، بل إن السيف واحد من خصال ثلاث وهو آخرها، فقد كان ﷺ يوصي

---

(١) لا شك في أن هذا لا يثبت به الحديث لأنه مرسل عن تابعي والسيوطي لم يذكر سند ابن سعد، وإنما ذكرناه للفائدة وليكون ذكره داعياً إلى البحث عنه لعلنا نجده موصولاً، وقد وصله ابن سعد كما أثبتناه من قبل.

أصحابه إذا خرجوا لغزو بها كما سيأتي ذلك موضحاً إن شاء الله تعالى.

فالنبي ﷺ وأصحابه ما كانوا يقاتلون قوماً حتى يدعوهم إلى الاسلام أولاً لأن ذلك هو الأساس الحقيقي من بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لأن الله جل وعلا إنما بعثهم بتوحيده، وانقاذ عباده من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

الحديث الثاني عشر والثالث عشر: رواهما مسلم في صحيحه وقد تقدما بألفاظهما وهما قريبان في المعنى واللفظ من حديث الصحيحين السابق، إلا أن في بعض روايات هذا الحديث زيادة صريحة فهي محل الشاهد منه، وهي قوله ﷺ بعد أن قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه» قال في هذا الحديث « ويؤمنوا بما جئت به »، ففيه التصريح بأنه عليه الصلاة والتسليم أمر بقتال الناس إلى غاية هي الإيمان بما جاء به من الله جل وعلا من الرسالة والوحي، وأهل الكتاب، كما لا يخفى، داخلون في جملة الناس كما تقدم ذلك مراراً.

أما الحديث الرابع عشر: فهو ما رواه مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل».

وبيان الشاهد من هذا الحديث أن الدعوة انذار وتبشير، ووعد، ووعيد كما قال الله تعالى: ﴿أنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾(١).

وفي هذا الحديث يعد ﷺ كل من شهد هذه الشهادة من البشر كائناً من كان

(١) جزء من الآية ١٩ من سورة البقرة.

كما تدل لذلك لفظة (من) بدخول الجنة، ففيه وعد حسن لمن شهد هذه الشهادة، وبشارة عظمى، وهذان النوعان من أقوى الأسس التي تقوم عليها الدعوة إلى الله تعالى كما أن مفهوم الحديث يدل على أن من لم يشهد بهذه الشهادة لن يدخله الله الجنة فيكون الحديث تضمن وعيداً شديداً أيضاً لمن لم يشهد بهذه الشهادة، ووظيفة الرسل في دعوتهم من أعظمها الإنذار والتبشير، كما قال تعالى: ﴿ .. رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾(١).

أما الحديث الخامس عشر: فهو ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي الدرداء في شأن الخصومة التي وقعت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأغضب أبو بكر عمر فذهب عمر إلى النبي ﷺ، وذهب أبو بكر في أثره يستسمحه.. فقال ﷺ: « هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت... ».

فمحل الشاهد من الحديث قوله ﷺ: « .. إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً... » فقد صرح صلوات الله وسلامه عليه بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً عربيهم وعجميهم، لا تختص رسالته بأحد دون أحد ولا بنوع من الناس دون آخر ولا بجيل دون آخر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.. ﴾(٢).

أما الحديث السادس عشر: فهو ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: « .. لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل

---

(١) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

(٢) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

إلى قومه... » وتقدم الحديث بكامله، ففي هذا الحديث الشريف ثلاثة ألفاظ من ألفاظ العموم تقتضي دخول أهل الكتاب في جملة من بعث إليهم رسول الله ﷺ، والألفاظ هي (الناس) (كلهم)، (عامة) وقد تقدم الكلام على لفظة الناس ولفظة عامة، أما كل فإنها من صيغ العموم أيضا كما هو مقرر في محله من كتب أصول الفقه. قال في مراقي السعود:

صيغة كل أو الجميع... فالمراد بقوله صيغه يعني العموم، مع أنها كلمة يؤتى بها للتوكيد المعنوي فهي كلمة ترفع ما يتوهم من عدم إرادة الشمول، فقولك مثلاً جاء القوم كلهم هذا اللفظ يرفع ما يتوهمه السامع من أن المراد بالقوم بعضهم أو جلهم فكلمة (كلهم) رفعت ذلك التوهم وأثبتت شمول اللفظ للقوم المذكورين، والحكم عليهم بالمجيء، فهي يؤكد بها اللفظ الدال على أفراد متعددة يصح وقوع بعضها موقعه[1]، فتوكيده ﷺ لفظ الناس بكلهم فيه تنبيه ظاهر على شمول رسالته ﷺ لجميع الناس لا يخرج من ذلك أي أحد، وكذلك لفظ (عامة) من ألفاظ التوكيد، فهو ﷺ الذي أعطى جوامع الكلم لم يكتف بلفظ الناس وأنه أرسل إليهم مع علمه أن الناس لفظها يشمل أهل الكتاب وغيرهم، فزاد على ذلك توكيد الكلام بما يرفع عدم ارادة الشمول، ثم أكده ثانياً بلفظة عامة، والعرب تستعمل هذه اللفظة مثل استعمال كل، والذي يظهر لي أنه ﷺ ما أتى بهذه الألفاظ الثلاثة متوالية إلا لتبيين حقيقة من تشملهم رسالته ﷺ، وأنها لا يخرج عنها أحد من البشر لأنه أفصح العرب بلا شك، وكلامه ينزه عن الحشو والتكرار دون فائدة.

هذا واني تركت الكلام على بعض الأحاديث التي ذكرتها أولاً لأن بعضها يتكرر مع البعض في المعنى فيكفي تنبيهنا ببعضها على باقيها، وعليه فإني أكون قد

---

(١) انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨ باب التوكيد.

بينت من خلال ذكرى لهذه الأحاديث من ألفاظها ومدلولاتها أول منهج نهجه ﷺ في دعوته أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام وتوحيد الله جل وعلا والخروج من ظلمة الجهل، والكفر ، والضلال إلى نور الإيمان بالله وذلك أن هذه الأحاديث التي ذكرت، والتي لم تكن محصورة فيما ذكرت بل بقي الكثير من الأحاديث مثلها ولكن في الذي ذكرته كفاية، فقد صرح فيها ﷺ بأنه أرسله الله للجن والإنس وإلى الأحمر والأسود، وإلى الناس كلهم عامتهم، وإلى الخلق كافة، فهذه الألفاظ التي تدور حولها هذه الأحاديث لا تختص بأحد من الناس دون أحد ، وإنما هي عامة في جميع البشر، فكأنه صلوات الله وسلامه عليه إنما أخذ هذا المنهج أولاً لدعوته ليبلغ جميع الناس من العرب واليهود والنصارى والفرس وغيرهم أنه مرسل إليهم فإذا آمنوا به وصدقوا بما جاء به حصل المقصود من الرسالة، وهو إنقاذ البشرية من حضيض الكفر إلى الإسلام ومن العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق وعبادته وحده، ومن عبادة ما لا ينفع ولا يضر إلى عبادة من بيده الضر والنفع، وإن لم يحصل المقصود بما ذكر كما وقع فإنه ﷺ غير منهجه من دعوة عامة إلي دعوة خاصة، فقد جمع بطون قريش لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (١)، ودعاهم إلى الله عز وجل ينادي بأسمائهم: يا فلان ابن فلان لا أغني عنك من الله شيئاً، يقول ذلك لأعمامه وعماته، وبنته فاطمة رضي الله عنها.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ولما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

قال: فإني نـذير لكم بين يدي عـذاب شديد فقال أبو لهـب تبا لك سائر الـيوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب»[1].

وأخرج من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـام رسول الله ﷺ حين أنزل الله «وأنذر عشيرتك الأقربين» قال يا معشر قريش أو كلمة نحوها: اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بـني عبد مناف لا أغني عـنكم من الله شيئاً يـا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمـة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مـالي لا أغنى عنك من الله شيئاً»[2].

قلت: إن هذه النذارة الخاصة لا تـنافي النذارة العامة حيث أنهـا جزء منها، فالله جل وعلا أمـره بإنذار عشيرتـه الأقربين، وأمره بإنذار غـيرهم أيضا كـما قال تعـالى: ﴿لتـنذر أم الـقرى ومـن حولـها...﴾[3] وقـال تعـالى: ﴿وأوحـي إلي هـذا القـرآن لأنذركم به ومن بلغ..﴾[4] وقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم..﴾[5] إلى غير ذلـك من الآيات فهو ﷺ دعا الـناس دعوة عامة شامـلة ودعا قومـه دعوة خـاصة لأن الله تـعالـى أمره بـذلك في قـوله تـعالـى: ﴿وأنذر عـشيـرتك الأقربين﴾[6] وذلك لا يتـعارض مع عموم الـدعوة البتة، ولا يـدعو للنـفرة منها فـلما تمادى على الكـفر أهل مكة توجه إلى قـبائل العرب في مواسم الحـج والأسواق العامة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في آخر سورة الشعراء باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

(٢) أخرجه البـخاري في المصدر نفسه، وفي تفسير سـورة تبت أيضا، ورواه التـرمذي عن أبي هريرة وعائـشة في أبواب التفـسير ١٩/٥ - ٢٠٢ - ط السلفـية وأخرجه مسلـم في كتاب الإيمان ١٩٢/١ - ١٩٣ المصدر السابق.

(٣) جزء من الآية ٧ من سورة الشورى.

(٤) جزء من الآية ١٩ من سورة الأنعام.

(٥) جزء من الآية ٥١ من سورة الأنعام.

(٦) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

يدعوهـم، ثم بعد ذلـك توجه إلى سـائر الناس يدعـوهم فدعا الـيهود والنـصارى إلى الدخول في الإسلام فـكتب إليهم الكتب وأرسـل إليهم الرسل كما سيـأتي مفصلاً إن شاء اللّه، وكـتب وأرسل إلى الـفرس فهو ﷺ له فـي دعوته منـهج عام ومنـهج خاص وكلاهما في غاية الروعة والحكمة عليه صلاة الله وتسليمه.

فلـهذا كان منـهجه في الـدعوة أنه أولاً يـخبر النـاس بعموم رسـالته، وأنه مـرسل للخلق كافة لا يـخرج من ذلك يهودي ولا نصراني ولا عربي، ولا فارسـي لينطبع في أذهان الناس أنه مرسـل إليهم جميعاً، وتعي ذلك آذانهـم، ثم بعد ذلك إذا أراد دعوة قوم بأعـيانهم لم يـكونوا مفاجئين بشأن الدعوة لأنـهم عرفوها كـسائر الناس وعـلموا أنهم من جملة من أرسل إليه هذا الرسول الكـريم فلم يبق بعد ذلك إلا الانقياد للحق والاستجابة له، أو الإعراض عنه وتركه والعلم عند الله تعالى. اهـ.

* * *

الفصل الثاني

«دعوته لأهل الكتاب دعوة خاصة»

إن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه لما دعا الناس عموما وبلغهم رسالة ربه شرع بعد ذلك يدعو أصناف الخلق صنفاً صنفاً، ونحن الآن بصدد بيان منهجه في دعوة أهل الكتاب، والمراد بأهل الكتاب كما قدمنا في التعريف: اليهود والنصارى، فاليهود والنصارى تشملهم كلمة أهل الكتاب؛ لأنهم أهل كتب سماوية منزلة من الله عز وجل، وهي التوراة والإنجيل، وقد كان ﷺ تارة يدعو أهل الكتاب بوجه عام ليشملهم بتلك الدعوة وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بها النصارى كما سيأتي إن شاء الله قريباً.

وكان من منهجه في دعوتهم أنه غاير بين أساليب الدعوة، فتارة يرغبهم في الإسلام ويبين لهم محاسنه وما أعده الله لأهله من النعيم والثواب على الإيمان يوم الدين، وتارة يرهبهم ويحذرهم بأس الله وعذابه الأليم، وهذان نوعان من أساليب الدعوة، لأن الدعوة من أعظم مقوماتها الإنذار والتبشير.

ولنشرع الآن في ذكر بعض الأحاديث التي وردت فيها دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة مستعينا بالله جل وعلا متبرئاً من حولي وقوتي مبتدئاً بالأحاديث التي دعا فيها ﷺ أهل الكتاب عموما:

١ - **الحديث الأول**: هو ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١).

(١) تقدم تخريج الحديث في الفصل الأول.

وقد قدمنا ذكر هذا الحديث في الفصل الأول في بيان دخول أهل الكتاب في عموم الدعوة، ثم رأيت كلاماً للعلماء في هذا الحديث جعل المراد منه اليهود والنصارى فقط، دون غيرهم، كما سترى قريباً، وقد قدمت أن «أحداً» في الحديث المذكور نكرة في سياق النفي، وهي تعم، ولهذا ذكرته هناك على سبيل الاستدلال علي العموم، وأعدته هنا لما وقفت عليه من كلام الأبي فأقول: أن قوله عليه الصلاة والتسليم لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يعني بذلك من كان موجودا في زمنه وبعد ذلك إلى يوم القيامة، فكل الناس يلزمهم الدخول في طاعته والتصديق برسالته، وإنما خص اليهود والنصارى تنبيهاً علي من سواهم، وذلك أن لليهود والنصارى كتباً فإذا كان هذا شأنهم ولهم كتب سماوية أمروا باتباع ما فيها والإيمان بها، فغيرهم ممن لا كتاب له أوْلى، وفي الحديث دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ، كما يفهم منه أن من لم تبلغه دعوة الإسلام وأمر النبي ﷺ حتى مات معذور، فكل من كان متمسكاً بشريعة من شرائع الأنبياء على حقيقتها التي أنزلها الله بها ومات قبل بلوغه دعوة محمد ﷺ كان ناجيا بلا شك، أو كان من هذه الأمة ومات قبل أن تبلغه الدعوة ولا علم برسالة محمد ﷺ ولا بالقرآن فإنه معذور أيضا لأن حكمه أهل حكم الفترة، والله جل وعلا يقول:

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(١)، وإن كان لأهل العلم كلام كثير في شأن أهل الفترة ليس هذا محل بسطه، وفي الحقيقة قول من قال: إن الأحكام لا تثبت قبل ورود الشرع بها قول حسن(٢)، وقال الأبي: قال القاضي عياض فيه أن من لم تبلغه دعوة الإسلام وأمر النبي ﷺ معذور لأن طريق الإيمان به مشاهدة معجزته

---

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة الأسراء.

(٢) طالع شرح النووي لمسلم ١٨٨/٢ ط ٣ دار الفكر بيروت لبنان.

لمن حضرها وصحة نقلها لمن لم يشاهدها بخلاف الإيمان بالله تعالى الذي طريقه النظر(١).

قلت: قول الأبي بخلاف الإيمان بالله الذي طريقه النظر إن قصد بذلك إن مجرد النظر في الكائنات يتم به الإيمان فهذا غير مسلم، وإن قصد أن النظر في الكائنات والاستدلال بها على وجود الخالق مع ضميمة النقل والنطق بالشهادتين فإن هذا الكلام صحيح، ولذلك كثر الاستدلال في القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى كقوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿انما الله اله واحد..﴾(٤).

ثم قال الأبي بعد نقله كلام عياض ما معناه أن المراد بالأمة في الحديث في قوله: «من هذه الأمة» أمة الدعوة إلى الإيمان، لأن قوله: يهودي ونصراني بدل من الأمة بدل بعض من كل، فلا مفهوم لاسم الإشارة حتى يقصر على من في زمنه، بل هو عام فيه، وفي من سيوجد بعده من الأمة، والعطف بثم يدل على أن الإيمان متى حصل نفع ولو بعد مدة من السماع، وقيل إنما العطف بها للاستبعاد كما في قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها..﴾(٥).

أي لا أبعد في العقل من يهودي أو نصراني بعد انتظارهما بعثتي، ثم لما بعثت

---

(١) طالع شرح الأبي على مسلم ٢٦٢/١ ط دار الفكر بيروت لبنان.

(٢) الآية ١ من سورة الأخلاص.

(٣) الآية ١٦٣ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ١٧١ من سورة النساء.

(٥) جزء من الأية ٢٢ من سورة السجدة.

لم يؤمنا بي؛ فعلى هذا يختص الحديث بأهل الكتاب بخلاف ما تقدم(١).

٢ - **الحديث الثاني**: هو ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»(٢).

فقوله ﷺ: رجل من أهل الكتاب، لفظ (الكتاب) عام؛ لأنه يشمل كل كتاب ولكنه هنا عام أريد به الخصوص فالمراد به هنا التوراة والإنجيل.

قال الحافظ ابن حجر: لفظ الكتاب عام ومعناه خاص أي المنزل من عند اللّه، والمراد به التوراة والإنجيل كما تظاهرت به نصوص الكتاب والسنة حيث يطلق أهل الكتاب، وقيل المراد به الإنجيل خاصة إن قلنا إن النصرانية ناسخة لليهودية كذا قرره *جماعة.... ثم قال: ولا يحتاج إلى اشتراط النسخ*؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان قد أرسل إلى بني إسرائيل بلا خلاف فمن أجابه منهم نسب إليه ومن كذبه منهم واستمر على يهوديته لم يكن مؤمناً فلا يتناوله الخبر؛ لأن شرطه أن يكون مؤمناً بنبيه(٣).

قلت: كل من أدرك بعثة نبينا محمد ﷺ وكان ممن آمن بعيسى عليه السلام، أو

---

(١) الأبي على صحيح مسلم المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٣، ووافقه السنوسي في الصفحة نفسها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، وفي كتاب العتق وفي غيرهما، ومسلم في كتاب الإيمان ١٣٤/١ المصدر السابق.

(٣) طالع فتح الباري ١٩٠/١ ط المكتبة السلفية تعليق الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز.

آمن بموسى ولم تبلغه دعوة عيسى عليه السلام مثل العرب الذين كانوا ببلاد اليمن وغيرها ودخلوا في اليهودية، ولم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام مثل العرب الذين كانوا ببلاد اليمن وغيرها ودخلوا في اليهودية، ولم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام؛ لأنه إنما أرسل إلى بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني اسرائيل..﴾(١) ولم تمتد دعوته في الأقطار النائية، ولم تنتشر، فهؤلاء لاشك في دخولهم في هذا الوعد المذكور من النبي ﷺ، والعلم عند الله تعالى.

ولكن اليهود الموجودين في زمنه ﷺ بالمدينة وكانت أسلافهم بها أيضاً، في دخولهم في هذا الوعد اشكال مع ثبوت الأجر لهم مرتين، كما يقتضيه الحديث، وذلك لأنه ثبت أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا..﴾(٢) إسلام جماعة من اليهود آمنوا بمحمد ﷺ يبلغ عددهم عشرة رجال، منهم عبد الله بن سلام، وأبو رفاعة القرظي وغيرهما وهؤلاء لم يؤمنوا بعيسى بل استمروا علي يهوديتهم إلى أن آمنوا بمحمد ﷺ، قال الحافظ ابن حجر مجيباً عن هذا الإشكال: يمكن أن يقال في حق هؤلاء الذين كانوا بالمدينة أنه لم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام؛ لأنها لم تنتشر في أكثر البلاد فاستمروا على يهوديتهم مؤمنين بنبيهم موسى عليه السلام إلى أن جاء الإسلام فآمنوا بمحمد ، فبهذا يرتفع الإشكال إن شاء الله(٣).

وقال النووي: في هذا الحديث فضيلة مَنْ آمن مِنْ أهل الكتاب بنبينا ﷺ وأن له أجرين لإيمانه بنبيه قبل النسخ والثاني لإيمانه بنبينا ﷺ(٤).

---

(١) جزء من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٢) جزء من الآية ٥٤ من سورة القصص.

(٣) لخص من كلام ابن حجر في الفتح ١٩١/١ المصدر السابق.

(٤) شرح النووي لمسلم ١٨٨/٢ - ١٨٩.

قال الكرماني: آمن بنبيه أي بعيسى أو به وبموسى ، ثم قال: فإن قلت:

ما الفائدة في ذكر (آمن بنبيه) إذ أهل الكتاب لا يكون إلا إذا كان مؤمنا بنبيه؟

قلت: فائدته الإشعار بعلّية الأجرين أي سبب الأجرين الإيمان بالنبيين، ثم قال أيضاً: فإن قلت أهذا مختص بمن آمن منهم في عهد البعثة أم شامل لمن آمن منهم في زماننا أيضاً؟ قلت: مختص بهم لأن عيسى ليس نبيهم بعد البعثة بل نبيهم محمد ﷺ بعدها، والأظهر ما تقدم عن الأبي، ثم ذكر أيضاً أن حكم المرأة الكتابية مثل حكم الرجل لا فرق بينهما كما هو مطرد في جل الأحكام حيث يذكر الرجال وتدخل النساء معهم تبعا(١).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديثاً مثل حديث الصحيحين الذي تقدم الكلام عليه آنفاً، فقد روى من حديث القاسم بن أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا. ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا»(٢).

قلت: إن حديث الإمام أحمد هذا فيه إطلاق حيث لم يشترط فيه ثبوت الأجر للكتابي بالإيمان بنبيه بل قال: فله أجره مرتين بعد الإتيان بصيغة عموم هي قوله: (من) أسلم من أهل الكتابين.

ولكن هذا لا يمنع من تعليق ثبوت الأجر مرتين للكتابي بإيمانه بنبيه الذي أرسل إليه؛ لأن القاعدة المقررة أن المطلق يحمل على المقيد إذا اتحد حكمهما وسببهما كما هنا، قال صاحب مراقي السعود:

---

(١) انظر شرح الكرماني لصحيح البخاري ٢/٨٨ - المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٩ - المصدر السابق.

وحمل مطلق على ذاك وجب * أن فيهما اتحد حكم والسبب.

وقوله: على ذاك: المشار إليه هو المقيد لأنه تقدم ذكره قبل المطلق في كلامه.

قال القرطبي: قال علماؤنا لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطَباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين، فالكتابي كان مخاطَباً من جهة نبيه، ثم خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين.. الخ كلامه فانظره(١).

وقال السنوسي في شرحه لصحيح مسلم قوله: آمن بنبيه يريد الإيمان الحقيقي قولاً وفعلاً ثم لم يزل على ذلك حتى جاء الإسلام فآمن كعبد الله بن سلام.. والأجران قيل أحدهما في اتباعه الحق الأول، والآخر في اتباعه الحق الثاني، وهذا لا يظهر بل هما في اتباعه الحق الثاني ضوعف له بسبب تمسكه بالأول؛ لأن به تظهر الفائدة وإلا فمعلوم أن له بكل اتباع أجراً، وأما من لم يكن على حق في ذلك الدين فليس له إذا رآه وأسلم إلا أجر واحد، ويبقى النظر فيمن كان على حق ولم يدركه ﷺ ولكنه أسلم بعدُ، لا مثل كعب الأحبار فيحتمل أن يكون له أجران ويحتمل أن يكون له أجر واحد بناء على تفسير (أدرك) هل المراد بها أدركه بالزمان أو بالدليل(٢).

قلت: الظاهر أن كل من كان على شريعة موسى أو عيسى متمسكاً باحداهما حقاً وآمن برسالة محمد ينال الأجر سواء رأى النبي، أم لم تبلغه دعوته حتى توفي، والله تعالى أعلم.

تنبيه: تقدم لنا أول الكلام على هذا الحديث أن اليهود الذين كانوا بالمدينة ثبت أنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما قدمنا أنه ثبت أن الآية الموافقة لمعنى هذا

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٢٩٧ – المصدر السابق.

(٢) شرح السنوسي لمسلم ١/٢٦٤.

الحديث نزلت، في قوم من اليهود وهي قوله تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾[١] وانما ذكرنا ثبوت ذلك اعتماداً على ما نقله الحافظ ابن حجر نقلاً عن الطبراني وتصحيحاً لما رواه، حيث جزم بصحته، قال رحمه اللّه، وقد ثبت أن الآية الموافقة لهذا الحديث وهي قوله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[٢] نزلت في طائفة آمنوا منهم ـ أي من اليهود ـ كعبد الله بن سلام وغيره.

ففي الطبراني من حديث علي بن رفاعة القرظي قال: خرج عشرة من أهل الكتاب منهم أبي رفاعة إلى النبي ﷺ فآمنوا به فأوذوا فنزلت: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾[٣] ، فهؤلاء من بني إسرائيل لم يؤمنوا بعيسى بل استمروا على اليهودية إلى أن آمنوا بمحمد ، وقد ثبت أنهم يؤتون أجرهم مرتين. انتهى منه بلفظه فانظره[٤].

ففي هذا الحديث الذي ذكرنا عنه ﷺ منهج حكيم من مناهج الدعوة بأسلوب الترغيب فهو ﷺ حينما يدعو الكتابي إلى الإيمان بالله وبرسوله ويخبره بأن له الأجر مرتين: أجر إيمانه بنبيه، وأجر إيمانه بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهذا مما يرغب الكتابي في الدخول في الإسلام، كذلك يرى أن له مزية على المشرك غير الكتابي حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك الكتابي أن الإسلام يقدر الأديان السماوية السابقة ويرفع من شأنها، وأنه يحث على الإيمان بها فكل هذا مدعاة إلى إيمان الكتابي بالله وبمحمد ﷺ، ولذلك فإن نبينا صلوات الله وسلامه عليه جعل أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوتهم لهم، والله تعالى أعلم.

---

(١) جزء من الآية ٥٤ من سورة القصص.

(٢) من الآية السابقة.

(٣) الآيات من ٥٢ ـ ٥٥ من سورة القصص.

(٤) فتح الباري ١٩١/١ ـ المصدر السابق.

٣ - **الحديث الثالث**: حديث معاذ بن جبل المخرج في الصحيحين وغيرهما لما بعثه رسول الله ﷺ لأهل اليمن يدعوهم إلى الإيمان بالله عز وجل، ففي صحيح مسلم بسنده إلى ابن عباس عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ، قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول اللّه، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم[١] أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[٢]»، وفي رواية لمسلم أيضاً فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، ففي بعض الروايات شهادة أن لا إله إلا اللّه، وفي بعضها عبادة الله والمعنى واحد، فإن من شهد أن لا إله إلا الله حقاً عبده وحده مخلصاً له العبادة، وهذا هو القصد الأساسي من بعثه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما تقدم.

فأنت ترى النبي ﷺ في هذا الحديث صرح لأهل الكتاب بأن يؤمنوا بالله عز وجل، ويشهدوا بأن لا إله إلا هو وأن يعبدوه حق العبادة وأن يؤمنوا بما جاءهم به من عند الله حيث قال في الحديث: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» وقد بعث إليهم بصاحبه الجليل معاذ بن جبل، وبيّن له الكيفية التي يدعوهم بها إلى الإسلام، فأمره أن يبدأ بالأهم، فالأهم لأن الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة هو الأساس لكل شيء، فإذا امنوا بالله وبرسوله شرعوا بعد ذلك في

---

(١) الكرائم جمع كريمة وهي التي اجتمعت فيها الخصال الحميدة كغزارة اللبس وجمال الذات وكثرة اللحم والصوف.

نقص الهامش (٢).

تطبيق أحكام الإسلام من صلاة وزكاة وغير ذلك.

وإنما خص ﷺ أهل الكتاب في هذا الحديث بالوصية مع احتمال أن يكون هناك غيرهم من سكان بلاد اليمن مع العلم أنه لا شك أن هناك من يسكن بلاد اليمن من غير أهل الكتاب، وإنما خصهم بذلك لأنهم أهل علم في الجملة فلا تكون العناية بهم في الخطاب مثل خطاب الجهال من عبدة الأوثان، فخصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم(١).

ولهذا الحديث روايات متعددة متقاربة في المعنى يظهر من خلالها شدة اهتمامه ﷺ بالتوحيد. ففي بعض روايات البخاري وغيره: « فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » وفي رواية: « وأني رسول اللّه » كما تقدم، وفي رواية: « فأول ما تدعوهم إليه عبادة الله » وفي رواية: « أن يوحدوا اللّه » والمعنى واحد لأن عبادة الله هي توحيده، وتوحيده لا يتم إلا بعد النطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإنما بدئ بهما لأنهما أصل لكل شيء وأساس كل شيء، ولا ينبني غيرهما من أمور الدين إلا عليهما.

قال الحافظ ابن حجر: فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضي الإشراك أو يستلزمه كمن يقول بنبوة عزير أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم(٢).

---

(١) انظر فتح الباري ٣/٣٥٨ – المصدر السابق.

(٢) انظر فتح الباري ٣/٣٥٩ – المصدر السابق.

وفي هذا الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإسلام الاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله حتى يضيف إلى ذلك الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة.

تنبيه: ذكر ابن إسحاق في سيرته أن تاريخ دخول اليهود لليمن كان في زمن تبّع الأصغر أسعد أبي كرب(١).

وقد استدل بعض العلماء ببعض روايات هذا الحديث على أن أهل الكتاب غير عارفين لأن في بعض رواياته فإن عرفوا ذلك، وإن كانوا يعبدون الله ويظهرون معرفته.

قال القاضي عياض: وهذا يدل على أنهم ليسوا بعارفين الله تعالى، وهو مذهب حذاق المتكلمين في اليهود والنصارى أنهم غير عارفين الله تعالى وأن كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته لدلالة السمع عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف الله تعالي من كذب رسولاً، ثم قال أيضا: ما عرف الله تعالى من شبهه وجسمه من اليهود أو أجاز عليه البداء أو أضاف إليه الولد أو أضاف إليه الصاحبة والولد وأجاز الحلول عليه والانتقال والامتزاج من النصارى أو وصفه بما لا يليق به أو أضاف إليه الشريك.. إلخ كلامه(٢).

* * *

(١) بواسطة نقل ابن حجر عنه - في المصدر السابق نفسه.

(٢) بواسطة نقل النووي في شرح لمسلم عن عياض ١/ ٢٠٠.

حلمه وصفحه المتكرران ولين الجانب
منهج من مناهج دعوة
أهل الكتاب

الحديث الرابع: أن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ودفع السيئة منهم بالحسنة منهج حكيم من مناهج دعوته ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وذلك لأن أهل الكتاب يعرفون صفات النبي كما يعرفون أبناءهم. ومن جملة صفاته ﷺ التي يعرفونها حلمه وصفحه وتجاوزه عن الزلات امتثالاً لأمر ربه حيث أمره بذلك في قوله: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾(١). وقوله ﴿ادفع التي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾(٢). وقد امتثل ﷺ أمر ربه ودفع بالتي هي أحسن سواء في ذلك المنافق والمشرك والكتابي، ولكنه ﷺ نظر إلى الكتابي نظرةً خاصةً كما تقدم في حديث معاذ في تعليل التنصيص على أهل الكتاب دون غيرهم، وقد أظهر أثر ذلك في دخول الناس في الإسلام بما في ذلك أهل الكتاب، فمن ذلك ما رواه ابن إسحاق في مغازيه عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعن الزهري أيضا في قصة يهودي أساء الأدب معه ﷺ فصفح عنه ولم يؤاخذه بزلته فكان ذلك سببا في إسلامه فأسلم وحسن إسلامه ومات في زمنه ﷺ فحمل عليه الصلاة والتسليم جنازته على عاتقه الأيمن ثم على عاتقه الأيسر.

قالا: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إن قومي أسلموا فزادهم الإسلام فقراً فالتفت رسول الله ﷺ إلى رجل كان دفع إليه نفقة فقال: قد أنفقت ما كان معي،

---

(١) الآية ٣٤ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.

فقال يهودي خلف رسول الله ﷺ: هذا رجل يعطيك ورقاً يسلفك في تمر حائط كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: لا نسمي لك حائطاً، ولكن تسلفنا في تمر مسمى في كيل معلوم إلى أجل معلوم فبايعه اليهودي، ثم حل ورقاً معه فقال رسول الله ﷺ: ادفعها إلى الأعرابي، فأغث قومك، فخرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما وضع الميت في قبره وحثوا عليه قام اليهودي، فقال: يا محمد ألا تقضيني تمري؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا ـ تمطلون الناس بحقوقهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله لولا مجلسه لوجأت أنفك ـ وقال الزهري لوجأت خطمك ـ فقال رسول الله ﷺ: يا عمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسن قضاءه انطلق معه إلى حائط كذا وكذا، وهو الذي كان أراد من رسول الله ﷺ فأبى أن يسميه له، فأدخله فقل لفلان يكشف له عن الطعام فيريه إياه فإن رضيه فمره فليوفه ماله، وكِلْ له كذا وكذا صاعاً بشتمك إياه فانطلق به عمر فأراه فرضى فكال له كما أمر به رسول الله ﷺ، فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ إلا الحلم فقد رأيناه الآن منه فأنا أشهدك أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأشهدك أن نصف ما أملك صدقة على من آمن بمحمد ﷺ، فقال عمر أنه قد حقت على نصيحتك لا يسعهم كلهم، ولكن اجعله لمن مع رسول الله ﷺ ففعل، ثم إن اليهودي مات فخرج رسول الله ﷺ فحمل سريره علي عاتقه الأيمن، ثم على عاتقه الأيسر(١).

فترى هذا المنهج الحكيم أثمر من حينه فدخل اليهودي في الإسلام في الوقت الذي كان محاداً لله ولرسوله بسبب حلمه ﷺ، ولقد كان من أعدائه حيث أساء

---

(١) القسم المطبوع من سيرة ابن إسحاق فقرة ٤٥٩ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ تحقيق وتعليق محمد حميد الله ـ تقديم الأستاذ محمد القاسمي.

عليه وجهاً لوجه وحاول تعجيزه بحيث أنه أتاه في وقت غير مناسب وهو وقت دفنه لبعض أصحابه وهو يعلم أن ذلك الوقت غير مناسب، وكذلك المكان وإنما أراد حيلة يتوصل بها إلى سبه ﷺ مع أنه لم يقتصر على سب الرسول ﷺ، بل تجاوز الحد حتى سب بني عبد المطلب جميعاً، ولكن رحمته ﷺ بهذه الأمة ورأفته بها جعلته يتغاضى عن هذا اليهودي المتطرف في ذلك الوقت طمعاً في إسلامه. وقد حصل على مراده فأسلم ذلك اليهودي ونطق الشهادتين ومات على ذلك. وبهذا يتضح أن عفوه عن أهل الكتاب ولين جانبه لهم منهج حكيم من مناهج دعوته لهم ﷺ وأن هذا المنهج أثمر إثماراً ملموساً، والعلم عند الله.

ومن ذلك ما رواه ابن خزيمة في صحيحه. وهو:

٥ - **الحديث الخامس**: فقد روى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دخل يهودي على النبي ﷺ فقال: السام عليك فقال النبي ﷺ وعليك قالت عائشة: فهممت أن أتكلم فعرفت كراهية رسول الله ﷺ لذلك فسكت ثم دخل آخر فقال: السام عليك فقال: وعليك فهممت أن أتكلم فعرفت كراهية النبي ﷺ لذلك، ثم دخل الثالث فقال السام عليك، فلم أصبر حتى قلت: وعليك السام وغضب الله ولعنته إخوان القردة والخنازير أتحيون رسول الله ﷺ بما لم يحيه الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله لا يحب الفحش والتفحش قالوا قولاً فرددنا عليهم، إن اليهود قوم حسد، وإنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على السلام وعلى آمين(١).

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣/٣٨ - ٣٩ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي وأخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، ومسلم بروايات متعددة عن عائشة من طريق جابر وغيره في كتاب السلام.

فتراه ﷺ لم يعنف هؤلاء اليهود الثلاثة الذين تواطؤ علي هذه الإساءة العظيمة ولم يزد على أنه أظهر لهم أنه رد عليهم السلام على نحو ما يظنون من أنه لم يفطن لإساءتهم بما قالوه، ولما تكلمت أم المؤمنين بما تكلمت به قال لها: إن الله لا يحب الفحش والتفحيش كل هذا من رحمته بالأمة حتى باليهود الذين هم أشد الناس عداوة له وللمسلمين والإسلام.

والذي يظهر أن هؤلاء اليهود الثلاثة كانوا متمالئين على هذا المنكر ليغضبوه ﷺ ليعرفوا مكانته في الصبر والحلم؛ لأن ثلاثة من اليهود يدخلون عليه ﷺ في بيته في آن واحد متتابعين يحيونه بتحية واحدة ولم يذكر أن لهم غرضاً غير ما فعلوه. كل هذا يدل على أنهم كانوا متمالئين علي هذا ولكنهم وجدوه في القمة العليا من الرأفة والرحمة بجميع أمته أمة الدعوة وأمة الإجابة، ولقد كان لهذا المنهج الحكيم دوره الكبير في استعطاف بعض اليهود ودخولهم في الإسلام.

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده من زيارته ﷺ لغلام يهودي حضره الموت وقد كانت تلك الزيارة سببا في إسلام ذلك الغلام وهو:

٦ - **الحديث السادس**: روى الإمام أحمد بسنده عن رجل من الصحابة من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت بيعتي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه. قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوارة يقرؤها يعزي بها نفسه علي ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله فقال:

أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا أي لا: فقال ابنه: إني والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال: أقيموا اليهود عن أخيكم ثم ولي كفنه

وحنطه وصلى عليه[1].

ففي هذا الحديث دليل على أنه كان يتفقد أحوال اليهود بالمدينة ويعود مرضاهم ويدعوهم إلى الله عز وجل، ويتحين الفرص لدعوتهم ولا يتركها في وقت، استجابة لأمر ربه له بالتبليغ في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك.. ﴾[2].

ومن هذا القبيل ما كان يوصي به أصحابه المجاهدين من عدم التعرض لأهل الصوامع وأعفائهم من القتل، روى ذلك الإمام أحمد عن ابن عباس ورواه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة في كتابه الخراج[3]، وغيرهما.

وذلك في نظري دعوة لأهل الصوامع ورحمة بهم حيث تركوا من القتل لأنهم يعلمون صفته ﷺ من الكتب التي بأيديهم فإذا تحققوا فيه تلك الصفات التي كانوا يعلمونها كان ذلك من أسباب تصديقهم برسالته كما تقدم في اليهودي الذي أسلفه في التمر في رواية ابن إسحاق المتقدمة.

ولعل أمر رسول الله بعدم قتل أهل الصوامع وسيلة لدعوتهم بعد ذلك حيث جاهد غيرهم من أهل الكتاب بالسيف وتركهم فلعله إنما فعل ذلك بهم ليتمكن من دعوتهم ويبلغهم الرسالة كما هي على حقيقتها.

هذا وقد قدمنا أنه ﷺ كان تارة يدعو أهل الكتاب بوجه عام وتارة يخص قوماً بالدعوة كاليهود، مثلاً، و النصارى، ومن ذلك القبيل الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحهما وغيرهما في دعوته لليهود وهو:

---

(١) انظر المسند ٥/٤١١.

(٢) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٣) انظر الخراج لأبي يوسف ص ٢١٢، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/٢٨٠.

٧ - **الحديث السابع**: روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى بيت المدراس(١)، فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود أسلموا تسلموا، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال ذلك أريد ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم ثم قال الثالثة، فقال: أعلموا أن الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله(٢).

والظاهر أن هؤلاء اليهود الذين سيق هذا الحديث في شأنهم بقايا من أخلاط اليهود تأخروا بعد إخراج قبائل اليهود الثلاث بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وانتهاء أمرهم؛ لأن القبائل الثلاث أجليت من المدينة قبل إسلام أبي هريرة رضي الله عنه؛ لأن إسلامه عام فتح خيبر ولذلك يقول الحافظ ابن حجر إنه لم ير من تعرض لنسب هؤلاء اليهود المذكورين، وإنما قلنا إن هذا بعد إجلاء القبائل الثلاث لأن أبا هريرة يصرح في جميع روايات هذا الحديث بأنه حاضر كما في روايات البخاري المتعددة ورواية مسلم.

وما في المفهم على صحيح مسلم للقرطبي مما يقتضي أن هؤلاء اليهود بنو النضير لا يصح لتقدم قصتهم على إسلام أبي هريرة(٣).

قلت: في هذا الحديث التصريح منه ﷺ لليهود بالدعوة وإخباره لهم بأن

---

(١) هو بكسر الميم وآخره مهملة مفعال من الدرس والمراد به كبير اليهود نسب البيت إليه لأنه كان صاحب دراسة كتبهم أي قراءتها، فتح الباري عند شرح الحديث المذكور ١٢/٣١٨ - المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإكراه وكتاب الجزية ومسلم بهذا اللفظ في كتاب الجهاد والسيرة وأبو داود ٣/٤٠٣.

(٣) انظر فتح الباري ٦/٢٧١.

سلامتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة في إسلامهم واتباعهم لما جاء به من عند اللَّه، كما أن فيه اعتراف اليهود له ﷺ بأنه بلغ حيث قالوا له قد بلغت يا أبا القاسم وقد أكد لهم الدعوة ليكون ذلك أعمق في قلوبهم ولكن القوم ضلوا عن الصراط المستقيم فأضلهم اللَّه، والعياذ بالله تعالى. وقال الكرماني، تسلموا في الدنيا من القتل والجزية وفي الآخرة من العذاب[١]، ومعنى قوله ﷺ لهم ذلك أريد أي أريد أن تعترفوا بأني بلغتكم رسالة ربي لأني لم يكن علي إلا البلاغ، والهداية حقيقة لا يملكها إلا الله عز وجل وإنما أنا فعلت ما في وسعي مما أمرني به ربي.

إظهار المعجزة لأهل الكتاب دعوة لهم

٨ - **الحديث الثامن**: أن إظهار المعجزات التي دلت على صدقه في نبوته وأخذه المواثيق والعهود على أهل الكتاب أنهم إن ظهرت لهم المعجزة آمنوا به وصدقوه دعوة لهم للدخول في الإسلام ومنهج من مناهج دعوتهم.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي قال: سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم حديثاً عرفتموه لتتابعني على الإسلام قالوا: فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أن الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل كيف يكون الذكر منه، وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ممن وليه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله ومواثيقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون

(١) انظر الكرماني ١٣/٥٤ المصدر السابق.

أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها قالوا: اللَّهم نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة علي موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله، وقالوا: اللَّهم نعم، قال اللَّهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا اللهم نعم قال: اللهم اشهد عليهم قالو:ا وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال: فإن وليي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك قال فما يمنعكم أن تصدقوه قالوا: إنه عدونا قال: فعند ذلك قال الله عز وجل: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن اللَّه... إلى قوله عز وجل: كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾(١) . فعند ذلك باءوا بغضب على غضب الآية(٢).

ففي هذا الحديث إظهار نوع من المعجزة الدالة على صدقه ﷺ وهو إخباره بهذه المغيبات التي لم يحضرها ولم يقرأ عنها وإنما هي وحي يوحى ، فبيان هذا لأهل الكتاب الذين يعلمونه من كتب أنبيائهم فيه مدعاة لهم إلى تصديقهم برسالته ﷺ، وعليه فيكون ذلك منهجا من مناهج دعوته لهم، فقد دعا ﷺ اليهود في هذا

---

(١) الآيات من ٩٧ إلى ١٠١ من سورة البقرة.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٧٨/١ ط أولي ورواه ابن جرير بهذا اللفظ أو قريب منه ورواه الترمذي أيضاً.

الحديث إلى تصديقه حيث أخذ عليهم عهود الله ومواثيقه إنه أن أخبرهم بما سألوه عنه طبق ما يعلمون في كتبهم السماوية المنزلة على أنبيائهم ليؤمنن به وليتابعنه، وقد أخبرهم كما علموا فقامت عليهم الحجة بذلك، ثم بعد ذلك حاولوا التخلص بما لا ينجيهم وذلك أنهم يعلمون أن جبريل عليه السلام هو ولي أنبياء الله كما علموا من كتب الأنبياء من قبل، ويعلمون أيضا أنه ﷺ لا يكذب فلا بد أن يخبرهم بأنه وليه فأوردوا شبهتهم الواهية تخلصا مما التزموه وتعهدوا به، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه المبين: ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾(١).

ففي الحديث الشريف منهج حكيم وأسلوب عظيم من أساليب الدعوة الإسلامية، فإن المناظرة أسلوب من أساليب الدعوة سلكه الأنبياء قبل نبينا عليهم الصلاة والتسليم، فقد سلكه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما سلكه موسى مع فرعون أيضاً، وهذان ممن قال الله في شأن الاقتداء بهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ بعد أن ذكر له جملةً من الأنبياء من جملتهم إبراهيم وموسى وذلك في قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه.. إلى قوله تعالى: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجراً أن هو إلا ذكرى للعالمين﴾(٢).

فإن قلت: ليس في الحديث مناظرة لأن المناظرة إتيان الخصم بحجة وإبطال الخصم الآخر لتلك الحجة، والحديث إنما فيه سؤال اليهود عن مسائل وجواب النبي ﷺ على تلك المسائل.

---

(١) آية ١٠٠ من سورة البقرة.

(٢) الآيات من ٨٣ – ٩٠ من سورة الأنعام.

قلنا: إن المناظرة المقصود منها شيء واحد وهو إقامة الحجة على الخصم وإلزامه أن الذي يدعيه باطل وإثبات دعوى الخصم الآخر، وهذا موجود في الحديث كما لا يخفى فإنه ﷺ أبطل دعوى اليهود في دعواهم أنه غير مرسل إليهم؛ لأنهم اعترفوا كما في بعض روايات الحديث بأن هذه الخصال التي سألوه عنها لا يعلمها إلا رسول، وهو أخبرهم أنه مرسل إليهم والرسل معصومون من الكذب فيما يبلغونه عن الله تعالى فبطلت دعواهم وتحققت دعواه وقامت عليهم الحجة فنقضوا العهد والميثاق كعادتهم وعادة أسلافهم من قبل فظهر الحق لمن يعقل ولكن اليهود ضلوا فأضلهم الله.

كذلك كان ﷺ يقرب بعض أهل الكتاب ويخصهم بأشياء دون غيرهم من ملل الكفر تألفا لهم بذلك واستمالة لهم، وهذا منهج من مناهج دعوتهم وسبب في قبولهم الإسلام لأنهم إذا رأوه ﷺ يدنيهم ويقربهم ويخصهم بأشياء دون سائر الكفار علموا أن ذلك إنما هو من تعظيمه ﷺ للأديان السماوية، وأن في دينه ما يقتضي تعظيمها كما هو في كتبهم أيضا من تعظيم الأديان السماوية، فإذا رأوا الموافقة بين شريعته ﷺ وبين شرائع الأنبياء قبله تحققوا أنه رسول الله ﷺ فاتبعوه وصدقوه فيما أخبر به عن ربه.

الحديث التاسع: هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل مسجدنا هذا مشرك بعد عامنا هذا غير أهل الكتاب وخدمهم»(١).

فانظر كيف خص ﷺ أهل الكتاب دون غيرهم بهذا وهو أنهم أبيح لهم دخول

---

(١) المسند ٣/٣٣٩ وقال ابن كثير تفرد به أحمد مرفوعاً والموقوف أصح إسناداً فانظره عند تفسير آية التوبة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس... ﴾ الآية ٢٨.

مسجده ومنع على سائر ملل الكفر، وماذاك إلا تألفاً لهم ودعوة لهم طمعاً في إسلامهم لأنهم أهل علم بشرائع الأنبياء، والشرائع تتفق في كثير من الجزئيات وتتفق في الأصول أي العقائد، فاختلاط أهل الكتاب بالمسلمين وترددهم عليه ﷺ وعلى أصحابه في مسجد المدينة من أعظم أسباب دخولهم في دين الإسلام.

ويؤكد ما ذكرته أن المراد بقوله: ﴿بعد عامنا هذا﴾ أن المشار إليه بقوله (هذا) هو عام تسعة؛ لأن سورة التوبة نزلت في تلك السنة، ولما نزلت بعث ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج وبعث معه علياً وأمر علياً أن ينادي في موسم الحج ألاَّ يحج بعد العام مشرك وألاَّ يطوف بالبيت عريان، فكان أبو بكر أميراً على الحج، وعلى مساعداً له على هذه المهمة، ففي نفس السنة التي ضيق فيها ﷺ الخناق على المشركين ومنعهم من قربان المسجد الحرام، ومنعهم من عاداتهم التي تعودوها وهي أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، ففي السنة نفسها يبيح لأهل الكتاب الدخول في مسجده كما يبيحه لخدمهم، فهذه مزية لهم على غيرهم لا شك، ومنهج من مناهج دعوته لهم، والعلم عند الله.

* * *

إثبات موافقة القرآن لما في التوراة
منهج من مناهج دعوة أهل الكتاب

إن من أساليب دعوة أهل الكتاب أن يبين لهم رسول الله ﷺ أن كتابه الذي أنزله الله عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، فاليهود يعلمون أن موسى نبي، وأن الله أنزل عليه التوراة وكل ما في التوراة المنزلة من عند الله حق، وهم يعلمون مواضع التحريف والتبديل والتغيير فيها، فإذا وافق حكم الإسلام الذي يحكم به محمد ﷺ ما في التوراة المنزلة علم اليهود عندئذٍ أنه رسول من الله، وأن هذه الأحكام لا يمكن أن تصدر إلا عن الله تعالى فصدقوه برسالته ودخلوا في دين الإسلام، وعليه فيكون هذا النوع منهجاً من مناهج دعوتهم حيث تحققوا أن هذا الرسول يحكم في أمته بما كان موسى عليه السلام يحكم به في أمته.

لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لا حياة لمن تنادي

فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو:

الحديث العاشر: قال ابن عمر: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق

يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فرجما فرأيت الرجل يحني(١) على المرأة يقيها الحجارة(٢).

محل الشاهد من الحديث:

إن قول نبينا ﷺ مخاطباً اليهود الذين قدموا عليه... «ما تجدون؟» لفظة (ما) من أسماء الاستفهام، وجمله تجدون في محل الخبر وتقدير الاستفهام: لا أي شيء تجدونه في التوراة؟ فيتعلق حرف الجر بمفعول ثان لتجدون، والمعنى: أي شيء تجدونه في شأن حكم الرجم، وإنما سألهم لإلزامهم الحجة بما يعلمونه في كتابهم من الموافقة لشريعة الإسلام، ولإظهار ما كتموه وحرفوه وبدلوه من كتاب الله الذي بين أيديهم فأرادوا تعطيل أحكام التوراة ففضحهم الله تعالى(٣).

فهو ﷺ ألزم اليهود الحجة وأقنعهم بأن كتاب الله الذي أنزله على نبيهم موسى يوافق كتابه الذي أنزله في شأن الرجم، وذلك يدل دلالة واضحة على أن ما يجدونه في التوراة من صفات محمد ﷺ صحيح ثابت، وكذلك ما يجدونه في كتبهم من وجوب اتباعه ﷺ وأخذ المواثيق عليهم بذلك، كل ذلك تتبين لهم صحته

---

(١) يحني بالحاء المهملة بعدها نون مكسورة ثم تحتانية ساكنة، وعن المستملي والكشميهني بجيم ونون مفتوحة ثم همزة وهو الذي قال ابن دقيق العيد إنه الراجح في الرواية، وفي رواية أيوب يجانئ بضم أوله وجيم مهموز، وقال ابن عبد البر: وقع في رواية يحيى بن يحيى السرخسي والصواب (يحني).
انظر فتح الباري ١٢/١٦٩ المصدر السابق.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب قريش، وفي كتاب الحدود وفي غيرهما ومسلم في كتاب الحدود.

(٣) طالع فتح المنعم شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ـ لحبيب الله بن مايمابا ٢/٢٥٠.

وثبوته من هذه القصة، سواء أكان علمه ﷺ بحكم الرجم في التوراة بوحي من اللّه، أم بإخبار ممن أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، إذ المقصود إلزامهم الحجة وإعلامهم أن ما في التوراة مما يتعلق برسالة محمد ﷺ حق، وكذلك ما يتعلق بغيرها إذا سلم من التغيير والتبديل، فكل ما في التوراة قبل أن تحرف ويبدل فيها حق سواء تعلق بصفات نبينا محمد ﷺ أم لا، لأنها كتاب منزل من الله على نبي مرسل، وكل ما نزل من عند الله فهو حق.

مسألة فقهية مهمة تؤخذ من الحديث:

قلت: ظاهر هذا الحديث أن الإسلام ليس شرطاً في الإحصان، وإلا لم يرجم النبي ﷺ اليهوديين لأنهما غير مسلمين، وإلى عدم الإشتراط ذهب الشافعي وأحمد، وذهبت المالكية ومعظم الحنفية إلى اشتراط الإسلام وأجابوا عن الحديث بما يطول ذكره، ويرد عليهم ما في بعض روايات هذا الحديث كرواية أبي هريرة من التصريح بالإحصان بياناً وتفسيراً لما في التوراة في شأن الرجم دون تعرض لذكر الإسلام، كما ترجم بذلك البخاري الترجمة التي ذكر تحتها هذا الحديث، وكذلك أبو داود كما سيأتي قريباً ان شاء الله.

لأن نص التوراة (المحصن والمحصنة إذا زنيا فقامت عليهما البينة رجما وإن كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما في بطنها) ففي التوراة التصريح بالإحصان، والرسول ﷺ أقر ما في التوراة فتعين أن المراد بالإحصان غير الإسلام، والله أعلم.

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة قال: «زنى رجل من اليهود وامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند اللّه، قلنا فتيا نبي من أنبيائك، قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما ترى في رجل

وامرأة زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم (١) فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟) قالوا: يحمم(٢) ويجبه ويجلد، والتجيبة أن يحمل الزانيان علي حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما، قال: وسكت شاب منهم فلما رآه النبي ﷺ ألط(٣) به النشدة فقال: اللّهم إذ نشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم فقال النبي ﷺ: فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا علي هذه العقوبة بينهم فقال النبي ﷺ «إني أحكم في التوراة، فأمر بهما فرجما» قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا...﴾(٤) كان النبي منهم(٥).

قال الخطابي في معالم السنن: في هذا الحديث رجل لا يعرف فانظره (٦) فالحديث مع ما فيه من إلزام الحجة لليهود سقناه أيضا لبيان اشتراط الإحصان دون تعرض لاشتراط الإسلام، فدل على أن الإسلام ليس شرطا في الإحصان فإنه ﷺ قال في الحديث: «ما تجدون في التوراة على من زنا إذا أحصن»؟ فقوله: إذا أحصن دليل على أن الرجم الذي هو العقوبة يتعلق بالإحصان المعروف، وعليه

(١) تقدم تفسيره.

(٢) أي يسود وجهه بالفحم.

(٣) أي ألح عليه ـ القاموس المحيط ٤١٣/٢.

(٤) جزء من الآية ٤٤ من سورة المائدة.

(٥) رواه أبو داود في سننه ٥٩٨/٤ ـ ٥٩٩ ط دار الحديث طباعة نشر توزيع حمص سوريا.

(٦) ٤/٣ مع أبي داود في المصدر نفسه.

فيكون الإطلاق الوارد في الأحاديث بالرجم دون تقييد بكون المرجومين محصنين مقيداً بهذه الأحاديث التي ورد فيها التنصيص على الإحصان الذي هو التزويج دون اشتراط الإسلام. والله تعالى أعلم.

بقي من الأحكام التي تتعلق بهذا الحديث كثير كالإختلاف في رجمه ﷺ لليهوديين هل هو بإقرارهما أو بشهادة شهود عليهما بالزنا وقد روى أبو داود في ذلك حديثاً فيه التصريح بأنه رجمهما بشهادة شهود من قومهم شهدوا بأنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة(١)، وعارض النووي في ذلك وقال: الظاهر أنه إنما رجمهما بإقرارهما بالزنا، وذكر حديث أبي داود وقال إنه صريح في أنهما رجما بالبينة ولكنه قال: فإن صح هذا الخبر وكان الشهود المسلمين مسلمين فظاهر وأن كانوا كفارا فلا اعتبار بشهادتهم ويتعين أنهما أقرا بالزنا(٢).

قلت: حديث جابر المذكور فيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف، ولكن حديثاً فيه راوٍ ضعيف العمل به أحسن من اتباع مجرد الرأي، وشهادة أهل الذمة بعضهم على بعض قبلها بعض العلماء من التابعين والفقهاء، إذا لم يوجد مسلم يشهد، وبعضهم قيد جوازها بالسفر حيث لم يوجد فيه مسلم كالإمام أحمد ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح فانظره(٣)، إلى غير ذلك من الأحكام المفصلة في مواضعها.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٦٠٠ - ٦٠١ وابن ماجة أيضا الحديث رقم ٢٣٧٤ مختصرا.

(٢) طالع شرح النووي لمسلم ١١/٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) الفتح ١٢/١٧١.

موافقة أهل الكتاب فيما ليس فيه نص

منهج من مناهج دعوتهم

كذلك من منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب أنه كان يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تألفاً لهم واستعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ولقد كان ذلك منهجا حكيما لأنهم إذا رأوه ﷺ يتعبد بالأحكام التي يعلمون أنها تشريع سماوي أنزله الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلة أو الإنجيل، إذا رأوا هذا علموا أن مصدر هذا التشريع الذي عنده، والذي عندهم واحد، وهو الله جل وعلا، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد، والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ.

فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري وابن عباس رضي الله عنهما وهو:

الحديث الحادي عشر: في هذا الفصل:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المدينة وإذا أناس من اليهود يعظمون عاشوراء ويصومونه فقال النبي ﷺ: «نحن أحق بصومه فأمر بصومه».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيماً له فقال رسول الله: «نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه».

الحديث الثاني عشر:

هو ما رواه البخاري أيضا عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يسدل شعره، وكان

المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤسهم، وكان النبي يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي رأسه(١).

ففي هذه الأحاديث دلالة واضحة على أنه ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب في الأمور التي لم ينزل الله عليه فيها شيئاً، وما ذاك إلا لاستمالتهم واستعطافهم للدخول في الإسلام؛ لأن موافقتهم في بعض الأمور التي يعلمون أنها حق نزلت من عند الله إذا وافقهم فيها رجل أمي يعلمون صفاته من كتب الأنبياء ويعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا صلة له بكتبهم، إذا علموا ذلك كان مدعاة لهم في التفكير في أمره ومراجعة عقولهم.

قال الحافظ ابن حجر: في الحديث دليل على أنه ﷺ كان يوافق أهل الكتاب إذا خالفوا عبدة الأوثان أخذاً بأخف الأمرين، فلما فتحت مكة ودخل عباد الأوثان في الإسلام رجع إلى مخالفة باقي الكفار وهو أهل الكتاب » فانظره(٢).

وأقول لو كان هذا ميلاً فطرياً وجبلِّياً كما قد يتوهم من كلام ابن حجر، لما ترك عادة قومه الذين نشأ بينهم، وتربى فيهم وعادة الإنسان أنه إنما يميل إلى ما تَعَوَّدَ، وثانيا أن العبادة لا دخل لها في الميل الفطري وهو ﷺ وافقهم في الصوم، والصوم عبادة بلا شك، وقول ابن حجر إنها لما فتحت مكة رجع إلى مخالفة باقي المشركين ليست فيه عندي دلالة على أنه إنما وافقهم من أجل الميل الفطري، وإنما كان ذلك في زمن متأخر بعد ثماني سنوات من دعوته لهم في المدينة، فيمكن أن يكون قد شعر ببعض اليأس من أن يوافقهم فلما لم يؤمر به لم تؤثر في دخولهم في الإسلام

---

(١) أخرجها البخاري في كتاب مناقب الأنصار في باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة.

(٢) ج ٧ ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

فغير المنهج كما أن الله تعالى أمر بقتالهم بعد ذلك بمدة قليلة سنة تسع، وكان الفتح سنة ثمان فظهر لي أن كل ما فعله معهم إنما هو نوع من الدعوة لهم والعلم عند الله تعالى.

قلت: وهذا لا يتنافى مع ما ثبت عنه من أمره الصريح في الأحاديث الصحيحة بمخالفة اليهود والنصارى والتنفير من أعمالهم التي يعملونها، فإن تلك المخالفة التي أمر بها إنما هي في الأمور التي أمر فيها بشيء، أو نهي عن شيء منها مما عليه أهل الكتاب فإن هذا يتحتم عليه مخالفتهم فيه، كما يتحتم عليه أن يأمر أمته بمخالفتهم فيه أيضاً، وقد فعل، وأما موافقته لهم فإنها في الأمور التي لا وحي فيها.

فإذا اختلف أهل الكتاب وغيرهم من المشركين في أمر عادي، كقصة فرق الرأس أو سدله، أو ديني كقصة صوم يوم عاشوراء كانت موافقة أهل الكتاب أحب إليه من موافقة المشركين، لأنهم أهل أديان سماوية، فكل ما سلم من التحريف والتبديل مت كتبهم فهو حق، فكان ﷺ يتألفهم بهذه الموافقة التي لا تمس من كرامته ولا تقدح في نبوته عليه وعلى جميع الرسل أفضل الصلاة والتسليم.

ولا شك أن الموافقة والاستمالة والاستعطاف أقرب إلى المفاهمة والتمكن من التبليغ من الجفاء والمخالفة وعدم الاختلاط والمقاربة في أي شيء، وعليه فيكون هذا منهجا من مناهج دعوه ﷺ لهم.

فإن قيل: في حديث أحمد الذي قدمنا رقم (٩) عن جابر بن عبد الله أنه قال: «لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك غير أهل الكتاب وخدمهم» مع أن في القرآن آيات كثيرة تدل على أهن أهل الكتاب غير مشركين، وذلك لأنه كثيراً مَّا يرد في القرآن عطف المشركين على أهل الكتاب والعطف يقتضي المغايرة، كما هو معلوم، وعليه فيكون في الحديث إشكال حيث أن ظاهره يخالف ظاهر الآيات مثل

قوله تعالى:

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.... ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين... ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين... ﴾(٣).

وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

فالجواب أن أهل الكتاب وإنا كان عندهم علم بالله جلا وعلا، وبعض العقائد فإنهم مع هذا مشركون فأي إشراك أعظم من قولهم: عزير ابن الله، ومن عبادتهم العجل، وغير ذلك من شركيات اليهود، وأي إشراك أعظم من قول النصارى: إن المسيح ابن الله، وقولهم إنه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك، وفي القرآن التصريح بأن أهل الكتاب مشركون، وذلك في قوله تعالى:

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، فقتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾(٤).

فقد صرح تعالى في الآية الأخيرة بأن اليهود والنصارى مشركون حيث نزه تعالى نفسه عما يشركون معه في عبادته بقوله سبحانه وتعالى ﴿عما يشركون﴾

---

(١) جزء من الآية: ١ من سورة البينة.

(٢) جزء من الآية: ٦ من سورة البينة.

(٣) جزء من الآية: ١٠٥ من سورة البقرة.

(٤) ٣٠ – ٣١ من سورة التوبة.

فاتفق ظاهر الحديث مع ما في هذه الآية من الدلالة على أن أهل الكتاب مشركون ، وعلى هذا يكون عطف المشركين على أهل الكتاب في الآيات من باب عطف الخاص على العام، فأهل الكتاب أعم من المشركين، إذ كل كتابي لم يؤمن بالنبي ﷺ وقال قول اليهود المتقدم فهو مشرك وليس كل مشرك كتابياً.

وفائدة هذا الاعتراض بالنسبة للبحث، دفع توهم التعارض بين الآيات والحديث لأن الحديث فيه استثناء أهل الكتاب من المشركين فكلمة (غير) في الحديث معلوم أنها للاستثناء، والإستثناء هنا متصل، ويقوي ذلك آية التوبة المتقدمة، وعليه فيتوهم من الحديث الذي وقع فيه استثناء أهل الكتاب من المشركين أنه يخالف الآيات التي وقع فيها عطف أهل الكتاب على المشركين والعطف يقتضي المغايرة، هكذا وجه إدخال هذا السؤال في البحث.

اباحته ذبائح أهل الكتاب ونكاح نسائهم

منهج من مناهج دعوته

لقد كان من منهجه في دعوته أهل الكتاب أن أباح لأمته ذبائحهم دون باقي ملل الكفر، كذلك أباح الله لهذه الأمة نكاح الكتابيات دون غيرهن من سائر ملل الكفر لأن بذلك تحصل الالفة ويمكن الاجتماع وتسهل الدعوة إلى الله، لأن المسلمين وأهل الكتاب إذا كانت بينهم المناكحة والمبادلة في التجارة بحيث كان البعيدون منهم يجلبون لنا لحومهم، ونشتريها منهم فيكثر الاختلاط بين المسلمين وأهل الكتاب بسبب الارتباطات التي بينهم في التجارة والمناكحة، ولا شك أن هذا مدعاة لدخولهم في دين الإسلام ولا سيما إذا كان من يتعامل معهم في ذلك الزمن صحابة رسول الله ﷺ الذين يطبقون جزئيات الإسلام تطبيقاً كاملاً، فإذا رأوا تطبيق هذه الجزئيات، وحرص مطبقيها على تطبيقها، كان ذلك داعياً بلا شك لهم إلى أن

يفكروا في هذا الدين، وفي أهله، وكيف كانوا بهذه المثابة من المسارعة في أمر هذا الرسول ﷺ، فإذا راجعوا أنفسهم علموا أن هذا لا يصدر إلاَّ عن يقين كامل بأن هذا الدين من الله جل وعلا، وأن محمداً ﷺ الذي جاء به لا يمكن أن يأتي به من عند نفسه.

فمن الأول الذي هو إباحة ذبائح أهل الكتاب ما رواه البخاري في صحيحه وهو:

الحديث الثالث عشر:

قال رحمه الله في باب ذبائح أهل الكتاب وشحومها من أهل الحرب وغيرهم وقوله تعالى: ﴿أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم...﴾ (١).

وقال الزهري: لا بأس بذبيحة نصارى العرب، وإن سمعته يسمى لغير الله فلا تأكل، وإن لم تسمعه فقد أحله الله، وعلم كفرهم.

ويذكر عن عليّ نحوه، وقال الحسن وإبراهيم: لا بأس بذبيحة الأقلف(٢).

وقال ابن عباس: طعامهم ذبائحهم، ثم ساق بسنده إلى عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: كنا محاصرين قصر خيبر فرمى إنسان بجراب(٣) فيه شحم فنزوت

---

(١) جزء من الآية: ٥ من سورة المائدة.

(٢) الأقلف هو الذي لم يختن، والقلفة بالقاف، وقيل بالغين المعجمة وهي الجلدة التي تستر الحشفة.

(٣) هو بكسر الجيم ولا يفتح أو فتحه لغية حكاها عياض والنووي: المزود أو الوعاء والجمع جرب وأجرب، وأجربه. انظر القاموس ١/٤٧.

لآخذه، فالتفت، فإذا النبي ﷺ فاستحييت منه(١).

فالحديث دل على أن ذبائح أهل الكتاب حل لنا، وقد قدمنا توجيه ذلك وكونه منهجاً من مناهج دعوتهم، ودل على أنه لا فرق بين الذمي والحربي؛ لأن هذا الجراب رماه يهودي حربي محاصر، وكذلك لا فرق بين كون هذا الطعام المباح لنا مما حرمه الله على أهل الكتاب مثل هذا الجراب لأن فيه شحماً، والشحم مما حرم على اليهود، أو كان مما أباحه الله لهم مثل اللحم، وذلك مثل الذبيحة التي ذبحوها له ﷺ وجعلوا فيها السم وتناول من ذراعها، وفي هذه الأحاديث أبحاث فقهية طويلة تركنا التعرض لها كي لا نخرج عن الموضوع، وإن كانت مهمة ومأخوذة من ظواهر الأحاديث إلاَّ أن هذا ليس موضع ذكرها.

وقد روى مسلم حديث عبد الله بن مغفل هذا بروايات، فقد قال بعد سَوْقِهِ سنده إليه:

أصبت جراباً من شحم يوم خيبر قال فالتزمته فقلت: لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مبتسماً، ثم رواه من طريق أخرى بلفظ قريب من لفظ البخاري الذي تقدم(٢).

ومحل الشاهد منه ابتسامه ﷺ فإن الابتسام فيه زيادة على مجرد الإقرار، بل فيه السرور من الفعل كما هو واضح. أما استحياء عبد الله منه فليس دالاً على أن ما في الجراب غير مباح له حاشاه من ذلك، وإنما استحيا من النبي لما رأى من حرصه على أخذ الجراب، أو قوله: لا أعطي اليوم أحداً شيئاً من هذا(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح وفي كتاب فرض الخمس، وأبو داود في كتاب الأضاحي ٣/٢٤٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٣/١٣٩٣.

(٣) انظر شرح النووي لمسلم ١٢/١٠٣.

فدل الحديث الشريف على خصوصية ومزية لأهل الكتاب دون غيرهم من سائر أهل الكفر وهي انتفاع المسلمين بذبائحهم، وإذا كانوا يأكلون ذبائحهم فلا بد من مخالطتهم والتمكن من دعوتهم وإظهار المزية التي خصوا بها دون غيرهم، والاعتناء بشأنهم.

وليس معنى هذا أنه ﷺ لا يعتني بإسلام غير أهل الكتاب، بل يعتني بجميع الخلق ويرغب في إسلامه، ولكن وجود خصوصية لبعض ملل الكفر دون بعض لا تؤثر في التبليغ، ولا سيما إذا كان أولئك المقربون ممن لهم صلة بالأديان السماوية كأهل الكتاب؛ لأنهم لا شك عندهم علم بهذا الدين، وبهذا النبي صلوات الله وسلامه عليه، فتخصيصهم بأمور لها مساس بالأديان السابقة لاينافي اهتمامه الكامل بإسلام غير أهل الكتاب، ولا يفهم من هذا البتة أنه كان لا يهتم بإسلام غير أهل الكتاب، وقصته مع عمه أبي طالب دليل على اهتمامه بإسلام المشركين حيث كان يدعوه إلى الدخول في الإسلام عند الغرغرة، كما ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما أنه حضره وقت موته، وألح عليه بالنطق بالشهادتين، فأبى إلاّ أن يموت على ملة قومه والعياذ بالله تعالى.

أما الأمر الثاني: وهو إباحة نكاح نساء أهل الكتاب، فلم أجد فيه حديثا عن النبي ﷺ، وحكى عن بعض الصحابة أنهم تزوجوا كتابيات كما ذكره ابن كثير في تفسير الآية الآتية، ولكنه دل عليه القرآن دلالة صريحة حيث قال الله في سورة المائدة مبينا حلية أهل الكتاب كما تقدم من السنة ومبينا إباحة نكاح نسائهم: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان...﴾ (١).

---

(١) جزء من الآية: ٥ من سورة المائدة.

قبول الهدية من أهل الكتاب منهج من مناهج دعوتهم

مما لا شك فيه أن قبول الهدية فيه نوع من التقارب والاختلاط، وكلما زاد التقارب والاختلاط بين قوم سهلت دعوة بعضهم لبعض وسهل التفاهم بينهم، وقد كان ﷺ يقبل الهدية من أهل الكتاب ولا يقبلها من غيرهم من المشركين.. كما سيأتي ذلك إن شاء الله فظهرت خصوصية أهل الكتاب بهذا النوع، وليس ذلك إلاَّ للتمكن من دعوتهم، فقبول هديتهم منهج من مناهج دعوتهم كما لا يخفى، فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه وغيره وهو:

الحديث الرابع عشر:

قال: باب قبول الهدية من المشركين، وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: « هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل قرية فيها ملك أو جبار فقال:

اعطوها آجر[١]، وأهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم »[٢].

وقال: أبو حميد: أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب إليه ببحرهم[٣].

ثم ساق البخاري بسنده إلى أنس فذكر حديث الشاة التي سُمَّت له ﷺ وقد قدمنا أنه سيأتي ذكره إن شاء الله في الباب الثالث وقال أيضاً: وقال سعيد[٤] عن قتادة عن أنس أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ [٥].

---

(١) ويقال هاجر.

(٢) سيأتي هذا الحديث إن شاء الله في غزوة خيبر.

(٣) أي ببلدهم .

(٤) هو ابن أبي عروبة.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الهبة هكذا.

قلت: الحديث الذي علقه البخاري هنا في قوله: وقال أبو حميد أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء.. الخ وصله في جملة حديث طويل في كتاب الزكاة عن أبي حميد، قال:

حدثنا سهل بن بكار حدثنا وهيب عن عمرو بن يحيى عن عباس الساعدي عن أبي حميد الساعدي قال: غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك فجاء وادي القرى... وأهدى ملك أيلة للنبي بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب إليه ببحرهم(١).

قلت: أيضاً ورد في الأحاديث ذكر هذا الملك مبهماً ولكنه ورد مبيناً في سيرة ابن إسحاق حيث قال: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يوحنا(٢) بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية(٣)، فبين هنا اسمه واسم أبيه، وورد في بعض روايات هذا الحديث عند مسلم أنه ابن العلماء، ولعل العلماء اسم أمة فيكون أبوه اسمه رؤبة وأمه اسمها العلماء، أفاد ذلك ابن حجر، وأكيدر تصغير أكدر، ودومة بضم المهملة وسكون الواو بلد بين الحجاز والشام بقرب تبوك، وكان أكيدر ملكها وهو ابن عبد الملك بن عبد الجن، بالجيم والنون..، ينسب إلى كندة وكان نصرانياً.

ومن ذلك أيضا ما رواه أبو داوود في سننه بسنده إلى بلال رضي الله عنه وهو:

الحديث الخامس عشر:

قال: ما كان له ـ يعني النبي ﷺ ـ شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثته إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة.

(٢) بضم التحتانية وفتح المهملة.

(٣) بواسطة نقل ابن حجر في الفتح ٤/٨٨.

فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال! إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلاّ منّي، ففعلت فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار، فلما أن رآني قال: يا حبشي قلت: يا لبّاه فتجهمني وقال لي قولاً غليظاً، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قال: قلت قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع فآخذك بالذي عليك فأردك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس حتى إذا صليت العتمة ـ وهي صلاة العشاء ـ رجع رسول الله ﷺ إلى أهله فاستأذن عليه فأذن لي فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي: إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي وهو فاضحي فأذن لي أن ابق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني، فخرجت حتى إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني(١) عند رأسي حتى إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال أجب رسول الله ﷺ، فانطلقت حتى أتيته، فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن فأستأذنت، فقال لي رسول الله ﷺ أبشر فقد جاءك الله بقضائك ثم قال: ألم تر الركائب المناخات الأربع؟ فقلت بلى. فقال: إن لك رقابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إليَّ عظيم فدك، فاقبضهن وما عليهن واقض دينك ففعلت...»(٢).

ومحل الشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: أهداهن إليَّ عظيم فدك، ومعلوم أن فدك قرية من بلاد خيبر وعظيمها من عظماء أهل الكتاب.

---

(١) المجن بكسر الميم وفتح الجيم ونون مشددة: الترس.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/٤٣٩ ـ ٤٤١ كتاب الخراج.

الحديث السادس عشر:

ما رواه مسلم في صحيحه بسنده إلى علي بن أبي طالب أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه علياً فقال: شققه خمراً بين الفواطم(١).

وفي رواية بين النسوة، وفي رواية فشققتها بين نسائي(٢).

ففي هذه الأحاديث دلالة على أنه كانت تأتيه الهدايا من عظماء أهل الكتاب وكانوا يبعثونها إليه من بعيد، ولم يؤثر أن أحداً من المشركين بعث إليه بمثل هذه الهدايا، فدل ذلك على أنه ﷺ إنما كان يقبل الهدية من أهل الكتاب خصوصية لهم وتألفاً على الإسلام وترغيباً لهم فيه.. وسيأتي قريباً زيادة لهذا.

فإن قيل: كان يقبل الهدية من جميع المشركين كما قيل أنه ورد ما يفيد ذلك وعليه فلا مزية لأهل الكتاب على من سواهم فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لا مانع من أن يشترك مع أهل الكتاب غيرهم في منهج من مناهج الدعوة؛ لأنه ﷺ مرسل إلى الخلق كافة، وكونه في بعض الأحيان يخصص لأهل الكتاب منهجا خاصا يدعوهم به، لا يمنع ذلك من اشتراك غيرهم معهم في بعض المناهج الخاصة بهم، ويكون الغالب في ذلك المنهج خصوصه بأهل الكتاب فالعبرة بالغالب ولا حكم للنادر.

---

(١) الفواطم: قال الهروي والأزهري والجمهور أنهن ثلاث: فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت أسد أم علي، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب.
وذكر ابن عبد البر وغيره أن علياً قسمه بين أربع الثلاث المذكورة وأربعة قال عياض يشبه أن تكون فاطمة بنت شيبة بن ربيعة امرأة عقيل بن أبي طالب. انظر شرح النووي لمسلم ١٤/٥٠ - ٥١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب اللباس من صحيحه.

الوجه الثاني: أن هذا ـ أي قبول الهدية ـ خاص بأهل الكتاب وأنه كان لا يقبل الهدية إلا منهم ويردها من الوثنيين، ويدل لذلك ما رواه أبو داود في سننه عن عياض بن حمار(١) قال: أهديت للنبي ﷺ ناقة فقال:

أسلمت؟ قلت: لا، فقال النبي: إني نهيت عن زبد(٢) المشركين»(٣).

فهذا الحديث الذي صححه الترمذي وحسنه، وسكت عليه أبو داود، ولم يتكلم فيه الخطابي دل على أن هذا خاص بأهل الكتاب وأن غيرهم لا يقبل ﷺ هديته.

قال الخطابي في معالم السنن عند حديث أبي داود هذا ما نصه:

«وفي رده هديته وجهان: أحدهما أن يغيظه برد الهدية فيتمعض منه فيحمله ذلك على الإسلام، والآخر أن للهدية موضعاً من القلب وقد روي «تهادوا تحابوا»(٤) ولا يجوز عليه ﷺ أن يميل بقلبه إلى مشرك فرد الهدية قطعاً لسبب الميل، وقد ثبت أن النبي ﷺ قبل هدية النجاشي، وليس ذلك بخلاف لقوله: «نهيت عن زبد المشركين لأنه رجل من أهل المشركين» ليس بمشرك، وقد أبيح لنا طعام أهل

---

(١) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي حديثه في مسلم وأبي داود والترمذي له هذا الحديث عندهما. انظر الإصابة قسم ٤ ص٧٥٢ والإستيعاب لابن عبد البر ١٢٣٢/٣، وقيل ابن حماد بن أبي حماد وهو تحريف كما جزم به المعلق على الاستيعاب على محمد البجاوي. والله أعلم.

(٢) الزبد: العطاء يقال زبد له يزبده رضخ له من ماله. انظر القاموس ٣٠٧/١.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والترمذي في السير رقم ١٥٧٧ وقال حسن صحيح.

(٤) رواه النسائي في الكنى والبخاري في الأدب المفرد، قال الزين العراقي: والسند جيد، وقال ابن حجر: سنده حسن انتهى بواسطة النقل من فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٧١/٣. وقال العجلوني في كشف الخفا: رواه الطبراني في الأوسط.

الكتاب ونكاح نسائهم وذلك خلاف حكم أهل الشرك. انتهى منه(١).

فدل قول الخطابي: لأنه رجل من أهل الكتاب على التفرقة بين أهل الكتاب ومَنْ سواهم من المشركين من عبدة الأوثان، وأن كان أهل الكتاب مشركين كما قدمنا.. والله تعالى أعلم.

هذا وإن الحافظ ابن حجر فهم من ترجمة البخاري الذي ساق تحتها الحديث الذي قدمنا عنه وهي قوله: باب قبول الهدية من المشركين، فهم أن البخاري يريد بيان جواز قبولها من المشركين جميعاً، وأنه يشير إلى تضعيف حديث أخرجه موسى بن عقبة في المغازي إن عامر بن مالك قدم على رسول الله ﷺ وهو مشرك فأهدى له فقال: إني لا أقبل هدية من مشرك» وقد اعترف الحافظ نفسه بأن رجال الحديث ثقات إلا أنه قال أنه مرسل(٢).

والخلاف في الاحتجاج بالمرسل معروف، ويقوي هذا الحديث حديث عياض ابن حمار عند أبي داود والترمذي وابن خزيمة، وقد صححه الأخيران، وقد تقدم قريباً تصحيح الترمذي له.

ومما يقوي ما ذكرته من اختصاص أهل الكتاب بقبوله ﷺ للهدية منهم: ما ذكره ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين حيث قال بعد أن ذكر قصة هدية عياض للنبي ﷺ ورده لها قال: «ولا ينافي هذا قبوله هدية أكيدر وغيره من أهل الكتاب؛ لأنهم أهل كتاب؛ فقبل هديتهم ولم يقبل هدية المشركين»(٣).

فتراه صرح بالفرق بين أهل الكتاب وغيرهم من أهل الكفر دون تردد

(١) معالم السنن للخطابي حاشية أبي داود ٣/٤٤٢.

(٢) انظر فتح الباري ٥/٢٣٠.

(٣) انظر إعلام الموقعين ٤/٣٣٣.

منه في ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: «أورد المصنف أحاديث تدل على الجواز - يعني جواز قبول الهدية من المشركين - فجمع بينها الطبري بأن الامتناع فيما أهدي له خاصة والقبول فيما أهدي للمسلمين، وفيه نظر لأن من جملة أدلة الجواز ما وقعت الهدية فيه له خاصة، وجمع غيره بأن الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول في حق من يرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام وهذا أقوى من الأول، وقيل يحمل القبول على من كان من أهل الكتاب، والرد على من كان من أهل الأوثان».

وقيل يمتنع ذلك لغيره من الأمراء وأن ذلك من خصائصه، ومنهم من ادعى نسخ المنع بأحاديث القبول، ومنهم من عكس ثم قال وهذه الأجوبة الثلاثة ضعيفة - يعني الثلاثة الأخيرة دون الثلاثة الأول - فالنسخ لا يثبت بالاحتمال ولا التخصيص. اهـ(١).

قلت: قوله: وقيل يحمل القبول على من كان من أهل الكتاب: القول الثالث من الأقوال الثلاثة الأول الذي حكاه بصيغة التمريض؟ الظاهر أنه هو الصحيح في الجمع لأنه دل عليه حديث صحيح صححه ابن خزيمة والترمذي ومعه حديث رجاله ثقات، إلاَّ أنه مرسل كما قدمنا اعتراف ابن حجر بذلك، وقول ابن حجر أورد المصنف عدة أحاديث تدل على الجواز، **أقول**: إن هذا الباب الذي ذكره المصنف لم يورد تحته حديثاً يدل على قبول الهدية من المشركين، اللهم إلاَّ قوله: باب قبول الهدية من المشركين، أو إذا كان يعني أن الملك الذي أهدى هاجر إلى سارة زوج

---

(١) انظر فتح الباري ٥/٢٣١ المصدر السابق.

إبراهيم عليه السلام كان مشركاً بناءاً على أن شرع من قبلنا شرع لنا، أما بقية الأحاديث فإنها في أهل الكتاب، فحديث أبي حميد فيه أن الهدية له من ملك أيلة، وقدمنا أنها من بلاد النصارى في ذلك الوقت، وأن ملكها أهدى هدايا للنبي ﷺ، وأما حديث أنس ففيه أنه أهدى للنبي ﷺ سندس، وكان ينهى عن الحرير فعجب الناس منها فقال: «والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة، أحسن من هذا، ففي هذا الحديث إبهام المهدي، ولكنه مبين من رواية مسلم التي قدمنا، وفيها أن المهدي هو أكيدر دومة، وذلك نصراني كما تقدم.

وذكر في الباب أيضا حديث اليهودية التي أتت النبي ﷺ بالشاة المسمومة، وتلك يهودية كما هو واضح، ثم ذكر أيضاً حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر، رضي الله عنهما، وفيه أنهم كانوا جماعة في سفر مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة رجل، فجاءهم رجل مشرك عنده غنم فطلب منه ﷺ البيع أو العطية، فأبى إلاَّ البيع فاشترى منه شاة فصنعت لهم فأكلوا جميعاً حتى شبعوا، وليس في هذا الحديث هبة من مشرك إلا إذا قيل: طلبه البيع أو الهبة يفهم منه أنه لو وهب له لقبل، وهذا الاحتمال يقابل باحتمال آخر وهو أنه يحتمل أن يكون المشرك المذكور في الحديث كتابيا لأنه لم يبين هل هو من عبدة الأوثان أو من أهل الكتاب، وأهل الكتاب قدمنا أنهم مشركون بنص القرآن الكريم، والعلم عند الله.

فاتضح مما تقدم أنه ﷺ كان لا يقبل الهدية إلا من أهل الكتاب خاصة وأن ذلك خصوصية لهم دون عبدة الأوثان تألفاً لملوكهم وعظمائهم ليدخلوا في الإسلام أفواجاً.

قلت: قال ابن حجر في شرح هذا الحديث... : «وفيه فساد قول من حمل رد الهدية على الوثني دون الكتابي؛ لأن هذا الأعرابي كان وثنياً». اهـ .

وهذا بعد أن ذكر أول الصفحة أنه لم يقف على اسم هذا الرجل، والحديث لم يكن فيه إلاَّ أنه رجل مشرك، فلا أدري من أين أخذ الحافظ، بل من أين جزم بأنه أعرابي؟ فلم أجد شيئاً يدل على ذلك إلا لفظة مشرك، وهذه اللفظة قدمنا مراراً أنها لا تفيد القطع بأن المقصود بها وثني إلاّ أن ذلك الغالب مع العلم بأن الحافظ ابن حجر فارس الميدان والقول قوله في هذا الشأن. والله تعالى أعلم.

ولكنه ورد حديث عند أحمد عن عامر بن عبد الله أن قتيلة ابنة عبد العزى قدمت على بانتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وأقط وسمن وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، فسألت النبي ﷺ عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين..﴾[1] إلى اخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها»[2].

فهذا الحديث إن صح يكون فيه دلالة على جواز قبول الهدية من المشركين في الجملة، حيث أذن ﷺ لأسماء أن تقبل هدية أمها المشركة مع أنه ليس فيه أنه هو ﷺ قبل هدية مشرك، ولكنه أذن لأسماء في قبولها، ونحن بصدد ما يخص صلوات الله وسلامه عليه، وإن كان معنى الآية العام، يمكن أن يفهم منه ما يميل إليه ابن حجر من سبب النزول الذي ذكرنا.

مع أن الذي في الصحيحين عن أسماء أن أمها قدمت عليها واستأذنت أسماء النبي ﷺ في صلتها، فأمرها أن تصلها، وليس فيهما أنها أهدت لها هدايا.

ففي البخاري بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن

---

(١) جزء من الآية: ٨ من سورة الممتحنة.

(٢) المسند ٤/٤.

أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك »(١).

أضف إلى ما تقدم أن حديث أحمد المتقدم في قصة أسماء وأمها، وأنها أهدت لها هدايا من أقط وسمن وأمرها ﷺ بقبول تلك الهدية، ذكر فيه الشوكاني أنه مرسل؛ لأنه لم يقل عن عامر عن أبيه، فقد أسقط عبد الله بن الزبير من السند، وإنما ذكره تعريفاً بعامر فقط، وعليه يكون مرسل تابعي وفيه ما فيه مع أن في إسناده مصعب بن ثابت ضعفه أحمد وغيره(٢).

وعليه فلا تثبت بالحديث حجة والله تعالى أعلم.

قلت: في المنتقى هذا الحديث هكذا مرسلاً؛ لأنه ليس في سنده عنده عن عامر عن عبد الله بن الزبير، وعلى ذلك درج الشوكاني فحكم بإرساله في نيل الأوطار، مع أن الذي وقفت عليه في المسند أن الحديث غير مرسل، ففي السند عند أحمد التصريح برواية عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، وإليك سند الحديث:

« قال: حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عارم قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا مصعب بن ثابت قال: حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قدمت قتيلة: الحديث »(٣).

فالعجب من حكم الشوكاني عليه بالإرسال مع أن الذي في المنتقى ليس فيه التصريح بالإرسال، وإن كان فيه ما يحتمله إذا كان ذكر عبد الله بن الزبير إنما كان للتعريف بابنه عامر فقط. والله تعالى أعلم.

---

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الهبة، ورواه مسلم في كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين.

(٢) انظر نيل الأوطار للشوكاني ٦/٥.

(٣) انظر السند في المصدر السابق نفسه ٤/٤.

ومن قبوله هدية أهل الكتاب: ما قبله من هدية المقوقس ملك مصر والاسكندرية وقصة كتابه له مشهورة، وستأتي إن شاء الله في بيان كتبه ﷺ إلى ملوك وعظماء البلاد.

ولما قدم عليه حاطب بن أبي بلتعة بالكتاب من عنده وقرأه، دعا بكاتب يكتب العربية فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان: مارية وسيرين، والبغلة دلدل، وبقيت إلى زمن معاوية رضي الله عنه». انتهى من زاد المعاد في هدي خير العباد(١).

وذكر ابن هشام مارية وأنها أم إبراهيم وأنها هدية من المقوقس فانظره(٢).

فتبين مما ذكرنا أن قبوله ﷺ هدايا أهل الكتاب ورده هدايا المشركين غير أهل الكتاب منهج من مناهج الدعوة اتخذه ﷺ لدعوة أهل الكتاب دون غيرهم طمعاً منه في تلقيهم الإسلام بالقبول لما يعلمونه من خصائص الإسلام ومزاياه، وحثه على الإعطاء، وما يورثه الإعطاء من المقاربة والألفة فوضع الشيء في موضعه حكمة، ووضعه في غير موضعه جهل.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٧٢.

(٢) ١/١٧٥.

وصيته ﷺ على أهل الذمة منهج في دعوتهم

إن نبي الله صلوات الله عليه وسلامه لشدة رحمته بهذه الأمة ورأفته بها وبعد نظره في مناهج دعوته لها وأساليبه في الدعوة كان ينوعها إلى أنواع كثيرة، ولا سيما إذا كانت الدعوة لأهل الكتاب، فقد كان ﷺ يدعوهم بمناهج وأساليب متنوعة تألفاً لهم واستعطافاً ليدخلوا في الإسلام، وقد قدمت أن هذا لا يدل على أنه ﷺ كان لا يعتني بدعوة غير أهل الكتاب، بل كان يعتني بها غاية الاعتناء ولكننا الآن بصدد ما يتعلق بأهل الكتاب من ذلك، ولهذا فإن الله نفي عنه اللوم في شأن التبليغ حيث قال له ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾(١).

ومن هذا وصيته ﷺ على أهل الذمة والعهود من أهل الكتاب ووعيده الشديد لمن نقض عهدهم، أو أخفر ذمتهم حتى أنه توعد أصحابه بأن من قتل معاهداً في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حرم الله عليه الجنة.

فمن ذلك ما رواه أبو داود في سننه وهو:

الحديث السابع عشر: قال رحمه الله: باب الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته، ثم ساق بسنده عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً في غير كنهه(٢) حرم الله عليه الجنة»(٣).

ومن ذلك أيضا ما رواه البخاري في صحيحه وهو:

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الذاريات.

(٢) أي في غير وقته الذي يجوز قتله فيه. الخطابي في معالم السنن.

(٣) سنن أبي داود ١٩١/٣، وأخرجه النسائي في القسامة في باب تعظيم قتل المعاهد، وقال الخطابي: إن سنده حسن.

الحديث الثامن عشر: قال رحمه اللّه: باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ثم ساق بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: من قتل معاهدا لم يرح رائحته الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»(١).

وأخرج أيضاً تحت ترجمة: باب: من قتل ذمياً بغير جرم حديثاً آخر فعبر هناك في الحديث الأول بالمعاهد وفي الذي بعده بالذمي وهما سواء.

ثم ساق الحديث عن عبد الله بن عمر وأيضاً إلا أنه قال في كتاب الديات:

«من قتل نفساً معاهداً.. الخ الحديث»(٢).

فعبر في الترجمة بالذمي وأورد الخبر في المعاهد، وهذا من شدة فقه البخاري رحمه الله ودقته في تراجمه أراد بذلك ـ والله أعلم ـ أن يبين أن المعاهد والذمي بمعنى واحد لا فرق بينهما؛ لأن المراد من له عهد مع المسلمين سواء أكان بعقد جزية أم هدنة من سلطان، أم أمان من مسلم.

قلت: المراد بأهل الذمة في هذه الأحاديث اليهود والنصارى خاصة دون غيرهم، يدل لذلك تصريحه ﷺ بذلك في حديث رواه النسائي نص على أن أهل الذمة هم اليهود والنصارى.

فقد روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين، وهم اليهود والنصارى»(٣).

فهو ﷺ فسر أهل الذمة في هذا الحديث بأنهم اليهود والنصارى، ومعلوم أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات.

(٣) أخرجه النسائي في القسامة باب كم دية الكافر؟ ٨/٤٥ ط المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان.

المراد منهم من كان بينه وبين المسلمين صلح على عقد جزية أو مهادنة أو غير ذلك من أنواع الأمان.

ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه من حثه على الوفاء لأهل الذمة بما عوهدوا عليه واخباره أن في ذلك ضرراً على المسلمين زيادة على ما فيه من انتهاك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ. وهو:

الحديث التاسع عشر:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا لم تجبوا درهماً ولا ديناراً؟

فقيل له وكيف ترى ذلك كائنا يا أبا هريرة؟ فقال: أي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق المصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمة الله وذمة رسوله فيشد الله قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم»(١).

ومحل الشاهد من الحديث قوله: تنتهك ذمة الله وذمة رسوله، فدل على أن لهم حصانة منيعة تحصنوا بها جعلتهم في ذمة الله وذمة رسوله.

قلت: لا يفهم من هذه الأحاديث التي تقدمت، والتي ستأتي إن شاء الله أن الوفاء بالعهود لا يلزم إلاَّ لأهل الكتاب ولا أن الغدر لغير أهل الكتاب جائز ولا محمود، ولكن هذه الأحاديث التي وردت في أهل الكتاب خاصة بهم تدل على أن هناك خصوصية، وأما الأحاديث والآيات القرآنية الكثيرة الدالة على وجوب الوفاء بالعهود، فهي عامة فلا تعارض ولا إشكال؛ لأنه معلوم أن نقض العهود والغدر من علامة المنافق، ولكن هذا التحذير منه ﷺ لأصحابه ووعيده لهم الوعيد الشديد على عدم المحافظة على عهود أهل الذمة، أعطاهم خصوصية ومزية على غيرهم، وما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب إثم من عاهد ثم غدر.

ذاك إلاّ تألفاً لهم على الإسلام وتبييناً لهم لحقائقه وسماحته لأنهم يعرفون صفة محمد ﷺ، ويعلمون أنهم أخذت عليهم العهود والمواثيق بالإيمان به إذا بعث وهم أحياء، فإذا كانوا تحت أيدي المسلمين ورأوا رحمتهم بهم ووفاءهم بما التزموه لهم من الأمان تذكروا وجوب الوفاء بالالتزامات التي أخذت عليهم في كتب أنبيائهم بالإيمان به ﷺ فأخذتهم الحمية لدينهم فآمنوا، فهذا ان لم يكن نصاً في دعوتهم فإنه ظاهر فيها، والله أعلم.

ومن ذلك ما رواه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

وهو الحديث العشرون: «ألا من قتل نفساً معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً»(١).

ومن ذبّه عنهم وايصائه عليهم وتوعده من ألحق بهم سوءاً، لا يستوجبونه حتى أخبر أنه يكون حجيج من فعل ذلك يوم القيامة، ما رواه أبو داود في سننه عن العرباض بن سارية السلمي وهو:

الحديث الحادي والعشرون:

قال: أي العرباض: نزلنا مع النبي ﷺ خيبر ومعه من معه من أصحابه، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً ـ أي عاتياً ـ منكرا فأقبل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب ـ يعني النبي ﷺ وقال: «يا ابن عوف اركب فرسك ثم نادِ: ألا إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا

---

(١) أخرجه الترمذي في الديات رقم ١٤٢٤ وقال حديث حسن صحيح ٤٢٩/٢ ط السلفية، وابن ماجه في الديات ٨٩٦/٢ رقم ٢٦٨٧.

للصلاة قال: فاجتمعوا ثم صلى بهم النبي ﷺ، ثم قال فقال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم عليه شيئاً إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم».

ثم ساق بسنده حديثاً آخر عن رجلٍ من كفيف عن رجلٍ من جهينة وهو:

الحديث الثاني والعشرون:

قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم، فيصالحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم شيئاً فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم »ثم ساق حديثاً آخر بسنده إلى صفوان بن سليم أخبره عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دنية(١) عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» (٢).

فهذه عدة أحاديث في هذا الموضوع ذكرتها وسألم ببعضها لأوضح محل الشاهد منها وأبين بعض المعاني منها لتتضح الدلالة منها علي المقصود وأن هذا منهج حكيم من مناهج الدعوة الإسلامية صادر من مربي هذه الأمة الأول وهو: نبينا محمد ﷺ فينبغي لكل داعية أن يحذو حذوه ويقتدي به عملاً بقوله عز وجل:

---

(١) دنية بكسر الدال معناه لاصقوا النسب متصلوه بآبائهم. الخطابي.

(٢) أخرجها أبو داود في كتاب الخراج ٤٣٦/٣ وفي إسناد الثاني منها مجهول، وفي إسناد الثالث مجهولون، كما ترى إلا أن هذه الأحاديث لكثرتها يقوي بعضها بعضاً وإن كان في بعضها نوع من الضعف.

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة... ﴾[1].

فهو عليه الصلاة والتسليم يقول في **الحديث الأول**: من قتل معاهداً.. الخ وكلمة (من) شرطية (ومن) الشرطية من صيغ العموم، والمعنى أن أي أحد كائناً من كان قتل معاهداً له ذمة من المسلمين بدون سبب يستوجب به القتل بأن نقض عهد المسلمين، أو امتنع من دفع ما التزم به للمسلمين من الجزية فمن فعل ذلك حرم الله عليه الجنة بنص هذا الحديث، وفيه من الاعتناء بأهل الكتاب ما هو واضح وحكمه مستمر حتى وقتنا هذا، فهذا الوعيد الشديد وهذا الحكم إذاعتهما الآن واظهارهما لأهل الكتاب، وبيان ما فيها من القسوة على من خالف من المؤمنين والعطف ولين الجانب مع أهل الكتاب، حيث كانوا ذميين، أخذوا الأمان لأنفسهم وأموالهم توضيح هذا كله لأهل الكتاب اليوم، منهج من مناهج الدعوة حكيم.

أما الحديث الثاني: فهو حديث البخاري الذي ترجم له بقوله: باب اثم من قتل معاهداً بغير جرم، ثم قال فيه... من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما».

وقد روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة تبين المراد منه ففي بعض رواياته كما عند النسائي: من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، فقال من أهل الذمة ولم يقل معاهداً، والمعنى واحد، ووقع في بعض الروايات بغير حق، فالحاصل أنه ﷺ أخبر في هذا الحديث أن «من قتل معاهداً لم يجد رائحة الجنة». فعبر بصيغة العموم التي هي (من) الشرطية، وأطلق في هذا الحديث حيث لم يقيد في الخبر بكونه قتله بغير حق، ولكن الرواية التي ذكرنا عن أبي داود والروايات التي ستأتي إن شاء الله مقيدة قتله بغير حق تحمل عليها هذه الرواية المطلقة بلا شك، لأن حمل المطلق على المقيد

---

(١) جزء من الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

واجب عند الجمهور، إذا اتحد حكمهما وسببهما كما هنا، وكما هو موضح في كتب أصول الفقه وليس هذا موضع بسطه، مع أن في الترجمة التي ترجم بها البخاري ما يدل على تقييد الحكم بالقتل دون حق حيث قال: باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، والله تعالى أعلم.

أما الحديث الثالث: الذي رواه البخاري أيضاً فقد ترجم له بقتل الذمي بغير جرم أيضاً، فقد ترجم للذمي وأورد الخبر في المعاهد ليبين أن المراد كل من له عهد من أهل الكتاب مع المسلمين سواء أكان ذمياً تحت أيديهم أو معاهداً في داره كما قدمنا عنه رحمه الله تعالى.

قلت: يتعين تقييد هذا النفي الوارد في هذه الأحاديث بعدم وجود رائحة الجنة لمن قتل معاهداً بمدة محددة من الزمن يعلمها الله. ويكون المقصود من هذا الإطلاق فيها الزجر للمسلمين عن نقض العهود والحث على الوفاء لأهل الذمة بما التزم لهم من الأمان، ويكون هذا الحرمان من رائحة الجنة الذي ورد في الأحاديث الصحيحة الصريحة يحمل على حرمان مرتكب هذا الأمر من رائحة الجنة مدة محدودة، ولا يحرم من دخول الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وإن ارتكبوا المعاصي، إلا عند من يكفر بالمعصية إذا مات ولم يتب، أما مذهب أهل السنة في مرتكب الكبيرة من المسلمين إذا مات على ذلك ولم يتب، فإن أمره موكول إلى الله عز وجل، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بدون حساب، وإن شاء عاقبه على جريمته، ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة، ولهذا أدلة كثيرة ليس هذا موضع بسطها، ولا بد أن أذكر منها آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدا﴾(١) . فقد أخبر تعالى في هذه الآية أنه لا

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء.

يغفر ذنب من كان ذنبه كفراً، وذلك مقيد بما إذا لم يتب من كفره لقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف...﴾(١).

وأخبر أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب، ويدخل في ذلك الكبائر ونقض العهود وغير ذلك، ثم أخبر تعالى أن من أشرك بالله فقد توغل في الضلال واستحق ألا يغفر ذنبه، وأن يكون جزاءه الخلود في النار والعياذ بالله تعالى.

وإلا فإن في الحديث حرجاً عظيماً حيث أنه ﷺ خبير بمدلولات الألفاظ، والغالب أنه في هذه الأحاديث لم يعبر إلا بصيغة العموم التي تعم في كل زمان، وكل مكان ففيه تهديد شديد وتوعد بأعظم وعيد يردع المسلم ويزجره عن ارتكاب هذا النوع من المخالفة والله تعالى أعلم.

أما الحديث الرابع: الذي ذكرنا للاستشهاد على أن المراد بأهل الذمة اليهود والنصارى ففيه التصريح منه ﷺ بأن أهل الذمة المراد بهم اليهود والنصارى دون من سواهم وذلك أنه قال في الحديث: «عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين، وهم اليهود والنصارى»، فليس في الحديث شيء يتعلق بدعوتهم، وإنما فيه بيان حكم فقهي وهو أن دية الذمي على النصف من دية المسلم، ولذلك موضع بحث في كتب الفقه كما أنه فيه تفسير أهل الذمة منه ﷺ بأنهم اليهود والنصارى بل لو قيل أنه فسر أهل الذمة بصيغة حصر لما بَعُدَ ذلك؛ لأنه فسرهم بجملة معرَّفة الطرفين وهي - وهم اليهود والنصارى - فالضمير (هم) معرفة، واليهود هو الخبر ومعرفة أيضاً وقد نص أهل البلاغة على أن تعريف طرفي الجملة من أقسام الحصر، وكذلك الأصوليون. فكأنه ﷺ حصر أهل الذمة في اليهود والنصارى حيث كان لهم أمان أو عقد جزرية دون غيرهم من الكفار وإن كان لهم أمان أو كانوا في هدنة مؤقتة أو غير ذلك.

---

(١) جزء من الآية ٣٨ من سورة الأنفال.

والله تعالى أعلم.

أما الحديث الخامس: فهو من حديث البخاري عن أبي هريرة، وفيه الحث للمسلمين على الوفاء بالعهود وإخبارهم أن في نقض عهودهم ضرراً عظيماً للمسلمين زيادة على ما فيه من انتهاك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ كما أخبر أنه عند ذلك يعطي الله لأهل الذمة قوة في قلوبهم مجازاة للمسلمين وبذلك تضعف شوكة المسلمين حيث يقل الخراج الذي كانوا يأخذونه من أهل الكتاب مقابل أمنهم على أنفسهم وأموالهم.

وكون أبي هريرة يقول: فيمتنعون من دفع الجزية، لا ينافي كون ذلك دعوة لهم؛ لأن عدم دفعهم الجزية مقدمة لعدم دخولهم في الإسلام، فكونه لم يقل فيمتنعون عن الدخول في الإسلام لا ينافي أن ما فعل معهم دعوة لهم.

فتبين من هذا الحديث الشريف أن نقض العهود مع الذميين فيه من الضرر ما لا يعلمه إلا الله جل وعلا وفي الحديث منهج عظيم حكيم من مناهج الدعوة أكده ﷺ في أحاديث كثيرة ليرسخ في قلوب أصحابه ومن بعدهم من المسلمين.

أما الحديث السادس: عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا من قتل نفساً معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً.

قلت: وردت الروايات في هذا الحديث تارة بالتعبير بأن مرتكب هذا النوع من المخالفة لم يرح رائحة الجنة، ورائحة الجنة توجد من مسافة أربعين عاماً، ومرة سبعين خريفاً، وقد ورد في أحاديث أخرى أن رائحة الجنة توجد من مسيرة خمسمائة سنة، وفي بعض الروايات أنها توجد من مسيرة ألف سنة وظاهر هذه الروايات الاختلاف، ولابد فيها من الجمع، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أوجهاً من الجمع ذكرها ابن بطال

والكرماني، ولم يرتض منها شيئاً ثم قال: قلت: والذي يظهر لي أن الجمع أن يقال إن الأربعين أقل زمن يدرك به ريح الجنة من في الموقف، والسبعين فوق ذلك أو ذكرت للمبالغة والخمسمائة ثم الألف أكثر من ذلك، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأعمال فمن أدركه من المسافة البعدى أفضل ممن أدركه من المسافة القربى وبين ذلك ... الخ كلامه. اهـ (١)، وهذا وإن كان خارجاً عن موضوع الدعوة ومنهجها إلا أن فيه بياناً للأحكام التي تؤخذ من الأحاديث التي فيها مناهج الدعوة الإسلامية؛ لأن فقه الحديث وما يستنبط منه من الفوائد وما يوفق بين الأحاديث من الجمع حيث كانت رواياتها ظاهرها التعارض، كل هذا له مساس بموضوع الدعوة الإسلامية، والله تعالى أعلم.

أما الحديث السابع: فهو حديث أبي داود عن العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه، وفيه أن يهودياً من أهل خيبر قال للنبي ﷺ: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب ﷺ وأمر ابن عوف أن يركب فرسه وأن ينادي في الناس: ألا إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأمرهم أن يجتمعوا للصلاة فلما صلى بهم قال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء أنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذنهم ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم».

فهو ﷺ في هذا الحديث هدد أصحابه وغضب عليهم وأخبر أن أهل الكتاب إذا أدوا ما عليهم لا يجوز لأحد من المسلمين دخول بيوتهم ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم، فهم في هذه الحقوق والمسلمون سواء، وما ذاك إلا تألفاً لهم على هذا

---

(١) انظر فتح الباري ١٢/٢٦٠.

الدين ليتحققوا ما فيه من العدالة والمساواة، والسماحة، وليعلموا أن هذه الشريعة السمحة التي بُعِثَ بها محمد ﷺ شريعة تصلح للفرد والمجتمع، فهي تدافع عن الأفراد وعن المجتمعات، وتسوي بين المسلمين والذميين والمعاهدين في كثير من الحقوق، إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوها.

والمقصود من هذا أنهم إذا طالت بهم المدة، ورأوا طمأنينة أهل هذا الدين ووفاءهم وعدم غدرهم، علموا أنه دين حق من الله ورغبوا في الدخول فيه وآمنوا بمحمد ﷺ، وقد كانت هذه السماحة والعطف ولين الجانب سبباً في دخول كثير من أهل الكتاب في الإسلام، بل وكانت سبباً في دخول كثير من عباد الأوثان من المجوس وغيرهم، ولا سيما بعد أن اختلطوا بالمسلمين وتعاملوا معهم؛ لأن المسلمين في أولئك العصور، كانوا يمثلون المسلمين والإسلام حقيقة، فكل من خاطبهم ورأى تذوقهم للإسلام وفهمهم إياه ومخالطته لقلوبهم وأجسامهم، حيث أنهم كل ما يعتقدونه بقلوبهم يعملون بمقتضاه، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير، كل من رأى ذلك دخل في الإسلام إلا من سبق عليه الكتاب بالشقاء؛ لأن الهداية الحقيقية بيد الله تعالى وليس على الرسل إلاَّ تمام التبليغ: ﴿ليس عليك هديهم ولكن الله يهدي من يشاء... ﴾(١).

أما الحديث الثامن: من هذا النوع فهو عن أبي داود أيضا عن رجل من جهينة قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تقاتلون قوماً..» الخ الحديث، ففيه النهي الصريح لأصحابه، ولأمته من بعدهم ألا يأخذوا منهم شيئاً غير الذي صالحوهم عليه، وقد قدمنا أن في سند هذا الحديث مجهولاً.

وأما الحديث التاسع: فهو عند أبي داود أيضاً كما تقدم عن عدة من أبناء

---

(١) جزء من الآية ٢٧٢ من سورة البقرة.

أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ : قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» وقد قدمنا أن في إسناده مجهولين، ولكن كثرة الروايات يقوي بعضها بعضاً، عند أهل الحديث.

فهذه الأحاديث التسعة التي ذكرنا ثمانية منها، تدور حول شيء واحد وهو النهي عن التعرض للمعاهدين والذميين من أهل الكتاب، وواحد بيّن المراد بالمعاهدين والذميين وهو حديث النسائي، وفيها ما هو صحيح بلا شك وفيها ما هو حسن صحيح كما عند الترمذي إلى غير ذلك، وفيها هذان الحديثان الأخيران اللذان في أحدهما مجهول وفي الآخر مجهولون، ويتقويان بما معهما من الأحاديث، والعلم عند الله تعالى.

فتراه ﷺ في هذا الحديث الأخير، صرح بأن من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه من العمل شيئاً لا يطيقه، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، أخبر ﷺ أن من فعل ذلك كان حجيجه[1] يوم القيامة ومن كان النبي ﷺ خصمه يوم القيامة فإنه مغلوب بلا شك إذ هو، صلوات الله وسلامه عليه، لا يخاصم ولا يدافع إلا بحق عن حق، ففي الحديث وعيد شديد وزاجر عظيم عن تعدي حدود الله في الذميين والمعاهدين، وذب عن أنفسهم وأموالهم لا يمكن معه التعرض لهم إلا ممن لا يبالي بأوامره ﷺ ونواهيه.

فتلخص من هذه الأحاديث التي ذكرنا من عرضها، وبيان الدلالة منها وبعض تعلقات العلماء عليها، أن الوصية على أهل الذمة والوفاء لهم بعهود وعدم تكليفهم من العمل ما لا يطيقون، وعدم التعرض لدخول بيوتهم إلا بإذنهم وعدم ضرب

---

(١) أي خصمه الذي يتولى خصومته.

نسائهم، وأكل ثمارهم أو ظلمهم وانتقاصهم.

تلخص من هذا كله أنه كان منهجاً من مناهج الدعوة النبوية التي كان ﷺ يدعو بها أهل الكتاب للدخول في الإسلام.

وقد نهج هذا المنهج بعده خلفاؤه الراشدون، فقد كانوا يجرون عليهم هذه الأحكام التي شرعها لهم نبينا ﷺ، لا يعتدون على شيء من أموالهم ولا من أنفسهم إلا إذا نقضوا العهود التي كانت بينهم وبين المسلمين، فعندئذ جازت معاملتهم بخلاف ما كانوا عليه من الأمن والطمأنينة حيث صاروا أهل حرب يجري عليهم ما يجري على الحربيين ومن تأمل فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح الشام في زمنه، علم أنه أجرى عليهم هذه الأحكام التي كان رسول الله ﷺ يجريها عليهم، وقد ظهرت نتيجة ذلك فدخل كثير من أهل الكتاب في الإسلام بسبب ذلك، والعلم عند الله تعالى.

فإن قيل: إنما حرم الإسلام ما ذكر في الأحاديث لأن لهم ذمة لا يجوز أن تخفر، وهذا جانب أخلاقي حرص الإسلام على تربية المسلمين عليه وليس نصاً في الدعوة، وإنما هو من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله مع جميع المعاهدين.

فالجواب: أنا لا نمنع أن يكون هذا فيه جانب خلقي وأن الإسلام لا يجيز خفر ذمة أي معاهد، ولكنا نقول بأن حسن الخلق مع المعاهدين وتربية المسلمين على ذلك، وتعودهم عليه لئلا يظهر للمعاهدين خلل في الإسلام يمنعهم من الدخول فيه، كل هذا فيه ترغيب لهم في الإسلام، والترغيب في محاسن الإسلام دعوة إليه بلا شك.

أضف إلى ذلك أن هذا النوع من الوعيد لم يوجد إلا في من خفر ذمة كتابي فكونه ﷺ يقول: أن من فعل ذلك لم يرح رائحة الجنة التي ريحها يوجد من مسيرة

كذا سنة، وكونه يخبر بأن من فعل لهم ذلك كان خصمه يوم القيامة، ونهيه عن دخول بيوتهم إلا بإذنهم إلى غير ذلك مما تقدم في الأحاديث، كل ذلك بطريق الإستقراء لم يؤثر عنه في غير أهل الكتاب حسب اطلاعي فدل ذلك الوعيد الشديد الذي لم يوجد في من خفر ذمة وثني مشرك له عهد على أن لأهل الكتاب خصوصية خصوا بها تألفا لهم على الإسلام وترغيباً لهم فيه، وقد قدمنا أن ذلك لا يعني أنه ﷺ كان لا يعتني بإسلام غير أهل الكتاب، ولكن الذي بين أيدينا بيان كيفية دعوته لأهل الكتاب دون غيرهم، وعلى هذا فيكون ما تضمنته هذه الأحاديث من الوصية بأهل الكتاب كما تقدم مفصلا من باب الدعوة بالحكمة التي أمر الله بها رسوله محمداً ﷺ في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾(١) والله تعالى أعلم، وبقية الأحاديث تقدم الكلام عليها خلال عرضها.

ضرب الأمثال لأهل الكتاب منهج من مناهج دعوتهم

مما لا شك فيه أن ضرب الأمثال لأهل الكتاب وبيان فضل هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، وبيان فضل هذه الأمة التي آمنت به ﷺ على غيرها من الأمم الذين آمنوا برسل الله السابقين عليه، كما أن بيان عظيم الأجر الذي أعطاه الله لهذه الأمة مع قصر أعمارها، ومع ذلك فاقت الأمم في الأجر الذي أعطاه الله لهذه الأمة مع قصر أعمارها ومع ذلك فاقت الأمم في الأجر وصارت أكثر منهم أجراً مع أن أعمال الأمم أكثر من أعمال هذه الأمة بحسب طول أعمارها، لاشك أن صوغ هذا لأهل الكتاب في قالب دعوة تبينها أمثال يضربها رسول الله ﷺ لأهل الكتاب، **فيها** حقائق هذه الأمة، أمة الإجابة وعظيم فضلها يتبين من خلاله **أنه منهج حكيم من** مناهج الدعوة لأهل الكتاب خاص بهم لا يشاركون غيرهم **معهم فيه**

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة النحل.

والله تعالى أعلم.

الحديث الأول:

هو ما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه في مواضع متعددة منه بأسانيد مختلفة عن أبي موسى الأشعري، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

فقد ساق عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وأوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً (١) قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن أكثر عملاً قال: قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال فهو فضلي أوتيه من أشاء».

قلت: أن في الحديث إخباراً ببعض المغيبات لأن هذا الكلام سوف يكون في الآخرة، وبيان ذلك لهم دعوة.

الحديث الثاني:

هو ما رواه البخاري أيضاً عن أبي موسى الأشعري بسنده إلى النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار قالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، فاستأجر قوماً فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر

---

(١) أصله قرَّاط بالتضعيف، فأبدل الراء الأول ياء فقيل قيراط كما قالوا دينار. وأصله دنار بالتضعيف أبدلت النون الأولى ياء.

الفريقين»(١).

الحديث الثالث:

عن أبي موسى أيضاً أن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا له نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما علمنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»(٢).

قلت: لقائل أن يقول إن هذه الأحاديث لا تصلح أن تكون منهجاً لدعوة أهل الكتاب حيث تدل على ضعفهم وتمردهم وحرمانهم من الأجر وذلك يدعو إلى التعصب وعدم طاعة من وصفهم بذلك، وأخبر عن حقائقهم ويؤيد ذلك ما في بعض روايات هذا الحديث عند البخاري من قولهم: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاء؟ فغضبوا وثاروا وحسدوا المؤمنين على ما أعطاهم الله من الثواب.

والجواب: أننا قدمنا أن محل الدلالة من هذه الأحاديث بيان فضل دين الإسلام على غيره من الأديان السماوية، وبيان فضل متبعيه على متبعي غيره من

---

(١) أخرجهما البخاري في كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة من صحيحه، وأخرج حديثاً في كتاب الأنبياء بسياق قريب من هذا الحديث، وكذلك في كتاب التوحيد.

الأديان، وذلك استمرار أهله على الطاعة وعدم كسلهم عنها، ورغبتهم في الثواب عند الله، كل هذا تبيينه لأهل الكتاب دعوة لهم للدخول في الإسلام ولا يمنع من كون ما ذكر دعوة غضب أهل الكتابين وثورتهم وحسدهم للمسلمين على ما أعطاهم الله، فقلما بلغوا دعوة إلا وغضبوا وثاروا وحسدوا، وكذلك غيرهم من المشركين وقع منهم ما ذكر من الثورة والغضب عند تبليغ الرسالة، فانظر إلى ما وقع من أبي لهب عمه ﷺ لما جمعهم النبي ﷺ على الصفا ودعاهم إلى توحيد الله، وأنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، فغضبوا وغضب أبو لهب، حتى قال له: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ وكان ذلك سبب نزول سورة ﴿تبت يدا أبي لهب[1] وتب﴾[2]» إلى غير ذلك، ويؤيد ما ذكرنا ما في بعض روايات الحديث من قول الله عز وجل لهم: «هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟» ففيه دليل على أن أعمالهم لم تبلغ أعمال هذه الأمة في المضاعفة، وما ذلك إلا من فضل اتباع هذا النبي محمد ﷺ، وفضل اعتناق هذا الدين الذي جاء به، كما يدل له أيضاً أن هذا الخطاب من الله لهم إنما يقع يوم القيامة وليس في الدنيا فيكون ذلك حافزاً لهم على أن يتداركوا ما نالته هذه الأمة التي آمنت بمحمد ﷺ، وعليه يتعين أن يكون الخطاب دعوة لأهل الكتاب الموجودين في ذلك الزمن ومن بعدهم إلى الآن، والعلم عند الله تعالى.

كذلك مما يقوي كون هذه الأحاديث منهجاً من مناهج الدعوة لأهل الكتاب أن هذا المثل العظيم الذي ضربه رسول الله ﷺ ـ كما في سبعة مواضع من صحيح البخاري ـ لليهود والنصارى والمسلمين لبيان أن من آمن بجميع الأنبياء أكثر أجراً ممن آمن ببعضهم ولم يدرك البعض الآخر، وأن من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير وأخرجه مسلم وغيره.

(٢) الآية (١) من سورة المسد.

لا أجر له ولا ثواب، ففي الحديث الإشارة إلى أن النصارى أكثر أجراً من اليهود؛ لأنهم عملوا نحو ربع النهار، واستووا مع اليهود الذين عملوا نصف النهار في الأجر، كما هو واضح في ألفاظ الحديث، وفي ذلك إشارة إلى أن من النصارى من آمن بموسى، ثم آمن بعيسى عليهما السلام.

أما هذه الأمة التي آمنت بنبيها صلوات الله وسلامه عليه، وآمنت بجميع الرسل قبله، موسى وعيسى وغيرهما، فإن أجرها أكثر من أجر الجميع، وهي لم تعمل إلا بقية من نهار، وهو من صلاة العصر إلى غروب الشمس، وذلك كناية عن قلة مدتها بالنسبة للأمم السابقة، ففي الأحاديث إشارة إلى أن مؤمني هذه الأمة أفضل ممن تقدمهم من الأمم، كما أن فيها الترغيب في الدخول في الإسلام حديث تحقق منها أن من آمن بمحمد ﷺ أكثر أجراً ممن آمن بنبي من الأنبياء آخر، وأن من آمن بالأنبياء جميعاً وآمن بمحمد ﷺ أكثر أجراً من الجميع، فمؤمنو هذه الأمة سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو من أي نوع من أنواع البشر، أفضل من مؤمني غيرهم، وعليه يكون نبينا، عليه أفضل الصلاة والتسليم، استعمل في هذه الأحاديث أسلوب الترغيب، وذلك أسلوب من أساليب الدعوة التي تستعمل فيها، فترغيب أهل الكتاب في الدخول في هذا الإسلام بكثرة أجر أهله عند الله وفضلهم على سائر أتباع الأنبياء أسلوب حكيم من أساليب الدعوة التي تستعمل في مناهجها.

فاتضح مما ذكر أن في هذه الأحاديث ترغيباً لليهود والنصارى والموجودين في زمنه ﷺ في الإيمان بهذا النبي الذي أعطى الله لمن آمن به من الأجر ما لم يعطه لمن آمن بنبي من الأنبياء السابقين، مع ما في الأحاديث المذكورة من الإشارة إلى إحباط عمل من آمن من أهل الكتابين بموسى أو بعيسى، أو بهما معاً ثم لم يؤمن بنبينا ﷺ لأن في بعض روايات الحديث، كما في رواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قالوا: ... لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل... ففي قولهم

وما عملنا باطل، ما يفهم منه أن إيمانهم بأنبيائهم باطل، حيث لم يضيفوا إليه الإيمان به ﷺ، وهذا معلوم أنه خاص بمن أدركه أما من مات منهم قبل بعثة نبينا ﷺ وكان مؤمناً بما جاءت به الأنبياء، فإنه لا يحبط عمله، وليس مطالباً بغير ذلك، ويؤيد ما ذكرته ما تقدم من حديث مسلم وهو قوله ﷺ: « والله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا دخل النار» فاليهود والنصارى من كان منهم مؤمناً بموسى وعيسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، إذا أدرك نبوة محمد ﷺ ولم يؤمن به، ولم يصدقه، حبط عمله بلا شك، كما هو معلوم، ومتفق عليه أن رسالة محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه، عامة للأحمر والأسود، للخلق كافة أنسه وجنه، للعالمين نذير، ودعوى النصارى أن رسالته خاصة بالعرب دعوى باطلة لا أساس لها من الصحة، وقد بسطت الكلام على هذه المسألة، أعني مسألة عموم رسالته ﷺ، وأبطلت دعوى النصارى بأنها خاصة بالعرب، وأنها لم تتناولهم، فليراجعه من شاء في رسالة (الماجستير) في باب عموم رسالة نبينا ﷺ في تفسير سورة إبراهيم الخليل.

قال ابن حجر في الكلام على بعض هذه الأحاديث ما نصه: « .. وظاهر المثل الذي في حديث أبى موسى، أن الله تعالى قال لليهود آمنوا بي وبرسلي إلى يوم القيامة، فآمنوا بموسى إلى أن بعث عيسى فكفروا به، وذلك في قدر نصف المدة التي من مبعث موسى إلى قيام الساعة، فقولهم لا حاجة لنا إلى أجرك، إشارة إلى أنهم كفروا وتولوا واستغنى الله عنهم، وهذا من إطلاق القول وإرادة لازمه،و لإن لازمه ترك العمل المعبر به عن ترك الإيمان، وقولهم: وما عملنا باطل، إشارة إلى إحباط عملهم بكفرهم بعيسى، إذ لا ينفعهم الإيمان بموسى وحده بعد بعثة عيسى، وكذلك القول في النصارى إلا أن مدتهم كانت قدر نصف المدة، فاقتصروا على نحو الربع من جميع النهار إلى أن قال... وقوله واستكملوا أجر الفريقين، أي بإيمانهم بالأنبياء

الثلاثة » انتهى كلامه[١].

هكذا قرر ابن حجر في هذا المعنى، إلاَّ أن قوله: وذلك في قدر نصف المدة التي من مبعث موسى إلى قيام الساعة لا ينبغي صدوره منه؛ لأن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله جل وعلا، فعلم الساعة عند الله ولا يدري أحد مدة بقاء الدنيا، ولا تحديد المدة التي بين مبعث موسى وقيام الساعة حتى يعلم نصف تلك المدة: ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله.. ﴾[٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكذلك الأحاديث.

وقوله في الحديث: فذلك مثل المسلمين الذين قبلوا هدى الله، وما جاء به رسوله، ومثل اليهود والنصارى تركوا ما أمرهم الله، فيه بيان فضل المؤمنين الذين آمنوا برسول الله ﷺ، وتعريض باليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا به، وكفروا به وجحدوا صفاته وكتموها، والعلم عند الله تعالى.

وقال الكرماني في كلامه على هذه الأحاديث: « الخطابي يروي هذا الحديث على وجوه مختلفة، ودل فحواه من رواية سالم عن ابن عمر أن مبلغ أجرة اليهود لعمل النهار كله قيراطان، وأجرة النصارى للنصف الباقي من النهار إلى الليل قيراطان، ولو تمموا العمل إلى آخر النهار، لاستحقوا تمام الأجرة وأخذوا قيراطين، إلا أنهم انخذلوا عن العمل، ولم يفوا بما ضمنوه، فلم يصيبوا إلا ما خص كل فريق منهم من الأجر وهو قيراط، ثم أنهم لما استوفى المسلمون أجر الفريقين معاً حسدوهم وقالوا: .. الخ الحديث، ولو لم يكن صورة الأمر على هذا، لم يصح هذا الكلام، «في طريقة أبي موسى بيان له، وقولهم لا حاجة لنا، إشارة إلى تحريفهم الكتب وتبديلهم

(١) من فتح الباري ٤/٤٤٨.

(٢) جزء من الآية ٦٣ من سورة الأحزاب.

الشرائع، وانقطاع الطريق بهم عن بلوغ الغاية، فحرموا تمام الأجر لجنايتهم على أنفسهم، حيث امتنعوا من تمام العمل الذي ضمنوه(١).

قلت: وبهذا يتضح أن في هذه الأحاديث التي وردت بروايات مختلفة في صحيح البخاري في سبعة مواضع منه متنوعة الأساليب منهجاً من مناهج الدعوة؛ لأن الدعوة إلى الله إنذار وتبشير، وفي هذه الأحاديث إنذار لليهود والنصارى الموجودين في زمنه ﷺ مما حل بمن قبلهم من أسلافهم الماضين من إحباط العمل كلياً حيث لم يؤمنوا بعيسى لما أدركوه ودعاهم إلى الله عز وجل، فكفروا بدعوته، كذلك اليهود والنصارى الذين أدركوا نبينا عليه الصلاة والتسليم، إذا لم يؤمنوا حبط عملهم جميعاً بما في ذلك إيمانهم بموسى وعيسى، وإن كانت هذه الأحاديث لم تقع فيها دعوة لأهل الكتاب صريحة، إلاَّ أن الدعوة تارة تكون صريحة، وتارة تكون مستنبطة، ولذلك فإني لا أترك ما وقفت عليه أثناء بحثي هذا مما يحتمل الدعوة لأهل الكتاب وذلك لأمرين:

أحدهما: أني أحب أن أستقصي ما ورد في هذا الموضوع مما له به أي مساس.

الأمر الثاني: أن موضوع بحثي هذا موضوع لا توجد له مراجع قديمة تختص به ولا كتب مؤلفة فيه، وإنما هو استنباطات من السنة فقط دون الكتاب؛ ولهذا فإني أذكر أشياء وردت عنه ﷺ تتعلق بأهل الكتاب، وربما لم يبد منها لجميع الناس بدهياً أن فيها دعوة، ولكن المتأمل الحذق إذا أمعن النظر يجد فيها دعوة، والعلم عند الله تعالى.

* * *

(١) انظر شرح الكرماني لصحيح البخاري ٤/٢٠٤.

إخبار أهل الكتاب بالمغيبات التي لا يعرفها غيرهم

منهج من مناهج دعوتهم

إن اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على حق، وأن نبي الله ﷺ على باطل هو ومن معه من المسلمين، كما حكى الله جل وعلا عنهم في محكم كتابه حيث قال: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا..﴾[1].

وقال عبد الله بن صوريا اليهودي الأعور الحبر للنبي ﷺ: (ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا تهتد) وقالت النصارى مثل ذلك، ذكر هذا ابن كثير في تفسيره عن محمد بن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عند هذه الآية، وقالوا أيضا إن الجنة لا يدخلها إلاَّ يهودي أو نصراني، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه حيث يقول: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى..﴾[2] وقد رد الله عليهم في آخر الآية وأخبر أن ذلك إنما هو أمان فقط لا تستند إلى شيء من الصحة، ولذلك طلب منهم البرهان الدال على صدقهم فيما ادعوه من البهتان، فأمر نبيه أن يقول لهم: ﴿... قل هاتوا برهنكم إن كنتم صدقين﴾[3] فهؤلاء الذين هذه صفاتهم، بحيث يدعون الكمال والقرب من الله عز وجل، واختصاصهم بالجنة دون بقية خلق الله ـ والجنة أعدها الله لعباده المتقين ـ إذا كان النبي ﷺ يخبرهم بالمغيبات التي لا يعلمها من الخلق أحد سواهم مثل تحريف كتبهم وتغييرهم فيها وتبديلهم، ومثل إخبار الله عمن فعل ذلك منهم بأنه مخلد في النار، إلى غير ذلك مما أخبرهم به ﷺ من الأمور التي لا يعلمها إلاَّ اليهود والنصارى، فبمثل هذا تقوم

---

(١) جزء من الآية ١٣٥ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ١١١ من سورة البقرة.

(٣) تمام الآية السابقة.

الحجة على أهل الكتاب، ويكون ذلك منهجاً من مناهج دعوتهم حيث يعلمون أنه ما كان حاضراً في ذلك الزمن الذي غير فيه أسلافهم وبدلوا، ولا يقرأ الكتب لئلا يتهموه بأنه قرأ عنهم الآن، ما هو موجود في كتبهم، ولم يكن حاضراً حين حرم الله عليهم هذه الأشياء التي أباحوها الآن لأنفسهم، وهم يعلمون أنها حرام عليهم فاستباحوها، فإذا رجعوا إلى أنفسهم وعلموا أن محمداً ﷺ رجل عربي أمي لا يقرأ الكتب ولا يكتب، ونشأ في أمة أمية، وهو مع هذا يقص على أهل الكتاب ما حرمه الله عليهم وينبههم على ما احتالوا عليه من إباحة تلك الأشياء التي حرمت عليهم بعد هذا كله إذا كان لهم نوع أنصاف صدقوه فيما أخبر به من الرسالة عن ربه، وآمنوا ودخلوا في الإسلام عن اقتناع، ولا شك أن هذا منهج من مناهج الدعوة يدعو إلى النظر في شأن محمد ﷺ والتدبر في حاله.

فمن ذلك ما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو:

الحديث الأول:

أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها، فباعوها»(١).

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو:

الحديث الثاني:

أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله يهوداً، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا أثمانها» قال أبو عبد الله قاتلهم الله لعنهم(١).

---

(١) جملوها بفتح الجيم والميم: أذابوها.

وقوله: قال أبو عبد الله ، المراد به البخاري رحمه الله، أراد بذلك تفسير قاتلهم، وروى أبو داود وغيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو:

الحديث الثالث:

قال: رأيت رسول الله جالساً عند الركن قال: فرفع بصره إلى السماء فضحك فقال: « لعن الله اليهود ثلاثاً أن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم ثمنه »(٢).

ومن هذا القبيل أيضاً وهو اخبار اليهود والنصارى بالأمور التي لا يعلمها غيرهم كإخبارهم بأمور حرمها الله عليهم في شرعهم، ويخبرهم ﷺ بذلك ويعيبه عليهم ويؤنبهم عليه، ولو كانت تلك الأمور التي ارتكبوها مباحة لهم في شرعهم لما أنكرها عليهم صلوات الله وسلامه عليه.

من ذلك ما ثبت في الصحيح من إنكاره ﷺ على اليهود والنصارى ما يفعلونه من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، مع علمهم أن ذلك غير مباح لهم في شرعهم، وقد أنكره عليهم وهو في آخر حياته، في مرضه الذي توفي فيه، ففي البخاري عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم وهو:

الحديث الرابع:

قالا: « لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، وكتاب الأنبياء، ومسلم في كتاب المساقاة.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع والإجارات، والترمذي في كتاب البيوع الحديث رقم ١٣١٥ والنسائي في البيوع في باب بيع الخنزير، وابن ماجة في التجارات الحديث رقم ٢١٦٧.

كشفها عن وجهه، فقال: وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا(١).

ففي هذه الأحاديث إخبار لأهل الكتاب بحقائق يعلمونها، غيروها وبدلوها وموهوا على الناس فيها، وأخبرهم ﷺ عن حالها وأنها حرام عليهم في الشرائع التي جاءتهم بها رسلهم، ولا تمكنه معرفة ذلك إلاَّ عن طريق الوحي، فكانت هذه الأحاديث دعوة لأهل الكتاب ضمناً إلى الدخول في الإسلام.

فإن قيل: إن راوي الحديث فسر الحديث بقوله: (يحذر ما صنعوا) ويكون لا دلالة فيه على الدعوة بحيث يكون تحذير للأمة من عمل هؤلاء.

فالجواب: أن الأحكام تؤخذ من خارج اللفظ، وذلك النوع يسمى دلالة الإشارة، التي هي إشارة اللفظ لمعنى ليس مقصوداً منه بالأصالة، بل بالتبع كقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم...﴾(٢) فيه الإشارة إلى صحة صوم من أصبح جنباً من الوطء لأن لفظ الليل يصدق على جميع أجزائه بما في ذلك جزء منه، بحيث لا يمكن للجنب الغسل قبل الفجر.

ومنها استنباط علي بن أبي طالب المشهور، أن أقل أمد الحمل ستة أشهر من مجموع قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين..﴾(٣).

مع قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً...﴾(٤) وبيان ذلك أن ثلاثين شهراً إذا نقصت منها حولين كاملين بقيت ستة أشهر، وأمثال هذا كثيرة فالآيتان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، وفي آخر كتاب المغازي.

(٢) جزء من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٣) جزء من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ١٥ من سورة الأحقاف.

كلتاهما سيقتا لبيان حكم مستقل، وأشارتا بمجموعهما إلى حكم آخر هو أقل أمد الحمل، والآية الأولى سيقت لبيان جواز مباشرة الصائم أهله مدة الليل كله، ومع ذلك أشارت إلى حكم آخر مستقل هو صحة صوم من أصبح جنباً من تلك المباشرة أو من غيرها، والعلم عند الله تعالى.

كذلك الأحاديث على أنها سيقت لبيان تحذير الأمة مما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم، تشير إلى شيء آخر وهو إخبار اليهود بأن هذا محرم عليهم في شريعتهم، وأنهم بتلك المخالفة لما أمروا به من قبل أنبيائهم استحقوا الإنكار الشديد منه ﷺ، ولا يرد على هذا أنه ﷺ أمر أن يدعو الناس بالحكمة، فإنه ﷺ عربي وعادة العرب أن يجرى على ألسنتهم مثل هذا الكلام ولا يقصدون حقيقته، كقولهم: تربت يداه، وقولهم: ويلك، وقولهم: رغم أنه، إلى غير ذلك من الألفاظ الكثيرة التي تستعملها العرب ولا تقصد منها الشر المحض.

ومن هذا النوع أيضاً ما كان ﷺ يبينه لأهل الكتاب من اختلافهم على الحق، واتباع أمة محمد ﷺ له وهداية الله لهم إلى طريقه المستقيم، وإخباره ﷺ بأن جميع الأمم تبع لنا، وإخباره اليهود والنصارى بأن الله افترض عليهم فرائض فضيعوها، واختلفوا فيها، وأن الله هدى هذه الأمة لها، ولا يمكن له ﷺ أن يعطي هذه الحقائق مفصلة لأهل الكتاب طبق ما يعلمونه إلا بواسطة وحي من الله فبذلك يعلمون حقا أنه نبي مرسل من الله فيتبعونه، وعليه يكون هذا النوع من الأخبار بهذه الأمور التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي نوعا من الدعوة لأهل الكتاب.

فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من اختلاف اليهود والنصارى في يوم الجمعة الذي فرض عليهم، واختلفوا فيه وهدى الله له هذه الأمة.

ففي مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو:

الحديث الخامس:

قال: قال رسول اللّه: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل، الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له (قال يوم الجمعة) فاليوم لنا، وغد لليهود، وبعد غد للنصارى، ثم ساق بسند آخر عن أبي هريرة أيضاً وحذيفة رضي الله عنهما وهو:

الحديث السادس:

قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق. وفي رواية المقضي بينهم[١].

ورواه البخاري بلفظ نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله فغداً لليهود وبعد غد للنصارى»[٢].

وفي رواية لمسلم: «.. وهذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع... الخ»[٣].

فمحل الدلالة من الحديث على دعوة أهل الكتاب للدخول في الإسلام هو

---

(١) أخرجهما مسلم في صحيحه في كتاب الجمعة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة. (٣) أخرجه مسلم في المصدر السابق نفسه.

تبيين حقائقهم لأنفسهم، حيث أخبروا بما يعلمون، وهو أنهم افترض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة، وأنهم اختلفوا فيه ولم يعظموه وأخذوا يوماً غيره من الأيام وجعلوه هو يومهم، وذلك اليوم تابع لليوم الذي اختاره الله لهذه الأمة. ففيه الإشارة إلى تقدمها وفضلها على الأمم، حيث لم تختلف في اليوم الذي فرض عليها، فأخبر ﷺ أن السبت والأحد تبع للجمعة، وكذلك اليهود والنصارى تبع لنا يوم القيامة، فاليهود والنصارى يعلمون أن اليوم الذي أمروا بتعظيمه هو يوم الجمعة، فإذا أخبرهم ﷺ بما يوافق ما عندهم من العلم، وبين لهم أن ما اختلقوه من تعظيم غيره، إنما هو تبديل منهم وتغيير في شرائع الأنبياء، إذا أخبرهم بذلك علموا أنه ما أخبر به إلا من طريق الوحي فصدقوه ورجعوا عن إفكهم وافترائهم، ولكنهم جحدوا وحسدوا وعاندوا، فحقت عليهم كلمة العذاب.

فإن قيل: ليس في هذه الأحاديث التي ذكرت خطاب لأهل الكتاب، بل ظاهرها أنها أخبار أخبر بها رسول الله ﷺ أصحابه، وليس تقتضي دعوة لأهل الكتاب.

فالجواب: أن المدار على التبليغ سواء حصل بأي وسيلة فاليهود كانت ثلاث قبائل منهم تسكن المدينة قبل إجلاء من أجلي منهم، وقتل من قتل، كما سيأتي إن شاء الله، وكانوا في غاية الاختلاط مع المسلمين من الناحية التجارية والاقتصادية، فالأحاديث التي يحدث بها ﷺ أصحابه تبلغ اليهود بلا شك، لأن المنافقين كانوا من جملة أصحابه في الظاهر، وهم في الحقيقة سفراء بينه وبين اليهود بكل ما يمس من كرامة الإسلام، أو فيه تحريش بين المسلمين واليهود، وكذلك النصارى لهم مساس بالمسلمين في ذلك الزمن، ولا سيما نصارى الشام حيث يقدمون دائماً على المدينة يجلبون أموالهم ويذهب إليهم أهل المدينة في الشام قصد التجارة، وعليه فتكون هذه الأحاديث التي دلت على دعوتهم إلى الله بلغتهم بلا شك.

اخبار اليهود بعذاب منهج من مناهج دعوتهم

لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير والوعد والوعيد، ولا شك أنه ﷺ ما ترك سبيلاً إلى الدعوة إلاَّ وسلكه وبهذا شهد له ربه أنه بلغ ما أمر بتبليغه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾[1]، ولهذا أخبر ﷺ اليهود بأنها تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن العذاب في القبر دلالة على عذاب الآخرة.

فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وهو:

الحديث الأول:

قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت[2] الشمس فسمع صوتاً فقال: يهود تعذب في قبورها»[3].

فهو ﷺ أخبر اليهود في هذا الحديث بشيء كانوا يعلمونه عن طريق الأنبياء، وهو عذاب القبر، وهذا مما يبين لهم صحة نبوته عليه السلام، ويحتم دخولهم في الإسلام.

والدليل على أن اليهود كانوا يعلمون أن عذاب القبر حق ثابت، هو ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها.

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الذاريات.

(٢) أي سقطت عبارة عن غروبها، ومنه قوله تعالى في سورة الحج: (فإذا وجبت جنوبها) أي سقطت.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/٢٢٠٠.

«أن يهودية دخلت فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلّى صلاة إلاّ تعوَّذ من عذاب القبر » زاد غندر:« عذاب القبر حق »(١).

وسيأتي إن شاء الله من رواية مسلم ما يوضح هذا الحديث، وأن اليهود كانوا على علم من ثبوت عذاب القبر، ولا يمكن أن يعلموا ذلك إلاّ بأخذه من كتبهم، أو أخذه عن أنبيائهم مشافهة، فقد وقع في بعض روايات هذا الحديث عند مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: « دخلت عليَّ امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: إنما تفتن يهود. قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: هل شعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور، قالت عائشة رضي الله عنها: فسمعت رسول الله ﷺ يستعيذ من عذاب القبر» ثم ساق مسلم بسند آخر إلى عائشة رضي الله عنها قالت وهو:

الحديث الثاني:

« دخلت على عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا ودخل عليّ رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول اللّه: إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: صدقتا: إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم قالت: فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر »(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز.

(٢) أخرجهما مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر.

قلت: ظاهر هاتين القصتين التعارض، لأن في الحديث الأول أن الرسول ﷺ ارتاع من خبر اليهودية، وأخبر أنه إنما تعذب اليهود، وفي القصة الثانية أنها دخلت عليها عجوزان من عجز يهود المدينة وأخبرتاها بعذاب القبر، وأن النبي ﷺ صدقهما حيث قال: صدقتا أنهم ـ أي أهل القبور عموماً يعذبون.. الخ، وفي هذا تعارض في الظاهر. والجواب أن هذا محمول على تعدد القصتين كما هو واضح فجرت القصة الأولى، ثم أعلم الله النبي ﷺ بذلك أي بعذاب القبر، ولم يخبر عائشة بذلك، فجاءت العجوزان بعد مدة، فكذبتهما عائشة رضي الله عنها ولم تكن علمت بنزول الوحي بإثبات عذاب القبر، فدخل عليها النبي ﷺ فأخبرته بقول العجوزين، فقال: صدقتا، وأعلم عائشة رضي الله عنها بأنه كان قد نزل الوحي بإثبات عذاب القبر(١).

وقولها في الحديث: ولم أنعم أن أصدقهما أي لم تطب نفسي بتصديقهما وهو بضم الهمزة وإسكان النون وكسر العين، ضبطه النووي بذلك(٢).

ويدل لما ذكرت من الجمع بين القصتين، وأنه ﷺ ما كان يعلم أن للقبر عذاباً، ما رواه الإمام أحمد عن سعيد بن عمر بن سعيد الأموي، عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله من عذاب القبر، فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب؟ قال: «كذبت يهود لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار، وهو ينادي بأعلى صوته: «أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر» فإن عذاب القبرحق»(٣).

---

(١) انظر شرح النووي لمسلم ٥/٨٦.

(٢) انظره في المصدر السابق نفسه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٨١.

ولا تعارض بين هذا الحديث وما سبق من حديث الصحيحين عن أبي أيوب من قطعه ﷺ بأن اليهود يعذبون في قبورهم، عندما سمع صوتاً وقت اروب الشمس كما تقدم حيث يمكن حمل حديث أبي أيوب على أنه متأخر عن أحاديث عائشة بعد أن أعلمه الله عن طريق الوحي، بأن عذاب القبر حق، وأن اليهود يعذبون في قبورهم، أو يكون المراد لا عذاب لغير اليهود في القبر. والعلم عند الله تعالى.

ومحل الدلالة من هذه الأحاديث أنها دلت على أنه ﷺ إنما علم ما كان معلوما عند اليهود من الأمور التي لا يمكن لليهود علمها إلاَّ عن طريق الأنبياء، ولا تمكنه هو معرفتها إلا عن طريق الوحي، وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ ، فإن اليهود يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يمكن أن يثبت أن عذاب القبر حق، ويخبر بأن اليهود يعذبون في قبورهم إلا بعلم من الله عز وجل، فوافق ما علمه الله بطريق الوحي من عذاب القبر ما كان ثابتاً عند اليهود.

وفي هذا أعظم داع لقبولهم لهذا الدين الذي لم يترك الرسول الذي جاء به شيئاًمما كان عند اليهود من أمور دينهم المأخوذ عن طريق الأنبياء، إلا نبههم عليه، سواءاً كان مما حرفوه وبدلوه أو لم يحرفوا فيه ولم يبدلوا ولم يكتموا، مثل إقرارهم بعذاب القبر، والله تعالى أعلم.

قلت: يمكن أن تكون اليهودية المذكورة في حديث الصحيح، الذي لم يكن فيه التصريح بأنها كانت تخدم عائشة، هي التي صرح الإمام أحمد في روايته بأنها كانت خادمة لها، والعلم عند الله تعالى.

فتلخص من مجموع هذه الأحاديث التي ذكرنا، والتي اشتملت على ضرب المثل بين المسلمين واليهود والنصارى، وأن اليهود والنصارى فرطوا في عملهم، وتعبوا ولم يحصلوا على شيء بعد أن عملوا جل النهار، وأن المسلمين الذين عملوا جزءاً

من النهار قليلاً، استكملوا أجرهم كاملاً غير منقوص، وأن اليهود والنصارى حبط عملهم، وإيمانهم السابقان على زمنه ﷺ، أعني من أدرك البعثة النبوية منهم لا من مات قبل ذلك ممن كان متمسكاً بشريعة موسى وعيسى عليهما السلام، ومات قبل بعثة محمد، أما الوعيد فإنه لا يتناول إلا أهل الكتاب الموجودين في زمنه ﷺ ومن كان بعدهم ممن بلغتهم الرسالة النبوية، ولم يؤمن بصاحبها محمد ﷺ، وفيها تنبيه اليهود والنصارى على أخطائهم الكثيرة واختلافهم على الحق وهداية هذه الأمة، أمة محمد ﷺ إلى ذلك الحق الذي اختلفوا فيه وأنهم تبع لنا، وإن كنا الآخرين زمناً فنحن السابقون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق.

كما أن فيها التعريض باليهود، وبيان تحريفهم وتبديلهم لكتب الله جل وعلا، واحلالهم ما حرم اللّه، وتحريمهم ما أحله، واحتيالهم على ذلك، وبطلان دعواهم أن الجنة خاصة بهم، حيث أن في الأحاديث الإخبار منه ﷺ بأنهم يعذبون في قبورهم، وإذا كانت الجنة لا يدخلها إلا يهودي أو نصراني دون جميع الخلق، فكيف يعذبون في قبورهم حيث اعترفوا بذلك، كما تقدم في الأحاديث بل اعترفت به العامة منهم النساء العجائز، واشتملت أيضاً على الإنكار عليهم وتحذير المسلمين من صنعهم، حيث أيدت الأحاديث أن عملهم هذا مخالف لشرائع الأنبياء، وإلا لما استحقوا اللعنة منه ﷺ حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فهذه الأحاديث المختلفة المعنى في مجالات شتى من دعوة أهل الكتاب، تبين لنا أنه ﷺ ما ترك وسيلة من وسائل الدعوة بالحجة إلاَّ سلكها معهم، فقد هددهم، وتوعدهم، وحذرهم وأنذرهم وبشرهم، وأنكر عليهم وأقام عليهم الحجة وأخبرهم بالمغيبات وأخبرهم بأمورهم التي لا يعلمها إلا الله وهم؛ لأنها مما أنزل إليهم في كتبهم قبل آلاف السنين، فاخبرهم بها كما هي، ولكنهم غلبت عليهم الشقوة، فكذبوا حسداً من عند أنفسهم لهذا الرسول، حيث لم يكن من بني إسرائيل، وإلا فهم كانوا يعلمون بمجيئه،

ويعرفون صفاته، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكن لما بعثه الله من العرب حسدوه على ذلك، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، بعد ما تبين لهم أنه الرسول الذي كانوا يترقبونه حقاً ومن شدة حسدهم له صاروا يتمنون للمسلمين الذين آمنوا به أن يكفروا ويرتدوا عن الإيمان والعياذ بالله تعالى كما قال جل وعلا حكاية عنهم: ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق... ﴾ (١).

ومع هذا فإن الله جل وعلا يأمر المؤمنين بالصفح عنهم فيقول ﴿ .. فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾(٢).

وبهذا ينتهي هذا الفصل، وبانتهائه ينتهي الباب الأول من هذه الرسالة، وقد اشتمل على فصلين:

الأول: في دخول أهل الكتاب في عموم دعوته .

والثاني: في دعوة أهل الكتاب الخاصة بهم دعوة صريحة أو مستنبطة.

* * *

(١) جزء من آية ١٠٩ من سورة البقرة.

(٢) تمام الآية السابقة.

الباب الثاني

في

وسائل دعوة أهل الكتاب

وسائل دعوة أهل الكتاب

تمهيد

إن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه، بعثه الله رحمة للعالمين في مكة المكرمة حرسها اللّه، ومكث بها ثلاث عشرة سنة يدعو أهلها إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ بما في وسعه من وسائل الدعوة، فقد كان ﷺ يحذر أهل مكة بأس الله وتنكيله بالعصاة، ويخوفهم بطشه وانتقامه، وما حل بالأمم السابقة قبلهم، فقد حذر وأنذر، ووعد، وتوعد، وقد كانت الدعوة في مكة لها طابع تتميز به عنها في المدينة، فقد كان أهل مكة أهل شرك، وعبادة أوثان، تأصلت في قلوبهم عبادة الأوثان ورثوها كابراً عن كابر، إذ لم تكن لديهم كتب يقرؤونها مثل أهل الكتاب الذين لهم علم بالكتب السماوية، لأن أولئك لم يرسل إليهم رسول قبل نبينا محمد ﷺ كما قال تعالى في محكم كتابه مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿لتنذر قوم ما أنذر آباؤهم فهم غفلون﴾(١) وقال تعالى في شأنهم ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾(٢) إلى غير ذلك من الآيات؛ لهذا ركز ﷺ في دعوته في مكة على تثبيت التوحيد في قلوب الناس، فكان يدعو الناس إلى إفراد الله وحده بالعبودية، ويسفه أحلام المشركين الذين يعبدون آلهة دون اللّه، ويبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر، وكذلك كان دائماً يذكر الناس بالبعث بعد الموت يوم القيامة وبما في ذلك اليوم من الحساب، ووزن الأعمال، ونشر الصحف، وأخذ الكتب بالأيمان أو بالشمائل، ويخبرهم بوجود الجنة

---

(١) الآية ٦ من سورة يس.

(٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.

والنار، إذ لم يكن عندهم تفصيل هذه الأشياء، حيث أن الإيمان بهذه المغيبات لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الوحي، وهؤلاء تقدم لنا أنهم لم يكن لهم مساس بالوحي البتة، فأهل مكة من بعد إسماعيل لم يثبت أن الله أرسل إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ ، فكان المناسب في دعوة هؤلاء أن يثبت في قلوبهم التوحيد، فإذا وحدوا الله تعالى وأفردوه بالعبادة، هانت بعد ذلك دعوتهم إلى إقامة شعائر الإسلام من صلاة، وحج، وصوم، وزكاة، وغير ذلك. فلو أمروا أولاً بهذه الأمور، وفوجئوا بترك شرب الخمر وإخراج زكاة أموالهم وغير ذلك من الأمور الدينية، لو فوجئوا بهذا بادئ الأمر، لنفروا من الدخول في الإسلام أعظم مما فعلوه، فالنبي ﷺ أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، فدعاهم بما يناسب مقامهم، وكان القرآن ينزل عليه وهو بمكة بتقرير العقيدة وتثبيتها وتثبيت الوحدانية لله جلّ وعلا، وتسفيه أحلام من يشرك معه غيره في العبادة، وبيان أنه هو الذي يستحق أن يعبد، حيث أنه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يجيب دعوة المضطرين، وهو الذي يكشف السوء عمن نزل به سوء، وأنه هو الذي يرزق عباده، وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض اللتين هما أعظم موجود يراه الإنسان، وأنه هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، إلى غير ذلك مما كرره القرآن الكريم على أهل مكة كتقريره لهم أن الله هو الذي يحيي ويميت، وأنه هو الذي جعل الأرض قراراً، وخللها بالأنهار الجارية، وجعل فيها رواسي ثابتات لئلا تميد بأهلها، إلى غير ذلك مما هو كثير جداً. قال تعالى في سورة النمل ـ وهي مكية بالإجماع ـ: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خللها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض. أإله مع الله. قليلا ما تذكرون، أمن

يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الريح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون، أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(١).

فإن قيل: إن هذا كان معلوماً عند العرب، أو كان بعضه معلوماً دون جميعه، وقرره القرآن؛ لأنهم كانوا يعترفون بأن الله هو الذي خلقهم، فكيف يكون هذا أسلوباً من أساليب دعوتهم، ولِمَ لا يكون توطئه لتثبيت عقيدة التوحيد..؟ الخ.

فالجواب: أن أهل مكة ما كانوا يعلمون هذه الأشياء مفصلة كما بينها القرآن الكريم على لسان نبيه محمد ﷺ، نعم كانوا يقرون بالخالق ويلجؤون إليه عند الشدائد، ولكنهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة التي لا يستحقها إلاَّ هو وحده، فتثبيت القرآن لهم ما كانوا يعلمونه من وجود الخالق، وإعلامهم بما زاد على ذلك من الأمور التي لا علم لهم بها وتفصيلها وضرب الأمثال لها، كل ذلك دعوة لهم، ولذلك كان القرآن الكريم في المرحلة المكية يثبت للكفار البعث من القبور، وأن الله قادر على ذلك لأن من قدر على البدء قادر على الإعادة بالأوْلى والأحرى قال تعالى: ﴿.. كما بدأكم تعودون..﴾(٢) وكان يضرب لهم المثل للبعث من القبور ليقرب لهم ذلك بما يشاهدونه محسوساً كإحياء المطر للأرض بعد موتها بالجدب فإنها تهتز وتثمر وتحيا. قال تعالى :﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما

---

(١) الآيات من ٦٠ – ٦٤ من سورة النمل.

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٣٩ من سورة فصلت.

نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[١]، وإن كانت سورة الحج قيل بأنها مدنية، ولكن الصحيح أنها مكية إلا قوله تعالى: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم.. إلى قوله صراط الحميد ﴾[٢][٣].

وعلى كل حال، فالآيات بهذا المعنى كثيرة جداً مكية بلا خلاف، ولكنني اخترت ذكر هذه الآيات لاشتمالها على كثير من تطور حياة الإنسان ومبدأ نشأته وتقرير بعثه بعد موته، ولو تتبعنا الآيات القرآنية المكية التي تقرر البعث بعد الموت، وتثبت التوحيد لخرجنا عن الموضوع، وبهذا يتضح أن كل ما ذكر كان أسلوبا من أساليب الدعوة استعمله القرآن الكريم في المرحلة المكية تركزت على تثبيت التوحيد، والتعبير بالتثبيت يدل على أن هناك علما بالتوحيد، ولكنه مع ذلك لابد من التركيز عليه حتى يرسخ في قلوب الناس، ليتركوا عبادة غير الله معه، وذلك دعوة إلى توحيد الله بلا شك.

وهذا على خلاف المرحلة المدنية فإن كثيراً ممن يسكنون المدينة أهل كتاب لديهم علم بكتب الله المنزلة على رسله، ويعرفون الله وإن كانوا يشركون معه غيره - ويعرفون اليوم الآخر، والجنة والنار وغير ذلك.

---

(١) الآيات من ٥ – ٧ من سورة الحج.

(٢) الآيات من ٢٠ – ٢٥ من سورة الحج.

(٣) انظر تفسير البيضاوي عند الآية الأولى من سورة الحج.

ولما انتهت المرحلة المكية، واختار الله لرسوله محمد ﷺ دار هجرته، المدينة المنورة بأنواره، أذن له في الخروج إليها، وقدم على أهلها فوجدهم أخلاطاً من الناس: قبائل من اليهود، ثلاثاً: بني قينقاع وبني قريظة، وبني النضير، والأوس والخزرج ، وكان هؤلاء متحالفين ومتجاورين، رغم ما كان بين الأرس والخزرج من الحروب، وما كان بين قبائل اليهود من الحروب، وما كان بين قبائل العرب واليهود من الحروب مما يطول ذكره ولا داعي له، فلما قدم المدينة كان أول ما بدأ به من الدعوة إلى الله عز وجل أن بنى مسجده الشريف بعد ما بنى مسجد قباء هناك، وآخى بين المهاجرين والأنصار، ووداع اليهود أن صالحهم، وكتب بينه وبينهم وبين المسلمين كتاب سيأتي نصه ان شاء الله قريبا، فكأنه ﷺ لما رأى يهود المدينة وتمركزهم بها مئات السنين، وكثرة ما فيها من الأحبار المطاعين، أراد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق بأن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه أحداً حاربه من أهل الشرك، وإنهم أن فعلوا شيئا من ذلك فقد خالفوا عهد الله ورسوله، واستحقوا العقوبة المناسبة لذلك الفعل جزاءً ولكن القوم غلبت عليهم الشقوة وحب الرئاسة والحسد فلم يلبثوا أن نقضوا تلك العهود التي أخذت عليهم، نقضوها قبيلة بعد قبيلة، وكان أول من غدر منهم بني قينقاع، ثم بني النضير، ثم بني قريظة، وقد كانت هذه القبائل الثلاث نزلت بالمدينة قبل قدوم الأنصار أيام بختنصر حين إحتل بيت المقدس(١)، وفي قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار أن نزولهم لأرض الحجاز كان بعد إغارة طيطس الروماني على بلادهم وتخريبه بيت المقدس، وذلك سنة واحد وسبعين بعد الميلاد، والله أعلم فانظره(٢). وسيأتي غير هذا إن شاء الله من تاريخ قدومهم أرض الحجاز.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥٣٩/١.

(٢) ص ٣٠١ - ٣٠٢ ط الثانية.

ثم لما كان سيل العرم وتفرق سكان اليمن؛ نزحت الخزرج والأوس من هناك حتى نزلوا المدينة عند اليهود فحالفوهم، وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من الفضل بالعلم المأثور عن الأنبياء، ولكن الله تعالى مَنَّ على هؤلاء المشركين بالهدى والإسلام، وخذل أولئك لحسدهم وبغيهم واستكبارهم عن اتباع الحق(١).

ولقد كان في القبائل الثلاث التي توطنت المدينة من اليهود عدد كثير من أحبار اليهود ذوي الجاه والسلطة نصبوا العداوة للرسول، وللإسلام والمسلمين، من مشاهير هؤلاء، حيي بن أخطب، وأخوه ياسر، وجدي، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق، وهو أبو رافع الأعور تاجر أهل الحجاز، وقد قتل بأرض خيبر، والربيع بن الربيع بن الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف وقد قتل بالمدينة، كل هؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة بن الفطيون(٢): عبد الله بن صوريا، ولم يكن أحد منهم أعلم بالتوراة منه، وقد قيل إنه أسلم - ولم يثبت ذلك - ومخيريق، وقد أسلم يوم أحد ومات.

ومن بني قينقاع: زيد بن اللصيت، وسعد بن حنيف، وسويد بن الحارث ورفاعة بن قيس، وفنحاص.... وغيرهم.

ومن بني قريظة: الزبير بن باطيا بن وهب، وعزال بن شمويل، وكعب بن أسد، وسمويل بن زيد وغير وغير(٣)..

---

(١) انظر هنا سيرة ابن كثير ٢/٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) كلمة عبرية تطلق على كل من ولي أمر اليهود وملكهم.

(٣) ذكر هؤلاء المذكورين وكثيراً معهم ابن كثير في سيرته نقلا عن ابن إسحاق فانظره ٢/٣٤٢ - ٣٤٣.

فهؤلاء من أحبار اليهود ناصبوا العداء لرسول الله ﷺ بغياً وحسداً لما خص الله به العرب من جعل هذا النبي منهم، وانضاف إليهم كثير من رجال الأوس والخزرج فكانوا أهل نفاق، فهؤلاء هم الذين كانوا يسألونه ﷺ دائماً ليعجزوه، ويأتيه الوحي بالجواب.

فكأنه ﷺ لما رأى هذا كله تعين عليه أن يوادع اليهود زمن قدومه المدينة حتى يلتحق به باقي قومه الذين بقوا بمكة، وحتى يدخل جميع من يريد الإسلام فيه من أهل المدينة ومن حولها، وقد خطب ﷺ أول خطبة بالمدينة خطبة عامة تشمل المسلمين واليهود.

قال البيهقي: (باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق، حدثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان، والأخنس بن شريف عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال أما بعد:

أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً فأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٤٦ - ٢٤٧ ط محمد عبد المحسن ولا يخفى أن هذا الأثر من رواية ابن إسحاق وهو مرسل عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف.

ثم كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، وسيأتي نص الكتاب إن شاء الله بعد قليل.

* * *

الفصل الأول
معاهدته ليهود المدينة لما قدم مهاجراً

إن موادعة[١] نبينا ﷺ ليهود المدينة لما قدم عليهم، وعقده معهم الصلح منهج حكيم من مناهج دعوته ﷺ لأنهم في تلك المدة التي مكثوا قبل نقضهم العهود دخل بعضهم في الإسلام، ولو ناصبهم العداء أول مرة عندما قام وأراد إخراجهم من المدينة ربما لم يتمكن من دعوتهم، وصار ذلك سبباً في نفرتهم من الإسلام، فكان ما فعل هو عين الصواب ، فقد أسلم منهم من أراد الله منه الإسلام، ومن أبى ونقض العهد أخرجه ﷺ من المدينة في حالة ذل وهوان، كبني قينقاع وبني النضير، أما بنو قريظة فإنهم لما نقضوا العهد قتل مقاتلتهم، وسبق ذراريهم، وأخبر أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سماوات.

وإليك نص الكتاب الذي كتبه ﷺ للمهاجرين والأنصار واليهود في شأن الصلح:

كتاب الصلح بينه وبين اليهود:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[٢] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون

---

(١) الموادعة: المصالحة يقال: وادعهم صالحهم، وتوادعا تصالحا.
القاموس المحيط ٩٦/٣ مادة ودع.

(٢) أي على حالتهم التي أتى الإسلام وهم عليها القاموس ٢٧/٣ .

عانيهم[١] بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم[٢] الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمر بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٤] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون

---

(١) عانيهم أي أسيرهم. (٢) يعني بذلك الديات.

(٣) المفرح أي المثقل بالدين والكثير العيال قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة * وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أي أثقلتك.

(٤) الدسيعة: العظيمة.

مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وأن المؤمنين يبيء[١] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل اللّه، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اغتبط مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[٢] إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا[٣]، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة

---

(١) يبيء: أي يمنع.

(٢) يوتغ: أي يهلك.

(٣) أي على الرضا به.

والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين(١)، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه وتلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس: مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة.. وأن البر دون الأثم، لا يكسب كاسب إلاَّ على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ» انتهى من ابن هشام(٢) نقلا عن ابن إسحاق.

قلت: لقائل أن يقول: إن السير تجمع ما صح وما قد أنكر وهذه القصة التي سيقت من رواية ابن إسحاق وتحتاج إلى تثبيت، **فالجواب**: أنني سقت هذه القصة من كلام أهل السير وسوف يأتي غيرها إن شاء الله عن أرباب هذا الفن مثل ابن عبد البر، وابن شهاب الزهري، ومحمد بن حزم، وابن سعد والواقدي والسهيلي وغيرهم؛

---

(١) تقدمت هذه العبارة بلفظها، ولم أدر لماذا أعيدت؟

(٢) انظر سيرة ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق ٢/١٠٦ – ١٠٨ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، قال المعلق المذكور ما نصه: قال أبو عبيد في الأموال: إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية، وإذ كان الإسلام ضعيفاً، قال: وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحرب.

لأن هذا النوع من التاريخ لو أهملنا فيه رواية هؤلاء لذهب علينا جل هذا العلم؛ لأن أكثره من رواية هؤلاء الرجال الذين تُكُلِّمَ في بعضهم مثل الواقدي حيث ضعفه أهل الحديث، ومع ذلك فإن المتقدمين والمتأخرين لم يتركوا الرواية عنه في هذا الفن، ومحمد بن إسحاق على ما حكي عنه من التدليس، فإن جميع أهل هذا الفن بعده صاروا عالة عليه، ولا شك أن مروياته كثير منها ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن وغير ذلك فلهذا ذكرت أقوال هؤلاء العلماء المعزوة إليه ﷺ في كتب السير والتاريخ على أنها منهج من مناهج دعوته ﷺ.

فتراه ﷺ في هذه الصحيفة التي كتبت في شأن المسلمين واليهود، قرر بأن اليهود آمنون على أنفسهم وأموالهم، وأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولهم دينهم، وللمسلمين دينهم، وأنهم يتعاقلون فيما بينهم، وأن من كان منهم حلفاً لقبيلة من قبائل العرب فإن له ما لتلك القبيلة إلا إذا ظلموا أو غدروا، أو خانوا الله والرسول كما وقع منهم بعد مدة وجيزة، ولكنهم في هذه الفترة القليلة التي قبل نقضهم للعهود التي أبرمت معهم، دخل بعضهم في الإسلام نتيجة لهذا المنهج الحكيم الذي اتخذه معهم رسول الله ﷺ، ففي هذه المدة بعد الموادعة التقوا بالنبي ﷺ، وسألوه عن أشياء لا يعلمها إلا رسول من رب العالمين فأجابهم على تلك الأسئلة كما هي عندهم في كتبهم، وقد تقدم بعض ذلك في الباب الأول في الفصل الثاني منه، وكما سيأتي قريبا إن شاء الله في سبب إسلام عبد الله بن سلام، وهو عظيم من عظماء اليهود اختاره الله لدين الإسلام، واختار له دين الإسلام، فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه في شأن قدوم النبي ﷺ على المدينة، ودعوته اليهود للدخول في الإسلام وهو:

الحديث الأول:

قال رحمه الله: «باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة».

هادوا: صاروا يهوداً، وأما قوله: هدنا: تبنا، هائد: تائب.

ثم ساق بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود»(١).

قلت: كأن البخاري رحمه الله يشير إلى أن النبي ﷺ لما قدم المدينة ووجد أحبار اليهود مطاعين نافذي الكلمة في قومهم، تمنى أن يؤمن به عشرة من أحبارهم؛ لأنهم إذا آمنت عشرة من أحبارهم المطاعين ذوي الحل والعقد، آمنوا به جميعاً والله تعالى أعلم.

ويدل لما ذكرت ما ذكره ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث حيث قال:

إنه ورد من طريق عروة، كما حكاه ابن عائذ أن أول من أتاه منهم أبو ياسر بن أخطب أخو حيي بن أخطب فسمع منه فلما رجع قال لقومه: أطيعوني فإن هذا النبي الذي كنا ننتظره. فعصاه أخوه حيي وكان مطاعاً فيهم فاستحوذ عليه الشيطان فأطاعوه على ما قال، وروى أبو سعيد في شرف المصطفى من طريق سعيد بن جبير: جاء ميمون بن يامين، وكان رأس اليهود، إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابعث إليهم فاجعلني حكماً فإنهم يرجعون إليّ، فأدخله داخلاً ثم أرسل فأتوه فخاطبوه فقال: اخرج إليهم فقال: أشهد أنه رسول الله فأبوا أن يصدقوه(٢).

فلو شاء الله أن آمن به عشرة من أضراب ميمون بن يامين وعبد الله بن سلام، وابن صوريا من رؤسائهم، وقد حكى السهيلي أن ابن صوريا أسلم وعزا ذلك للنقاش في تفسيره، ولكن ذلك لم يثبت.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار.

(٢) طالع فتح الباري ٢٧٥/٧.

فلو آمن به عشرة من أمثال هؤلاء لقادوا اليهود إلى الإيمان به.

ولهذا يفسر العلماء هذا الحديث بأن المراد منه: لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود.. الخ، وإلا فإن اليهود آمن به ﷺ أكثر من عشرة منهم، ولكنهم ليسوا من أحبارهم، ولا من رؤسائهم جميعاً، وفي بعض روايات هذا الحديث: لو آمنت بي عشرة من اليهود، لم يبق يهودي إلا أسلم.

قال ابن حجر بعد أن ذكر رواية لم يبق يهودي إلا أسلم: وكذا أخرجه أبو سعيد في شرف المصطفى، وزاد في آخره: قال كعب: هم الذين سماهم الله في سورة المائدة.

قلت: لم يكن في سورة المائدة التنصيص على أسماء أحبار اليهود حتى يقال أنهم المقصودون من الحديث، وإنما فيها ذكر الأحبار والرهبان على سبيل الإجمال وذلك في قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا والذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه..﴾ جزء من الأية ٤٤ من سورة المائدة. وفيه قوله تعالى: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ الآية ٦٣ من سورة المائدة أيضاً.

وليس هذا بتسمية، وإنما هو ذكر لبعض الأحبار في الجملة والله أعلم.

فعلى هذا فالمراد عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة.. والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كان تبعاً لهم فلم يسلم منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرئاسة في اليهود عند قدوم النبي ﷺ، ومن بني النضير أبو ياسر بن أخطب، وأخوه حيي بن اخطب، وكعب ابن الأشرف، ورافع بن أبي الحقيق، ومن بني قينقاع: عبد الله بن حنيف، وفنحاص،

ورفاعة بن زيد، ومن بني قريظة: الزبير بن باطيا، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت إسلام أحد منهم، وكان كل منهم رئيساً في اليهود، ولو أسلم لاتبعه جماعة فيحتمل أن يكونوا المراد(١).

فكأن ابن حجر نظر إلى بعض عظماء كل من القبائل الثلاث الموجودة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وجعلهم المراد بالعشرة لأن أحبار قريظة مثلاً لو آمنوا لآمن جميع قريظة، وكذلك القول في بني النضير، وبني قينقاع، لو أسلم هؤلاء من عظماء هذه القبائل لأسلمت القبائل كلها، ولو أسلمت هذه القبائل كلها لأسلم جميع اليهود خارج المدينة، وهذا تفسير سائغ تساعده القرائن. والعلم عند الله تعالى.

قلت: قد نظم أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه لغزوات المصطفى ﷺ معنى هذا الحديث فقال: غزوة بني قينقاع:

لو آمنت من اليهود كلها * زهاء عشرة اهتدوا لأجلها

وإن كان الناظم قال: (زهاء) وكلمة زهاء توحي بأنه لو آمن به قريب من عشرة منهم، لآمنوا به جميعاً، ولكنما قارب الشيء يعطى حكمه، أو لعل الناظم وقف على رواية تدل على ذلك من روايات الحديث، والعلم عند الله تعالى.

سبب إسلام عبد الله بن سلام:

إن دعوة نبي الله صلوات الله وسلامه عليه ليهود المدينة، أثمرت وحصدت لحينها، فعبد الله بن سلام كان من عظماء أحبار اليهود، ومن ذوي الجاه منهم

(١) انظر فتح الباري في المصدر السابق نفسه.

والنفوذ، ولما علم بقدوم النبي ﷺ إلى المدينة وكان من أرض يخترف(١)، ذهب إليه وسأله عن أشياء لا يعلمها إلا نبي مرسل، وقد أجابه ﷺ عليها طبق ما كان عنده من علمها مما علمه من كتب الأنبياء السابقين، فلشدة معرفته بالتوراة التي هي كتاب اليهود الذي كانوا يتعبدون به منذ نزوله إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام، أحل لهم بعض ما حرم فيه، وبقى الكثير منه متعبدين به، يروي البخاري هذه القصة بسنده إلى أنس بن مالك وهي:

الحديث الثاني:

قال: إن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي:

ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجن؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني جبريل آنفاً، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة قال: أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت(٢)، فأسالهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ : أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟

قالوا خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج

---

(١) أي يجني ثمار النخل، كما صرحت بذلك بعض الروايات في السير وغيرها.

(٢) بهت: جمع بهيت كقضيب وقضب، وهو الذي يبهت السامع بما يفتريه عليه من الكذب.

إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول اللّه، قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه قال: هذا كنت أخاف يا رسول اللّه(١).

فإن قيل: إسلام عبد الله بن سلام ثمرة للمنهج، وليس منهجاً لدعوة أهل الكتاب.

فالجواب: إنا نقول نعم هو ثمرة للمنهج الذي اتخذه ﷺ في دعوة أهل الكتاب، ومن ذلك المنهج موادعته ﷺ لليهود وعقده الصلح معهم ليتمكن من دعوتهم، ولولا ذلك ما تمكن عبد الله من القدوم عليه، أضف إلى ذلك أن بيانه ﷺ لعبد الله أن الذي جاء به من عند ربه لا يختلف عما جاء به موسى من عند ربه، واقناع اليهود بصحة الرسالة النبوية لموافقتها لما يعلمونه في التوراة منهج من مناهج دعوتهم، ولذلك فإن عبد الله لما كان على مستوى عال في معرفة التوراة وشريعة موسى، عندما أخبره ﷺ بجواب ما سأل عنه لم يتردد في الإسلام، لأنه كان يظن أنه يسأل رجلاً أمياً لا يعرف شيئاً من شرائع الأولين؛ لأنه لم يقرأ عنهم ولا أدركهم، فلما فوجئ بما كان معلوماً عنده من الحق، آمن بالله وبرسوله محمد ﷺ، وعليه فتكون قصة إسلام عبد الله ابن سلام لا تخلو من دعوة إلى اللّه، وإن كان إسلامه ثمرة للدعوة، والعلم عند الله تعالى.

ذكر أول خطبة خطبها ﷺ في الجمعة

مقدمة المدينة

لقائل أن يقول: إن هذه الخطبة في المسلمين ولا صلة لها بدعوة أهل الكتاب، وأقول: إن لها صلة قوية في دعوة أهل الكتاب، وذلك أن المنافقين واليهود كانوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قوله: فقل من كان عدواً لجبريل.

يحضرون صلاته وخطبه، وقد كان من اليهود منافقون فخطبة الصلاة يحضرونها جميعاً، وإن كانوا يبدون خلاف ما يسرونه، وفي الخطبة نفسها ما يشير إلى ذلك، حيث أن فيها الأمر بإصلاح العبد ما بينه وبين الله في السر والعلانية، وفيها أن تقوى الله عون لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه إلى غير ذلك مما سيأتي في نصها إن شاء اللّه، مما فيه الإشارة إلى المنافقين واليهود على ما هم عليه من مخالفة ظواهرهم لبواطنهم، وعليه فتكون هذه الخطبة لها مساس بدعوة أهل الكتاب إلى الله عز وجل، والعلم عند الله تعالى.

وقد تقدم لنا ذكر أول خطبة خطبها ﷺ عندما قدم المدينة، الآن سأذكر أول خطبها خطبها في صلاة الجمعة، وقد ورد في بعض الكتب أن هذه هي أول خطبة خطبها ﷺ، والواقع أنه لا تعارض؛ فهذه أول خطبة من خطب الجمعة، وتلك أول خطبة على الإطلاق خطب بها رسول الله ﷺ، بعد ما قدم المدينة خارج الصلاة فبهذا يرتفع التعارض قال:

«الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأؤمن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم، وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصمها فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحض على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما

قدم، وكان من سوى ذلك يـود أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويـحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدق قـوله وأنجز وعده لا خـلـف لـذلك فإنـه يقـول عز وجـل: ﴿مـا يبـدل القـول لدي ومـا أنـا بظلام لـلعبيد﴾(١). فاتقوا الله فـي عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية؛ فإنه من يتـق الله يكفر سيئاته ويعظم له أجراً ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله يوقي مقته، ويوقي عقوبته ويوقي سخطه، وأن تقوى الله يبـيض الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تـفرطوا في جنـب اللّه، قد عـلمـكم الله كتـابه، ونهـج لكم سـبيـله ليـعلم الـذين صـدقوا ويعـلم الكـاذبين، فأحسـنوا كمـا أحسن الله إليـكم، ليـعلم الذيـن صدقوا ويـعلم الكـاذبين، فأحـسنوا كمـا أحسن الله إلـيكم، وعـادوا أعداءه وجاهدوا فـي الله حق جهـاده، هو اجتباكم وسـماكم المسلمين، ليـهلك من هلك عن بيـنة، ويحيا من حيى عـن بينة ولا قوة إلا بالله فـأكثروا ذكر اللّه، واعـملوا لما بعد الـيوم، فإنه من يـصلح ما بيـنه وبين الله يكـفه الله ما بينـه وبين النـاس، ذلك بأن الله يـقضي عـلى النـاس ولا يقـضون علـيه، ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم»(٢).

هذا وكان من المنـاسب عندنا ذكر هذه الخطـبة بعد ما ذكرنا أول خطـبة خطب بها ﷺ؛ لأن الخـطب من وسائـل تبليـغ الدعوة قديماً وحـديثاً، وكان افـتتاحه خـطبه بهـاتين الخـطبتـين أحداهـما خارجـة عن الصـلاة فهـي دعوة إلى الله دعـوة صريـحة، والأخرى في صلاة الجمعـة، ولا شك أن الخطبة في الجمعة وسيلة عـظمى من وسائل الدعوة، وقد قدمت أنه ﷺ كان يحضر خطبه للـجمعة المنافقون من اليهود والعرب، فكانت هـاتان الخطبتان منهجاً من مناهـج الدعوة لأهل الكتـاب؛ لأنه فيهما الـتذكير بنـعم الله علـى عباده، وفـيهمـا الأمر بتقـوى الله عز وجل، وفـيهمـا الأمر بالإحـسان،

---

(١) الآية ٢٩ من سورة ق.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣٩٥/٢ - ٣٩٦ ط ٢ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

وفيهما أيضاً نفي القوة عن غير الله وإثباتها له، والتذكير بالموت وبما بعد الموت فكل هذا دعوة إلى الله عز وجل، والعلم عند الله تعالى.

وقد تقدم تنبيهي على أنني أذكر في هذه الرسالة من منهجه ﷺ ما ذكره أرباب التاريخ والسير، فهذه الخطبة رواها ابن جرير بسنده إلى سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ .. الخ، وقد قدمت أن رواية هؤلاء لا يمكن اهمالها بل يتعين ذكرها على أنها قضايا تاريخية لئلا يضيع تراث الأمة الإسلامية.

قلت: إن هذا الكتاب الذي تقدم ذكره قبل هذه الخطبة والذي كتب فيه مصالحته لليهود، وأخبر فيه أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، غير الكتاب الذي كتبه ثانياً بينه وبين اليهود والمسلمين بعد قتل كعب بن الأشرف، يدل لذلك ما رواه أبو داود في سننه بسنده إلى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه(١)... وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي، ويحرض عليه كفار قريش وكان النبي حين قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو ففيهم أنزل الله: ﴿ ... ولتسمعن من الذين أوتوا الكتب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾(٢) فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً يقتلونه فبعث محمد بن مسلمة، وذكر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون فغدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا:

---

(١) أبوه هو عبد الله بن كعب بن مالك، وليست له صحبة، وعليه يكون هذا الحديث مرسلاً، ويحتمل أن يكون المراد بأبيه جده وهو كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وقد سمع عبد الرحمن من جده كعب، وعليه يكون الحديث مسنداً من الخطابي.

(٢) جزء من الآية ١٨٦ من سورة آل عمران.

طرق صاحبنا فقتل فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي بينه وبينهم وبين المسلمين صحيفة(١).

وإنما قلت: إن هذا الكتاب غير الكتاب الذي كتب عندما قدم ﷺ المدينة لأن كعب بن الأشرف قتل بعد وقعة بدر، ولأن ابن سعد جزم بأنه قتل لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ(٢)، فتعين أن يكون كتب كتابه الأول بينه وبين اليهود والمسلمين عندما قدم المدينة ، ثم كتب كتاباً آخر بينهم أيضاً عندما فزعوا من قتل كعب بن الأشرف طمأنهم فيه على أن من لم يغدر ولم يخن فإنه آمن على نفسه وماله، والعلم عن الله.

وقد ذكر موادعته ﷺ لليهود كثير من أهل السير مين المؤرخين بروايات مختلفة الألفاظ متفاوتة في الطول والقصر، وأكثرهم يرويها عن طريق ابن إسحاق، إلا أن الروايات لا تخلو من زيادات في بعضها وفوائد يشتمل عليها بعض الأخبار لا توجد في غيره.

من ذلك ما ذكره محمد بن عبد الوهاب في مختصره للسيرة النبوية قال:

« .. قال ابن إسحاق، ونصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله ﷺ بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله به العرب من أخذه رسولاً منهم.. ثم قال: قلت: وقد ذكر غيره أن رسول الله ﷺ كان قد وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً وكانوا ثلاث قبائل: بنو

---

(١) سنن أبي داود ٣/٤٠١ - ٤٠٢ كتاب الخراج والإمارة والفيء.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٣١ - ٣٢.

قينقاع[١]، وبنو النضير، وبنو قريظة، فحاربته الثلاث... إلى أن قال: وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون الرسول ﷺ ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فكان القرآن ينزل عليه فيما يسألونه... الخ »[٢].

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد حيث ذكر تحت عنوان: (**محاربته يهود المدينة**).

ذكر أنه لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه أحداً ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ـ وهؤلاء يهود المدينة ـ ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه (ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن) فَمَنْ هؤلاء الذين كانوا يحبون ظهوره وانتصاره في الباطن؟

قلت: لعلهم بنوا خزاعة.

ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه تبارك وتعالى فصالح يهود المدينة وكتب بينهم وبينه كتاب آمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ثم ذكر رحمه الله غدر كل قبيلة من هؤلاء القبائل الثلاث، وما حل بها من

---

(١) هكذا وردت الألفاظ ويصح أن تكون على تقدير إضمار مبتدأ محذوف تقديره: وهي بنو قينقاع.. الخ والله أعلم.

(٢) مختصر السيره لمحمد بن عبد الوهاب ص٦٥.

التنكيل من جانب الرسول صلوات الله وسلامه عليه(١).

وذكر ابن أبي خيثمة الكتاب الذي كتبه ﷺ بينه وبين اليهود والمسلمين فقال: حدثنا ابن جناب أبو الوليد، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر نحواً مما تقدم له نقله عن ابن إسحاق(٢).

ومن جملة من ذكر هذا الصلح الذي عقده مع اليهود عندما قدم المدينة من المعاصرين: المؤلفان: علي الجملاطي، وأبو الفتوح التوانسي في كتابهما (محمد ﷺ نبي الإنسانية والسلام) فقد ذكرا في كتابهما هذا تحت عنوان:

«السياسة الحكيمة التي اختطها الرسول ﷺ في المدينة».

قالا: بعد أن ذكرا أنه كان من الضروري لاستقرار الوضع السياسي في المدينة أن تأخذ الدولة الناشئة ممارستها في سياستها الإنشائية لدعم بنائها، وتمهيد الطريق أمامها، لمتابعة نشر الدعوة الإسلامية التي أمر الله تعالي بنشرها انقاذاً للعالم من المفاسد والضلالات، لذلك بدأ الرسول ﷺ يوجه جهوده إلى دعم الوحدة السياسية بين المهاجرين والأنصار أولاً، ثم بينهم وبين اليهود ثانياً، مما يدل على سعة أفقه في التنظيم السياسي فقد كان المجتمع المدني وقتئذٍ يتكون من هذه الطوائف الثلاث: المهاجرين، والأنصار، ويهود المدينة، والرابضين في حصونهم حولها، وقد تم ذلك في وثيقة تاريخية تعد في نظر السياسة في عصرنا الحاضر من أدق الوثائق التاريخية، فقد بين فيها الرسول ﷺ حقوق كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث..» اهـ(٣).

---

(١) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد ٢/٧٩ ط الحلبي.

(٢) بواسطة نقل ابن سيد الناس في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ١/١٩٨.

(٣) محمد ﷺ نبي الإنسانية والسلام، تأليف علي الجملاطي وأبي الفتوح التوانسي ط ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

قلت: إن من الأمور التي حملته ﷺ على موادعة اليهود عند قدومه المدينة مهاجرا أنه وجد يهود المدينة يكونون جزءاً كبيراً من سكان المدينة، ويمتازون عن باقي سكانها بخصلتين: إحداهما: الثراء المادي. والثانية: الثراء العلمي بما كان لديهم من العلم بالأديان السابقة، وكانت العرب أوسها وخزرجها من سكان المدينة، مع ما بينهم مع اليهود يقترضون منهم الأموال للتجارة وغيرها، وكانوا يرون لهم الفضل عليهم لما يعلمونه من العلم عن الكتب السماوية، فبهاتين الخصلتين فاقوا عرب المدينة، وهما خصلتان مهمتان في بناء المجتمعات وتكوينها، فلما رأى ﷺ وضعهم في المدينة رأى أن المنهج الحكيم للدعوة الإسلامية يقتضي الصلح مع هؤلاء الذين يكونون جزءاً هاماً من مجتمع سكان المدينة فحالفهم ﷺ وكتب بينه وبينهم الكتاب الذي تقدم، غير أن اليهود لا يمكن بحال أن يخرجوا عما طبعهم الله عليه من الغدر والخيانة فقد فطروا على حب الغدر والخيانة ونقض العهود، ولذلك لم يمنعهم هذا الكتاب الذي كتبه ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين من الغدر فنقضوا تلك العهود والمواثيق كلها قبيلة قبيلة، فاتصلوا بالمنافقين من أهل المدينة، ليعرقلوا سير الدعوة وليقيموا في طريقها الحواجز توصلاً إلى القضاء عليها نهائياً، ولكن الله جلَّ وعلا قضى بأنه يظهر دين الإسلام على الأديان كلها ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون ولم يقفوا عند هذا الحد، بل حاولوا الفتك به ﷺ حيث جعلوا له السم في الطعام وحفظه الله تعالى من كيدهم(١).

ومن هنا يبدو أن هذا التصرف منه منهج حكيم من مناهج دعوة أهل الكتاب حيث صالح اليهود، وأمنهم وأخذ منهم الأمان، ولكن لا غرابة في نقض اليهود العهود، فإن الله جل وعلا أخبر عنهم بذلك ولا يبدل القول لديه، قال تعالى في

---

(١) انظر المرجع السابق للمؤلفين بتصرف وزيادة ونقص.

شأنهم ﴿أو كلما عهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾(١).

وقال تعالى ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾(٢).

ذكر بعض أسئلة اليهود له ﷺ بعد قدومه المدينة

لا شك أن إقامة الحجة على الخصم وغلبته بإقامة البراهين على بطلان ما عنده دليل على صدق خصمه الآخر، فإقامة الحجة على يهود المدينة بصدق نبينا محمد ﷺ في الرسالة دعوة لهم بلا شك إلى الدخول في الإسلام، واليهود لشدة الخبث الذي طبعهم الله عليه لما أتى النبي ﷺ إلى المدينة، وعرفوه بصفاته التي كانت معلومة لديهم وتحققوا أنه نبي من الله، وأنه النبي الذي كانوا يترقبون بعثته، فلما لم يكن من بني إسرائيل حسدوه على ذلك، وعاندوه وكفروا بما جاء به حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أن رسالته حق من الله، لهذا حاولوا تعجيزه ﷺ، فصاروا يسألونه عن أشياء يعلمونها من الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين يريدون بذلك إقامة الحجة عليه وعجزه عن الجواب ولكن الله جلَّ وعلا حرمهم من ذلك، وأخبره بكل ما سألوه عنه، وقامت عليهم الحجة بذلك، وصاروا كلما أجابهم على أمر انتقلوا منه إلى آخر، وكما انتقلوا إلى خطة فشلوا فيها كما فشلوا فيما قبلها.

وقد قدمت قصة إسلام عبد الله بن سلام، وأن سبب إسلامه سؤاله النبي ﷺ عن أمور أجابه عليها فاقتنع بالحق فاختاره الله للإسلام، واختار له الإسلام، أما أغلب اليهود، فإنهم قد تبين لهم من خلال محاوراتهم معه ﷺ الحق، ولكنهم كفروا به

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة.

عناداً وحسداً، وهكذا شأن اليهود مع الأنبياء أعني أنبياء بني إسرائيل كانوا يكذبون بعضهم ويقتلون بعضهم كما قال تعالى عنهم ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾(١)، فقد قتلوا يحيى وزكريا(٢) وغيرهما من أنبيائهم وحاولوا قتل عيسى عليه السلام وزعموه، إلا أن الله تعالى أكذبهم ونجى نبيه عيسى من كيدهم ورفعه إليه كما هو معلوم.

لهذا أردت أن أنبه على بعض محاولاتهم لتعجيز النبي ﷺ لأنهم إذا عجزوا عن ذلك قامت عليهم الحجة؛ لأنهم تارة يلتزمون له بالإيمان إذا هو أخبرهم بما سألوه عنه، ويعطونه علي ذلك عهوداً ومواثيق، فإذا عرفوا الحق نكصوا على أعقابهم وبقوا على كفرهم ولم يخجلوا من السؤال مرة أخرى، حتى أراحه الله من جميعهم بعد أن تسببوا في إجلاء من أجلى منهم من المدينة، وفي إهلاك من أهلك.

من ذلك ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره أن سبب نزول قوله تعالى:

﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله..﴾(٣) مناظرة وقعت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود في أمر نبوته، فقال بسنده إلى ابن عباس وهو:

الحديث الأول:

قال: «حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي فقال رسول الله ﷺ: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه

---

(١) الآية ٧٠ من سورة المائدة.

(٢) انظر القرطبي ٢٥/٢ المصدر السابق وانظره ٢١٨/١٠.

(٣) جزء من الآية ٩٧ من سورة البقرة.

لتتابعني على الإسلام فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: سلوني عما شئتم، فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن اسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله قالوا: اللهم نعم، قال اللهم اشهد عليهم، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا: اللهم نعم قال: اللَّهم اشهد عليهم، قالوا: أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك؟ قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلاَّ وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك، قال: فما منعكم أن تصدقوه؟ قالوا إنه عدونا فأنزل الله عز وجل: ﴿قل من كان عدوا لجبريل إلى قوله.... لو كانوا يعلمون﴾(١)، فعندها باءوا بغضب على غضب»(٢).

---

(١) الآية من ٩٧ – ١٠٢ من سورة البقرة.

(٢) الأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢/٣٧٧ – ٣٧٨ تحقيق وتعليق وتخريج محمود محمد شاكر أحمد محمد شاكر، ثم قال محمود محمد شاكر: أن إسناده صحيح لأن يونس ابن بكير بن واصل الشيباني ثقة من تكلم فيه لا حجة له إذ روى له مسلم في صحيحه ومترجم =

ثم ساق بسند آخر إلى شهر بن حوشب الأشعري أن نفرا من اليهود جاؤا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت اتبعناك وصدقناك وآمنا بك. فقال رسول الله ﷺ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقني؟ قالوا: نعم، قال: فاسألوا عما بدا لكم، فقالوا: أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل؟ فقال رسول الله ﷺ: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيهما غلبت صاحبتها كان لها الشبه؟ قالوا: نعم قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللّهم اشهد، قالوا: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قال: هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها، فحرم أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وأبايامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذي يأتيني؟ قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء فلولا ذلك لاتبعناك فأنزل الله فيهم ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك.. إلى قوله: كأنهم لا يعلمون﴾(١)(٢).

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى ابن عباس، وهو:

= في التهذيب وفي التاريخ الكبير للبخاري، ثم تكلم على باقي السند، وذكر أن الحديث رواه الإمام أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات.

(١) تقدمت الآيات.

(٢) انظر ابن جرير ٢/٣٧٩ - ٣٨٠ المصدر السابق وقال أحمد محمد شاكر بأنه مرسل كما هو واضح.

الحديث الثاني:

قال: أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء. فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل، قال: هاتوا قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة؟ وكيف تذكر؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا ـ قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل ـ فحرم لحومها قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك أن أخبرتنا بها، أنه ليس من نبي إلاَّ وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل!! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن اللَّه﴾ إلى آخر الآية(١).

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما وغيرهما، فقد ساق البخاري بسنده المتصل إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو:

الحديث الثالث:

قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب ـ أي جريدة نخل

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد ١/٢٧٤.

- إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه[١]، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبي فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلا ﴾[٢] وزاد أحمد بعد قوله قليلاً فقال بعضهم: قلنا لكم لا تسألوه[٣].

قلت: روى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في جامعه وغيرهما حديثاً ظاهره التعارض مع هذا الحديث الذي رواه الشيخان وأحمد كما تقدم قريباً، ورواه الترمذي، وهو مارواه أحمد بسنده إلى ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنزلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[٤] قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾[٥].

فرواية الترمذي[٦] هذه ورواية أحمد تدلان على أن السؤال وقع من قريش لا

---

(١) رابكم من الريب يقال رابه كذا وأرابه بمعنى، فتح الباري ٨/٤٠١.

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في باب ويسألونك عن الروح، وفي كتاب الاعتصام وكتاب التوحيد، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وأحمد ١/٣٨٩، والترمذي في أبواب التفسير ٤/٣٦٦ المصدر السابق.

(٤) تقدم تخريج الآية قريبا.

(٥) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٦) المسند ١/٢٥٥ والترمذي في أبواب التفسير ٤/٣٦٦ المصدر السابق.

من اليهود، ويكون السؤال وقع بمكة، ويدل لذلك سبب نزول آية الكهف فإنها مكية كما أن سورة الإسراء مكيـة أيضاً، وعليه يكون لا علاقة له بالمدينة ولا بدعوة اليهود إلا أن اليهود الذين طلبت منهم قريش أن يدلوهم على شيء يسألون عنه النبي ﷺ يهود المدينة.

وعلى هذا يتعين الجمع بين هذه الأحاديث، ويمكن الجمع بينها إن صحت الأحاديث التي دلت على أن السؤال من قريش لا من اليهود بأن يحمل ذلك على تعدد القصة، وتعدد النزول وذلك لا مانع منه فتكون قريش سألت اليهود ذلك، وبعد ذلك لما قدم عليهم ﷺ سألوه بأنفسهم، أن ساغ هذا الجمع ارتفع الإشكال، وإلا فما في الصحيحين مقدم على ما سواه(١).

قلت: يؤيد هذا الجمع ما سيأتي من الأخبار الواردة في شأن نزول الآية فإن فيها التصريح من عبد الله بن مسعود بأن القصة وقعت في المدينة ففي بعض روايات هذا الحديث بحرار المدينة إلى غير ذلك مما يؤيد وقوعها بالمدينة، ولو فرضنا أن جميع الأحاديث صحيحة جمعنا بينها بما تقدم عن ابن حجر، ولو فرضنا أن الجمع غير ممكن صرنا إلى الترجيح، وما في الصحيحين يرجح على ما ليس فيهما كما هو معلوم، ولو فرضنا أن الخبر الدال على أن السؤال من قريش ضعيف، فإن الضعيف لا يقاوم الصحيح، فتعين أن اليهود سألوه عن الروح وهو بالمدينة تعنتاً وطلباً لتعجيزه، سواء سأله قريش قبل ذلك أولا. ولكن الله جل وعلا حفظ نبيه من ذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾(٢) وقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتله ترتيلا ﴾(٣).

---

(١) أفاد هذا الجمع ابن حجر ٨/٤٠١ من فتح الباري.

(٢) الآية ٣٣ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٣٢ من سورة الفرقان.

فمن حكم تنجيم القرآن الكريم، تثبيت فؤاد النبي ﷺ في مثل هذه المواقف الحرجة بحيث يسأل عن شيء ما كان له به أي علم، ولا يعلم ذلك الشيء إلا عن طريق الوحي، فيوحي الله بالجواب الشافي كما وقع من هؤلاء اليهود.

وقد أخرج ابن جرير الحديث الذي أشرنا إليه آنفا بأن فيه التصريح بأن القصة وقعت في المدينة فقد ساق بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة بالمدينة إذ مررنا على يهود، فقال بعضهم سلوه عن الروح فقالوا: ما أربكم[1] إلى أن تسمعوا، فقاموا إليه فسألوه، فقام فعرفت أنه يوحى إليه، فقمت مكاني ثم قرأ: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

فقالوا: ألم ننهكم أن تسألوه؟ وأخرج بسند آخر إلى عكرمة لم يبلغ به عبد الله قال: سأل أهل الكتاب رسول ﷺ عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ فقالوا: ألم ننهكم أن تسألوه؟ وأخرج بسند آخر إلى عكرمة لم يبلغ به عبد الله قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله تعالى ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ما أوتيم من العلم إلا قليلا﴾ فقالوا: أتزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ قال فنزلت: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾[2] قال: ما أوتيم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب وهو في علم الله قليل.

---

(١) ما أربكم: أي ما حاجتكم إلى أن تسمعوا ما تكرهون.

(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

ثم ساق بسند آخر يبلغ به عبد الله قال: إني لمع النبي في حرث بالمدينة، إذ أتاه يهودي قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت النبي ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي..﴾.

قلت: لا تعارض بين هذا الأثر وبين ما قبله وما بعده، فإن الحرث المذكور في المدينة لا مانع أن يكون في حرة كما هو مشاهد الآن، وكون السائل هنا واحد إلا ينافي ما تقدم من أن اليهود؛ سألوه لأن الجماعة عادة لا يسأل منها إلا واحد، والله تعالى أعلم.

ثم ساق بسنده إلى عبد الله أيضاً قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ ذات يوم فمررنا بأناس من اليهود فقالوا: يا أبا القاسم ما الروح؟ فأسكت فرأيت أنه يوحى إليه قال: فتنحيت عنه إلى سباطة(١)، فنزلت عليه: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ فقالت اليهود هكذا نجده عندنا(٢).

فهذه الأحاديث والآثار التي ذكرنا دلت على أن يهود المدينة كانوا يسألون النبي ﷺ دائماً عن أشياء من علم الغيب لا يعلمها إلا نبي مرسل علمه الله إياها، وكان يخبرهم بتلك الأشياء كما يعلمون.

وفي بعض هذه الآثار التصريح منهم بأن هذا هو النبي الذي يعرفونه في كتبهم، وعلى هذا فتكون محاوراته معهم وسؤالهم له وجوابه إياهم منهجاً حكيماً من مناهج دعوته لهم؛ لأن إقامة الحجة عليهم بعجزهم عن تعجيزه، وبافحامهم وبجوابهم طبق السؤال، في هذا كله عبرة لمن يعتبر، وذكرى لمن يتذكر.

---

(١) السباطة: هي الكناسة تطرح بأفنية البيوت، القاموس مادة سبط.

(٢) أخرج هذه الآثار ابن جرير في تفسيره ١٥/١٠٤ - ١٠٥ في سورة الاسراء.

هذا: ولما كان الصحابة، عليهم رضوان الله جميعاً، هم أفضل خلق الله بعد نبينا ﷺ، وهم الأسوة الحسنة لنا بعده، والقدوة العظمى ولا سيما الخلفاء الراشدون الذين أمر باتباع سنتهم في قوله ﷺ: « .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، واياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة »(١).

وعلى هذا فقد وردت آثار عن عمر بن الخطاب في محاورات وقعت بينه وبين اليهود في المدينة دعاهم فيها إلى الله عز وجل واعترفوا له بأن محمداً ﷺ رسول، وقد علم ﷺ بهذه المحاورات وأقر عليها ولم ينكر منها شيئاً فدخلت في قسم من أقسام السنة الثلاثة: القول، الفعل، التقرير، وقد نزل أثر هذه المحاورات قرآن كما حكى ذلك من رواها.

من ذلك ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ بعد أن ذكر قول من قال: إن الآيات نزلت في شأن محاورة وقعت بين النبي ﷺ وبين اليهود، ذكر قولاً آخر في سبب نزولها وهو محاورة وقعت بين عمر واليهود في المدينة، فروى عن الشعبي وهو:

الأثر الأول:

قال: نزل عمر الروحاء فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلون إليها فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ها هنا، فكره ذلك وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلى، ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم فقال: كنت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث العرباض بن سارية وهذا لفظه ١٢٦/٤، وأخرجه الترمذي في أبواب العلم وقال هذا حديث حسن صحيح ١٥٠/٤، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، والدارمي في مقدمته، وابن ماجه في المقدمة أيضاً.

أشهد اليهود يوم مدراسهم[١] فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان، ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟. فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا بن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك قلت: ولِمَ ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا قال: قلت: إني أتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة؟ ومن التوراة كيف تصدق الفرقان قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يا بن الخطاب ذاك صاحبك فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك، أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه، واستودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال: فسكتوا: قال: فقال عالمهم وكبيرهم إنه قد عظم عليكم فأجيبوه، قالوا: إنك عالمنا وسيدنا فأجبه أنت فقال: أما إذ أنشدتنا به فإنا نعلم إنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم أني هلكتم؟ قالوا: إنا لم نهلك قال: قلت كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وأنه قرن به عدونا من الملائكة قال: قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا. قال: قلت: ما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره[٢] قال: قلت: فو الله الذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل،

---

(١) تقدم معناه.

(٢) قلت: إن هذا الأثر مرسل لأنه حدث به الشعبي عن عمر وهو لم يدركه كما صرح بذلك ابن كثير والسيوطي، قال السيوطي في الدر المنثور ١/٩٠: صحيح الإسناد ولكن الشعبي لم يدرك عمر، فإنه ولد سنة ١٩ أو ٢٠، وكذلك ساق أحمد شاكر سند الأثر وتكلم عن رجاله وبين عدالتهم إلا أنه ذكر الانقطاع الموجود بين الشعبي وعمر فانظره ٢/٣٨٢ – ٣٨٣ من تفسير الطبري تعليق وتخريج وتحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر. =

ولا ميكائيل أن يسالم عدو جبريل، قال ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقه وهو خارج من خرفة ـ هي المكان الذي تجنى فيها الثمار ـ لبني فلان فقال: يا بن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن؟ فقرأ عليَّ ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ حتى قرأ الآيات، فقلت بأبي وأمي يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر فأسمع اللطيف

= **قلت**: إن تصحيح هذا الحديث لا تطمئن إليه النفس لما يلي:

أولاً: أنه حديث منقطع للاتفاق على أن الشعبي لم يدرك عمر بن الخطاب.

ثانياً: لمخالفته حديث مسلم بن الحجاج الثابت في صحيحه عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن المقسطين عند اللّه على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. صحيح مسلم ١٤٥٨/٣ المصدر السابق. فاليمين ثابته للّه عز وجل من طريق الوحي ثبوتاً لا مطعن فيه، كما ثبت أن كلتا يديه يمين.

ثالثاً: أن قوله في الأثر إنهما والذي بينهما لعدو.. الخ كلمة (بينهما) توحي بعدم صحة هذا الأثر حيث أن فيها نوعاً من التحديد للذات العلية واللّه جل وعلا أكبر وأعظم من أن يحيط به شيء عن يمينه وعن يساره لأن السماوات السبع والأرضين السبع في يد الرحمن كحبة خردل في يد أحدكم، محيط بجميع الأشياء لا يحيط به شيء من خلقه.

والحديث الذي رواه مسلم أيضا في صحيحه عن ابن عمر وفيه، ثم يطوي الأرضين بشماله... هكذا رواه عن عمرو بن حمزة عن سالم بن عبيد اللّه عن عبد اللّه يحمل على أن الشمال هنا بمعنى اليمين، ورواه البخاري عن عمرو بن حمزة ولم يذكر الشمال وتفرد بذكر الشمال عمرو بن حمزة. انظر فتح الباري ٣٩٦/١٣.

فإن قيل: إذا كان هذا الأثر لا تطمئن إلى تصحيحه نفسك فلم تذكره فالجواب: إني إنما ذكرته تبعاً لهؤلاء المتقدمين من العلماء الذين ذكروه، ومجرد عدم اطمئنان نفسي لعدم صحته لا يغير شيئاً في الواقع فإذا ثبتت صحته قلنا بذلك وعلمنا أن هناك معنى له لائقا بكمال الله وجلاله نكل علمه إليه لعجزنا عن الإحاطة بأي شيء من صفاته ولاعتقادنا أن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

الخبير قد سبقني إليك بالخبر».

فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتك وما أريدً إلا أن أخبرك(١).

وهكذا كان دأب اليهود معه ﷺ من حين قدومه المدينة كانوا يسألونه ويحاولون تعجيزه محاولة منهم للقضاء على دعوته عليه الصلاة والتسليم، وكان في هذا منهج عظيم من مناهج الدعوة الإسلامية فإن المحاورة أسلوب من أساليب الدعوة، والسؤال والجواب كذلك أسلوب من أساليبها، وإقامة الحجة على الخصم وبيان الحق له منهج من مناهج الدعوة، لأن الخصم إذا أفحم وقامت عليه الحجة وتبين بطلان ما كان عنده من الدعوى، لم يبق له إلا الرجوع إلى قول الخصم الآخر وإلا كان معانداً مكابراً كما هو شأن هؤلاء اليهود فقد تبين لهم الحق، ولكنهم كفروا به ﷺ عناداً وحسداً وقد تبين الرشد من الغي ولكن القوم لا يفقهون.

والحاصل أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة، أخذ يفصل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادئ الأخلاق، كما وضع النظريات العامة، وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق، وحرم المنكرات كالخمر والزنا والسرقة والغصب، والميسر، وشرع الحدود والقصاص، وغير ذلك من الأمور التي شرعت في المرحلة المدنية.

وخلاصة القول: أنه عليه الصلاة والتسليم، أخذ ينظم تلك الجماعة الناشئة بالمدينة التي آوته ونصرته وأحبته من خالص قلوبها، وينظم لها نظماً لمعاملاتها وهو في ذلك كله لا يألوا جهداً ولا يدخر وسعاً في الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة، وكان

---

(١) أخرجهما ابن جرير في تفسيره للآية المذكورة ١/٣٤٤ - ٣٤٥ وهما منقطعان أما الأول فتقدم الكلام عليه، وأما الثاني فذكره ابن جرير عن الشعبي، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم وقال إنه منقطع؛ لأن ظاهره أن الشعبي حدث عن عمر وهو لم يدركه.

القرآن ينزل عليه حسب المناسبات والأسئلة والوقائع التي تحدث بين المجتمع ولا يتأخر نزوله عن ذلك، فكلما دعت الحاجة إلى نزول شيء من القرآن لبيان حكم أشكل على بعض المسلمين، أو بجواب سؤال ورد من اليهود على سبيل التعنت والتجيز ، لا يتأخر عن وقت الحاجة، فقد ناقش المشركين في مكة في أمهات مسائل الدين وقضاياه، وسفه آلهتهم، وعاب نظامهم الاجتماعي والخلقي وكان القرآن ينزل في ذلك.

كذلك كان القرآن ينزل عليه في المدينة حين يناقش اليهود الذين استعانت بهم قريش في عرقلة دعوته والغض منها، والذين حسدوا العرب الأميين أن بعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وكان القرآن الكريم أثناء ذلك يبين لليهود أنواع تحريفهم لكتاب الله التوراة، وما بدلوا منها وما غيروا فيها، وقد كثرت أسئلة اليهود له ﷺ عن الأمور المغيبة وكثر نزول القرآن في ذلك الشأن كما تقدم(١).

* * *

(١) ملخصاً من تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي مع زيادة ونقص في بعض المواضع للدكتور حسن إبراهيم حسن ١/١٧٤ - ١٧٥ .

محاورات أخرى
وقعت بينه ﷺ وبين اليهود

تقدم فيما مضى أن ذكرت بعضاً من الأسئلة التي كان يهود المدينة يسألون عنها رسول الله ﷺ، وينزل أثر ذلك قرآن. والآن سأذكر أشياء وردت بينه وبينهم فيها محاورات، تارة يكون السؤال من جانبه، وتارة يكون من جانبهم، وكل تشتمل على دعوة منه لهم. إذ من المعلوم أن المحاورة من أساليب الدعوة إلى الله جل وعلا، ولذلك استعملها كثير من الأنبياء قبله، عليه وعليهم صلوات الله وسلامه، فقد استعملها موسى عليه السلام في دعوته لفرعون. كما يصور ذلك القرآن الكريم لنا حيث يقول: ﴿قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون، قال لئن اتخذت إلهاً غير لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾(١). وقد استعمله إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه كما يحكي لنا القرآن الكريم أيضا في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال: بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾(٢).

---

(١) الآيات من ٢٣ - ٣١ من سورة الشعراء.

(٢) الآيات من ٥١ - ٥٦ من سورة الأنبياء.

ولا شك أن المحاورة أسلوب حكيم من أساليب الدعوة التي ينتهجها الرسل في مناهجهم في الدعوة للأمم كما هو معلوم من استقراء القرآن الكريم. ففي سورة الشعراء يحكي لنا القرآن محاورة نوح من قومه حيث يقول مصوراً تلك المحاورة: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون، إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون، وما أنا بطارد المؤمنين، إن أنا إلا نذير مبين، قالوا لئن لم تنته ينوح لتكونن من المرجومين﴾(١).

وكذلك يصور القرآن لنا محاورة شعيب مع قومه، ومحاورة هود وصالح حيث يقول في صالح: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، قال يقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾(٢). إلى غير ذلك من المحاورات الكثيرة التي فصلها القرآن وأجملها.

وعليه فكل المحاورات والأسئلة التي جرت بينه ﷺ وبين يهود المدينة، سواء أنزل أثرها قرآن أو لم ينزل، وسواء أكان السؤال صادراً من اليهود، أو منه ﷺ وسواء أسلم أحد منهم بسبب ذلك أو لم يسلم، كل ذلك دعوة لهم للدخول في الإسلام.

فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وهو:

---

(١) الآيات من ١٠٥ – ١١٦ من سورة الشعراء.

(٢) الآيات من ٦١ – ٦٣ من سورة هود عليه السلام.

الحديث الأول:

قال: كنت قائماً عند رسول الله فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لِمَ تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: انما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ، أينفع شيء ان حدثتك؟ قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: سل، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ هم في الظلمة دون الجسر[١]، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد النون، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلاً، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل أو رجلان، قال: ينفعك إن حدثتك؟ قال أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا، مني الرجل مني المرأة أذكرا[٢] بإذن اللّه» وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن اللّه، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي ثم انصرف فذهب: فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به»[٣].

وأخرج ابن إسحاق والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو:

---

(١) المراد بالجسر: الصراط.

(٢) أي كان الولد ذكراً.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحيض ٢٥٢/١ - ٢٥٣.

الأثر الثاني:

أن النبي ﷺ قال لإبن صوريا: أنشدك بالله هل تعلم أن الله حكم في التوراة فيمن زنا بعد إحصانه بالرجم؟ فقال: اللّهم نعم، إما والله يا أبا القاسم أنهم ليعرفون أنك نبي مرسل ولكنهم يحسدونك(١).

قلت: قال الدكتور محمد خليل هراس في تعليقه على الخصائص بعد ذكر السيوطي لهذا الأثر ما نصه: «الذي جاءت به الروايات هو إقرار ابن صوريا بأن الرجم موجود في التوراة، ولكن إقراره بنبوة رسول الله ﷺ غير صحيح، وغير معقول، فإنه من علماء اليهود كعبد الله بن سلام، فلو أقر بذلك للزمته الحجة، وكان بذلك الإقرار قد فارق دين قومه، كيف ومعلوم أن ابن صوريا من كبار المعاندين للإسلام، هكذا استبعد المعلق حكاية إسلام ابن صوريا مع أن الحافظ ابن كثير في سيرته حكى إسلام ابن صوريا أثناء كلامه على أحبار اليهود الذين ناصبوا العداء لرسول الله ﷺ، ونص عبارته «... ومن بني ثعلبة بن الفطيون (٢) عبد الله بن صوريا ولم يكن بالحجاز بعد أعلم بالتوراة منه، قلت: وقد قيل إنه أسلم» انتهى منه بلفظه(٣).

وقد حكى السهيلي إسلامه كما تقدم.

وأقول: إن إسلامه لم يثبت، ولو حكاه ابن كثير والسهيلي؛ لأنه لو أسلم لنقل إلينا إسلامه نقلاً شائعاً لتوفر الدواعي إلى ذلك، والله أعلم.

وإنما ذكرت كلام ابن كثير لتقوية رواية ابن إسحاق والبيهقي التي ذكرها الحافظ

---

(١) طالع الخصائص الكبرى المصدر السابق ص٤٧٨.

(٢) هذه كلمة عبرية تطلق على كل من ولى أمر اليهود وملكهم وتقدمت.

(٣) ج ٢ ص ٣٤٢.

السيوطي، والعلم عند الله تعالى.

الحديث الثالث:

ما أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه مختصراً وغيرهم عن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن هذه الآية: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات...﴾(١) فسألاه فقال:

الا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، وأنتم يا يهود عليكم خاصة لا تعدوا في السبت، فقبلا يده ورجله وقالا: نشهد أنك نبي، فقال: ما منعكما أن تسلما فقالا: إن داود دعا أن لا يزال من ذريته نبي وأنا نخشى إن تقتلنا اليهود(٢).

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات..﴾.

فهذا حديث رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج به، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم(٣).

---

(١) جزء من الآية ١٠١ من سورة الإسراء.

(٢) رواه الترمذي في أبواب التفسير ٤/٣٦٧ - ٣٦٨ وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في كتاب الأدب: باب الرجل يقبل يد الرجل رقم ٣٧٠٥ والنسائي في كتاب تحريم الدم ٧/١١١ ط إحياء التراث العربي بيروت، وابن جرير ١٥/١١٥ والإمام أحمد ٤/٢٣٩.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/٦٧ سورة الإسراء.

قلت : عبد الله الذي ذكره ابن كثير قال ابن حجر فيه: عبد الله بن سلمة بكسر اللام المرادي صدوق تغير حفظه من الثانية(١).

ومن ذلك ما رواه الحاكم وصححه من حديث عوف بن مالك، وهو:

الحديث الرابع:

قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخل كنيسة اليهود فقال: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليهم، فأسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه منهم أحد فقال: أبيتم، فو الله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم، ثم انصرف، وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك؟ قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله ﷺ الذي تجدونه في التوراة، فقالوا:

كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا شراً ، فقال رسول الله ﷺ كذبتم لن يقبل الله قولكم، أما آنفا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذا آمن فكذبتموه وقلتم فيه ما قلتم فلن يقبل الله قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله ابن سلام، وأنزل الله تعالى فيه: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به(٢).. الآية﴾(٣). وليس في هذه القصة تكرار مع قصة إسلام عبد الله بن سلام التي

---

(١) انظر التقريب ص١٧٦ ط الهندية.

(٢) جزء من الآية ١٠ من سورة الأحقاف.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه ٤١٥/٣ - ٤١٦ في كتاب معرفة الصحابة وسكت على تصحيحه الذهبي.

تقدمت لأن هذه فيها التصريح بذهابه ﷺ، ومعه عوف بن مالك إلى كنيسة اليهود لدعوتهم إلى الإسلام، وتلك فيها التصريح بقدوم عبد الله عليه ﷺ في محله حيث أن في بعض الروايات (فاسترني في بعض البيوت عنهم حتى تسألهم عني) وعليه فلا مانع من تعدد سؤال عبد الله لليهود عن مكانته فيهم، ليقيم عليهم الحجة، ولعل الموجودين في الكنيسة في ذلك الوقت لم يعلموا بإسلام عبد الله ولا مانع من ذلك، والله تعالى أعلم(١).

---

(١) قلت: شنع الدكتور محمد خليل هراس على الحاكم في روايته هذا الحديث حيث قال معلقاً على هذا الحديث في تحقيقه للخصائص الكبرى للسيوطي: «القاعدة في الإسلام ألا تزر وازرة وزر أخرى، فليس إسلام اثني عشر رجلاً من اليهود برافع غضب الله ولعنته عمن بقي منهم على ظلمه، وكفره، وهكذا عودنا الحاكم أن يأتي بالأعاجيب، وقد قلنا فيما سبق، ليته سمى مستدركه مستتركا ليريحنا من بلاياه وقال: إن الآية مكية والخطاب للمشركين، وإن المراد بالشاهد الذي شهد بصدق محمد ﷺ الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء السابقين».

هكذا قال ١/٤٧٥ - ٤٧٦.

وأقول: إنه ورد في الصحيح ما يقرب من هذا الحديث في المعنى إن لم يكن هو بعينه، وذلك ما رواه مسلم في صحيحه قال: حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا قرة حدثنا محمد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لو تابعتني عشرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم» صحيح مسلم ٢١٥١/٤ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وأخرجه البخاري أيضاً عن أبي هريرة في كتاب مناقب الأنصار وقد تقدم، ولفظه: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود». فقوله: ﷺ في هذا الحديث «لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم» وقوله في الحديث الآخر: «لآمن بي اليهود» يعطي معنى قوله في حديث الحاكم: «يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليهم»، لأن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أطفأ عنه غضب الله الذي كان متصفاً به.

قال النووي: قال صاحب التحرير: المراد عشرة من أحبارهم، ومعنى ذلك أنهم لو آمنت عشرة من أحبارهم من ذوي النفوذ والجاه لآمنت اليهود كلها تبعاً لهم، وإلا فقد أسلم من =

... ...

= اليهود أكثر من عشرة كما تقدم، ولكنهم ليسوا من أحبارهم، لأن أحبارهم قل من أسلم منهم كعبد اللّه بن سلام، ومخيريق، وعليه فهذا الحديث لا شك أنه بمعنى حديث الحاكم الذي روى فتحمل الاثنا عشر رجلاً التي في حديث الحاكم على أنها من أحبار اليهود المطاعين ويتفق الحديثان، ولا يكون هناك ما يستوجب إنكار الحديث، فإن لم يكن في سند الحاكم الذي روى به الحديث ضعف محقق من ناحية الصناعة، عند أهل الحديث لا ينبغي في حقه ما قيل، فكونه فيه أن اسلام اثنى عشر رجلاً من اليهود يسبب إطفاء غضب اللّه عن عامة اليهود لا يستبعد، حيث كان ثابتاً عن النبي ﷺ، أو ثبت عنه نظيره.

وأما الآية التي أوردها المحقق وهي قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فإنها عامة، والسنة تخصص الكتاب وتقيده، وقد خرج من هذا العموم كثير ليس هذا محل ذكره، ومنه جعل دية القتل خطأ على العاقلة.

وأما قوله: إن آية الأحقاف مكية فإننا نقطع بأن سورة الأحقاف مكية، ولكن بطريق الاستقراء فإننا نجد كثيراً من الآيات المدنية في سور مكية فقوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به..﴾ إلى آخر سورة النحل، الآيات الثلاث مدنية، وسورة النحل مكية بالإجماع إلى غير ذلك، وعليه فلا مانع أن تكون هذه الآية المذكورة - وشهد شاهد من بني إسرائيل - مدنية في سورة مكية، وقد نص على ذلك الشوكاني وغيره عند تفسيرها وقد تكون تكرر نزولها وذلك لا مانع منه أيضاً كما هو معلوم ومقرر في أسباب النزول، ويمثلون له بآيات النحل الثلاث أيضاً، نص على ذلك محمد عبد العظيم الزوقاني في مناهل العرفان ١/١٢٠، وقد روى القصة الترمذي في تفسير سورة النحل ٤/٣٦١ - ٣٦٢ المرجع السابق.

أضف إلى هذا أن البخاري رحمه اللّه روى في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص بسند متصل من طريق مالك أن هذه الآية نزلت في شأن عبد اللّه بن سلام، قال: حدثنا عبد اللّه ابن يوسف قال: سمعت مالكاً يحدث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد اللّه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام قال وفيه نزلت هذه الآية ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ الآية، قال لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث، رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار. =

ومن ذلك أيضاً ما أخرج البيهقي في دلائل النبوة أن أبا ياسر بن أخطب لما قدم ﷺ المدينة، ذهب إليه وجلس عنده، وتحدث معه وسمع منه، ثم رجع إلى قومه وذلك قبل أن تصرف القبلة إلى بيت الله الحرام، فقال أبو ياسر: يا قوم أطيعوني فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حيي حين سمع ذلك وهو سيد اليهود يومئذ، وهما من بني النضير، فأتى النبي ﷺ فجلس إليه وسمع منه فرجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزامي(١) له عدواً أبداً، فقال له أخوه أبو ياسر: يا بن أم أطعني في هذا الأمر، ثم اعصني فيما شئت بعده لا تهلك قال: لا والله لا أطيعك، واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه(٢).

هذا وإن القرآن الكريم نزلت منه عدة آيات في شأن عناد اليهود وجحودهم

= **قلت**: قوله قال لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث: معناه أي لا أدري هل قال مالك إن نزول هذه الآية في هذه القصة من قبل نفسه، أو هو بهذا الإسناد، وهذا الشك من عبد الله بن يوسف شيخ البخاري، وسواء كان رواه بهذا الإسناد، أو كان القول بسبب نزولها من مالك كل هذا دليل على عدم بعد القول بأن سبب نزولها عبد الله ابن سلام، وأنها نزلت بالمدينة.

واستشكل قول سعد أنه ما سمع النبي ﷺ يقول لأحد إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وقد أجيب عن هذا بأجوبة أحسنها أن سعداً حدث بهذا الحديث بعد موت العشرة المبشرين بالجنة إلا سعداً فإنه في ذلك الوقت حي، وعبد الله عاش بعد موت العشرة ولم يتأخر معه إلا سعد، ويدل لذلك قوله في الحديث: ما سمعت النبي يقول لأحد يمشي على الأرض، فقوله يمشي على الأرض قرينة على ما قلنا، والله تعالى أعلم، انظر فتح الباري ١٣٠/٧ وقد أطلت الكلام في هذه المسألة. لا لأجل الرد على المحقق، ولكن لأحقق فيها.

(١) هكذا هذه اللفظة وقد بحثت ولم أجد لها معنى.

(٢) البيهقي في دلائل النبوة ٢٥٤/٢.

للحق بعد لقيهم لرسول الله ﷺ، ومفاوضتهم معه في شأن رسالته، ودعوته لهم للدخول في الإسلام، نزلت في هذا الشأن آيات من سور القرآن المدنية، فكان من المناسب عند ذكر بعض هذه الآيات، لأنها إنما نزلت بعد تكذيب من اليهود للنبي ﷺ، ونفيهم رسالته، وجحودهم صفاته التي كانوا يعرفونها، وقد روى البيهقي في كتابه دلائل النبوة بعضاً من هذا كما رواه غيره، وإليك بعض مما ذكره البيهقي في هذا الشأن.

فقد ساق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ونتجوا فيه، قالت أحبار يهود أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون.....﴾ إلى قوله: ﴿.. وأولئك من المصلحين﴾(١) .

وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا كلم ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهم، ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل.. إلى قوله: فلا يؤمنون إلا قليلا. ﴾(٢).

وكلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود منهم عبد الله بن صوريا الأعور، وكعب بن أسيد فقال لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن

---

(١) الآيتان: ١١٣ – ١١٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآيات من ٤٤ – ٤٦ من سورة النساء.

الذي جئتكم به الحق، قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ، فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها... ﴾ (١).

وقال سكين، وعدي بن زيد: يا محمدا ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده... ﴾(٢) إلى آخر الآية .

ودخل على رسول الله جماعة منهم فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أني رسول اللّه، قالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ (٣) .

ودخل على رسول الله ﷺ نعمان بن أضاه، ونحري بن عمرو، وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله عز وجل، وحذرهم نقمته، قالوا: ما تخوفنا يا محمد، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ ـ كقول النصارى ـ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾(٤) إلى آخر الآية، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود! اتقوا اللّه، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة، ووهب بن يهودا: ما قلنا هذا لكم ولا أنزل الله من

---

(١) جزء من الآية: ٤٧ من سورة النساء.

(٢) جزء من الآية: ١٦٣ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٦٦ من سورة النساء.

(٤) الآية ١٩ من سورة المائدة.

كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً من بعده، فأنزل الله عز وجل في قولهما: ﴿ يا أهل الكتب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾(١) ثم قص عليهم(٢) من خبر موسى، وما لقي منهم وانتقاضهم عليه من أمر الله حتى يتيهوا في الأرض أربعين سنة عقوبة لهم، وقال كعب بن أسيد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن عدي بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر فأتوه فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة لنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيرا من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾(٣) .

ثم ساق البيهقي سنده إلى ابن عباس، وابن مسعود، وإلى أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ولما جاءهم كتب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(٤) .

---

(١) الآية: ٩١ من سورة المائدة.

(٢) قوله: ثم قص عليهم يعني أن الله قص عليهم في القرآن قضية أسلافهم مع موسى حتى عاقبهم الله بالتيه أربعين عاما.

(٣) الآيتين: ٤٩ ـ ٥٠ من سورة المائدة.

(٤) الآية: ٨٩ من سورة البقرة.

قال: كانت العرب تمر باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً في التوراة فيسألون الله أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل.

وساق بسند آخر إلى ابن عباس قال: وصف الله عز وجل محمداً ﷺ في التوراة في كتب بني إسرائيل، فلما قدم رسول الله ﷺ حسده أحبار اليهود فغيروا صفته في كتابهم وقالوا: لا نجد نعته عندنا، وقالوا للسفلة: ليس هذا نعت النبي الذي يخرج كذا وكذا كما كتبوه وغيروه، ونعت هذا كذا وكذا كما وصف فلبسوا بذلك على الناس، قال: وإنما فعلوا ذلك؛ لأن الأحبار كانت لهم مأكلة يطعمهم إياها السفلة لقيامهم على التوراة فخافوا أن يؤمن السفلة فتنقطع تلك المأكلة(١).

ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن كثير وعزاه لابن عباس من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة..﴾(٢). قالت اليهود يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا أن الله فقير ونحو أغنياء..﴾(٣) الآية(٤). وقال رواه ابن مردوية وابن أبي حاتم.

---

(١) أخرجها البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٥٤ – ٢٥٨ تقديم وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ط أولى، الناشر محمد عبد المحسن (الكتابي) وأغلب هذه الآثار ذكره ابن كثير في تفسيره للآيات المذكورة، فانظره عند قوله تعالى ﴿لكن اللّه يشهد بما أنزل اليك ..﴾ وقوله تعالى ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبنؤا اللّه وأحباؤه﴾ وقوله ولما جاءهم كتب من عند اللّه مصدق لما معهم..﴾.

(٢) جزء من الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.

(٣) جزء من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.

(٤) انظر تفسير ابن كثير عند الآيتين المتقدمتين.

ثم قال: وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع فقال له أبو بكر ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء[2].. ﴾ الآية[3].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن إسحاق في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾. قال: حدثنا محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال شاس بن قيس: أن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل

---

(١) تقدم معنى الكلمة.

(٢) تقدمت.

(٣) طالع ابن كثير عند تفسير آية آل عمران هذه.

الله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء..﴾(١) الآية (٢).

ذكر اسلام عدي بن حاتم الطائي:

تقدم أن ذكرت علماً من أعلام اليهود أعزه الله بالإسلام، وهو عبد الله بن سلام، وكان من المناسب ذكر علم من النصارى أعزه الله بالإسلام ألا وهو عدي بن حاتم الطائي، وذلك لأبين ثمرة هذه الدعوة النبوية، وأنها أثرت في اليهودية والنصرانية، فإسلام هذين الرجلين وغيرهما إنما هو ثمرة لهذه الدعوة الحكيمة، فقد أثرت في الأحبار كما أثرت في العامة من أهل الكتاب أيضاً كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله.

الحديث الأول:

روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير عنه رضي الله عنه قال: أنه لما بلغته دعوة النبي سافر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه: حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله....﴾ الآية(٣).

قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال:« بلى: إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا

(١) جزء من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) بواسطة نقل ابن كثير في تفسيره عند كلامه على هذه الآية من سورة آل عمران فانظره.

(٣) جزء من الآية ٣١ من سورة التوبة.

لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ: « يا عدي ما تقول؟ أيضرك(١) أن يقال: الله أكبر، فهل تعلم إلهاً غير اللّه؟ » ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »(٢).

الحديث الثاني:

روى الإمام أحمد عنه أيضاً أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: « يا عدي أسلم تسلم » فقلت: إني من أهل دين قال: « أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بديني مني! قال « نعم » ألست من الركوسية؟ وهي من كان من بين النصارى والصابئين، وأنت تأكل مرباع قومك أي أنت الذي تأخذ ربع الغنيمة من قومك قلت بلى: قال: « فان هذا لا يحل لك في دينك قال فلم يَعْدُ أن قالها حتى تواضعت لها، قال: « أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ » قلت: لم أرها وقد سمعت بها قال: « فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز قلت: كسرى بن هرمز! قال: نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد، قال عدي بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت في من فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله قد قالها(٣).

---

(١) في رواية: أيفرك؟ من الفرار.

(٢) رواه ابن جرير فس تفسيره ٨١/١٠ والترمذي ٣٤١/٤ - ٣٤٢ في كتاب التفسير والإمام أحمد ٣٧٧/٤ - ٣٧٨.

(٣) أخرجه الامام أحمد في المسند ٢٥٧/٤.

علماء اليهود يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم

لقد كان من المناسب عندي بعد ذكر كثير من أحبار اليهود من أسلم منهم ومن لم يسلم أن أذكر في آخر هذا الفصل أن علماء اليهود كانوا يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، أو أشد من معرفتهم لأبنائهم، وإنما كفروا به وجحدوا ما يعرفونه من صفات بغياً وحسداً، ولقد ذكر القرآن الكريم ذلك حيث يحدثنا عن معرفتهم له في سورتين من سوره إحداهما مدنية وهي سورة البقرة، والأخرى مكية وهي سورة الأنعام.

قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾(١)، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾(٢).

وقد روى ابن إسحاق بسنده عن شيخ من شيوخ بني قريظة يتحدث عن إسلام أسد وثعلبة ابني شعبة وأسد بن عبيد، قال: هل تدري عما كان إسلام أسد وثعلبة ابني شعبة وأسد بن عبيد، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير كانوا فوق ذلك؟ فقلت: لا قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من اليهود يقال له ابن الهيبان، فأقام عندنا والله ما رأينا رجلاً يصلي خيراً منه وكان قدومه قبل البعثة بسنتين، وكنا إذا قحطنا، قلنا يا ابن الهيبان اخرج بنا فاستسق لنا.. ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه نستسقي، فوالله ما يقوم من مقامه حتى تمطر، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا

---

(١) الآية: ١٤٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٢٠ من سورة الأنعام.

ثلاثة، فحضرته الوفاة، فاجتمعنا إليه فقال: يا معشر يهود أترون ما أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم قال: فإني إنما خرجت أتوقع خروج نبي قد أظل زمان، ه هذه البلدة مهاجره، فاتبعوه، ولا يسبقن إليه غيركم إذا خرج، يا معشر اليهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الزراري والنساء ممن يخالفه فلا يمنعكم ذلك منه، ثم مات، فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة قال أولئك الثلاثة الفتية وكانوا شباناً أحداثاً، يا معشر اليهود والله إنه الذي ذكر لكم ابن الصيبان فقالوا: ما هو به قالوا: بلى والله إنه لصفته ثم نزلوا وأسلموا وخلوا أموالهم وأهليهم وكانت أموالهم في الحصن مع المشركين فلما فتح ردت عليهم(١).

وأخرج ابن إسحاق عن محمود بن لبيد قال: كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت وذلك قبيل مبعث النبي ﷺ، فقالوا: ويحك يا فلان وهذا كائن؟ قال: نعم والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، فتقذفوني فيه ثم تطبقون علي، وإني أنجو من النار غداً، فقيل يا فلان ما علامة ذلك؟ قال: نبي يبعث من ناحية هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: فمتى نراه؟ فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي وأنا أحدث القوم فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسول الله ﷺ، وإنه لحي بين

---

(١) انظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٧ - ١٨ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٤٧/١ - ٣٥٤٨ المرجع السابق، وسيرة ابن كثير ٢٣٢/٣، إلا أن رواية ابن القيم فيها أن القوم أسد وثعلبة، وأنهما ابنا شعبة، وأسد بن عبيد، وفي ابن كثير أنهم ثعلبة وأسيد وأنهما ابنا سعية، أما أسد بن عبيد فاتفقا على تسميته، وانظر الجواب الصحيح ٢٨٧/٣ - ٢٨٨.

أظهرنا فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا يا فلان: ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا به؟ قال: ليس به.

وقال ابن إسحاق أيضاً كما يرويه بسنده عن عمر بن قتادة قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم برسول الله ﷺ منا كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿...وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(١).

ثم قال ابن القيم، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود خيبر فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالت: اللهم أنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي كفروا به فأنزل الله عز وجل: ﴿.. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا(٢) ....﴾ يعني بك يا محمد(٣).

وقد ذكر الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل عمرو بن سعد فطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر، ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا إليه فقال الزبير بن باطيا: يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم؟

---

(١) جزء من الآية ٨٩ من سورة البقرة.

(٢) تقدمت.

(٣) انظر هداية الحيارى في المصدر السابق نفسه، ودلائل النبوة للبيهقي ١/٣٤٥.

فلـم نرك، وكان لا يفـارق الكنيـسة، وكان يتـأله في الـيهودية قـال: رأيت اليوم عـبراً اعتبـرنا بها، رأيت إخوانـنا قد أجلوا بعـد ذلك العز والجلـد والشرف الفاضل والـعقل البارع قد تركوا أموالهـم وملـكهـا غــيرهــم، وخـرجـوا خـروج ذل، ولا: والتـوراة ما سلـط هذا على قوم قـط لله بهم حـاجة وقد أوقع قـبل ذلك بابن الأشـرف في عزة بنيانه فـي بيته آمنا، وأوقع بابـن سنينة سيدهم وأوقـع ببني قينقاع فـأجلاهم، وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة.. يا قوم قد رأيـتم ما رأيتم فأطيعوني، وتعالوا نتبع محمـداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبـي، وقد بشرنا به وبأمره ابن الهـيبان وأبو عمرو ابن حـواس وهمـا أعـلم الـيهود جـاءا من بيـت المقـدس يتوكـفان(١) قدومه، وأمـرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا، فأسكت القوم فـلم يتكلـم أحد، فأعاد هذا الـكلام ونحوه وخوفـهم بالحرب والسـباء والجلاء فقـال الزبير بـن باطيـا: قد: والتـوراة قرأت صفتـه في كتـاب التوراة الـتي أنزلت عـلى موسـى ليس فـي المثانـي التـي أحدثـنـا، فقال كـعب بن أسـد: ما يمـنعـك يا أبا عـبد الرحمـن من أتباعـه؟ قال: أنت، قال: ولـم؟ فوالتوراة مـا حلت بيـنك وبينـه قط، قال الزبير: بل أنت صاحب عهـدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبـينا، فأقبل عمرو ابن سعد على كـعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعـب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً(٢).

(١) أي يتعرضان له ليلقياه، القاموس مادة وكف.

(٢) هكذا عزا ابـن القيم هذه القـصة للحاكم، وقـد بحثت عنهـا في الحاكم في كتـاب المغازي وكتاب التـفسيـر، وكتاب التـاريخ، وكتاب الجـهاد ولم أجدهـا، كما ذكرهـا ابن كثيـر في سيرته ٣/١٥٥ - ١٥٦ وعزاها للبيهقي والواقدي وبحثت في مغازي الواقدي في غزوة بني قينقاع، وغزوة بـني النضير، وغزوة بن قريظـة، ولم أظفر بالحصول عليهـا، وقد وجدتها في دلائل النبـوة للبيهـقي بقسـم المخطوطات في المكتبـة العـامة بالجامعة: القسـم الثاني ورقة ١٠٩.

وليس القصد من إيراد هذه الروايات عن اليهود إثبات معرفتهم لصفات رسول الله ﷺ، ولا إثبات معرفتهم نبوته؛ لأن ذلك مستفيض في القرآن الكريم، في السنة النبوية، ولكن أردنا أن نوضح ذلك من شهادتهم على أنفسهم واعترافهم بذلك ليكون من باب وشهد شاهد من أهلها.

وهذه الآثار وإن كانت غير مرفوعة إلى النبي ﷺ لكنها كثرت في كتب التفسير، وحكاها كثير من أهل السير مع أن أسباب النزول لا طريق لمعرفتها إلا بالنقل عن الصحابة الذين عاصروا نزول الوحي وحضروه وعلموا القصص التي نزل القرآن من أجلها، وحضروا الأسئلة والحوادث، وإلا فإن النبي ﷺ ما كان يقول لهم هذه الآية نزلت بسبب كذا وكذا لأنهم يعلمون ذلك لا محالة، وطريقة معرفة هذا العلم إنما هي عنهم فقط فهم أهل هذا الفن وأصحابه.

وقد تبين من هذه الآثار أن الأنبياء والمرسلين بشروا بمحمد ﷺ وبينوا صفاته، ومبعثه، وبلده، ومهاجره، إلى غير ذلك، ولهذا روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله ابن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه(١)، ومع هذا كله فإن الله جل وعلا أخبر أنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه في شأن نبوته ﷺ وصدقه في رسالته إليهم، وإلى جميع الخلق، فأخبر أنهم يكتمون الناس ما في كتبهم من صفاته ﷺ التي يعلمونها، وأخبر جل وعلا أن ما أتى به حق فلا يمتري في ذلك أحد، قال تعالى: ﴿.. وأن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾(٢).

---

(١) انظر القرطبي ١٦٣/٢ المصدر السابق.

(٢) جزء من الآية ١٤٦ والآية ١٤٧ من سورة البقرة.

الفصل الثاني

في

«كتبه ﷺ إلى ملوك وعظماء أهل الكتاب»

تمهيد

إن نبينا صلوات الله وسلامه عليه نهج في دعوته لأهل الكتاب منهجاً حكيماً، كما ذكرت من قبل أنه درج في دعوتهم باللسان والأساليب اللينة والمحاورة ثم الوعد، ثم الوعيد، وبعد ذلك أي بعد الأمان الذي حصل بصلح الحديبية غير الاتجاه من دعوة أهل الكتاب المجاورين له إلى دعوة أهل الكتاب النائين عنه في البلاد البعيدة، فشرع يرسل إليهم رسله ويكتب لهم كتبه ويدعوهم فيها إلى الإيمان بالله عز وجل وبعدهم فيها بالفوز في الدارين إن آمنوا وصدقوا برسالته ﷺ، ويتوعدهم بالعذاب والخلود الأبدي في السعير إن لم يؤمنوا بأنه نبي أرسله الله إلى خلقه كافة وقد أرسل ﷺ كتبا مع رسل عديدة إلى عظماء وملوك أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وسأذكر ان شاء اللّه ما تيسر لي ذكره من ذلك في هذا الفصل مما وقفت عليه في كتب الحديث والمغازي والسير والتاريخ.

ولقد كان في هذا النوع من التبليغ منهج حكيم من مناهج الدعوة، حيث أن عظماء وملوك أهل الكتاب تبلغهم دعوته ﷺ في قصورهم في أقطارهم النائية يدعون إلى الدخول في الإسلام بأساليب الترغيب تارة وبأساليب الترهيب تارة حتى يؤمن بعضهم، ويهم بعضهم بالإيمان كما سيأتي إن شاء الله.

وأبتدئ هذا الفصل بما في الصحيحين وغيرهما من قصة أبي سفيان المشهورة لما دعاه هرقل عظيم الروم ليقرأ عليه الكتاب الذي أرسل إليه النبي ﷺ عندما كان

أبو سفيان هناك في جماعة من التجار بالشام.

الحديث الأول:

قال البخاري في صحيحه حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل(١) أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ(٢) فيها أبا سفيان، وكفار قريش، فأتوه وهم بإ يلياء فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم، ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان فقلت أنا أقربهم نسباً فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله، فقلت: لا، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في

(١) هرقل بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف ملك الروم ولقبه قيصر كما يلقب ملك الفرس كسرى.

(٢) يقال ماد القوم أي جعل بينه وبينهم صلحاً في مدة من الزمن كما فعل ﷺ مع قريش في صلح الحديبية، وتلك المدة عشر سنين على الصحيح وكان ذلك سنة ست، وقد نقضوا العهد فغزاهم ﷺ عام ثمان، وفتحت مكة، انظر فتح الباري في شرح الحديث ٣٤/١ المصدر السابق.

مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال[1] ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاءهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا: وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟

فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقائه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله الذي بعث به دحية إلى عظيم بصري فدفعه إلى هرقل فإذا فيه:

---

(١) أي تارة ينصر علينا، وتارة ننصر عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(١) و(يا أهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(٢).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا لقد أمر(٣) أمر ابن أبي كبشة(٤)، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

---

(١) الأريسيون: جمع أريسي أي أكار، والأكار الفلاح، وقيل المراد أهل مملكته لأن كل من كان يزرع يسمى فلاحاً عند العرب تولى ذلك بنفسه أولا؟.

(٢) سيأتي تخريجها إن شاء الله.

(٣) أمر بكسر الميم أي عظم.

(٤) ابن أبي كبشة، المراد به محمد ﷺ، واختلف في سبب هذه الكنية، فقيل: إن أبا كبشة أحد أجداده، قيل: هو جد وهب أبي آمنة، وقيل جد عبد المطلب لأمه، وقيل أبوه من الرضاع، وقيل غير ذلك، وكان من عادة العرب أن ينسبوا إلى جد غامض لغرض.

انظر فتح الباري هنا، وفيه زيادة على ما ذكرت، وقد بسط النووي الكلام في تفسير هذه الكلمة فقال: وأما قوله ابن أبي كبشة فقيل هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرى ولم يوافقه أحد من العرب في عبادتها فشبهوا النبي ﷺ به لمخالفته إياهم في دينهم كما خالفهم أبو كبشة، وروينا عن الزبير بن بكار في كتاب الأنساب قال: ليس مرادهم بذلك عيب النبي وإنما أردوا مجرد التشبيه.

وقيل هو أبوه من الرضاع وهو الحارث بن عبد العزى السعدي حكاه ابن بطال وآخرون، وحكى القاضي عياض عن الجرجاني أنهم قالوا: ذلك عداوة له فنسبوه إلى نسب غير نسبه المشهور إذا لم يمكنهم الطعن في نسبه المعروف، ثم ذكر الأقوال التي قدمنا عن ابن حجر إلى أن قال.. وقيل أبو كبشة عم والد حليمة مرضعة النبي ﷺ اهـ. طالع النووي على =

وكان ابن الناطور ـ صاحب إيلياء وهرقل ـ أسقفاً على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان وهو ملك من ملوك اليمن سكنوا الشام سموا بماء نزلوا عنده هـ . ذكر ذلك الكرماني هنا أرسله يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فاستخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم مختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة(١) له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي؟ فحاصوا(٢) حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي وقال: إني قلت آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له

= مسلم مع حذف واختصار ١٢/١١٠ - ١١١.

قلت: وأقرب الأقوال في نظري هو قول الجرجاني الذي حكاه عنه عياض لما هو معلوم من عداوة قريش له ولعدم إمكان الطعن في نسبه والله أعلم.

(١) الدسكرة بسكون السين المهملة: القصر الذي حوله بيوت.

(٢) حاصوا أي نفروا، وشبههم بالوحش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الأنيسة، وشبههم بالحمر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضل. وانظر فتح الباري هنا.

ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل».

رواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهري(١).

وقد ذكر الكرماني في شرحه للصحيح(٢) أن البخاري ذكر هذا الحديث في صحيحه عشر مرات، وبعد تتبعي لمواضعه وجدته ذكره في اثني عشر موضعا كما رأيت.

قلت: قوله في الحديث فكان ذلك آخر شأن هرقل أي فيما يتعلق بهذه القصة في شأن النبي ﷺ ودعوته له للإيمان، قاله الكرماني في شرحه للحديث في المصدر السابق، وذكر مثل ذلك الحافظ ابن حجر وزاد: لا أنه انقضى أمره حينئذ، أو أنه أطلق الآخرية بالنسبة إلى ما في علمه، وهذا أوجه لأن هرقل قد وقعت له قصص أخرى بعد ذلك منها تجهيزه الجيوش إلى مؤتة، وتجهيزها إلى تبوك ومكاتبة النبي

---

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه في كتاب بدء الخلق، وأخرجه بعد ذلك في مواضع متعددة مطولاً ومختصراً فقد أخرج منه جزءاً في كتاب الإيمان، وأخرجه مختصراً في كتاب الشهادات، وأخرج منه جزءاً في كتاب الجهاد، وأخرجه مطولاً فيه أيضاً في موضع آخر منه بنحو ما ذكره أولاً، وأخرجه بعد ذلك في كتاب الجهاد أيضا مختصراً، وأخرج منه جزءاً في كتاب الجزية، وأخرجه بطوله في كتاب التفسير، وأخرج جزءا منه في كتاب الأدب في باب كيف يكتب إلى أهل الكتاب، وأخرجه مختصراً في كتاب الاستئذان، وأخرج منه جزءاً في كتاب الأحكام، وأخرجه مختصراً في كتاب التوحيد، وإنما تتبعت مواضع هذا الحديث من صحيح البخاري لأن أغلب المواضع التي ذكر فيها تتعلق بأهل الكتاب، أما في باب كيف يكتب لهم، أو كيف يدعون، وعند تفسير آية تتعلق بهم كقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتب تعالوا إلى سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [الآية: ٢٤ من سورة آل عمران].

(٢) ج ١ ص ٦٧.

ﷺ ثانياً، وإرساله إلى النبي ﷺ بذهب فقسمه بين أصحابه(١).

قلت: قوله في الحديث ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، في العبارة غموض، ولكن ذلك الغموض بينته بعض روايات الحديث، كما في الجهاد أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يرسل إلى هرقل كتاباً أرسله مع دحية الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى إلى هرقل، وهكذا فعل لما أرسل كتابه إلى كسرى ملك الفرس، فأمر رسوله أن يدفعه إلى عظيم البحرين، ويدفعه عظيم البحرين لكسرى.

قال البخاري: باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وألا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله. وقوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتب والحكم والنبوة..﴾ إلى آخر الآية(٢).

حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه أخبره أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جا قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا إليَّ ها هنا أحداً من قومه لأسألهم عن رسول الله ﷺ ... الحديث(٣).

فمحل الشاهد من الحديث بيان أن الكتاب الذي فعه دحية إلى عظيم بصرى

---

(١) طالع فتح الباري ٤٣١/١.
(٢) الآية ٧٩ من سورة آل عمران.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد.

هو الكتاب المرسل إلى قيصر مع دحية، ولكنه أمره بدفعه إلى عظيم بصرى ليتولى تسليمه لقيصر كعادة الملوك والعظماء أن تدفع الرسل لوزرائهم وأهل بطانتهم الرسائل ليتولوا تسليمها إلى الملوك والرؤساء، وهذا يدل على أن ذلك عادة أهل ذلك الزمن بدليل أنه ﷺ فعل ذلك لما أراد إرسال رسول إلى كسرى ملك الفرس، فهو ﷺ يحافظ على عدم الإتيان بأي شيء يخل بالدعوة بالحكمة، فيتمشى مع عاداتهم حيث كانت لا تخالف شرعاً أمر به عليه السلام كما تقدم.

فقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى أن يدفعه إلى عظيم البحرين يدفعه عظيم البحرين إلى كسرى... الحديث[1].

هذا: وقد ذكر الحافظ ابن حجر تكميلاً في آخر شرحه لهذا الحديث ختم به باب بدء الوحي ناسب عندي ذكره هنا: قال رحمه الله ما نصه:

ذكر السهيلي أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيماً له وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الإفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند سبط، فحدثني بعض أصحابنا أن عبد الملك بن سعد[2] أحد قواد المسلمين اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب، فلما رآه استعبر وسأل أن يمكنه من تقبيله فامتنع، ثم قال: قلت: وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين فليح المنصوري قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الإفرنج في شفاعة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد: باب دعوة اليهود والنصارى وما يقاتلون عليه وما كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر والدعوة قبل القتال.

(٢) في السهيلي: سعيد.

فقبلها وعرض عليَّ الإقامة عنده فامتنعت فقال لي لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج لي صندوقاً مصحفاً بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر مازلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا(١).ا هـ.

ويؤيد هذه القصة ما سيأتي إن شاء الله في حديث ابن أبي راشد في قصة التنوخي الذي عرض عليه ﷺ الإسلام حيث أتاه رسولاً من عند قيصر.. فقال له يا أخا تنوخ: إني كتبت إلى ملككم بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير.

ويؤيد القصة التي ذكرها السهيلين أيضاً ما ذكره ابن حجر من أنه روى أن النبي ﷺ لما جاء جواب كسرى قال: «مزق الله ملكه» ولما جاءه جواب هرقل قال: «ثبت الله ملكه(٢)».

وقد روى مسلم في صحيحه هذا الحديث بروايات فذكره في رواية بطوله في أول موضع من صحيحه كما فعل البخاري، وبين في روايته الأولى له أن رسول الله ﷺ أمر دحية بدفع الكتاب إلى عظيم بصرى وعظيم بصرى يدفعه لهرقل، وذكر جميع ما ذكره البخاري إلاَّ قصة ابن الناطور فإنه لم يذكرها فانظره.

فإن قيل: في الحديث أن الحرب تكون سجالاً بين الرسل وأعدائهم كما اتفق على ذلك أبو سفيان وهرقل، والله جل وعلا ذكر في كتابه في غير آية منه أنه وعد

---

(١) انظر فتح الباري ١/٤٤ المصدر السابق، وانظر السهيلي ٦/٣٦٥ ط المكتبة الحديثة تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل.

(٢) طالع فتح الباري ١/٤٤.

رسله بالنصر وأنهم منصورون وغالبون كما في قوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوة الدنيا..﴾(١) وقوله تعالى ﴿وكتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز﴾(٢) . وقوله تعالى ﴿ولينصرن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز﴾(٣) . فكيف تكون الحرب سجالا بينهم وبين أعدائهم ينتصرون عليهم تارة وينتصر الأعداء تارة؟

والجواب: أنه لا تعارض بين الحديث والآيات فإن المرار على العاقبة وعاقبة النصر لله ورسله والمؤمنين، وكون أعداء الله ينتصرون في الحرب تارة على أوليائه لا يمنع من وجود النصر في العاقبة لأوليائه؛ لأن الرسل من جنس البشر يعتريهم ما يعتري البشر في كثير من الأمور، وفي كلام هرقل ما يشير إلى هذا حيث أن فيه: وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، ولم يخبر بهذا إلا عن علم من كتب الأنبياء السابقين فيبتليهم الله بذلك ليعظم به أجرهم لكثرة صبرهم والعلم عند الله.

معنى الأريسيين:

تقدم في حديث البخاري هذا اللفظ هكذا، وورد في مسلم وغيره بألفاظ مختلفة، وقد أشرت لمعناه هناك، وتبين لي أن أزيده إيضاحاً على ما تقدم. قال النووي: (الأريسيين) هكذا وقع في هذه الرواية الأولى لمسلم وهو الأشهر في روايات الحديث، وفي كتب أهل اللغة، وعلى هذا فاختلف في ضبطه على أوجه أحدها بياءين بعد السين، والثاني بياء واحدة بعد السين وعلى هذين الوجهين الهمزة مفتوحة، والراء مكسورة، والثالث: الإرسين بكسر الهمزة وتشديد الراء وبياء واحدة

---

(١) جزء من الآية: ٥١ من سورة غافر.

(٢) الآية: ٢١ من سورة المجادلة.

(٣) جزء من الآية ٤٠ من سورة الحج.

بعد السين، ووقع في الرواية الثانية في مسلم وفي أول صحيح البخاري[١] اسم اليريسيين بياء مفتوحة في أوله، وبيائين بعد السين.

واختلفوا في المراد بهم على أقوال:

الأول: وهو أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أي الفلاحون والزراعون، ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا؛ لأنهم الأغلب ولأنهم أسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا، وهذا القول هو الصحيح، وقد جاء مصرحاً به في رواية رويناها في كتاب دلائل النبوة للبيهقي وفي غيره، فإن عليك إثم الأكارين، وفي رواية ذكرها أبو عبيد في كتاب الأموال.. قال أبو عبيد: ليس المراد بالفلاحين الزرّاعين خاصة بل المراد بهم جميع أهل مملكته.

الثاني: أنهم اليهود والنصارى، وهم أتباع عبد الله بن أريس الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى.

الثالث: أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها[٢].

قلت: إن في هذا الحديث عدة فوائد لا بد أن أذكر منها البعض ان شاء الله لأهميته، وإن كنت لم ألتزم في هذه الرسالة شرح الأحاديث بل أذكر مواضع الاستدلال منها، ولكني إذا لمحت لي فوائد ذات أهمية، أو أحكام مهمة، أو وجه

---

(١) يعني في رواية أبي ذر الأصيلي كما ذكره في الفتح هنا وإلا فإن الرواية التي أثبتنا هي الموجودة في النسخ التي بأيدينا.

(٢) انظر النووي على مسلم ١٢/١٠٩ – ١١١.

جمع بين روايتين أو روايات، أو بيان خطأ حسب اطلاعي، أو تشنيع بعض العلماء على بعض فيما لا يستحق ذلك، كل هذه الأمور إذا عرضت لي يكون من المناسب عندي أن ألم بها. وألقي عليها نظرة سريعة لا تخرجني عن الموضوع، ويكون فيما ذكرته تنبيه على ما لم أذكره، وفي هذا الحديث من ذلك أشياء مهمة سأذكر بعضها.

منها: استحباب تصدير الكتب المهمة بلفظ: بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان المبعوث إليه كافر، ويتبين منه أن قوله عليه الصلاة والتسليم في الحديث الآخر كل أمر لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم(١)، المراد بحمد الله هنا ذكره تعالى، وقد جاء ذلك في رواية لأن هذا الكتاب ذو بال، بل من المهمات العظام، وبدأ فيه ﷺ بالبسملة دون الحمد.

ومنها: إلانة القول لمن يدعى كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...﴾ (٢). وقوله:

﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى..﴾ (٣).

ومنها: استحباب الإيجاز في الكلام وتحري الألفاظ الموجزة في الكلام والمكاتبة فقوله ﷺ: أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين في غاية الإيجاز والبلاغة.

ومنها: أن من كان سبباً في ضلالة، ومنع من هداية عليه إثم من منعهم من تلك الهداية يدل لذلك قوله ﷺ: فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/ ٦١٠ في كتاب النكاح وقال: أقطع بدل أجذم. وأبو داود في كتاب الأدب.

(٢) تقدمت.

(٣) الآية ٤٤ من سورة طه.

ومنها: استحباب قول: أما بعد في المكاتبات.

ومنها: أن من أدرك نبينا محمداً ﷺ وآمن به بعد أن كان مؤمناً بأحد الأنبياء فله أجران كما هنا، وكما في الحديث الذي تقدم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، ومنهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ »(١).

وقد روى الإمام أحمد حديث أبي سفيان هذا بهذا السياق إلا أن فيه بعض الزيادة والنقص فلذلك أورده إن شاء الله، وذلك أنه رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أي روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث بكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي يدعوه فيه، ثم رواه عن أبي سفيان من حين ما دعاه هرقل با يلياء فقال: حدثنا يعقوب قال: حدثنا ابن أخي ابن شهاب عن عمه محمد بن مسلم، قال: أخبرني عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث كتابه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى وكان قيصر لما كشف الله عز وجل عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء على الزرابي تبسط له، فقال عبد الله بن عباس فلما جاء كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي من قومه من أسأله عن رسول الله ﷺ، قال ابن عباس فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجاراً، وذلك في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، قال أبو سفيان فأتاني رسول قيصر فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه عليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال لترجمانه اسألهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم إليه نسبيا، قال: ما قرابتك منه؟ قال:

---

(١) انظر شرح النووي لمسلم ١٢/١٠٧ - ١٠٩ بتصرف وحذف وزيادة.

قلت هو ابن عمي، قال أبو سفيان وليس في الركب يومئذ رجل من بني عبد مناف غيري قال: فقال قيصر أدنوه مني، ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه... الحديث بطوله وسياقه إلى أن قال في آخره: فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره. اهـ [1]. هكذا روى الإمام أحمد هذا الحديث دون ذكر قصة ابن الناطور التي ذكرها البخاري وقد قدمنا أن مسلماً لم يذكرها أيضاً، ولذلك ذكرت حديثهما بعد ذكري رواية البخاري لما بين الروايات من الإختلاف في الزيادة والنقص، وإن كان سياق الأحاديث واحد، والقصة واحدة.

قلت: ذكر ابن حزم في كتابه المحلى هذا الحديث مستدلاً به على جواز مس الجنب للمصحف وقراءته للقرآن الكريم، ولما أنهاه قال: فهذا رسول الله قد بعث كتاباً وفيه هذه الآية ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً... ﴾ الآية، إلى النصارى وقد أيقن أنهم يمسون ذلك الكتاب.

ثم قال: فإن قالوا: إنما بعث رسول الله ﷺ إلى هرقل آية واحدة، قيل لهم: ولم يمنع رسول الله ﷺ من غيرها وأنتم أهل قياس، فإن لم تقيسوا على الآية ما هو أكثر منها فلا تقيسوا على هذه الآية غيرها.

ثم قال: فإن ذكروا قول الله تعالى ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾[2] فهذا لا حجة لهم فيه لأنه ليس أمراً وإنما هو خبر والله تعالى لا يقول إلا حقاً ولا يجوز أن يصرف لفظ الخبر إلى معنى الأمر إلا بنص جلي، أو إجماع متيقن فلما رأينا المصحف يمسه الطاهر وغير الطاهر علمنا أنه عز وجل لم يعن المصحف وإنما عني كتاباً آخر... ثم

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد ١/٢٦٢ - ٢٦٣ المصدر المتقدم.

(٢) الآية: ٧٩ من سورة الواقعة.

ذكر آثاراً عن سلمان الفارسي رضي الله عنه وسعيد بن جبير بين فيها أن المراد بالطاهرين الملائكة، وأن المراد بالكتاب الذكر الذي في السماء... الخ كلامه(١).

قلت: أن ورود الخبر بمعنى الأمر كثير في القرآن لا يكاد يحصى كقوله تعالى: ﴿والمطلقت يتربصون﴾(٢) و﴿الوالدات برضعن﴾(٣) مع أن قوله هذا مخالف لما عليه الجمهور.

هذا وقد ذكر الشيخان وغيرهما كالإمام أحمد ومن تبعهم كتابه ﷺ إلى هرقل ذكروه مطلقاً غير مقيد بزمن ولا بمكان إلا ما ذكر من أنه كان في المدة التي ماد فيها رسول الله ﷺ قريشاً دون تحديد الزمن الذي أرسل فيه، وكذلك دون تحديد المكان الذي وقع منه الإرسال، وظاهر الإطلاق يقتضي أنه ﷺ أرسل هذا الكتاب من المدينة؛ لأنه محل إقامته منذ هاجر إليها لم يخرج منها، إلا لحج، أو عمرة، أو غزو ثم يرجع إليها فوراً، أما الزمن فإن التصريح بأنه وقع في زمن الهدنة فيدل على أنه كان قبل غزوة تبوك بل وقبل الفتح، ومع هذا فإن السهيلي في الروض الأنف نص على أن هذا الكتاب أرسل من تبوك لما غزا رسول الله ﷺ تبوك ووصل هناك أرسل هذا الكتاب المذكور مع دحية بن خليفة، وذكر أن هرقل أعلن الإيمان، ولما تباعد قومه من ذلك رجع عنه، وأنه أرسل إلى النبي ﷺ كتاباً يخبره فيه بإسلامه، وأن نبي الله ﷺ قال: كذب عدو الله ليس بمسلم بل هو باق على نصرانيته.

قال السهيلي تحت عنوان: (**الكتاب إلى هرقل**):

ولم يذكر ابن إسحاق في غزوة تبوك ما كان من أمر هرقل فإن النبي ﷺ كتب

---

(١) طالع المحلى لابن حزم ١/٨٣ – ٨٤.

(٢) جزء من الآية: ٢٢٨ من سورة البقرة.

(٣) جزء من الآية ٢٣٢ من ورة البقرة.

إليه من تبوك مع دحية بن خليفة، ونصه مذكور في الصحاح مشهور، فأمر هرقل منادياً ينادي: ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه فدخلت الأجناد في سلاحها وأطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم: إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم فقد رضيت عنكم فرضوا عنه، ثم كتب كتاباً وأرسله مع دحية يقول فيه للنبي ﷺ: إني مسلم ولكني مغلوب على أمري، وأرسل إليه بهدية فلما قرأ النبي ﷺ كتابه قال:

«كذب عدو الله ليس بمسلم بل هو باق على نصرانيته»... وقد روي أن هرقل وضع كتاب رسول الله ﷺ في قصبة من ذهب تعظيماً له، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه كابرا عن كابر في أرفع صوان (١) وأعز مكان حتى كان عند أذفونس(٢) الذي تغلب على طليطلة، وما أخذ أخذها من بلاد الأندلس، ثم كان عند ابن بنته المعروف بالسليطين، ثم ذكر آخر القصة التي قدمنا نقل الحافظ ابن حجر لها عنه(٣).

قلت: أن هذا السياق يختلف عمّا في الصحيحين من ذكر أبي سفيان رضي الله عنه وروايات الصحيحين وغيرهما كلها مدارها عليه، وبلغ من الشهرة ما بلغ، ومعلوم أن أبا سفيان أسلم عام الفتح كما هو معلوم صرح بذلك ابن حجر في الإصابة(٤)، وابن عبد البر في الاستيعاب(٥)، ولا شك أنه بعد الفتح لا يصح القول بأن هنا ممادة بينه ﷺ وبين قريش، ومعلوم أن غزوة تبوك متأخرة عن الفتح، ولا شك أن روايات

---

(١) ما يصان فيه الشيء لحفظه. القاموس ٢٤٤/٤ مادة صان.

(٢) هذكا (اذفونس) في الروض الآنف، ولكن المحقق للروض عبد الرحمن الوكيل قال: يقصد: ألفونس بن فرديناند الذي استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥م.

(٣) طالع الروض الأنف للسهيلي ٣٦٣/٧ - ٣٦٥ تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل.

(٤) جـ ١٧٩/٢.

(٥) ص ١٩٠ من المجلد نفسه حيث أن الاستيعاب في هامش هذه النسخة من الإصابة.

الصحيحين تثبت أن أبا سفيان في تلك الفترة أي فترة المادة - باق على شركه - وأنه في زمن غزوه ﷺ لتبوك في ذلك الوقت من جملة المسلمين صحابة رسول الله ﷺ، وعلى هذا فلم يبق إلا أن يكون ﷺ كتب أولا إلى هرقل زمن الهدنة بينه وبين قريش كما صرحت بذلك الروايات الصحيحة الصريحة، ثم بعد ذلك لما وصل تبوك أرسل إلى هرقل كتاباً آخر، وكلا الكتابين مع دحية، ويكون أرسل معه الكتاب الثاني لأنه تقدم أن سبق أنه لقيه وتفاوض معه، وعرف كيف يتفاهم معه، أو يكون هرقل الذي أرسل إليه الكتاب زمن المادة غير هرقل الذي أرسل إليه كتب من تبوك. ولا مانع أن يكون ذلك هرقل مات كما يمكن فهمه من قول البخاري، وكان ذلك آخر شأن هرقل كما تقدم عنه، والله تعالى أعلم.

ويؤيد كونهما كتابين ما في المسند للإمام أحمد من طريق سعيد بن أبي راشد أن رسول الله ﷺ قدم تبوك، فبعث دحية إلى هرقل فلما جاءه الكتاب دعا قسيسي الروم وبطارقتها: الحديث.. ونصه:

عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ وكان بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفند أو قرب فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟ فقال: بلى: قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إليَّ ثلاث خصال: يدعوني إلى أن اتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذن ما تحت قدمي، فهلم نتبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد ثم خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية، أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز، فلما ظن أنهم إن خرجوا من

عنده أفسدوا عليه الروم فأهم ولم يكد وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب كان على نصارى العرب فقال: دع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إلى هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل فما ضيعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال:

انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إليّ بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل؟ وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟ فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء فقلت أين صاحبكم؟ فقيل ها هو ذا فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته الكتاب فوضعه في حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت أنا أحد تنوخ، قال: هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) يا أخا تنوخ إني كتبت كتاباً إلى كسرى فمزقه، والله ممزِقه، وممزِق مُلكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرِقه ومخرِق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه احدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي، وأخذت سهما من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! أين الليل إذا جاء النهار»؟ قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبت في جلد سيفي فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً، وإنك رسول فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، أنا سفر مرملون، قال: فناداه رجل من طائفة الناس قال: أنا أجيزه ففتح رحله فإذا هو يأتي

بحلة صفورية فوضعتها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ وقال: تعال يا أخا تنوخ فأقبلت أهوي إليه حتى كنت قائماً في مجلس الذي كنت بين يديه، فحل حبوته عن ظهره وقال: ها هنا فامض لما أمرت له، فجلت في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون(١) الكتف مثل الحجمة الضخمة. اهـ(٢).

فهذا الحديث يقوي قول السهيلي، ولكنه يتعين معه القول بتعدد القصتين لما رأيت من اختلاف السياق بينهما.

وهذا كله على فرض صحة ما حكاه السهيلي وأخرجه الإمام أحمد، أما إذا لم يصلح الخبر بذلك فلا يكون المعول إلا على ما في الصحيحين، وكذلك على فرض صحة الخبر إذا لم يمكن الجمع وصرنا إلى الترجيح نرى أن رواية الصحيحين أرجح من رواية غيرهما كائناً من كان، ولكن الجمع ممكن كما رأيت، وأشار إلى هذا ابن حجر أعني تعدد القصتين حيث قال: قوله: فكان ذلك آخر شأن هرقل أي فيما يتعلق بهذه القصة المتعلقة بدعائه إلى الإيمان خاصة، لا أنه انقضى أمره حينئذ ومات، أو أنه أطلق الآخرية بالنسبة إلى ما في علمه، وهذا أوجه؛ لأن هرقل وقعت له قصص بعد ذلك منها ما أشرنا إليه من تجهيزه الجيوش إلى مؤتة، ومن تجهيزه الجيوش أيضاً إلي تبوك ومكاتبة النبي ﷺ له ثانياً، وارساله إلى النبي ﷺ بذهب، فقسمه بين أصحابه(٣) وقد قدمنا كلام ابن حجر هذا.

---

(١) الغضن: هو الكسر في الجلد والثوب والدرع وغيرها والجمع غضون. انظر لسان العرب لابن منظور ١٧/١٨٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٤١.

(٣) انظر الفتح هنا في شرح هذا الحديث.

وعليه فالصواب أنهما كتابان؛ لأن الصلح وقع في الحديبية سنة ست، وغزوة تبوك متأخرة عن ذلك جداً لأنها سنة تسع.

وقال صاحب سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: وفي هذه - يعني غزوة تبوك - كتب ﷺ كتاباً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فقارب الإجابة ولم يجب، رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس(١).

وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه قصة هذا الكتاب وفيما ذكر زيادة على ما تقدم، وسأذكر موضع الشاهد من تلك الزيادة وأترك الباقي من القصة حيث تقدم ما يغني عنه من كتب السنة، وذلك أنه ذكر أن هذا الكتاب الذي أرسله ﷺ أثمر من حينه، قال بعد أن كان يتحدث عن إرساله ﷺ إلى كسرى والنجاشي والمقوقس: وأما قيصر، وهو هرقل، فإنه قبل كتاب رسول الله ﷺ وجعله بين فخذيه وخاصرته، وكتب إلى رجل برومية كان يقرأ الكتب يخبره شأنه، فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي كنا ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه، فجمع هرقل بطارقته الروم في الدسكرة(٢)، وغلقت أبوابها، ثم أطلع عليهم وخافهم على نفسه وقال لهم قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله النبي الذي نجده في كتابنا فهلم نتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال: ردوهم عليَّ، وخافهم على نفسه، وقال لهم: إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم؟ وقد رأيت منكم ما سرني فسجدوا له، وانطلق وقال لدحية إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا

---

(١) انظر سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي تأليف عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي ٢/٢١٠.

(٢) تقدم تفسيرها.

ذلك لاتبعته، فاذهب إلى ضغاطر (الأسقف) الأعظم في الروم واذكر له أمر صاحبك وانظر ما يقول لك. فجاء دحية، وأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ فقال له ضغاطر، والله إن صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا، ثم أخذ عصاه وخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قال: فوثبوا إليه فقتلوه فرجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر فقال: قد قلت: إنا نخافهم على أنفسنا، وقال قيصر للروم هلموا نعطه الجزية فأبوا فقال: نعطيه أرض سورية ونصالحه فأبوا واستدعى هرقل أبا سفيان.. إلخ القصة(١).

وذكر ابن كثير قصة هذا الكتاب، وقال: لا خلاف بين أهل السير والتاريخ أنه كان بعد صلح الحديبية، وقبل فتح مكة، إلا أنه ذكر أن البيهقي قال: إن زمن إرسال هذا الكتاب كان بعد غزوة مؤتة مع وفاقه غيره على أنه كان بعد الحديبية وقبل الفتح(٢).

وذكر ابن خلدون في تاريخه هذا الكتاب وعرض هرقل الصلح على قومه مع النبي ﷺ، وإباءهم عليه، وقال: إنه عرض عليهم أن يعطوه أرض سورية، قال: قالوا: وهي أرض فلسطين، والأردن، ودمشق، وحمص، وما دون الدرب، وما كان وراء الدرب فهو الشام فأبوا(٣).

وذكر ابن جرير الطبري هذه القصة وزمنها، ذكرها ضمن الكتب التي أرسلها ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، والمنذر بن ساوى، وإلى جيفر بن جلندي،

---

(١) طالع الكامل لابن الأثير ٢/١٤٣ - ١٤٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤/٢٦٢ ط أولى.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٧٨٩.

وعباد بن جلندي الأزديين، وإلى المقوقس صاحب الأسكندرية، ثم وصل قصة هرقل ولم يزد فيها على السياق الذي قدمنا إلا أنه زاد نسب دحية بن خليفة الكلبي أنه خزرجي، وزاد عن أبي سفيان أنه شرع أولاً يصغر لهرقل أمر النبي ﷺ ويخفف من شأنه ويقول له ما يهمك من أمره أن شأنه دون ما يبلغك، فلما رأى من هرقل الجد وأنه لا بد أن يصدقه شرع يعطيه حقيقته ﷺ كما تقدم(١).

هذا ولم يقتصر رسول الله ﷺ على هذا الكتاب لهرقل بل أرسل كتباً كثيرة مع جماعة من أصحابه رضي الله عنهم إلى عظماء النصارى الآخرين، وإلى كسرى، وإلى ملوك العرب ورؤسائهم.

وإليك بعض ذلك مجملاً، ثم بعد إجماله أذكر منه ما يتعلق بموضوعنا إن شاء الله مفصلاً، وذلك ما كان من تلك الكتب إلى أهل الكتاب، ما عدا ذلك فلن أذكره مفصلا.

قال ابن هشام في سيرته بعد نقله عن ابن إسحاق بعثه ﷺ أسامة بن زيد على رأس جيش - ومعلوم أن ذلك الجيش توفي رسول الله ﷺ قبل أن يغادر ضواحي المدينة فنفذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد ما ولي الخلافة قال: وقد كان رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسلاً من أصحابه وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام ثم قال: قال ابن هشام: حدثني من أثق به عن أبي بكر الهذلي قال: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية فقال: أيها الناس! إن الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، فقال أصحابه وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جعفر محمد بن جرير الطبري ٢/٦٤٤.

وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيداً فكره وجهه وتثاقل فشكا ذلك عيسى إلى الله فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها.

قلت: أن كلام ابن هشام هذا يقتضي أن بعض الصحابة عرض عليه ﷺ السفر إلى الدعوة إلى الله جل وعلا وتثاقل حتى أخبرهم أن عيسى عليه السلام دعا قومه إلى مثل هذا وأنهم تثاقلوا، ولم أقف على ما يقتضي هذا والله تعالى أعلم.

ثم قال ابن هشام معنوناً لأسماء الرسل وأسماء من أرسلوا إليه من العظماء والملوك.

«أسماء الرسل وأسماء من أرسل إليهم»:

قال: فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤى إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغسّاني، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن.

ثم ذكر عن ابن إسحاق أنه حدثه يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم... وذكر القصة، إلا أنه لم يذكر أسماء الرسل على التعيين كما ذكر

ابن هشام(١).

كتابه ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة:

إن أغلب الكتب التي بعث بها ﷺ لدعوة أهل الكتاب للدخول في الإسلام كان إلى عظماء النصارى مثل هرقل، والنجاشي، والمقوقس، أما اليهود فإنهم كانوا يجاورونه في المدينة، وكان يدعوهم إلى الله عز وجل كما تقدم، فكم مرة سألوه عن أمور عرفوها من كتب أنبيائهم السابقين، وعن المغيبات يحاولون تعجيزه بذلك، ولكن الله لم يحقق لهم أي هدف فأبطل تلك المحاولات كلها وأظهر دينه. اهـ.

وسأذكر تحت هذه العنوان أولاً حديث مسلم الذي ذكر فيه كتابه ﷺ إلى النجاشي، وأنبه على إشكال فيه حيث كان في ظاهره تعارض مع الروايات الكثيرة التي دلت ظواهرها على أن النجاشي الذي أرسل إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أسلم وأنه هو الذي صلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة صلاة الغائب لما علم بموته كما سيأتي ذلك إن شاء الله وهو: الحديث الثاني:

قال مسلم في صحيحه: (باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل) حدثني يوسف بن حماد المعني، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، هذا لفظ مسلم في هذه الرواية الأولى من رواياته الثلاث لهذا الحديث، وقد رواه من طريقين آخرين عن قتادة عن أنس ولم يذكر فيهما: وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٨٨/٤ تقديم وتعليق طه عبد الرؤف سعد.

قال: وحدثنا محمد بن عبد الله الرزي حدثنا عبد الوهاب عن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ بمثله ولم يقل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه ﷺ، ثم قال: وحدثنيه نصر بن علي الجهضمي، أخبرني أبي حدثني خالد بن قيس، عن قتادة، عن أنس، ولم يذكر: وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ(١).

وقد استفاضت الروايات وصحت في الصحيحين وغيرهما أنه ﷺ صلى على النجاشي ملك الحبشة لما علم بموته أخبر أصحابه به فقال لهم: « إن أخاً لكم مات فقوموا فصلوا عليه » وقام وصفهم وصلى عليه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه فخرج بهم إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات.

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال:

نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه فقال: « استغفروا لأخيكم ».

وفيه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ صلى على أصحمة(٢) النجاشي فكبر عليه أربعا(٣).

إلى غير ذلك من روايات مسلم التي تزيد على ما ذكرناه.

---

(١) أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير ٣/١٣٩٧ – ١٣٩٨.

(٢) أصحمة اسمه والنجاشي لقبه.

(٣) أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز ٢/٦٥٦ – ٦٥٧ وكذلك البخاري أخرجها في كتاب الجنائز أيضا، أخرج روايتين منها احداهما عن جابر والأخرى عن أبي هريرة.

وقد ذكر ابن القيم كتابه ﷺ بأوسع مما ذكرنا، وقال أن هذا النجاشي الذي كتب له ﷺ هذا الكتاب ليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ لما علم بموته وهو بالمدينة معتمداً فيما ذكر على ما قدمناه عن مسلم، قال: وكتب إلى النجاشي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة. أسلم أنت، فإني أحمد الله إليك، الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى» وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري.. ثم قال: قال ابن إسحاق إن عمراً قال له: يا أصحمة إن على القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا وكأنا في الثقة بك منك لأنه لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخف على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي ﷺ إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر. فقال النجاشي أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر، ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فقد بلغني

كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً(١)، إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وتوفي النجاشي سنة تسع، وأخبر ﷺ بموته ذلك اليوم فخرج بالناس إلى المصلى فصلى عليه وكبر أربعاً.

ثم قال ابن القيم: قلت: وهذا وهم والله أعلم فقد خلط رواية ولم يميز بين النجاشي الذي صلى عليه وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه فهما اثنان، وقد جاء ذلك مبيناً في صحيح مسلم أن رسول الله كتب إلى النجاشي وليس بالذي صلى عليه(٢).

فترى ابن القيم رحمه الله جزم هنا بأن من قال إنه هو الذي صلى عليه نبينا صلوات الله وسلامه عليه لما مات .وهم في روايته وأخطأ، واعتماده إنما هو على رواية مسلم التي قدمنا حيث أن فيها التصريح بأنه ليس بالنجاشي الذي صلى عليه نبينا عليه الصلاة والتسليم.

وكذلك وافق ابن القيم في هذا القول أبو الفرج الجوزي في كتابه: الوفاء بأحوال المصطفى فانظره(٣).

قلت: رواية مسلم هذه صريحة صحيحة ، ونصت على أن هذا النجاشي الذي

---

(١) التفروق، ويقال: التفروق الغلاف الذي يكون بين التمرة والنواة هكذا ذكره ابن القيم عن ابن إسحاق وهو غير صحيح لأن التفروق، أو الثفروف هو ما التصق بالتمرة والبسرة من ناحية الغصن والله أعلم، أما القشرة التي تكون بين النواة والتمرة فتسمى قطميراً. انظر القاموس في مادة قمع، وفي باب الراء فصل القاف.

(٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٧١ – ٧٢.

(٣) انظره ص ٧٣٦.

أرسل إليه النبي ﷺ هذا الكتاب ليس بالنجاشي الذي صلى عليه يوم موته، وغيرها من روايات مسلم التي لم يذكر فيها أنه غيره، لا تعارضها؛ لأن هذه صرحت بأنه غيره، وغيرها من الروايات لم يصرح بشيء بل لم يذكر شيئاً فكان في هذه الرواية زيادة مقبولة على ما في غيرها من الروايات، وقد بين محمد بن عبد الباقي الزرقاني في شرحه للمواهب اللدنية أن قول مسلم: وليس بالنجاشي الذي صلى عليه من قول مسلم عن أنس لا عن قتادة، وقال: إن القسطلاني توهم بذلك ونصه: وفي صحيح مسلم ما يرد عليه ويصرح بأنهما اثنان، فإنه أخرج عن قتادة بن دعامة عن أنس، وذكر الحديث.. إلى أن قال:

فصرح أنس بأنه غيره كما هو الواقع عند مسلم لا قتادة كما أوهمه المصنف. انتهى منه[١].

قلت: كأن الزرقاني يشير بهذا الكلام إلى نفي التهمة في صحة الحديث لأن قتادة بن دعامة مدلس فأراد أن يبين أن هذه اللفظة ثابتة عند مسلم عن أنس من غير طريق قتادة والله أعلم، مع العلم بأن قتادة هذا أخرج له الشيخان، بل أخرج له الجماعة كما ذكره الداودي في طبقات المفسرين[٢]، وقال ابن حجر ثقة ثبت[٣].

والحديث إنما روي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه فنفى في بعض رواياته أنه هو الذي صلى عليه، ولم يتعرض لنفي ولا إثبات في غيرها، بل أطلق ذكر هذا النجاشي وأنه كتب إليه ﷺ كتاباً، ثم قيد هذا النجاشي في موضع آخر بأنه غير الذي صلى عليه في المسجد النبوي والمطلق من الروايات يحمل على المقيد منها،

---

(١) انظر شرح الزرقاني للمواهب اللدنية ٣/٣٤٦.

(٢) فانظره ١/٤٧ - ٤٨.

(٣) فانظر التقريب ٢٨٠ - ٢٨١ وقال الخزرجي في خلاصة تهذيب تهذيب الكمال أنه حافظ واحتج به أرباب الصحاح.. ثم ذكر عنه التدليس فانظره ص ٣١٤.

والنجاشي علم على كل من تولى ملك الحبشة، فلا مانع أن يكون من أرسل إليه الكتاب مات، ولم يؤمن ثم جاء نجاشي آخر فآمن أو آمن ومات ولم يصل عليه ﷺ، وجاء آخر فآمن ولما مات صلّى عليه وهذا واضح.

قلت: يؤيد رواية مسلم هذه التي تفرق بين النجاشيين ما قدمنا من حديث التنوخي عند الإمام أحمد حيث أن فيه قوله ﷺ لرسول هرقل: «يا أخا تنوخ إني كتبت كتاباً إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه» ففي هذا دليل على أنه لم يسلم إذ لو أسلم لما قال ﷺ هذا في حقه.

وقد ذكر ابن كثير حديث مسلم هذا في قسم السيرة من تاريخه بلفظه ولم يعلق عليه بشيء(١). ولكنه بعد ذلك بحوالي ثلاثين صفحة بعد أن ذكر قصة النجاشي مطولة قال: قلت: والظاهر أن موت النجاشي كان قبل الفتح بكثير فإن في صحيح مسلم أنه لما كتب إلى ملوك الآفاق كتب إلى النجاشي وليس هو بالمسلم، وزعم آخرون كالواقدي أنه هو والله أعلم(٢).

قلت: إن كتب التاريخ والسير، تذكر هذا الملك النجاشي ذكراً كثيراً مستفيضاً وظاهر كلامهم أنه هو الذي أرسل إليه الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وأنه هو الذي أخبر ﷺ بموته وصلى عليه، ويذكرون قصة توكيل النبي له في شأن تزويجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان وإرساله إليه يخطبها له فرضيت وزوجها إياه ودفع لها مهرها كاملاً، وكذلك كتب الحديث لم أقف على من فرق بين النجاشي الذي صلى عليه وبين النجاشي الذي أرسل إليه الكتاب، إلا ما تقدم عن مسلم وأبي الفرج الجوزي وما أشار إليه ابن كثير، وكل ذلك تقدم، ولم أر في هذا ما يقف أما، حديث مسلم،

---

(١) انظر سيرة ابن كثير ٣/٤٩٤.

(٢) انظر سيرة ابن كثير ٣/٥٢٤.

فإن روايـة ابن إسـحاق والواقـدي، وظواهر روايـات التـاريخ والسـير التـي لـم تـصرح بشيء لا تقف أمام تصريح مسلم في صحيحه بأن الذي أرسل إليه الكتاب غير الذي صلى عليه والعلم عند الله تعالى.

*   *   *

كتابه ﷺ

إلى المقوقس عظيم القبط

تقدم لنا أن من جملة الملوك والعظماء الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ رسله يدعونهم إلى الإسلام المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية. وإليك نص كتابه كما ذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر وابن القيم في زاد المعاد:

« بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وختم الكتاب فدفعه إلى حاطب بن أبي بلتعة فخرج به حتى قدم على الإسكندرية، فانتهى إلى حاجبه فلم يلبث أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، وقال حاطب للمقوقس لما لقيه: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، واعتبر بغيرك ولا يعتبر بك، قال: هات، قال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي بالله فقد ما سواه، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكانت قريش أشدهم عليه، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى ابن مريم إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه(١)، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

---

(١) هذا إذا أدركهم وأرسل إليهم بالفعل أو كانت رسالته عامة كمحمد ﷺ، أما من أرسل رسالة خاصة إلى قومه دون غيرهم فليس من لم يرسل إليه بملزم بطاعة ذاك النبي بل بطاعة =

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهوذ فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب وقد وجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبيء والإخبار بالنجوى، وسأنظر، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب إلى النبي ﷺ، بسم الله الرحمن الرحيم: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك، ولم يسلم، والجاريتان هما: مارية أم ولده ﷺ إبراهيم وسيرين والبغلة لدلال، وكانت شهباء، وقد بقيت إلى زمن معاوية رضي الله عنه، وقد ذكر الواقدي أن المقوقس ذكر لحاطب أشياء من صفات النبي ﷺ، وقال له: القبط لا يطاوعوني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأن أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر على البلاد وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده حتى تظهر على من ها هنا، فارجع إلى صاحبك فقد أمرت له بهدايا وجاريتين أختين وبغلة من مراكبي وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً وغير ذلك، وأمرت لك بمائة دينار وخمسة أثواب فارحل: من عندي ولا تسمع منك القبط حرفا واحد.

يقول حاطب: وقد رحلت من عنده وكان لي مكرماً في الضيافة وقلة اللبث ببابه، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام، وإن الوفود، وفود العجم ببابه منذ شهر وأكثر، قال حاطب فذكرت قوله لرسول الله ﷺ فقال: «ضن الخبيث بملكه»(١).

= من أرسل إليه أن كان حيا أو بشريعته أن كان مات.

(١) انظر عيون الأثر في فن المغازي والسير لابن سيد الناس ٢/٢٦٥ - ٢٦٦ وزاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ٣/٧٢.

وقد تقدم طرف من الكلام على هذه القصة في شأن قبوله ﷺ هدايا المشركين.

قلت: إن قول حاطب في خطابه مع المقوقس: (... ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به...) مراده بذلك أن من اتبع دين المسيح عليه السلام لزمه اتباع محمد؛ لأن في دين المسيح البشارة بمحمد ﷺ، والأمر باتباعه، يعني: فإن كنت ملتزماً بدين المسيح حقاً مصدقاً بما أخبر به آمنت بمحمد ﷺ، ونحن لا ننهاك عن هذا، ليس المراد أنه يقول: أنا نأمرك بدين المسيح وترك دين نبينا محمد ﷺ لأن كل صاحب دين كان متمسكاً به، وأدرك النبي ﷺ بعد البعثة وبلغته دعوته على وجه صحيح وجب عليه اتباعه وترك ما كان عليه من الدين إلا ما أقره عليه شرع نبينا محمد ﷺ كما يشعر به كلام حاطب المتقدم.

وقد روي ابن إسحاق القصة بأوسع مما ذكره صاحب عيون الأثر... قال ابن إسحاق: حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن عبد القاري أن رسول الله بعث حاطب ابن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الأسكندرية فمضى بكتاب رسول الله ﷺ إليه فقبل الكتاب وأكرم حاطباً وأحسن نزله وسرحه إلى النبي وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها، وجاريتين أحداهما أم إبراهيم والأخرى وهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن قيس العبدي روى هذه القصة البيهقي.

ثم روى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه حدثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب بن أبي بلتعة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الأسكندرية، قال فجئته بكتاب رسول الله فأنزلني في منزله وأقمت عنده، ثم بعث إليَّ وقد جمع بطارقته وقال: إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني قال: قلت: هلم، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت: بلى هو رسول الله قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده

إلى غيرها؟ قال: فقلت: عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال: بلى: قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم من عن حكيم، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببذرقة (١) يبذرقونك إلى مأمنك، قال: فأهدى إلى رسول الله ﷺ ثلاث جوار، منهن أم إبراهيم، والأخرى سيرين وهي التي أهديت لحسان ابن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان، وزاد ابن كثير أن من جملة الهدايا غلاماً أسود خصياً اسمه مأبور، وخفان ساذجان أسودان(٢).. وكان مأبور هذا خصياً ولم يعلموا بأمره باديء الأمر فصار يدخل على مارية كما كان من عادتهم في بلاد مصر فجعل بعض الناس يتكلم في ذلك حيث لا يعلمون حقيقة حاله حتى قال بعضهم أنه هو الذي أمر رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب بقتله فوجده خصياً فتركه(٣).

قلت: مأبور هذا ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة، وذكر أنه قريب لمارية أو نسيب لها، أو أخوها من الأم، وذكر عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رجلاً كان يُتَّهم بأم ولد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لعلي: اذهب فاضرب عنقه فأتاه علي فوجده في بئر يتبرد فيها فقال له علي: اخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذَكر، فكف عنه عليّ، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أنه لمجبوب ماله ذكر(٤).

---

(١) هي الحرس.

(٢) أي على لون واحد.

(٣) البيهقي بواسطة نقل ابن كثير في قسم السيرة من تاريخه ٣/٥١٤ ـ ٥١٥.

(٤) انظر الإصابة في تمييز الصحابة القسم الخامس ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠ تحقيق علي محمد البجاوي.

قلت: الحديث الذي أشار له ابن حجر عن حماد بن سلمة ثابت في صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ قال: (باب براءة حرم النبي ﷺ من الريبة) حدثني زهير بن حرب، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت عن أنس أن رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لعليّ: اذهب فاضرب عنقه فأتاه عليّ فاذا هو في ركي يتبرد فيها فقال له علي: اخرج؛ فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر(١).

وقد ذكر ابن حجر أيضاً أن النبي ﷺ وجده معها يوماً فخرج في وجهه الغضب، فلقي عمر فعرف ذلك في وجهه، فأخذ عمر سيفه وذهب إليه فلما رآه عمر كشف عما بين فخذيه فإذا هو مجبوب ليس بين رجليه شيء، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال له ﷺ : إن جبريل أتاني فأخبرني أن الله تعالى قد برأها وقريبها، وأن في بطنها غلاماً مني وأنه أشبه الناس بي، وأمرني أن أسميه إبراهيم وكناني أبا إبراهيم(٢).

وذكر ابن الأثير أن المقوقس قبل كتابه ﷺ، وأهدى إليه أربع جوار من جملتهن مارية أم إبراهيم، لم يزد على هذا(٣)، وتقدم أنهما جاريتان أو ثلاث، والمثبت مقدم على النافي.

---

(١) صحيح مسلم ٢١٤٩/٤ تحقيق فؤاد محمد عبد الباقي.

(٢) انظر الإصابة في المصدر السابق نفسه، ولكن رواية مسلم مقدمة على ما في الإصابة لأنه ﷺ لو كان ثبت عنده من أخبار عمر بأنه مجب لما أمر علياً بضرب عنقه فليست هناك تهمة بعد ذلك، ولا يمكن تأخر قصة عمر أيضا عن قصة علي لأنه بعد إخبار علي بأمره لا داعي لوجود التهمة.

(٣) الكامل لابن الأثير ١٤٣/٢ وتاريخ ابن جرير الطبري ٦٤٥/٢.

هذا ولـم يكتـف ﷺ في منهـجه في دعـوة أهل الكـتاب بالكـتب والرسـل إلى عظمـاء وملوك الروم الذين هـم من أصل نصراني ولا يـهودي، بل أرسل رسله وكـتبه إلى من تنصر من العرب، فقد أرسل إلى المنـذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام كما يعبر بذلك ابن هشام، وصاحـب دمشق كما يعبر عنه بذلك ابن كثير في سيرته.

فقد أرسل له شجاع بن وهب، وكتب إليـه: سلام على من اتبع الهدى وآمن به، وأدعوك إلـى أن تؤمن بالله وحـده، لا شريك لـه يبقى لـك ملكـك، فقدم شجـاع بن وهب عليه بكتـاب رسول الله ﷺ فقرأه عـليه فقـال: ومن ينزع مـلكي؟ إني سـأسير إليـه، ولم يذكر هـل أسلم أو لم يـسلم؟ ولا هـل همَّ بالسير إلى رسول الله ﷺ بـعد ذلك أو لا؟ لم يزيدا على ذكرهما قوله: إني سأسير إليه(١).

ولما كان اليهـود قد دخلوا اليمن قبـل الإسلام بمدة طويلة حيث دخـلوه زمن تبع الأصغر(٢)، وكان ﷺ قد كتـب كتاباً إلى ملوك حـمير وعظمائهم، وكان مـن جملة أهل اليمن فـي ذلك الوقت كثير من اليهـود المستوطنين في اليمن وجـرى لهم ذكر في بعـض هذه الكتـب، كان من المـناسب ذكر بـعض هذه الكـتب التـي كتبهـا ﷺ إلى ملـوك حميـر وذكر فيـها شأن الـيهود والـنصارى، وكـان هذا بعـد أن قدم علـيه ﷺ رسولهم بعد رجوعه من تبوك فكتب إليهم كتاباً رداً على كتابهم هذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بـن عبد كلال، والي النعـمان قيل(٣) ذي رعين، ومـعافر وهـمدان... وأنـه من

---

(١) طالع قسم السيرة لابن كثير ٣/٥٠٦ وابو هشام ٤/١٨٨.

(٢) انظر شرح السيوطي للنسائي نقلا عن ابن إسحاق ٥/٣ من شرح النسائي المذكور.

(٣) القيل: ملك أقليم.

أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حرا وعبداً دينار واف من قيمة المعافر[١] أو عوضه ثياباً أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله[٢].

قلت: ذكر ابن هشام هذه القصة، ثم بعد ذلك ذكر كتابه ﷺ الذي أرسل به عمرو ابن حزم إلى أهل اليمن، وذكر فيه شيئاً من شأن اليهود والنصارى وأن من آمن منهم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وكتاب عمرو بن حزم لم يرو قصته من الكتب الستة إلا النسائي، وقد تتبعت رواياته فيه فلم أجد ذكراً لليهود ولا النصارى إلا أنه بعد ذكر الحديث قال: وقد روى هذا الحديث مرسلاً.. يونس عن الزهري.. أخبرني يونس بن زيد عن ابن شهاب قال: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمرو ابن حزم حين بعثه إلى نجران، ومعلوم أن نجران بها نصارى لم أجد غير هذا[٣].

وقد روى الحديث الحاكم[٤] والبيهقي في سننه[٥] ولم يجر فيه ذكر لليهود ولا للنصارى والعلم عند الله تعالى.

كما أن الزيلعي في روايات حديث عمرو هذا لم يذكر اليهود ولا النصارى البتة.

وقد رواه عبد الرزاق أيضاً ولم يجر فيه ذكر اليهود ولا النصارى[٦]، فلا أدري

---

(١) نوع من ثياب اليمن.

(٢) طالع سيرة ابن هشام ٤/١٧٤ - ١٧٥.

(٣) انظر سنن النسائي ٨/٥٧ فما بعدها ونصب الراية للزيلعي ٢/٢٣٩ فما بعدها.

(٤) جـ ١/٣٩٥.

(٥) ٤/٨٩ السنن الكبرى للبيهقي.

(٦) انظر المصنف لعبد الرزاق ٤/٤.

من أين أتى ابن هشام بذكر اليهود والنصارى في كتاب عمرو بن حزم.

هذا ولما كان التلطف بالمدعوين ومراعاة أحوالهم وعوائدهم أقرب للاستجابة كان من منهجه ﷺ في دعوته أهل الكتاب أنه إذا أراد أن يكتب إلى عظيم من عظمائهم تلطف به وحاول أن تكون كتابته لهم على نمط ما يعهدونه في كتاباتهم التي ترد عليهم، والتي يوردونها على غيرهم رغبة منه في استجابتهم للدعوة إلى الإسلام.

فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه وهو:

الحديث الأول: فقد روى عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى قيصر وإلى النجاشي، وإلى كسرى قيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ ﷺ خاتم فضة وجعل نقشه محمد رسول الله وصار يختم به الكتب التي بعث بها إليهم قال في صحيحه:

(باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون عليه، وما كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر والدعوة قبل القتال).

ثم قال: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة عن قتادة قال: سمعت أنسا رضي الله عنه يقول: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا يكون مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله (١).

وفي صحيح مسلم أيضاً في باب اتخاذ النبي ﷺ خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم، وهو:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد تحت الترجمة المتقدمة.

الحديث الثاني: قال: حدثنا محمد بن المثنى، وابـن بشار: قال ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر، حـدثنا شعبة، قال سمعت قتادة يحدث عـن أنس بن مالك قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم قال: قالوا: إنهم لا يقرؤون كتاب إلا مختوما قال: فـاتخذ رسول الله ﷺ خـاتماً من فـضة كأني أنـظر إلى بـياضه في يـد رسول الله ﷺ، نقشه محمد رسول الله.

ثـم ساق بـسنـد آخـر إلى أنـس أن النـبـي أراد أن يكـتـب إلـى كـسرى وقـيصر والنجاشي فقيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة من فضة ونقش فيه محمد رسول الله(١).

فتراه ﷺ لشدة حرصه عـلى استجابة أهل الكتاب لدعوتـه لهم اتخذ الخاتم فور إخباره بأنهم لا يقبلون إلا كتاباً مختوماً، فهذا من جزئيات تطبيقه ﷺ لأوامر ربه فإنه أمره أن يدعو إلى الله بالحكمة وهذا النوع من الحكمة بلا شك، فإن اليهود والنصارى إذا قدمت عليهم كتب عـلى غير عادتهم المعروفة لديـهم مـن كـونـهـم لا يقرؤون إلا كتباً مختومة، ربـما رموها قبل أن يبحثوا عما تضمنتـه من الدعوة إلى الله عز وجل، أما إذا جاءتهـم الكتب عـلى الطريقـة التي ألفـوها تقبـلوها وقرؤوها، فـمن كان منـهـم في سابق علم الله أنه يخـرج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان انتفـع بها وآمن، ومن سبق في علم الله أنه مـن أهل النار نبذها وراء ظهره بـعد أن قرأها وقامت عليـه بها الحجة، وترك ما تضـمنته من الدعوة، ولـكن الرسول ﷺ أدى ما عليـه حينئذ فقد بـلغ وليس عليـه إلا التبليغ، أمـا الهداية الحقيـقية فلا يملكـها إلا الله وحده وهو ﷺ إنما هو مـبلغ عن الله وقد فعل حتى شهد له ربه بذلك في قوله: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾(٢)

---

(١) أخرجهما مسلم في كتاب اللباس والزينة ١٦٥٧/٣ المصدر السابق.

(٢) الآية ٥٤ من سورة الذاريات.

وقد أشهد ﷺ ربه وأشهد الناس في خطبته فـي حجة الوداع على تبليغه الدعوة، ثم أمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب(١).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج: باب خطبة أيام منى، وفي مواضع أخرى كثيرة من صحيحة، وأخرجه مسلم في القسامة، باب تحريم الدماء، وأبو داود في الحج: باب الأشهر الحرم.

كتابه ﷺ

إلى هوذة بن علي النصراني

إن من جملة الكتب التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى أهل الكتاب كتاباً أرسله إلى هوذة بن علي أحد ملوك اليمن، وكان نصرانياً، وقد أرسل إليه ﷺ سليط بن عمرو يدعوه إلى الإسلام فلما أتاه سليط من عنده ﷺ أرسل وفداً إلى نبينا صلوات الله وسلامه عليه يقول له: إن جعلت الأمر لي من بعدك آمنت وسرت إليك ونصرتك وإلا قصدت حربك، فقال ﷺ: ولا كرامة، اللّهم اكفنيه فمات بعد قليل، وقد أسلم بعض الوفد الذي قدم عليه إذ من جملة الوفد مجاعة بن مرارة، والرجّال بالجيم المشددة، وقيل بالحاء المهملة المشددة بن عنفوة، أما الرجال فجلس حتى حفظ سورة البقرة وتفقه ثم عاد إلى اليمامة فارتد والعياذ بالله وشهد أن رسول الله ﷺ أشرك مسيلمة معه فكانت فتنته كما يقول ابن الأثير أشد من فتنة مسيلمة أما مجاعة فلم يذكر عنه ارتداد(١).

* * *

(١) انظر الكامل لابن الأثير ١٤٦/٢.

كتابه ﷺ

إلى يحنة بن رؤبة

أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد منصرفه من تبوك تلقاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، أحد عظماء النصارى، فدعاه إلى الإسلام فأبى ورضي بدفع الجزية فكتب له ﷺ كتاباً يؤمنه هو وقومه، ويؤمن فيه أهل حرباء وأذرح، وهذه صورة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءاً يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر(١).

قلت: أن المتتبع لكتبه للرؤساء والعظماء سواء أكانوا عربا أو غير عرب يجد لها منهجا كالآتي على سبيل الإجمال:

كان ﷺ يفتتح كتبه بلفظة: « من محمد رسول الله إلى فلان » وتارة يزيد: بن فلان، وربما افتتحها بلفظة: أما بعد، كل هذا بعد البسملة وتارة يأتي بعد البسملة بقوله: هذا كتاب، وقد كان ﷺ يصرح غالباً باسم المكتوب إليه في أول الكتاب، وربما اكتفى باسمه الذي اشتهر به حيث كان له لقب مشهور كقيصر وهرقل، فهرقل إسم وقيصر لقب، وكسرى فإنها لقب لملك الفرس، وإن كان المكتوب إليه ملكاً كتب بعد ذكر اسمه عظيم القوم الفلانيين كقوله ﷺ: عظيم الروم وتارة يكتب صاحب

(١) طالع سيرة ابن هشام ٤/١٢٥ والواقدي ٣/١٠٣١.

مملكة كذا، وكان ﷺ يعبر عن نفسه أثناء كتابته لعظماء البلدان حينما يريد دعوتهم بصيغة الإفراد مثل قوله ﷺ: إني أدعوك بدعاية الإسلام، وقوله: إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو إليك، وكقوله: جاءني، وقدم علي رسولك أو كتابك، ووفد علي، وما أشبه ذلك، وربما أتى بصيغة الجمع مثل: بلغنا عنك، وجاءنا رسولك، وكان يأتي في افتتاح كتبه بالسلام فيقول في خطاب المسلم: سلام عليك، ويقول في خطاب الكافر: سلام على من اتبع الهدى، وكان يأتي بالحمد بعد البسملة مثل قوله ﷺ: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وربما ترك ذلك وتارة بعد البسملة يتخلص إلى المقصود فيقول: أما بعد، وكان يختتم كتبه بخاتمه عليه السلام، وتارة يقول في كتابه للمسلم: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكان من أسلم إذا أرادوا أن يكتبوا إليه ﷺ: افتتحوا كتبهم باسمه ﷺ وثنوا بأنفسهم ويحمدون الله ويصلون عليه ﷺ، ويتخلصون إلى المقصود بلفظة أما بعد أو بغيرها، ويختتمون بالسلام، وكان ملوك الكفار إذا أرادوا مكاتبته ﷺ تارة يبدؤونها باسمه، وكان الكاتب منهم يعبر عن نفسه بنون العظمة، وأن كان الكاتب له مسلما خاطبه ﷺ بلفظ الرسالة، أو النبوة وختم كتابه بالسلام عليه ﷺ(١).

وقد كان ﷺ لا يدع البسملة في أي كتاب كائناً ما كان، وذكر الغافقي عن أبي عبيد أن الشعبي قال: باسمك اللهم ذاك الكتاب الأول، كتب به النبي ﷺ ما شاء الله أن يجري ثم نزل ﴿بسم الله مجريها ومرسيها..﴾(٢) فكتب بسم الله ما شاء الله، ثم نزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن...﴾(٣) فكتب

---

(١) طالع نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية تأليف عبد الحي الكتاني ١/١٣٧ – ١٤٠ بتصرف.

(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة هود.

(٣) جزء من الآية: ١١٠ من سورة الإسراء.

بسم الله الرحمن، فرجرت بذلك ما شاء الله ثم نزلت ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[1] فكتبها، وعن ابن المسيب أن قيصر لما أتاه كتاب النبي ﷺ وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم قرأه وقال: هذا الكتاب لم أره بعد سليمان بن داود[2].

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: لم تجر العادة الشرعية ولا العرفية بابتداء المراسلات بالحمد، وقد جمعت كتبه عليه السلام إلى الملوك وغيرهم فلم يقع في شيء منها البداءة بالحمد بل بالبسملة وهو يؤيد ما قلت[3].

قوله: وهو يؤيد ما قلت يشير إلى كلام تقدم يقوي جانب البدء بالبسمل دون الحمد، وعلى هذا فيكون المراد من حديث أبي هريرة الذي قدمنا عن أبي داود وابن ماجة «كل أمر لا يبدأ بحمد الله فهو أقطع» أن المقصود من الحمد هنا مجرد الذكر الذي من ضمنه البسملة كما ورد في بعض الروايات فإن هذا الحديث روي بروايات متعددة كثيرة، فقد روي بذكر الله، وروي بحمد الله، وروي باسم الله كما ذكر ذلك ابن حجر.

ولما كان كتابه إلى هرقل ذا بال، وذا أهمية كبيرة ولم يبدأ فيه ﷺ إلا بالبسملة دون الحمد، علمنا أن المراد بالحمد في بعض الروايات مجرد الذكر لله تبارك وتعالى الشامل للبسملة وللحمد ولغيرهما من الأذكار، ولكن مواظبته ﷺ على افتتاحه لكتبه المهمة بالبسملة تجعل للبسملة خاصية لم تكن لغيرها من أنواع الذكر والعلم عند الله تعالى.

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة النمل.

(٢) انظر التراتيب الإدارية في المصدر السابق نفسه ص ١٤٠.

(٣) فتح الباري ٨/٢٢٠.

هذا: وقد لخص ابن سعد في الطبقات الكبرى جلّ كتبه ﷺ إلى الرؤساء والملوك من العرب والعجم، وسألخص منه إن شاء الله ما تدعو الحاجة إليه.

ذكر رحمه الله بسنده إلى رجال كثيرين، وقال: أن حديث بعضهم دخل في حديث الآخرين قالوا: إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست من الهجرة، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً فقيل: يا رسول الله إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوما، فاتخذ رسول الله يومئذ خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر: محمد، رسول، الله، وختم به الكتب وخرج ستة نفر في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم(١)، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وكتب إليه يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينه ونزل من سريره وجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق(٢)وقال:

لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله ﷺ باجابته وتصديقه وإسلامه على يد ابن عمه جعفر بن أبي طالب، وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن

---

(١) هكذا ذكر ابن سعد ها هنا، والذي وقفت عليه في ابن هشام وغيره أنه ﷺ لما نادى أصحابه قال لهم: لا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى، قالوا وكيف ذلك؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأما من بعثه قريباً فرضي، وأما من بعثه بعثاً بعيداً فكره، فشكا ذلك عيسى إلى الله فأصبح كل رجل من المتثاقلين يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها. انظر ابن هشام ٤/١٨٧ وقد تقدم هذا.

(٢) هذا يخالف حديث التنوخي الذي تقدم عند الإمام أحمد وفيه.. وأرسلت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مخرقه ومخرق ملكه، وقد تقدم حديث مسلم الذي فيه أن النجاشي الذي صلى عليه بالمدينة ليس بالنجاشي الذي أرسل إليه الكتاب.

جحش فتنصر ومات، وأمره ﷺ أن يبعث إليه بمن كان معه من أصحابه مقيمين هناك ففعل، وزوجه أم حبيبة وأصدقها أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ وقال: لن تزال الحبشة بخير ما زال هذان الكتابان موجودان بين أظهرها(١) ثم قال: وبعث ﷺ دحية بن خليفة الكلبي وهو أحد الستة إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب له كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليعطيه لقيصر، وكان قيصر ماشياً في نذر كان عليه لأنه نذر لله أن ظهرت الروم على فارس ليمشين حافياً من قسطنطينية إلى إيلياء، فقرأ الكتاب، وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص فقال: يا معشر الروم.. هل لكم في الفلاح والرشد.. إلى آخر ما تقدم من شأنه.

ثم قال: قالوا: وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي وهو أحد الستة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب له كتاباً، فلما وصله الكتاب قرأه وقال خيراً وأخذ الكتاب فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي ﷺ: قد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام... ولما قدم حاطب على رسول الله ﷺ قال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه.

ثم قال: وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاب، قال شجاع، فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق، وفي ذلك الوقت كان مشغولاً بتهيئة الإنزال إلى قيصر وهو في طريقه من حمص إلى إيلياء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه

---

(١) وهذا أيضا يخالفه حديث التنوخي المتقدم.

إني رسول رسول الله ﷺ إليه فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وأخذ حاجبه يسألني عن رسول الله ﷺ فحدثته عن صفات رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي فيه، فأنا أومن به وأصدقه وأخاف الحارث أن يقتلني، وقد خرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفعت له كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به فقال: من ينتزع مني ملكي، أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، عليّ بالناس ثم قام وأمر بالخيل أن تنعل ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره الخبر وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر أن لا يسير إليه، وقال له: الْهُ عنه وائتني بإيلياء فلما جاءه الجواب من عند قيصر دعا شجاعاً فقال: له متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قال له غداً فأمر له بمائة مثقال ذهب وبنفقة وكسوة وقال: اقرئ رسول الله ﷺ مني السلام فأتى شجاع رسول الله ﷺ وأخبره بما جرى فقال: «باد ملكه»، وقد قدمنا طرفاً من قصة هذا الكتاب نقلناه من سيرة ابن كثير، ولكن ابن سعد هنا ساقها مطولة ولذلك ذكرناها بكاملها ملخصة(١).

* * *

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٥٨ - ٢٦٤.

كتابه ﷺ

إلى جبلة بن الأيهم

إن جبلة بن الأيهم كان ملكاً على غسان وهو نصراني فكتب إليه ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام فلما جاءه الكتاب أسلم، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ وأهدى له هدية ولم يزل على إسلامه حتى كان زمن عمر رضي الله عنه فارتد عن الإسلام، وسبب ارتداده أنه كان يوماً في سوق دمشق يمشي فوطئ رجلاً من مزينة فوثب المزني فلطمه، فأخذ وانطلق به إلى أبي عبيدة بن الجراح فقالوا: هذا لطم جبلة قال: فليلطمه قالوا: وما يقتل؟ قال: لا، قالوا: فما تقطع يده؟ قال: لا؟ إنما أمر الله تبارك بالقود، قال جبلة: أترون أني جاعل وجهي نداً لوجه جدي جاء من عمق، بئس الدين هذا، ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى أدخل أرض الروم فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فشق عليه وقال لحسان بن ثابت: يا أبا الوليد، أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولِمَ؟ قال: لطمه رجل من مزينة، قال: وحق له، فقام إليه عمر بالدرة فضربه بها(١).

* * *

---

(١) انظر الطبقات ١/٢٦٥.

كتبه ﷺ
إلى الأساقفة والرهبان والكهنة

لما كان الرسول ﷺ مرسلاً إلى عامة الخلق وكان مهتما غاية الاهتمام بالتبليغ كان من منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب أنه أرسل إلى رؤسائهم وملوكهم، ثم بعد ذلك أرسل إلى عبادهم وعلمائهم؛ فإن الرؤساء والعلماء إذا استجابوا لأمر استجابت له بقية الرعية، ولهذا كتب ﷺ لبعض الأساقفة والرهبان.

فقد كتب لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم، ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته؛ ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين(١).

فتراه ﷺ أمر بترك الأساقفة على أسقفيتهم، والرهبان على رهبانيتهم والكهنة على كهانتهم كل ذلك منهج حكيم من مناهج الدعوة إلى الله عز وجل، وذلك أن الرهبان والأساقفة إذا عايشوا المسلمين ورأوا سماحة الإسلام وأخلاق أهله، وأن الإسلام ترك لهم حريتهم ما داموا على العهود التي التزموا بها، وأن المسلمين لا ينقضون عهود الله ولو مع من خالف دينهم، إذا رأوا ذلك كله دخلوا في الإسلام عن طواعية ورغبة فيه وتمكن من قلوبهم حتى يخالطها، وقد قدمنا أن هذا هو السبب في نهيه عن قتل الرهبان وأهل الصوامع، نهى عن قتلهم ليتمكن من دعوتهم إلى الله عز وجل، فلو لم ينه عن قتلهم لربما قتلوا قبل أن تبلغهم الدعوة والعلم عند الله تعالى.

---

(١) انظر الطبقات المصدر نفسه ص٢٦٦.

وصيته ﷺ لرسله

كان ﷺ يوصي رسله الذين أرسلهم إلى الدعوة إلى الله عز وجل بتقوى الله وطاعته، والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ويحذرهم مما فعله رسل عيسى عليه السلام حيث كانوا يبلغون القريب، ويتركون البعيد.

وذكر ابن سعد بسنده إلى الشعبي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: وافوني بأجمعكم(١) بالغداة، وكان ﷺ إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم: انصحوا لله في عباده فإنه من استرعى شيئا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى ابن مريم فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا - يعني الرسل - كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم(٢).

وقد كتب ﷺ إلى فروة بن عمرو الجذامي، وقد كان عاملاً للروم على معان، فأسلم، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، ولما بلغ ملك الروم إسلامه دعاه وقال له: ارجع عن هذا الدين نملكك قال: لا أفارق دين محمد، وإنك لتعلم أن عيسى قد بشر به ولكنك تضن بملكك، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه، وهكذا ذكر ابن سعد هذه الروايات بأسانيدها فانظره(٣).

* * *

---

(١) الصحيح أن هذا الكلمة بضم الميم أجمع مفردة جمع كفلس وأفلس أي بجماعاتكم وليس أجمع التوكيد وإلا وجب تجريده من الضمير كما هو حكمها وحكم أخواتها وقد جوز الدماميني فتح الميم. انظر حاشية الخضري على ابن عقيل ٢/٥٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ٢٦٤.

(٣) ١/٢٧٧ - ٢٨١.

كتابه ﷺ إلى يهود خيبر

لما أرسل ﷺ رسله إلى عظماء أهل الكتاب البعيدة أقطارهم، أرسل كذلك كتباً إلى أهل الكتاب الذي يسلوا بعبدين منه، مثل أهل خيبر فإنهم لم يكونوا مثل أهل المدينة في الجوار، فلما كانوا غير مختلطين به ﷺ أرسل إليهم يدعوهم، بقول ابن إسحاق:

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى يهود خيبر فيما حدثني موالٍ لآل زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصفة الكتاب ها هي كما نقله ابن هشام عن ابن إسحاق:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ﷺ صاحب موسى وأخيه، والمصدق لما جاء به موسى، ألا أن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة - إنكم لتجدون ذلك في كتابكم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) وإني أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، وقد تبين الرشد من الغي فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه»(١).

---

(١) طالع سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣٨ تقدم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد وانظر اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لشمس الدين بن طولون ص ٢٥ – ٢٦ ومجموعة الوثائق =

فهو ﷺ في هذا الكتاب أقام على اليهود الحجة حيث أخبرهم أنهم يجدون صفته في كتبهم، وأنه هو النبي، ويجدون فيها الأمر بالإيمان به إذا بعث، وأخبرهم أنهم إذا كانوا لا يعرفون ذلك فلا كره عليهم، فهو بين لهم أنه على علم مما يعلمونه من شأنه ، وأنهم كتموا ذلك وجحدوه كما يعلمون صفات أصحابه إلى غير ذلك مما بينه لهم.

* * *

= السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة د. محمد حميد الله ص ٦٨ ـ ٦٩.

كتابه ﷺ

إلى هوذة بن علي الحنفي

لم يكتف ﷺ بدعوة عظماء النصارى ولا اليهود، بل كتب إلى العرب الذين تنصروا، فقد كتب إلى من كانت له منهم مكانة يدعوه إلى الله عز وجل.

وقد كان هوذة بن علي الحنفي على دين النصرانية، وكان أميراً على اليمامة فكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً أرسله مع سليط بن عمرو العامري هذه صورته:

« بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي؛ سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك » فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوما أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب فرد رداً ذا وجهين، فقد كتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تعدو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني فاجعل إليَّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على رسول الله ﷺ فأخبره وقرأ ﷺ كتابه فقال: لو سألني سيابة (١) من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يده(٢). تقدم ذكر هذا الكتاب عن ابن الأثير وأعدته من أجل نصه الذي ذكره ابن القيم.

فلما انصرف ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هوذة مات،

---

(١) السيابة من الأرض القطعة.

(٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٧٤ ومجلة الفيصل عدد ٥٥ بقلم عبد الجبار محمود السامرائي ص ٧٦ محرم ١٤٠٢ هـ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨١م، واعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ص ٣٤ – ٣٥.

فقال ﷺ: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بها بعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ «أنت وأصحابك» فكان كذلك.

وقد ذكر الواقدي أن عظيماً من عظماء النصارى كان عند هوذة فسأله عن النبي ﷺ فقال: جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه فقال لِمَ لا تجبه؟ قال: ضننت بديني، وأنا ملك قومي، وأن اتبعته لم أملك، قال: بلى والله لئن اتبعته ليملكنك، وأن الخير لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم وأنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله.

* * *

تعليقات على ما مر في هذا الفصل

ومقارنة بين روايات المحدثين والمؤرخين

أن هذا الفصل اشتمل على كثير من كتبه ﷺ لرؤساء وملوك الدول المجاورة لعاصمة الإسلام (المدينة) المنورة بأنواره ﷺ، ولقد كانت هجرته ﷺ إلى المدينة الحجر الأساسي لتكوين دولة الإسلام، ولما استقر بها، واتسعت رقعة الإسلام في الجزيرة العربية، ووقع الصلح مع قريش في الحديبية مدة عشر سنوات، وكان قبل ذلك قد غزا عدة غزوات وانتصر فيها، وبعث سرايا متفرقة في أنحاء البلاد فانتصروا وغنموا، وأسلم على أيديهم بعض من الناس.

بعد هذا كله شرع ﷺ في الخطط السياسية، وأعظم خطة تستعمل في شأن السياسة قضية السفراء، فقد بعث ﷺ في يوم واحد ستة سفراء، وفي رواية سبعة، وقيل ثمانية.

فكأنه ﷺ لما وضع يده على أكثر أهل الجزيرة، وصالح قريشاً على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين أخذ في السياسة الخارجية يدعو الناس في الخارج إلى الدخول في الإسلام، وقد أثرت هذه السياسة الخارجية تأثيراً ملموساً، فقد أسلم بعض هؤلاء العظماء كالنجاشي ملك الحبشة إن قلنا إن النجاشي هو الذي أرسل إليه ﷺ الكتاب يدعوه إلى الله كما يقوله كثير من المؤرخين وأهل السير، وإن قلنا إن الذي أسلم غيره ممن ملك الحبشة كما يقتضيه سياق مسلم، وكما قرره ابن القيم وغيره كما تقدم؛ فإن ذلك ثمرة من ثمرات هذه السياسة الخارجية حيث وصلت هذه السفارة العظيمة إلى بلاد الحبشة حاملة معها هذه الرسالة التي تدعو إلى الدخول في الإسلام فانتشرت في بلاد الحبشة فأسلم بسببها من أسلم من النصارى.

والسفير في ذلك الزمن لم تكن له مهمة إلا تبليغ الدعوة إلى الله عز وجل فالسياسة الخارجية إذ ذاك محصورة في هذه المهمة (الدعوة إلى الله) وعلى طريق الانصاف يمكن أن يقال: أن تجهيز هذا العدد من السفراء في آن واحد، وارسالهم إلى الخارج أمر عظيم، ويدل دلالة واضحة على تعمقه ﷺ في السياسة الحكيمة الدينية ومهارته في ذلك ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته..﴾[1].

فمن هنا بدأت الوثائق النبوية ورسمت السياسة الخارجية للدولة الإسلامية وتواصلت السفراء والكتب بين رئيس الدولة الإسلامية نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وبين رؤساء الدول في الخارج، فقد كاتبه هرقل عظيم الروم في الشام، وكاتبه المقوقس عظيم القبط في الأسكندرية، وأرسل إليه بهدايا فاخرة من جملتها أم إبراهيم ولده كما تقدم، وقد كاتبه النجاشي ملك الحبشة كتابات متعددة، وكتب إليه ﷺ أيضاً غير ذلك مما مر ذكره، ولم يقتصر ﷺ في ارساله سفراءه إلى النصارى واليهود بل أرسل إلى عظماء العرب والمجوس، فقد أرسل إلى كسرى ملك الفرس سفيراً من جملة سفرائه وأمره مشهور إلا أنني لم أذكره لعدم تعلقه بموضوعي لأن القصد من الرسالة بيان منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب خاصة دون غيرهم من سائر ملل الكفر، ولم أذكر غيرهم إلا استطراداً، وإن كان ابن حزم يجعل المجوس من أهل الكتاب إلا أن ذلك خلاف ما عليه الجمهور مستدلاً بأخذ الجزية منهم، والغرض عندنا هنا الكلام على سياسته ﷺ الخارجية مع أهل الكتاب سواء أكانوا نصارى أصليين، أو كانوا عرباً، وتنصروا أو تهودوا كما يتضح ذلك مما ذكرت من الكتب والرسل، وإلا فهو عليه أفضل الصلاة والتسليم أرسل كثيراً من الرسل إلى عظماء العرب لم أتعرض لسياسته معهم.

---

(١) جزء من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

ولقد كان أعظم الملوك في ذلك الزمن قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس إذ كان يقتسمان العالم حينذاك، فقد كان قيصر يبسط يده على الشام إلى حدود الحجاز، وكان كسرى يبسط يده على شمال شرقي الجزيرة العربية، ويواليه كثير من زعماء العرب، فكان قيصر يعتبر زعيم الأمم النصرانية، وكان كسرى يعتبر زعيم الأمم الوثنية، وكذلك كان في الجنوب الغربي عظيم من عظماء النصارى وهو النجاشي، وكان يبسط يده على من ولاه في تلك الناحية ممن يدين بدين النصرانية، ولذلك فإن المحدثين والمؤرخين اعتنوا بذكر كتبه ﷺ لهؤلاء الثلاثة اعتناء أكثر من غيرها من الكتب، ورويت فيها روايات مختلفة السياق والأساليب، وها أنا ذا أقارن بينها إن شاء الله وأوفق حسب الإمكان، وقد علقت على بعضها أثناء إيرادي لها، وسوف أزيد ما يحتاج إليه من الزيادة إن شاء الله ملتزماً عدم التطويل.

هذا: ولما اختلفت أساليب هذه الرسائل وإن كان مضمونها واحداً، وهو الدعوة إلى الإسلام والتصديق بما جاء به هذا الرسول الكريم من النبوة من ربه سبحانه وتعالى والعمل بمقتضى ذلك.

اختلف كذلك أيضاً في تاريخ ارساله ﷺ رسله وكتبه إلى الملوك فقيل إن ذلك سنة ست من الهجرة، وذكر بعضهم أنه في ذي الحجة منها(١).

وقيل إن الإرسال كان سنة سبع من الهجرة، وممن قال بهذا القول ابن الأثير في أسد الغابة(٢)، وجمع بين القولين بأن الإرسال كان في أواخر سنة ست، وأن وصول الرسل إلى الملوك كان في سنة سبع(٣).

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٤٤.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٤/١٩٤ في ترجمة عمرو بن أمية الضمري.

(٣) انظر شرح الزرقاني للمواهب اللدنية ٣/٣٣٧.

قلت: وهذا يتمشى مع قول ابن جرير الطبري الذي تقدم عنه أن الإرسال كان في ذي الحجة من سنة ست، فإن الرسل إذا ذهبت من المدينة في شهر ذي الحجة لن تصل إلى الشام، والإسكندرية، والحبشة إلا بعد دخول السنة السابعة كما هو معلوم من بعد المسافة لهذه البلاد، ومعلوم أن السفر إليها كان يتطلب مدة في البر، وكذلك في البحر لمن يذهب إلى الحبشة ومصر لا بد من سفر في البر قبل وصوله البحر، والعلم عند الله تعالى.

وقد قدمنا الاتفاق على أن الإرسال كان بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، ويدل لذلك حديث البخاري الذي فيه التصريح بأن وصول دحية بن خليفة الكلبي سفيره ﷺ إلى قيصر كان زمن المادَّة التي مادَّ فيها ﷺ قريشاً، وذلك وقع في الحديبية كما هو معلوم لما صده المشركون عن الحرم فوقع معهم الصلح على الشروط المعروفة التي يخرجنا ذكرها عن المقصود.

وأقول: إن في شأن هؤلاء الرسل الكثيرين الذين أرسلوا في يوم واحد كما تقدمت الروايات بذلك لدلالة واضحة على شجاعته ﷺ وقوة إيمانه وثقته في ربه، وسرعة تنفيذه للأمور الدينية، فإن هؤلاء السفراء الذين خرجوا إلى هؤلاء العظماء والملوك الذين يبسطون نفوذهم على كثير من أنحاء المعمورة في ذلك الزمن يريدون تغيير اتجاههم عما كانوا عليه من الدين وكان عليه آباؤهم وأجدادهم من قبلهم مع ما في وثائقهم التي يحملونها من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما يتبع ذلك من إنذار ووعيد إن لم يوافقوا على الدخول في الإسلام وينتهجوا نهجه إن في هذا لعجبا!!.

فالمتأمل في رسائله ﷺ يجدها منهجاً حكيماً من أعظم مناهج الدعوة إلى الإسلام، فهو يصدع فيها بالحق، ويدعو إلى الله ويعد ويوعد، كل هذا في أسطر

قليلة، ومع هذا فإن هذه الأسطر تفي بالمقصود من جميع الجهات. أما التعليق على الأحاديث والأخبار التي أوردتها في هذا الفصل، فأقول: إن بعضها متقارب جداً وهو روايات الصحيحين لكتبه ﷺ لهرقل، والنجاشي، وأن كان في بعضها زيادة على غيره وسأذكر ذلك إن شاء الله، وقد نبهت على بعضه عندما ذكرت الأحاديث كما في رواية مسلم التي صرح فيها بأن النجاشي الذي كتب له ﷺ الكتاب ليس بالنجاشي الذي صلى عليه في المدينة صلاة الغائب، وكزيادة البخاري على مسلم في روايته قصة ابن الناطور في شأن هرقل على مسلم.

أما باقي الروايات فإنه لا يخلو من بعض الزيادات أو النقص أو التعارض سواء كان ذلك فيما بينها، أو كان بينها وبين روايات الصحيح.

فمن ذلك على سبيل المثال ما ذكره السهيلي تحت عنوان (الكتاب إلى هرقل) قال: ولم يذكر ابن إسحاق في غزوة تبوك ما كان من أمر هرقل فإن النبي ﷺ كتب إليه من تبوك مع دحية بن خليفة الكلبي ونصه مذكور في الصحاح مشهور.. الخ كلامه(١).

وقد قدمت الجواب عن هذا، وذكرت رواية البخاري التي فيها التصريح من أبي سفيان بأن ذلك كان زمن الممادَّة بينه ﷺ وبين قريش، وفي ذلك الوقت أبو سفيان رجل مشرك، وغزوة تبوك متأخرة عن ذلك وأبو سفيان إذا ذاك رجل من المسلمين، وذكر في الحديث نفسه أن كلام قيصر لم يزل بموقع من قلبه حتى هداه الله للإسلام، وذكرت أن الجمع بينهما ممكن بتعدد القصة، فيكون ﷺ أرسل كتاباً أولاً إلى قيصر مع دحية في زمن الممادة، ثم أرسل بعد ذلك كتاباً آخر له لما وصل تبوك سنة تسع، ولكن يشكل على هذا قول السهيلي وقصته مشهورة مذكورة في

(١) انظر الروض الآنف للسهيلي ٣٦٣/٧ – ٣٦٥ تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل.

الصحاح، مع أن الذي في الصحاح إنما هو قصة أبي سفيان إن كان يعني بالصحاح البخاري ومسلماً، وإلا فإن حديث قصة تبوك أخرجه أحمد كما تقدم، كذلك في سياق ابن الأثير لقصة كتاب هرقل زيادة على ما ذكره الشيخان، وهي أن هرقل لما أتاه هذا الكتاب قبله وجعله بين فخذيه وخاصرته، وكتب بشأنه إلى رجل من أهل رومية كان يقرأ الكتب فرد إليه بأنه النبي الذي كان ينتظر فاتبعه من حينه وآمن به(١).

كذلك عندما يحكي لنا المؤرخ ابن خلدون قصة كتاب هرقل يزيد أيضاً زيادة أخرى حيث يقول:

إن هرقل عرض على قومه الصلح وأنهم يصالحونه ﷺ بأرض سورية، وقال: قالوا: وهي أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب، وما كان وراء الدرب فهو الشام فأبوا(٢).

كذلك ابن جرير الطبري يذكر في تاريخه(٣) زيادة لم أرها لغيره قال بعد أن ذكر نسب دحية بن خليفة الكلبي وأنه خزرجي زاد عن أبي سفيان على ما في الصحيحين أنه شرع أولا يصغر لقيصر أمر النبي ﷺ ويحقره، ويقول له ما يهمك من أمره يريد بذلك تحقير أمر نبوته ﷺ ويقول له: أن شأنه دون ما بلغك، فكأنه يريد أن يلفت نظر قيصر عن الإهتمام بشأن هذا الكتاب وشأن من أرسله، فلما رأى الجد من قيصر وأنه لابد أن يأخذ حقيقة هذا النبي تراجع وشرع يعطي حقيقته ﷺ لقيصر ولم يمكنه أن يدس شيئاً إلا قوله: ونحن معه في هدنة لا ندري ماذا يفعل.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/١٤٣ – ١٤٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٧٨٩.

(٣) ٢/٦٤٤.

كذلك نلاحظ الزرقاني في شرح المواهب اللدنية(١) وابن سعد في الطبقات(٢) يقولان: إن الرسل الذين أرسلهم ﷺ إلى البلدان أصبحوا يتكلمون بلغة القوم الذين أرسلوا إليهم، وإنما ذكر غيرهما أنه ﷺ أخبر قومه بأن قوم عيسى وقع لهم ذلك، وقد حكى هذه الزيادة معهما القاضي عياض نقلا عن الواقدي(٣).

ويقول الدكتور عون الشريف قاسم بعد أن نقل كلام القاضي عياض عن الواقدي وابن سعد والزرقاني، وفي هذا خلط ظاهر من الرواة بين القصتين(٤).

قلت: يشير إلى أن هذه القصة إنما هي عن قوم المسيح، ومن معجزات المسيح عليه السلام فإذا لم يثبت لنا من طريق نقل صحيح وقوعها لقوم نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فلا نجعلها معجزة له بمجرد كونها معجزة لنبي من الأنبياء السابقين.

ولقد زاد الخطيب العسقلاني في عرضه لقصة كتاب هرقل إشكالا وهو أن الكتاب اتفقت الروايات على أن فيه قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.. ﴾ وقد علم أن صدر سورة آل عمران إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في شأن قصة وفد نجران، ثم قال: لعله ﷺ نطق بها قبل نزولها فنزل القرآن موافقاً لقوله، أو تكون الآية نزلت مرتين وكان نزولها الأول قبل سنة ست، ونزلت ثانية سنة تسع؛ لأن قدوم وفد نصارى نجران كان سنة تسع(٥).

قلت: على تقدير صحة سبب نزول صدر سورة آل عمران من أولها إلى هذه

---

(١) ٣/٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) ١/٢٥٨.

(٣) بواسطة نقل الدكتور عون الشريف قاسم في كتابه: نشأة الدولة الإسلامية ص ٧٥.

(٤) نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ - د/عون الشريف قاسم ص ٧٥.

(٥) المواهب اللدنية للقسطلاني ١/٢٢٣.

الآية فما بعدها، فإنه لا مانع من تعدد النزول، ولذلك نظائر في القرآن كثيرة فقد قال العلماء إن قوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[1] إلى آخر سورة النحل نزل مرتين: مرة في المدينة، في غزوة أحد لما قتل حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، ثم نزلت بعد ذلك يوم الفتح، وكذلك قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[2] فإن هذه الآية من سورة مكية باتفاق، ونزلت بالمدينة كما يقتضيه السياق فإنها نزلت أيضاً لما أراد بنو سلمة أن يبيعوا دورهم ويشتروا دوراً قرب المسجد النبوي، فقال لهم ﷺ: «يا بني سلمة ديارَكم تكتبْ آثارُكم».

* * *

(١) الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل.

(٢) الآية ١٢ من سورة يس.

إثبات ما ذكرته

من جواز تعدد النزول

مع عدم تعدد الكتابة في المصحف

من المعلوم أن سورة النحل مكية بلا خلاف، ومع ذلك فقد روى البخاري والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مثل به فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل - والنبي ﷺ واقف - بخواتيم سورة النحل(١).

وأخرج الترمذي(٢) والإمام أحمد(٣) والحاكم(٤) عن أُبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة بن عبد المطلب فمثلوا به فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين(٥) عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾. وعلى أن سورة النحل كلها مكية فتكون الآيات نزلت ثلاث مرات.

وأخرج الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنها قال: كانت بنوا سلمة في ناحية المدينة فأردوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿إنا نحن

---

(١) بواسطة نقل ابن كثير في تفسيره عند هذه الآيات من سورة النحل.

(٢) في أبواب التفسير ٣٦٢/٤.

(٣) المسند ١٣٥/٥.

(٤) ٣٥٨/٢ - ٣٥٩ وصححه هو والذهبي وأخرجه في ص ٤٤٦ من تفسير سورة الشورى.

(٥) أي لنزيدن.

نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[1] وتقدمت. فقال رسول الله ﷺ: «أن آثاركم تكتب فلا تنتقلوا» ثم قال: هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري[2] ورواه ابن جرير في تفسيره أيضاً عند هذه الآية بسنده أيضاً عن ابن عباس[3]، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أيضاً، كما رواه البيهقي عن ابن عباس أيضاً[4].

وقد رواه الإمام أحمد[5] ومسلم[6] دون ذكر نزول الآية.

ومعلوم أن سورة يس مكية بلا نزاع وعليه فتكون هذه الآية نزلت بمكة مع السورة ونزلت بالمدينة، والله تعالى أعلم.

فإن قيل: ما الفائدة في نزول الآية مرة أخرى بعد أن نزلت أولاً وحفظها النبي ﷺ والصحابة؟ فالجواب ما ذكره الزركشي في البرهان فقد قال: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه كما قيل في الفاتحة إنها نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة أخرى بالمدينة.

وذكر أمثلة كثيرة منها قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح...﴾[7] الآية، وذكر سورة الإخلاص فقال: إنها نزلت جواباً للمشركين في مكة، ونزلت جواباً

---

(١) الآية ١٢ من سورة يس وتقدمت.

(٢) سنن الترمذي ٥/٤١ - ٤٢.

(٣) ٢٢/١٠٠.

(٤) بواسطة نقل ابن كثير عند تفسيره هذه الآية.

(٥) المسند ٣/٣٣٢ - ٣٣٣.

(٦) ١/٤٦١ - ٥٦١.

(٧) جزء من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

لأهل الكتاب في المدينة إلى أن قال: والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه... الخ كلامه فانظره(١).

وذكر السيوطي أمثلة من ذلك نقلاً عن ابن الحصار، وقال: إن علة ذلك التذكير والموعظة، فانظره(٢).

هذا ومن المعلوم أنه لا طريقة إلى معرفة أسباب النزول إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين الذين أدركوا الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي وعلموا أسباب نزول الآيات، وإلا فإن النبي ﷺ ما كان يقول هذه الآية أو الآيات نزلن في شأن كذا؛ لأنهم هم أصحاب الوقائع والأسباب والأسئلة فما أقره العلماء من ذلك عنهم نقره، إذ لا طريقة غير ذلك والعلم عند الله تعالى.

وذكر محمد عبد العظيم الزرقاني تحت عنوان (**تعدد الأسباب والنازل واحد**) أمثلة من ذلك النوع، ولما انتهى منها شرع يرد احتمال الشبه التي يحتمل ايرادها حول عدم الفائدة في تكرار النزول فقال: الجواب أن هناك حكمة عالية في هذا التكرار.. الخ كلامه فانظره(٣).

قلت: لعل المراد بتكرار النزول أن جبريل يذكّر النبي عند حدوث السبب مرة أخرى بأنه نزلت فيه آية قبل هذا والله أعلم.

مع أن المتأمل لجميع الآيات التي قيل إنها نزلت مرتين، يجدها تشتمل على

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢٩ - ٣٢.
(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٣٦ - ٣٧.
(٣) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١/١٠٩ - ١١٤.

حكم رائعة، وإن كان كل آي القرآن كذلك إلا أن هذا النوع يظهر منه ذلك بدهياً فآية يس مثلاً ربما كان السبب في تكرار نزولها حث العباد إلى كثرة الخطا إلى المساجد، وتذكير العباد بالبعث بعد الموت، وتذكيرهم بأن أعمالهم محفوظة، وأنهم يجازون عليها إن خير فخيراً، وإن شر فشر: وأن كل شيء كائناً ما كان محفوظ عند الله إلى يوم القيامة فينبئ به عباده كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصيه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾(١). وكذلك سورة الأخلاص فيها التنبيه للعباد إلى توحيد الله جل وعلا التوحيد الكامل إلى غير ذلك مما يطول ذكره. ويظهر للمتأمل المتتبع للآيات التي قال العلماء إنها نزلت مرتين. والعلم عند الله تعالى.

وبهذا يرتفع الإشكال عن كتابته ﷺ لآية آل عمران المتقدمة ﴿قل يا أهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

وفي الحقيقة: إن المتأمل لهذه الكتب والممعن للنظر فيها يجدها وثائق موضوعية متكاملة تهدف إلى شيء واحد، وهو توحيد الله جل وعلا، وإخرج العباد من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق سبحانه وتعالى، ففي قوله ﷺ لقيصر: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»، فيه الإشارة الواضحة إلى أن المرؤوسين ينزلون الرؤساء منزلة المعبود الواجب الطاعة، فإنه ﷺ خاطب قيصر في كتابه وصرح له بأنه إن تولى عما دعاه إليه من الدخول في هذا الدين الذي لا يقبل الله ديناً غيره فإن عليه إثم رعيته بكاملها، وقد تقدم أن المراد بالأريسيين جميع الفلاحين أو جميع الرعية، ويفهم من ذلك أيضاً أنه إن أسلم أسلمت رعيته تبعاً له، كما نلاحظ أن الرسائل الموجهة لرؤساء أهل الكتاب تختلف في طابعها عن الرسائل

---

(١) الآية: ٦ من سورة المجادلة.

الموجهة إلى غير الرؤساء منهم، فنجد الرسائل التي وجهت إلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى المقوقس كلها فيها ذكر آية آل عمران المتقدمة ﴿قل يا أهل الكتاب...﴾.

ولا شك أننا نلاحظ في تكرار هذه الآية لرؤساء أهل الكتاب أن ذلك نوع من الزجر لهم عن عبادة المسيح واتخاذه ربّاً فإنه ﷺ على علم كامل من عقيدة النصارى في المسيح ابن مريم، ولذلك كل كتبه إلى رؤساء النصارى بين فيها خطرِ هذه العقيدة، وأن المخلوق لا يستحق أن يعبد ولو كان رسولاً من رب العالمين أو ملكاً مقرباً.

كذلك نلاحظ في الخطاب أن الإيمان بعيسى عليه السلام لا ينفع صاحبه بعد أن بعث الله نبيه محمداً ﷺ وبلغت دعوته الناس؛ لأن شريعته عليه السلام نسخت جميع الشرائع قبلها إلا ما أقرت من ذلك، فكل من سمع به ﷺ أو لقيه وبلغته دعوته على الوجه الصحيح ولم يؤمن برسالته لا ينفعه الإيمان بعيسى ولا بموسى ولا بغيرهما من الأنبياء كما تقدم، كما نلاحظ أنه في كتابه الذي أرسله إلى يهود خيبر لم يذكر فيه الآية المتقدمة، وقد يلاحظ كذلك أن الكتب التي أرسلت لمن تنصر من العرب لم تكتب فيها هذه الآية أيضاً، ككتابه لهوذة بن علي الحنفي، وكتابه إلى فروة بن عمرو الجذامي، ولعل ذكر الآية في كتب الرؤساء الثلاثة كان للاهتمام بشأنهم؛ لأنهم رؤساء الدين في ذلك التاريخ، ومن سواهم ممن هو على دين النصرانية كان تبعاً لهم، فإذا لم يتخذوا بعض المخلوقين أرباباً من دون الله لم يتخذه من كان تبعا لهم، أما غيرهم من الرؤساء من طرفهم فإن إطلاق الرؤساء عليهم نسبي، وإن كانوا منهيين عن اتخاذ المخلوقين أرباباً إلا أن الاهتمام بهرقل وأمثاله كالنجاشي والمقوقس أكثر بلا شك.

وإذا قارنا بين كتبه ﷺ التي بعث بها إلى أهل الكتاب نجد بينها تقارباً كبيراً وأسلوباً متحداً، فنجد في أغلبها «أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن

توليت فإن عليك إثم النصارى من قومك » قاله للنجاشي(١)، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، وفي أغلبها نجده ﷺ يخاطب من يرسل إليه بقوله: « أني أدعوك إلى الله »، كل هذه الروايات التي نقلت إلينا تدور حول هذا الأسلوب حيث يجمع فيه ﷺ بين الترهيب والترغيب، وكل ذلك لا يخرج عن كونه دعوة إلى الإسلام دعوة محضة لسعادة البشرية في الدارين ا عن خوف من عظماء الروم ول الفرس ولا اليهود، ولا عن خوف من والأهم من العرب وكان يدين بدينهم، ويخضع لسلطتهم بل لتأدية الرسالة التي أمره ربه سبحانه وتعالى تبليغها لعامة الناس، فكان ﷺ يبلغها لمن أمكنه تبليغها له مباشرة، ويبلغها بواسطة سفرائه لمن لا يمكنه تبليغه مباشرة.

خلافاً لما ذكره الدكتور عون الشريف قاسم في كتابه الذي قدمه لنيل الشهادة العالمية (الماجستير) من جامعة لندن ١٩٦٠م فإنه بعد أن جال وصال في موضوع هذه الرسائل يحللها ويقارن بينها جعل هذه الكتب عبارة عن تدعيمه ﷺ لقوته السياسية عن طريق دعوة مختلف قبائل العرب.. إلى أن قال: وكان إلى جانب صراعه السياسي معهم يواصل نشاطه التبشيري بين قبائل العرب، إذ أن قبول الإسلام يعني الإخلاص الذي لا يكل ولا يضعف لما كان ينادي به محمد ﷺ ولكن حتى هذا الاعتبار لم يعمه عن حقيقة الأخطار المترتبة على قصر معسكره على المسلمين وحدهم، إذ أنه سيفقد بذلك حلفاء كثيرين، لهم أسبابهم ودوافعهم الخاصة التي تدعوهم إلى الانضمام إلى جانبه ضد قريش، فكأنه جعل القصد من هذه الوثائق لأهل الكتاب أمراً غير الدعوة إلى الدخول في الإسلام، ذلك الأمر هو محالفتهم إياه ضد قريش، وليت شعري من أين أخذ هذا؛ فإن نصوص الوثائق لا تدل على هذا

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٧٧.

بأي نوع من أنـواع الدلالات؟ وما أظن هذا قال به مسـلم قبله، وقد ذكر المؤلف قبل كلامه هذا كلامـاً أيضاً لا يليق بعدالـة سلفنا الصالح الذي تـلقينا بواسطتـه أمور ديننا صغيرها وكبيرها؛ لأنه تكلم عن بعـض هذه الوثائق في شأن هرقل، والتي في صحيح البخاري فقال:

لا تعدو هذه الوثائق كما سترى فيما بعد أن تكون تبريراً منطقياً مفتعلاً للروايات الأسـطوريـة عن قـبول هـرقـل الإسلام، وكـيف أنـه حـين رأى الشـر في وجـوه كبـار مرؤوسـيه حـين علـموا بـذلك، اضطـر أن يقـول لهـم: إنه إنما فـعل ذلـك ليـتأكـد من إخلاصهم وعمق إيمانهم، وفي كل ذلك ما فيه من افتعال لا يقف عند ذلك الحد، بل جعل هرقل وهـو في قمة مجده على أثر انتـصاره على الفرس يود لو كان عـند محمد ﷺ فيخدمه ويغسل قدميه(١) فتراه استعـظم أمر هرقل وانتصاره على الـفرس بحيث بلغ منـه ذلك أن يرد الرواية الثابتـة لنا من طريق البخـاري ومسلم وغيرهما، فـقد ثبت فيهما وفي غيرهـما أن قيصر قال:... ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ولم يكتف بهذا بل استغرب أن هـرقل بمجرد أن قرأ كتابه ﷺ استدعى قومـه ودعاهم إلى اتباعه ﷺ حيـث أن كتـابهـم المقـدس أمرهـم بذلـك.. الخ الـقصـة الثـابتـة في الـصحـاح والمسانيد وغير ذلـك، كما ذكر أن الرواية الموجودة في صحيح الـبخاري في شأن ابن الناطور وهـرقل، وقول هرقل إنه رأى فـي النجوم ملك الختان قد ظهر الى آخـر القصة الموجودة في البخاري والتي تقدمت، قال: إن هـذه القصة مزعومة لا تزيد على مجرد زعم وذلـك أنه قال: تـزعم هذه الـرواية أنه تم بـين أبي سفيان بن حـرب وهرقل لـقاء جرت فيه تـفاصيل دقيقة، ويـسبق هذا اللقاء رؤيا رآهـا هرقل في المنام وهو فـي طريقه الى بيت المقدس، فتراه جعل لقاء أبي سفيان لقيصر مجرد زعم أيضاً، ثم تكلم كلاماً

(١) المصدر المذكور ص ٨٠ – ٨١.

طويلاً في رسالته هذه متفرقاً حاول فيه تفنيد كثير من الروايات التي نقلت لنا شأن هذه الوثائق التي كتبها ﷺ الى عظماء الروم حتى أنه حاول أن يكون دحية لم يلتق بقيصر، وانما لقي عامله في الشام في بصرى وحاول الكاتب أن تكون هذه الكتب للعظماء إنما هي تفاد منه لغزوهم جزيرة العرب حيث قال: لم يكن العرب عامة، ومحمد خاصة في غفلة عما يجرى حولهم، وقد حدثهم القرآن الكريم من قبل عن انتصار الروم(١) ولا بد أن هذا الانتصار قد ترك صداه في جزيرة العرب، مما قد يغري الروم بمحاولة غزو جزيرة العرب كما برهنت الأحداث فيما بعد، حتى أن الكاتب يتبين من فحوى خطابه أنه لم يقتنع بشيء مما ذكر إلا مجرد خروج هرقل الى بيت المقدس ليعيد الصليب المسيحي الى مقره بعد خروج الفرس من بيت المقدس مع أن الروايات التي قدمنا تصرح بأنه إنما خرج شكراً لله على ما أولاه من النصر علي أعدائه الوثنيين إلى غير ذلك مما ذكره مما لا ينبغي ذكره فانظره(٢).

وأقول: ليس الغرض من ذكري لما كتبه المؤلف الرد على من كتب قبلي ولكني مقتنع بأن هذا لا ينبغي من عالم من علماء المسلمين، ولو كان الكاتب ركز كلامه حول سياسته ﷺ وحدها لما احتجت إلى الرد عليه؛ لأن السياسة لا تنفصل ولا تستقل عن الدين بل إن السياسة الحكيمة من الأسس التي يقوم عليها دين الإسلام فرسول الله ﷺ لو عبر عنه إنسان مسلم بأنه سياسي ديني يعرف كيف يتصرف، وكيف يدعو إلى ربه، وكيف تصل دعوته من بعد عنه ومن قرب؛ فإن هذا النوع من السياسة لا غنى للرسالة النبوية عنه؛ لأن الله يعلم حيث يجعلها من خلقه، فالرسول

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ الآيات الثلاث الأول من سورة الروم.

(٢) طالع نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ.
د. عون الشريف قاسم من ص ٧٧ - ٨٦.

إنسان كامل هيأه الله جل وعلا لإصلاح شؤون العباد دنيا وأخرى، ولكن كون رسله هذه وكتبه الناطقة بأسرها بالدعوة إلى الله جل وعلا لأهل الكتاب والوثنيين شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً في زمن واحد، وتحمل في طياتها تهديدات عظيمة لأولئك الذين أرسل إليهم، في هذا دلالة واضحة على أن الهدف من هؤلاء السفراء إنما هو الدعوة إلى الله وحدها وإنقاذ الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور لا خوفاً من العرب الوثنيين، ولا خوفاً من النصارى ولا مفاداة لغزوهم لجزيرة العرب، ويدل لذلك أنه ﷺ بعد مدة تزيد على سنة بقليل أرسل جيشاً إلى أطراف الشام حتى بلغ مؤتة؛ لأن مؤتة سنة ثمان، وقد ذكرنا أن تاريخ إرسال الكتب كان آخر سنة ست، أو أول سبع وتقدم الجمع بين ذلك، فلو كان ﷺ يخاف الروم ويحاشي غزوهم للجزيرة لما تجرأ أن يرسل إليهم في بلادهم جيشاً عدده لا يزيد على ثلاثة آلاف رجل كما سيأتي إن شاء الله.

كذلك من جملة ما لاحظته على الكاتب بين الصفحات المذكورة تعبيره عن النبي ﷺ بأنه كان يواصل نشاطه التبشيري بين قبائل العرب(١).

وإن كان بعثه الله مبشراً ونذيراً كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾(٢) فهو عليه السلام بشير ومبشر بلا شك ولكن هذا اللفظ الآن صار مستعملاً في طريقة المبشرين المسيحيين، ولم يكن مستعملا عند المسلمين، وصار هذا اللفظ كأن العرف نقله إلى دعوة المسيحيين السائدة اليوم في أنحاء المعمورة، وإنما دعاتنا نعبر عنهم بدعاة الحق، ولا نقول إنهم مبشرون.

وفي الحقيقة لا بد من إعادة القول بأن هذا الكاتب ارتكب أمراً لا يمكن إقراره

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الآية: ٤٥ من سورة الأحزاب.

عليه، وذلك أن كلامه الذي ذكرته فيه النيل من مقام النبوة الكريم، كما فيه النيل من سلفنا الصالح أهل القرون الذين شهد لهم ﷺ بأنهم خير القرون، فكونه في لندن يدرس فيها ويعرض بدعوة رسول الله ﷺ للناس، ويقول إن ذلك إنما كان مفاداة منه لغزو الروم لجزيرة العرب وتحالفاً معهم ضد قريش، ونفيه للروايات الثابتة في السنة وجعلها مجرد زعم كل هذا لا ينبغي أن يصدر ممن يتسمى باسم الإسلام، كذلك لا ينبغي أن يصدر من عاقل فضلاً عن صدوره ممن ينسب للعلم، ولا ينبغي السكوت على كلامه هذا دون أن يبين فساده، ولا سيما إذا كانت كتبه منتشرة في المكتبات الإسلامية المعهودة لتثقيف أبناء الإسلام، ونيتي إن شاء الله إذا أعطاني الله مهلة في العمر أني آخذ هذا الكتاب وأتصفحه جملة جملة وأبين بطلان ما فيه من الأباطيل، والله المستعان.

فاتضح مما ذكرت أن هذه الرسائل، والرسل، والرسول، الكل يهدف إلى أمر واحد وهو دخول الناس كافة في الإسلام، والقصد من التخصيص للعظماء والملوك بالكتابة لهم دون الشعوب للعلم بأن العظماء والملوك إذا أسلموا أسلم من تحتهم من الناس في الغالب، والعظماء ذوو الجاه عادة يعادون الرسل، ولا يقبلون الدعوة بخلاف ضعاف الناس كما هو معلوم من دعوته ﷺ لقريش فإن وجهاءها عاندوه وتصدوا له بكل ما في وسعهم من الأذى، أما ضعفاء الناس فإنهم بادروا بالإسلام، وكانت هذه سنة الله في خلقه، يظهر ذلك من سؤال قيصر لأبي سفيان.. يتبعه ضعفاء الناس أم أقوياؤهم؟ وقوله له: كذلك الرسل يتبعها ضعاف الناس، وقد ذكر الله جل وعلا ذلك في كتابه عن الأمم السابقة فأخبر أن الملأ من أمم الرسل هم الذين تصدوا للرسل بالتكذيب وهددوهم بالخروج من بلادهم وذموهم.

قال تعالى عن قوم صالح: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين

استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾(١) وقال تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون في ملتنا قال أو لو كنا كارهين﴾(٢) وهذا كثير في القرآن.

ولما كان هؤلاء المكاتبون بعيدين عنه ﷺ، كان الضعفاء منهم لا تمكن مكاتبتهم لأن العادة أن السفراء والرسائل والأمور المهمة كل ذلك إنما يوجه إلى الرؤساء والملوك فلا تمكن مكاتبة ضعفاء الروم في بلاد الشام ولا ضعفاء نصارى الحبشة، ولا إلى كل ضعيف مزارع في الإسكندرية وما حولها ممن يدين بدين النصرانية، لهذا كانت رسله ورسائله موجهة إلى عظماء الروم وملوكهم، ولا ينافي ذلك ما تقدم من كتابته ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم لأن عباد النصارى وعلماءهم بمنزلة الرؤساء منهم فيحتاجون إلى كتابة تخصهم يدعون بها إلى الدخول في الإسلام، ولا سيما إذا كانوا في بلد لا ملك فيه للنصارى مثل قيصر؛ فإنهم يزداد نفوذهم في ذلك المحل.

وإذا قارنا بين رد هؤلاء الرؤساء والملوك الثلاثة على كتبه فإنا نجد رد الفعل منهم متقارباً، والثلاثة هم: قيصر، والنجاشي، والمقوقس، فنجد قيصر تمهل وبحث غاية البحث عن أمر محمد ﷺ ولم يبق شيء من حاله إلا سأل عنه، كما تقدم ذلك مستوفى، وقد هم بالإسلام لعلمه أنما أخبر به من الصفات لا يوجد إلا في نبي، ولكن سبق عليه الكتاب فأبى وبقي على كفره ضناً بملكه، وقد عظم الكتاب غاية التعظيم وصار أحفاده يتوارثونه من بعده واحداً بعد واحد، وقد رآه بعض المسلمين عند أحد أولاده بعد ما استولوا على طليطلة كما تقدم ذلك مستوفي أيضا.

---

(١) الآيتين: ٧٥ - ٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: ٨٨ من سورة الأعراف.

وقد قال في حقه ﷺ مخاطباً التنوخي: «يا أخا تنوخ إني كتبت إلى ملككم بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير».

كذلك تنقل الروايات التاريخية لنا عن النجاشي أنه لما قرأ كتابه ﷺ.. قال: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر، ثم بادر بالكتابة إليه.. الخ ما يذكره أهل السير والتاريخ، ولكن هذه الأخبار تقدم عليها رواية مسلم الثابتة في صحيحه والتي دلت على أن النجاشي الذي كتب إليه ﷺ غير النجاشي المقطوع بإسلامه الذي لما مات صلى عليه ﷺ صلاة الغائب بالمدينة كما تقدم؛ لأن رواية مسلم تقدم على ما في السير وكتب التاريخ، ولكنها على نحو ما رويت تشبه ما وقع لقيصر من اليقين بأن محمداً ﷺ هو الرسول الذي كان أهل الكتاب ينتظرونه.

كذلك المقوقس نقل إلينا أنه لما قرأ كتابه ﷺ قال بعد ما قرأه: إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر ولا بالضال.. الخ كلامه، وتقدمت هداياه التي أهداها إلى الرسول ﷺ واعتذاره بأن القبط لا يطاوعونه في اتباعه، فهؤلاء الثلاثة الذين لهم علم بالكتب السابقة ما ترددوا في رسالته ﷺ، ولكن الهدى هدى الله غلبت عليهم الشقاوة، بينما كان الرد من هوذة بن علي الحنفي الذي كان على دين النصرانية يأخذ طابعاً غير الطابع الذي رد به أولئك النفر الثلاثة، وذلك أنه رد على نبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم بقوله: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، فهوذة لما كان من أصل عربي، كان رده يختلف عن رد غيره من عظماء النصارى حيث كان له طمع في الإمارة في زمنه ﷺ، ورد عليه ﷺ رداً قاسياً كما تقدم.

فاتضح من جميع ما ذكر أن الرسائل والرسل منهج حكيم من مناهج الدعوة

استعمله ﷺ في دعوة أهل الكتاب، ولم يزل ذلك المنهج قائماً حتى الآن فإن إرسال الدعاة والوثائق الآن من أعظم الوسائل التي تستعمل في الدعوة إلى الله، فدعاة المسلمين اليوم ولله الحمد في الغرب والشرق تنشر الدعوة إلى الله يدعون المشركين إلى الدخول في الإسلام، كما يدعون المسلمين إلى التمسك بمبادئ دينهم الحنيف، والعض عليه بالنواجذ، وماذاك إلا تأسياً به ﷺ واقتداء الله فهو الأسوة الحسنة لنا والقدوة الكاملة، فكل سفير بين المسلمين والمشركين اليوم في شأن الدعوة إلى الدخول في الإسلام ينتهج نهج رسل رسول الله ﷺ، فقد رسم الطرق لمن ملكه الله شؤون المسلمين، كما رسمت رسله الطرق لمن أكرمهم الله بأن جعلهم دعاة إلى الله حيث جعل فيهم أهلية لذلك وكفاءة، كل أولئك يسيرون على الطريقة التي كان عليها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان عليها أصحابه من بعده..

* * *

الفصل الثالث

في

معاملتـــه للوفـــود

مـدخـل

كنا نتكلم في الفصل الماضي عن كتبه إلى رؤساء وملوك أهل الكتاب، وبينا أن ذلك منهج من مناهج الدعوة حكيم، وأساس من أسس التبليغ حيث كان الشاهد يبلغ الغائب.

ولما كانت المعاملة الحسنة والرفق، والإكرام، والضيافة من موجبات الاستجابة والإصغاء كان ﷺ من منهجه في دعوته لأهل الكتاب للدخول في الإسلام أنه يحسن ضيافتهم ويلين لهم القول، ويتحمل منهم الخطأ كل ذلك في سبيل دعوتهم إلى الله ورجاء قبولهم للإسلام، وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب عموماً وخصوصاً، فبعد أن بعث بالكتب والرسل إلى البعيدين منهم كان كذلك أيضاً يدعو من قدم عليه بالمدينة وكذلك في مكة إلى الدخول في هذا الدين الحنيف، فلم يقتصر في وسائل دعوته في منهجه في الدعوة لأهل الكتاب على الرسل والرسائل، بل كان يدعو الوفود، فكان أول ما يقابلهم به أن يأمرهم بالإسلام، وقد تقدم في قصة التنوخي الذي أرسله هرقل إليه أنه قال له: «يا أخا تنوخ هل لك في دين الإسلام...».

ثم بعد ما يدعوهم إلى الإسلام يعاملهم معاملة حسنة يكرم مثواهم ويحسن ضيافتهم؛ لأن ذلك أدعى لقبولهم للإسلام.

وقد كثرت عليه ﷺ الوفود ولا سيما في آخر حياته سنة تسع من الهجرة إلا أن

هؤلاء الوفود كان أغلبها من العرب، فقد وفدت إليه من جميع نواحي الجزيرة، وفود كثيرة من العرب، أما أهل الكتاب فإن اليهود منهم حتى الآن لم أقف على إرسالهم إليه وفداً، مع أنهم إذ ذاك توجد منهم طوائف باليمن، وطوائف بالبحرين توالي الفرس، هذا دون يهود خيبر وفدك مما هو قريب من المدينة، أما النصارى فقد وفد عليه ﷺ وهو بمكة، والثاني وفد نجران الذي قدم عليه بالمدينة، وقد ذكر غالب المفسرين وأهل السير أنه نزل بسببه أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها كما سيأتي ان شاء الله، وهو الوفد الذي هم بالمباهلة مع نبينا ﷺ ونكصوا عن ذلك واعترفوا فيما بينهم أنه نبي، وأنه إن باهلهم هلك الحرث والنسل، فاتفقوا مؤخرا على ترك المباهلة والصلح معه ﷺ على مال معين يدفعونه كما سيأتي ان شاء الله، وكان ﷺ قد خرج عازماً على مباهلتهم وأخذ معه علياً وحسناً وحسيناً وفاطمة وقال: «اللهم هؤلاء أهلي» كما سيأتي في حديث الترمذي، وقد أرسل معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح يأخذ منهم ما عليهم بعد أن طلبوا منه أن يرسل معهم أميناً فاستشرف أصحاب رسول الله ﷺ لذلك كلّ يريد أن يكون هو الأمين، لأنه وعدهم بأن يرسل معهم أمينا حتى أن عمر بن الخطاب قال: ما حرصت على الإمارة إلا في ذلك اليوم فخرجت في الهاجرة لصلاة الظهر، فلما صلى النبي ﷺ التفت يمينا وشمالا، فصرت أتطاول حتى وقعت عينه على أبي عبيدة، فقال: «يا أبا عبيدة، فلما قام قال ﷺ: هذا أمين هذه الأمة.

وفد الحبشة

ولنبدأ الكلام على وفد الحبشة الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة.

قال بعض المفسرين وأهل السير والتاريخ، إن هذه الآيات من سورة القصص نزلت في شأن هذا الوفد وهي قوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به

يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعملنا ولكم أعمالكم سلم عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (١) .

قال محمد بن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عمَّا أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً، قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أي ذلك كان، ثم قال: ويقال والله أعلم: إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون... ﴾ إلى قوله: ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾.

قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت، قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ إلى قوله:

---

(١) الآيات من ٥٢ – ٥٥ من سورة القصص.

﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾(١)(٢) .

قلت: إن قول الزهري إن آيات المائدة نزلت في شأن هذا الوفد غير مقبول، لأن المائدة سورة مدنية، ومن آخر ما نزل من سور القرآن الكريم، والوفد الذي بصدده الآن قدم بمكة، والآيات من سورة القصص نزولها مناسب لذلك؛ لأن القصص مكية، اللهم: إلا إذا ورد لنا من طريق مقبول أن هذه الآيات تقدم نزولها بمكة على السورة المدنية، أو نقل إلينا أنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة، فإنه لا مانع عندنا من ذلك كما تقدم إيضاحه في آخر الفصل الذي قبل هذا.

وإنما لم نقطع بنزولها مرتين؛ لأني لم أقف على من قال ذلك، ولو قال به قائل قولاً مقبولا ما بعد عندنا لكثرة القائلين من العلماء بهذا النوع كما تقدم.

وقال البيهقي في دلائل النبوة: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ. قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال: ثم قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلا وهو بمكة، أو قريب من ذلك، ثم ذكر بقية الحديث إلا أنه لم يذكر سؤال ابن إسحاق للزهري، وذكر باقي القصة(٣).

فدلت هذه الروايات التي ذكرت أنه ﷺ قدم عليه وفد من نصارى الحبشة وتفاوض معهم، ثم دعاهم إلى الدخول في الإسلام كما هو منهجه ﷺ دائماً حيث

---

(١) جزء من الآية: ٨٢ وآية ٨٣ من سورة المائدة.

(٢) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ١٨/١٥ - ١٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٧٦، وابن سيد الناس في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ١/١٢٩، وابن كثير في تفسيره ٣/٣٩٤ في سورة القصص.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٧٧ ط المكتبة السلفية.

كان لا يفد إليه أحد إلا دعاه قبل كل شيء إلى الدخول في الإسلام؛ لأن وظيفته التبليغ، والدعوة إلى الإيمان بالله وبرسوله هي أعظم وسائل التبليغ، وقد أثمر هذا المنهج من حينه، فهؤلاء النصارى لما تلا عليهم رسول الله ﷺ القرآن ودعاهم إلى الإيمان به آمنوا من حينهم، وتمكن الإيمان من قلوبهم، يدل لذلك جوابهم للنفر القرشيين حيث قالوا لهم: لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، وأعرضوا عن مكالمتهم فقالوا لهم: لا نجاهلكم، فهؤلاء النصارى لما سمعو منه ﷺ وشاهدوا ما يوافق ما كان عندهم من صفاته ﷺ في كتب الأنبياء السابقين أسلموا فور حصول العلم لهم بذلك، والعلم عند الله تعالى.

وفد نجران(١)

أشار ابن إسحاق فيما تقدم فيما نقلته عنه أنهم قدموا عليه ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة، وكان عدد ذلك الوفد المحتمل أن يكون من نجران عشرين رجلاً، أو نحوها، ولكنه أعاد ذكرهم في الوفود، فلعله على تقدير صحة وفودهم أولا يرى أنهم وفدوا مرتين، وعند ابن سعد أن سبب وفودهم كتابة من النبي ﷺ (٢)، وقد تقدم لنا أنه ﷺ كتب إلى ملوك حمير، وذكر شأن اليهود والنصارى في ذلك الكتاب فلعله السبب في قدومهم إذا صح ما ذكره ابن سعد، مع أن رواية البيهقي الآتية إن شاء الله فيها التصريح بأنه ﷺ كتب إلى أهل نجران كتاباً، وذلك مما يؤيد رواية ابن سعد.

وكان عظماء العرب واليهود والنصارى لما تحققوا أن الله أظهر دين الإسلام على

---

(١) نجران بفتح الفنون وسكون الجيم بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمين يشتمل في زمن النبي ﷺ على ثلاث وسبعين قرية. ذكر ذلك ابن حجر نقلاً عن زيادات يونس بن بكير بإسناد له في المغازي، فانظر الفتح ٩٤/٨ المصدر السابق.

(٢) انظر الفتح في المصدر السابق.

جميع الأديان، وأنه نصر نبيه محمدا ﷺ على أعدائه وانتشر الإسلام في جزيرة العرب، وأسلم أهل مكة، لذلك صار عظماء البلدان النائية يتسارعون بالقدوم عليه ﷺ، ولذلك كثرت الوفود عليه آخر حياته ﷺ، ولقد كان أكثرها عام تسعة حتى سمي عام الوفود(١)، فوفدت عليه العرب من جميع النواحي فقدم عليه وفد تميم، وذكر ابن كثير أنه أول وفد قدم عليه، ثم تتابعت الوفود بعد ذلك(٢)، وقد ذكر بعض أهل التاريخ والسير والمحدثين كابن إسحاق، والواقدي، والبيهقي وغيرهم أن وفودا من العرب تقدمت على وفد تميم، بل وعلى فتح مكة، وفيه فرق بالنسبة لمن أسلم من الوفود بين من قدم قبل الفتح وبين من قدم بعده، إذ من قدم بعد الفتح يسمى وافدا، ومن قدم قبله يسمى مهاجرا، فقد ذكر الواقد بسنده أن أول من قدم من الوفود على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس.

وليس غرضنا البحث عن السابق من اللاحق من وفود العرب؛ لأن المقصود عندنا من ذكر الوفود إنما هو ما يتعلق بأهل الكتاب، وان كنا استطرنا ذكر وفود العرب إليه ﷺ لأن ذلك وقع في أزمان متقاربة، فبعد قدوم وفد تميم وفد بنو عبد القيس، ثم وفد بنو حنيفة، ثم قدم وفد نجران إلى آخر الوفود الكثيرة(٣) .

ولقد آن الأوان على الكلام على وفد نجران، وقد ذكر شأن هذا الوفد كثير من المحدثين مثل البخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم، وذكر شأنه كثير من المؤرخين وأصحاب السير والمغازي كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال البخاري (باب قصة أهل نجران) وكأنه ـ رحمه الله ـ لم يذكرها مطولة وإنما

---

(١) سيرة ابن كثير ٤/٧٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ذكر منها ما وقع من أميري الوفد معه ﷺ وهو:

الحديث الأول:

حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما: لصاحبه لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة.

ثم ساق بسند آخر إلى حذيفة قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلاً أميناً فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له الناس فبعث أبا عبيدة بن الجراح(١).

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث من صحيح البخاري: قال ابن سعد دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، فقال لهم إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم.. وذكر ابن إسحاق بإسناد مرسل أن ثمانين آية من سورة آل عمران نزلت في ذلك(٢).. ثم قال: وفي مرسل الشعبي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: لقد أتاني البشير بهلكة نجران لو بقوا على الملاعنة، ولما غدا عليهم أخذ بيد حسن وحسين(٣) وفاطمة تمشي خلفه، وفي رواية يونس بن بكير أنه

---

(١) أخرجهما البخاري في كتاب المغازي وكتاب الفضائل.

(٢) الأكثرون على أنها نزلت منها ثلاث وثمانون آية في ذلك الشأن لا ثمانون كما في رواية ابن إسحاق هنا. انظر ابن كثير عند أول سورة آل عمران وغيره.

(٣) رواية الترمذي الآتية فيها زيادة على هذا كما تقدم في التمهيد.

صالحهم على ألفي حلة: ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية(١).

الحديث الثاني:

هو ما رواه في صحيحه في شأن قصة هذا الوفد، وعبر عنه تارة بقدوم أهل اليمن على رسول الله ﷺ، وتارة بقدوم أهل نجران والمعنى واحد؛ لأن نجران إذ ذاك من بلاد اليمن فيصدق على الوفد الذي قدم منها أنه قدم من بلاد اليمن، فيعبر بعض الرواة باليمن، ويعبر الآخرون بأهل نجران. قال مسلم في صحيحه: حدثني عمرو الناقد حدثنا عفان، حدثنا حماد وهو ابن سلمة عن ثابت، عن أنس أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: هذا أمين هذه الأمة.

ثم ساق بسند آخر إلى حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: ابعث إلينا رجلاً أميناً فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح(٢).

فقول حذيفة: جاء أهل نجران يقوي ما قلنا من أنه لا تعارض بين تعبيرمسلم مرة بأهل اليمن ومرة بنجران؛ لأنه وافقت رواية البخاري التي لا ذكر فيها إلا لأهل نجران والعلم عند الله.

قال النووي: فاستشرف لها الناس أي تطلعوا إلى الولاية، ورغبوا فيها حرصاً على أن يكون ـ من ولي ـ هو الأمين الموعود به في الحديث لا حرصاً على الولاية من

---

(١) انظر فتح الباري ٨/٩٤ – ٩٥.

(٢) أخرجهما مسلم في كتاب فضائل الصحابة في فضائل أبي عبيدة بن الجراح ٤/١٨٨١ – ١٨٨٢ المصدر السابق.

حيث هي[1].

رواية الترمذي وهي:

الحديث الثالث:

قال: حدثنا محمود بن غيلان أخبرنا وكيع، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان قال: جاء العاقب والسيد إلى النبي ﷺ فقالا: ابعث معنا أمينك، قال: فإني سأبعث معكم أميناً حق أمين، فأشرف لها الناس فبعث أبا عبيدة، قال: وكان أبو إسحاق إذا حدث بهذا الحديث عن صلة قال: سمعته منذ ستين سنة، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[2].

ثم قال في موضع آخر: حدثنا قتيبة أخبرنا حاتم بن إسماعيل، عن بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية (.. فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم..)[3] الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي[4] ومحل الشاهد منه أن سبب نزول هذه الآية كما تقدم قدوم وفد نصارى نجران عليه ﷺ، ودعوته لهم إلى الدخول في الإيمان، وأن يؤمنوا بما أخبرهم به من رسالة ربه له إلى الخلق كافة، وأن لم يصدقوا بهذا أن يباهلوه».

رواية ابن ماجة:

قال ابن ماجة في سننه وهو:

---

(١) شرح النووي لمسلم ١٥/١٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ٥/٣١٦ المصدر السابق.

(٣) تقدمت.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب التفسير.

الحديث الرابع:

حدثنا علي بن محمد، وحدثنا وكيع عن سفيان، وحدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة جميعاً عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال لأهل نجران: سأبعث معكم رجلاً أميناً حق أمين، قال فتشرف له الناس فبعث أبا عبيدة بن الجراح(١).

فاستجابته ﷺ لطلب هؤلاء الوافدين، وتلبيته طلبهم، وقبوله منهم الصلح، وعدم إظهار القوة عليهم والمقدرة كل ذلك منهج من مناهج دعوتهم فهو ﷺ لما دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن شرع في المفاوضة معهم، وبعد أن تواعدوا بالمباهلة، ثم خافوا ورجعوا عن ذلك لم يمنعه ذلك من دعوتهم بالحكمة وقبول الصلح منهم لأن ذلك أدعى لاستجابتهم فيما بعد، ﴿... ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾(٢) هكذا علمه ربه، وهكذا طبق تلك التعليمات، وقد أثر ذلك تأثيراً ملموساً.

هذا: وقد اشتهرت قصة وفد نجران ونوه الناس بها، وذكروا هذه المباهلة التي ذكرها القرآن في سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾(٣).

الحديث الخامس:

هو ما رواه الإمام أحمد رحمه الله بسنده إلى ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في مقدمة كتابه في فضائل الصحابة ١/٤٨ المصدر السابق.

(٢) جزء من الآية: ٣٤ من سورة فصلت.

(٣) الآية: ٦١ من سورة آل عمران.

رأيت محمداً ﷺ عند الكعبة يصلي لأتينه حتى أطأ على عنقه قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً[١].

قلت: يشير بقوله: ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا.. الخ إلى قوله عز وجل فيهم: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾[٢] وقوله ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾[٣].

الحديث السادس:

هو ما رواه الإمام أحمد بسنده أيضاً عن ابن مسعود قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران قال: وأرادا أن يلاعنا رسول الله ﷺ قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه فوالله لئن كان نبيا فلعنا، قال خلف: فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا أبدا، قال: فأتيناه فقالا: لا نلاعنك، ولكنا نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلاً أميناً، فقال النبي ﷺ: «لأبعثن رجلاً أميناً حق أمين» قال: فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قفى قال: «هذا أمين هذه الأمة»[٤].

قلت: إن المتأمل لهذه القصة وما صنعه ﷺ مع هؤلاء الجماعة الذين قدموا عليه، وهو في المدينة، وجهروا بالكفر أمامه وتوعدوه بالمباهلة عند الغد، ومع هذا فإنه ﷺ لم يعاملهم بما يستحقونه من العقوبة، ولم يقتل منهم أحداً بل قبل طلبهم

---

(١) الآية: ٩٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٦ من سورة الجمعة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٨/١.

(٤) المسند ٤١٤/١.

حيث طلبوا منه أن يصالحوه على دفع الجزية وأن يرسل معهم رجلاً من أصحابه أميناً لا يظلمهم، ولا يزيد على ما التزموه لرسول الله ﷺ، فالناظر في أمره مع هؤلاء يجده منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة غلب فيه ﷺ أسلوب اللين والصفح والرحمة بالمدعوين؛ لأن ذلك أدعى إلى قبولهم للدعوة وعدم النفرة منها، وإلا فهو ﷺ قادر على أن ينكل بهم، ولكنه غلّب جانب الصبر والصفح كعادته مع أمته عامة مشركها ومسلمها، كما أمره ربه بذلك حيث يقول له: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾(١).

رواه البيهقي لهذه القصة وهي:

الحديث السابع:

روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة ومبسوطة فيها زيادات كثيرة لم تكن في الصحيحين ولا في غيرهما، وذكر لقدوم الوفد سبباً: هو أن الرسول ﷺ أرسل إلى أسقف نجران كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، وقد أشرت إلى هذا السبب سابقاً، عن ابن سعد قال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد، ومحمد بن موسى بن الفضل قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده، قال يونس وكان نصرانياً فأسلم: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: «بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران سلم أنتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام» فلما أتى الأسقف الكتاب

---

(١) جزء من الآية: ٨٥ من سورة الحجر.

وقرأه فظع به وذعره ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله: لا الأيهم، ولا السيد، ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل، قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان في أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي، واجتهدت لك، فقال الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف تنح فاجلس فتنحى عبد الله، فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية، فلما اجتمع أهل الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس، ورفعت المسوح أهل الوادي أسفله وأعلاه؟؟ جبال الوادي مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي وجابر بن فيض الحارثي، فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللهم يجرونها من حبرة وخواتم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهم

فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن: إن نبيكم كتب إلينا كتاباً فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه، ففعلوا، فسلموا عليه فرد عليهم السلام، ثم قال: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن أبليس لمعهم، ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المساءلة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال لهم رسول الله ﷺ «ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول ربي في عيسى[1]»، فأصبح الغداة وقد أنزل الله هذه الآية: ﴿أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾ إلى قوله: ﴿الكذبين﴾[2] فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة، وله يومئذ نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: لقد علمتما أن الوادي إذا

---

(١) قلت: إن قوله في هذا الحديث «ما عندي فيه شيء يومي هذا» يفيد أنه ما عنده عن عيسى أي خبر مع أن قصة عيسى عليه السلام ذكرت في القرآن المكي كما في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ إلى قوله: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ الآيات: ٣٠ - ٣١ - ٣٤ من سورة مريم، وذكر في سور كثيرة مكية غير ذلك ويؤيده ما رواه الحاكم بسنده وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي أنهم قالوا له: ما تقول في عيسى؟ قال: «هو روح الله وكلمته وعبد الله ورسوله» انظر المستدرك ٥٩٣/٢ – ٥٩٤ والله تعالى أعلم. اللهم إلا إذا كان ﷺ يريد التنصيص على تشبيهه بآدم بحيث أن كلا منهما لا أب له.

(٢) الآيات: ٥٩ – ٦١ من سورة آل عمران.

اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأي، وإني والله أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل مبعوثاً فكنا أول العرب طعناً في عينيه ورداً عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبنا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جواراً ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى منا على وجه الأرض شعر ولا ظفراً إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال: أرى أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً فقالا له: أنت وذاك، قال: فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال له: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك، فقال: وما هو؟ فقال: حكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: لعل وراءك أحداً يثرب عليك، فقال شرحبيل: سل صاحبي، فسألهما فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب النبي محمد رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه، في كل ثمرة، وكل صفراء وبيضاء وسوداء، ورقيق فاضل عليهم وترك كله لهم على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة» إلى آخر تمام الشروط وبقية السياق. هكذا ذكر البيهقي هذه القصة بطولها(١).

وقد ذكرها ابن كثير عن ابن مردويه بسنده إلى جابر قال: قدم على النبي ﷺ: العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة قال: فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن

---

(١) فانظر دلائل النبوة للبيهقي القسم الثاني: مخطوطة مصورة في قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص ١٩٢ - ١٩٤ وابن كثير في تفسيره عند كلامه على آية آل عمران هذه.

يجيباه، وأقرا له بالخراج قال: فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو قالا لا لأمطر عليهم الوادي ناراً، قال جابر وفيهم نزلت: ﴿.. ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم..﴾(1) قال جابر أيضاً أنفسنا وأنفسكم: رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب، وأبناءنا: الحسن والحسين، ونساءنا: فاطمة، ثم قال ابن كثير: وهكذا رواه الحاكم في المستدرك(2).. وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ثم قال: وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلاً، وهذا أصح، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك(3).

رواية ابن هشام.

ذكر ابن هشام قصة وفد نجران بسياق يختلف عما ذكره البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق فقد فصل تفصيلاً في روايته عنه لم يذكره غيره.

قال ابن هشام، قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران: ستون راكبا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر يؤول أمرهم إليهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم(4)، وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه

---

(1) تقدمت.

(2) ٥٩٣/٢ - ٥٩٤ وسياقه يختلف عما ذكره البيهقي وابن مردويه.

(3) انظر تفسير ابن كثير في المرجع السابق نفسه عند تفسير آية آل عمران المذكورة.

(4) ثمال القوم من يرجعون إليه، ويقوم بأمرهم، طه عبد الرؤوف سعيد المعلق على سيرة ابن هشام.

وأخدموه، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، وقد أسلم بعض هذا الوفد، فقد أسلم منه كوز بن علقمة، قال ابن هشام، ويقال: كرز، وذلك أن أبا حارثة ركب على بغلة له فعثرت فقال كرز تعس الأبعد يعني رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخوه أبو حارثة، فقال أبو حارثة: بل وأنت تعست، فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره، فقال له كرز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه حتى كانت سبباً في إسلامه بعد ذلك، فكان يحدث بهذا الحديث.

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرئاسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي كانت قبله، ولم يكسرها فخرج الرئيس الذي كان في عهد رسول الله ﷺ يمشي فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعد يريد النبي ﷺ فقال له أبوه: لا تفعل فإنه نبي، واسمه في الوضائع يعني الكتب، فلما مات لم تكن لابنه همة، إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو الذي يقول:

إليك تعدو وقلقاً وضينها(١) * معترضاً في بطنها جنينها

مخالفاً دين النصارى دينها

قلت: ظاهر السياق أنهما قصتان: قصة أسلم فيها كرز بن علقمة، وكان شأنه مع أخيه أبي حارثة، وقصة أسلم فيها ابن أحد الرؤساء لنصارى نجران في زمنه ﷺ لأن كرزاً لم يذكر أنه ابن رئيس، وإنما ذكروا أنه من رجال الرأي والمشورة والله تعالى أعلم.

---

(١) الوضين: حزام الرحل، تفسير ابن هشام للمفردات.

ثم ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق أن الوفد لما قدم على النبي ﷺ المدينة دخلوا عليه في مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات[1] جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث كعب قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون فقال: فقال ﷺ دعوهم، فصلوا إلى المشرق، ثم شرع ابن هشام يسرد بعض أسماء الأربعة عشر الذين يؤل إليهم أمرهم... إلى أن قال: وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم من أمرهم يقولون هو الله - يعني - المسيح، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة.. فهم يحتجون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله، وذلك كله بأمر الله تعالى، ويحتجون في قولهم إنه ولد الله بأنهم يقولون لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله[2]، ويحتجون في قولهم أنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا،

---

(١) برود من ثياب اليمن.

(٢) قلت: قوله: وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله غير مسلم لأنه خلاف ما في السنة الصحيحة الثابتة فإن المرأة التي عرضت نفسها على جريج فأبى فمكنت نفسها من راع فولدت غلاما فقالت: أن أباه جريجا فأتوه فأخبروه فقال وصلى، ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام؟ فقال الراعي، ثابتة أخرجها البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا﴾ وكذلك الغلام الذي مر بأمه راكب وهي ترضعه فقالت: اللهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم رجع إلى الثدي، ومر بامرأة تجرر ويلعب بها فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقال: اللهم اجعلني مثلها فقال: أما الراكب فإنه كافر، وأما المرأة فإنهم يقولون لها تزني، وتقول: حسبي الله، ويقولون تسرق وتقول حسبي الله، أخرجه البخاري أيضاً في أحاديث الأنبياء في باب ٥٤ الحديث رقم ٣٤٦٦، فهذان الصبيان تكلما في المهد مع عيسى عليه السلام ثبت ذلك بالسنة الصحيحة كما رأيت وبغير ما ذكر أيضاً، وقد تكلم =

وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم ففي كل ذلك من قولهم نزل القرآن فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، قالا: أسلمنا قال: إنكما لم تسلما، فأسلما، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما: يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، ثم شرع ابن هشام يذكر معاني المفردات من أول سورة آل عمران إلى آخر ما ذكر أنه نزل بسبب قدوم هذا الوفد ويفسر ذلك حتى انتهى إلى آية المباهلة(١).

* * *

= غير هؤلاء أيضاً فقد تكلم الصبي الذي طرحته أمه في الأخدود فقال لها: يا أمه اصبري فإنا على الحق، لما همت أن تتقاعس عن طرحه في النار. أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، وذكر ابن حجر عن الضحاك أن يحيى تكلم في المهد، وعن البغوي أن إبراهيم عليه السلام تكلم في المهد، وعلى هذا فيكون في الحصر الذي ذكره البخاري أيضا في الثلاثة الذين هم عيسى، وغلام جريج، وغلام المرأة في قصة الراكب، والمرأة المتهمة اشكال وأجيب بأنه قال ذلك قبل أن يعلم بالزيادة على هؤلاء. انظر الفتح ٤٨٠/٦.

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٥٨/٢ - ١٦٠ تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد.

إباؤهم المباهلة

لما أتى رسول الله ﷺ الأمر من ربه بملاعنة هؤلاء القوم دعاهم إلى ذلك حيث لم يقبلوا الإسلام، ولم يستجيبوا لأمر الله ولا لأمر رسوله ﷺ، فلما عرفوا أنه مباهلهم قالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بالأمر الفاصل بيننا وبينك فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا وخلوا بالعاقب وكان صاحب رأيهم فقالوا له: ما ترى يا عبد المسيح؟

فقال لهم: والله يا معشر النصارى إنكم لتعلمون أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالحق من خبر صاحبكم(١)، وتعلمون أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي لهم كبير ولا نبت لهم صغير، وإن استئصالكم في ذلك إن فعلتموه، فإن أبيتم إلا دينكم والبقاء على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا محمداً ﷺ وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ بعد أن اتفقوا على ألا يلاعنوه، وطلبوا منه أن يبعث معهم رجلاً من أصحابه أميناً يحكم بينهم في أشياء يختلفون فيها، ويأخذ منهم ما التزموه من الجزية على وجه الصلح، وفعل ﷺ فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح وأمره أن يقضي بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه(٢).

رواية ابن سعد:

ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى قصة هذا الوفد بأخصر مما ذكره البيهقي وابن هشام، ومع ذلك فإنه زاد عليهم زيادة مهمة حيث ذكر أن السيد والعاقب من رؤساء الوفد لم يلبثا أن رجعا فوراً إلى رسول الله ﷺ فأسلما، وذكر عدد المال الذي

---

(١) يعني بصاحبهم عيسى عليه السلام.

(٢) ملخصاً من سيرة ابن هشام مع حذف وزيادة وتغيير في العبارة ١٦٥/٢ - ١٦٦ المصدر السابق.

صالحوا عليه رسول الله ﷺ وما أعاره منهم من السلاح وتفصيل ذلك فقد قال إنه ﷺ كتب إلى أهل نجران فخرج إليه وفد منهم عدده أربعة عشر رجلاً من أشرافهم كلهم نصارى، فقدموا عليه في مسجده، وصلوا صلاتهم إلى المشرق، ولم يتعرض لهم في صلاتهم بشيء، وذكر إعراضه عنهم حتى خلعوا الثياب الفاخرة التي لبسوها لما قدموا المدينة، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ثم تلا عليهم القرآن، وقال لهم إن أبيتم ما أقول لكم فهلم أباهلكم فانصرفوا على ذلك، ولما غدوا قالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب؟؟. وألف في صفر، أوقية كل حلة من الأواقي، وعلى عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين رمحاً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين فرساً، إن باليمن كان، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبه وشاهدهم وبيعهم، ولا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته ولا واقف(١) عن وقفانيته، وأشهد على هذا شهوداً منهم أبو سفيان بن حرب، والأقرع ابن حابس، والمغيرة بن شعبة، فرجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً أن رجعا إلى النبي ﷺ، فأسلما وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به رسول الله ﷺ حتى قبض، ثم ولي أبو بكر رضي الله عنه فكتب لهم بالوصاة عليهم عند وفاته، ثم أصابوا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم وكتب لهم أنه من سار منهم آمن بأمان الله لا يضرهم أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتبه لهم رسول الله ﷺ وخليفته أبو بكر، فكتب عمر إلى أمرائه في العراق والشام أنهم إذا قدموا عليهم يعطونهم من الأرض، ما يزرعونه فيه، وأن ما زرعوه من الأرض فهو لهم لا سبيل لأحد عليه عوضاً من أرضهم التي أخرجوا منها، ولا مغرم عليهم في ذلك، وأمر بنصرتهم على من ظلمهم؛ لأن لهم الذمة، وأمر بترك

(١) يقال نصراني وقيفي كخليفي إذا كان خادماً للبيع ـ القاموس مادة بيع.

الجزية عنهم أربعة وعشرين شهراً، شهد عثمان بن عفان ومعيقب بن أبي فاطمة(١).

هذا: وقد ذكر الدكتور محمد حميد الله في كتابه: «الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» شأن وفد نجران مطولاً، وذكر فيه أشياء تزيد على ما ذكره البيهقي وابن هشام، وابن سعد.. فقد ذكر جل ما ذكروه إلى أن قال: وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ورسله لا تحبس فوق شهر، وفيه أن ما هلك مما أعاره رسله من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسله حتى يؤدوه إليهم... ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وفيه أن لهم الأمان ما نصحوا وأصلحوا... ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وفيه أن لهم الأمان ما نصحوا وأصلحوا.. إلى آخر كلامه الطويل.

ثم ذكر نسخة أخرى من الكتاب الذي فيه الأمان للذين أوتوا الكتاب من النصارى، وعهد إلى المسلمين أن يعرفوا ما في هذا الكتاب، ويعملوا بمقتضاه من بعده ﷺ ويحفظوا لهم ذلك العهد، وأنه ليس لأحد من الولاة ولا لغيرهم نقضه ولا تعديه إلى غيره... وأن من حفظه ووعاه وعمل بما فيه فهو على الصراط المستقيم، والوفاء بذمة رسول الله ﷺ ومن نكثه وخالفه إلى غيره وبدله فعليه وزره وقد خان أمان الله ونكث عهده وعصاه وخالف رسوله وهو عند الله من الكاذبين... ثم ذكر أشياء يطول ذكرها حيث ذكر للكتاب نسخاً، وذكر في بعضها التفرقة بين اليهود والنصارى وأن اليهود ناصبوا العداء لرسول الله ﷺ وأن الله وصفهم أي اليهود بالقسوة والعداوة لله ولرسوله، وأن النصارى أرق قلوباً وأقبل للحق وذكر آيات المائدة: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٥٧ - ٣٥٨ ونهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ١٨/١٢١ - ١٢٣ فما بعدها.

أقربهم مودة للذين آمنوا قالوا أنا نصارى... ﴾(١) وذكر أن عدد الوفد أربعون.

ثم ذكر صورة كتاب جدد لهم فيه أبو بكر العهد من نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ لأهل نجران أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أنفسهم وأرضهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يحشرون، ولا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولهم كل ما كتب لهم محمد النبي ﷺ».

ومن نص كتاب كتبه لهم عمر قبل إجلائه لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد فإنكم زعمتم أنكم مسلمون، ثم ارتددتم بعد، وأنه من يثب منكم ويصلح لا يضره ارتداده، ونصاحبه صحبة حسنة، فادكروا ولا تهلكوا، وليشر من أسلم منكم فمن أبى إلا النصرانية فإن ذمتي منه بريئة ممن وجدناه بعد عشر تبقى من شهر الصوم من النصارى بنجران...

ثم ذكر المؤلف كتاب عمر لهم حين أراد اجلاءهم، وكتابه إلى عامله فيهم وهو: يعلى بن أمية... الخ هكذا ذكر الدكتور محمد حميد الله هذه الوثائق والسجلات بهذه الأساليب المتعددة والمختلفة التي ذكرنا منها ما رأيت وتركنا منها الكثير، وذكر مصادر عديدة أخذها منها فانظره(٢).

ونرى ابن الأثير أوسع نطاقاً مما قبله بحيث ساق قصة وفد نجران وأهل نجران إلى

---

(١) جزء من الآية: ٨٢ من سورة المائدة.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة د. محمد حميد الله من ص ٣٩، ١٦٢ ملخصا مع حذف كثير.

وافقه الزيلعي في نصب الراية في نص كتابه ﷺ دون باقي الروايات فانظره ٣/٢٠٣.

زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، فقد تتبع أحداث هؤلاء القوم منذ أن وفدوا عليه ﷺ إلى زمن الرشيد، فذكر أن نصارى نجران أرسلوا وفداً إليه بالمدينة من جملته العاقب والسيد وأرادوا معه ﷺ المباهلة بعد دعوته لهم وإبائهم عن الدخول في الإسلام، وتعصبهم لدينهم واعتقادهم أنه لا يلزمهم اتباع غير عيسى من الأنبياء وخرج إليهم ﷺ ومعه أهله، فلما رأوهم قالوا هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها ولم يباهلوه وصالحوه.. وجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، وألا يفتنوا عن دينهم ولا يعشروا (أي لا تؤخذ عشر أموالهم) واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا.. فلما استخلف أبو بكر رضي الله عنه عاملهم بذلك، فلما استخلف عمر رضي الله عنه أجلى أهل الكتاب عن الحجاز، وأجلى أهل نجران فخرج بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة..

فلما كان زمن علي أتوه يريدون الرجوع فقال: إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه، وكان عثمان قد أسقط عنهم بعض ما كان عليهم.. فلما ولي يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم، وكانوا قد قلوا، وأروه كتاب عثمان لهم فوضع عنهم بعضاً آخر، ولما ولي الحجاج العراق وخرج عبد الرحمن بن محمد الأشعث اتهمهم الحجاج بموالاته فزاد عليهم الجزية، فلما ولي عمر ابن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصهم وظلم الحجاج لهم، فأمر بهم فأحصوا فوجدوا على العشر من عدتهم الأولى فقال: أرى هذا الصلح جزية، وليس على أرضهم شيء، وجزية المسلم والميت ساقطة فألزمهم مائتي حلة فقط، فلما ولي يوسف بان عمر الثقفي ردهم إلى أمرهم الأول عصبية للحجاج، فلما استخلف السفاح عمدوا إليه وتعرضوا له في طريقه يوم ظهوره من الكوفة فألقوا في طريقه الرياحين فأعجبه ذلك، ثم رفعوا إليه أمرهم وتقربوا إليه بأخواله بني الحارث بن كعب، فردهم إلى مائة حلة، فلما ولي الرشيد شكوا إليه العمال فأمر أن يعفوا من العمال، وأن يكون

مؤداهم بيت المال، وقد ذكر رحمه الله قصة هذا الوفد في أحداث سنة عشر من الهجرة وقد قدمنا من خالفه في ذلك فانظره(١).

والصحيح أنها سنة تسع لما عليه الجمهور من المحدثين والمؤرخين وأهل المغازي، وروى ابن إسحاق عن ابن عباس أنه اجتمع نصارى نجران وأحبار يهود عند النبي ﷺ، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ إلى قوله: ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ (٢).

وقال بعض أحبار اليهود: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى المسيح عيسى ابن مريم؟ وقال رجل نصراني من نصارى نجران: أو ذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: « معاذ الله أن أعبد غير الله، ما بذلك بعثني الله وأمرني » فأنزل الله عز وجل: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾(٣).

ذكر هذه الزيادة محمد أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين، وقد ذكرها مطولة على نحو ما ذكر البيهقي وابن سعد إلا أن هذه المحاورة بين اليهود والنصارى وبين نبينا صلوات الله وسلامه عليه ونزول الآيات بسبب ذلك مما زاده هو وابن القيم في زاد المعاد فانظر كتابيهما(٤).

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٠٠ - ٢٠١. (٢) الآيتين: ٦٧ - ٦٨ من سورة آل عمران.

(٣) الآيتين: ٧٩ - ٨٠ من سورة آل عمران.

(٤) خاتم النبيين تأليف محمد أبي زهرة ٣/٣٢٥ - ٣٢٦ وزاد المعاد في هدى خير العباد ٣/٤٥ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد.

التعليقات والفوائد

إن في قصة أهل نجران والوفد الذي قدم منها عليه ﷺ وهو بالمدينة في آخر حياته لفوائد وأحكاماً فقهية كثيرة، وسأذكر من ذلك بعضاً ملخصاً مما ذكره ابن حجر وابن القيم وغيرهما وبعض الزيادات التي زدتها وأترك الكثير منه.

فأقول: يؤخذ من هذه القصة أن الكافر إذا اعترف بنبوة محمد ﷺ لا يكون بذلك مؤمنا حتى يلتزم بأحكام الإسلام؛ لأنه تقدم لنا أن السيد والعاقب وأبا حارثة، هم رؤساء وفد نصارى نجران، وأن أبا حارثة أقر بنبوة نبينا ﷺ، وكان ذلك سبباً في إسلام أخيه كرز، وذلك أن أبا حارثة ركب على بغلة فعثرت به فقال أخوه كرز تعس الأبعد يعني النبي ﷺ فقال أبو حارثة: بل وأنت تعست فقال ولِمَ يا أخي؟ فقال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر.. الخ القصة، فأبو حارثة اعترف بنبوة محمد ﷺ ومع هذا لم يدخله ذلك في الإسلام.

ويؤخذ من القصة أيضا: الحث على مجادلة أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة فإنه ﷺ دعا هذين الوفدين إلى الدخول في الإسلام بحكمة رائعة حيث تلا عليهم كتاب الله، أما الوفد الأول فتقدم أنه لما تلا عليه القرآن آمن وصدق وفاضت أعين أهله من الدمع، ولما حاول كفار قريش أن يصدوهم عن الإسلام وجدوه تمكن من قلوبهم ففشلوا في تلك المحاولة.

وأما الوفد الثاني فإنه دعاه بحكمة أيضاً، ولكنه في الوقت نفسه لم يسلم منه أحد، وقد تقدم أن رئيسيه العاقب والسيد لم يلبثا أن رجعا وأسلما.

ومنها: أن من أبى عن قبول دعوة الإسلام جازت مباهلته لما تقدم أنه ﷺ قال للوفد ـ كما في رواية ابن سعد ـ : فإن أبيتم ما أقول فهلم أباهلكم، وذلك أنهم

أصروا على الكفر بعد ظهور الحجة عليهم، وعليه فمن أصر من الكفار بعد ظهور الحجة ظهوراً بيناً بحيث يبلغ الدعوة تبليغاً كافياً ويعطي حقيقة الرسالة، وحقيقة الإسلام حتى تقوم عليه الحجة ومع ذلك أصر على كفره جازت حينئذ مباهلته أسوة برسول الله ﷺ لأنه الأسوة الحسنة لنا قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة..﴾(١).

وقد ذكر ابن حجر أن ابن عباس دعا إلى المباهلة، وأن الأوزاعي دعا إليها أيضاً.

ومنها أن المصالحة تجوز على أي نوع من أنواع المال، وأن ذلك يجري مجرى الجزية إن كان المصالحون من أهل الجزية، لأن هذا المال الذي صالحهم عليه ﷺ لم يكن بلفظ الجزية، واستمر أخذه منهم في حياته ﷺ وحياة خلفائه الراشدين بعده، بل استمر إلى زمن الخلفاء العباسيين كما تقدم، وقد ورد في بعض الروايات أنه بعث علياً إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم فوقع التعبير عما يؤخذ منهم بالجزية مع أنه ﷺ لم يقل لهم إن هذا المال جزية عندما كتب لهم الكتاب واشترط لهم وعليهم الشروط.

أما ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أنه ﷺ بعث خالد بن الوليد في جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره بدعوتهم إلى الإسلام فإن استجابوا فذلك المطلوب وإلا قاتلهم.

فالجواب: عن هذا أن أهل نجران كانوا صنفين: بعضهم يدين دين النصرانية وهو الذي وفد عليه ﷺ وفد منهم بالمدينة سنة تسع وبعضهم مشركون، وهم الذين أرسل إليهم خالد وأمر بدعوتهم إلى الإسلام كما هو شأن رسل رسول الله ﷺ إذا بعثهم دعاة كان يأمرهم قبل كل شيء بالدعوة إلى الإسلام، فإن أبى المدعوون طلبت

---

(١) جزء من الآية: ٢١ من سورة الأحزاب.

منهم الجزية إن كانوا من أهل الجزية، فإذا امتنعوا قوتلوا، وهؤلاء لما دعاهم خالد إلى الإسلام أسلموا ، وقدموا على رسول الله ﷺ في حياته وأمر عليهم قيس بن الحصين، فيحتمل أن يكون ما روي من بعث علي اليهم ليأخذ صدقاتهم وجزيتهم بعد قصة بعث خالد إليهم، ويكون علي بعث لأخذ صدقات من أسلم من المشركين، وجزية النصارى، وقد أجاب ابن القيم بهذا الجواب بعد أن ذكر تعارض هذه الروايات في ظاهرها، وبما ذكره يرتفع الإشكال فانظره(١).

ومنها : أن الرسل الكفار يجوز إكرامهم كما مر في شأن الوفد الذي قدم بمكة فإنه ﷺ أكرمهم وخدمهم بنفسه الشريفة.

ومنها : مكافأة الكافر على إحسانه فإنه ﷺ لما خدمهم بنفسه قال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، تقدم ذلك في رواية البيهقي، وفيه: وإني أحب أن أكافئهم، وأي مكافأة أعظم من خدمة رسول الله ﷺ؟ ولكن مع هذا إذا ظهر من الرسل الكبر والإعجاب بالنفس جازت مذلتهم وإهانتهم ليتراجعوا ويعرفوا مكانتهم حيث كانوا بين يدي من هو أعظم منهم، يدل لذلك ما تقدم من إحجامه ﷺ عن خطاب الوفد الذي قدم عليه بالمدينة لما أتوه يجرون حللهم لأنهم لما قاربوا المدينة نزعوا ثياب السفر ولبسوا حللاً محبرة وخواتم من ذهب إعجابا بذلك، فلما رأى ﷺ ذلك منهم أبى أن يجيبهم بأي شيء حتى ولو برد السلام حتى نزعوا تلك الحلل والخواتم، ورجعوا إلى ثياب سفرهم فعند ذلك رد عليهم السلام وأنزلهم، وبدأت المفاوضة بينه وبينهم، وعليه فمحل احترام الرسل ما لم يتعاظموا على من أرسلوا إليه ويخالفوا سنته وإلا جازت إهانتهم كما فعل ﷺ لوفد نصارى نجران أول الأمر، ولا يرد على هذا أنه ﷺ من منهجه في دعوة أهل الكتاب أنه يكرم الوفود ويعاملهم معاملة حسنة

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٥٢ المصدر السابق.

ويدعوهـم بحكمة؛ لأن ذلـك كله ما لـم يظهر منـهم مثل ما ظـهر من أولئـك، ولهذا فإنهـم لما رجعوا إلى حـالتهم الطبيعية رد علـيهم وأكرمهـم وأنزلهم، ولم يـتعرض أي أحد مـن المسلمـين لأذاهم، وتركـوا يصلون صلاتهـم في مسـجده ﷺ بـحضـرته وحضرة أصحابه.

ومنها: أن الإمام يجوز له أن يشترط على الكفار في عقد الصلح أن يؤووا رسله ويكرموهم زمناً معيناً كما تقدم.

ومنها: إدخال عاريـة السلاح في العقـد زيادة على المال المدفـوع بدون رجوع، وكون ضمانه إذا تلف على المستعير إلى غير ذلك(١).

هذا مـن ناحيـة الفـوائد التـي تؤخذ مـن هذه الـقصة فـي شأن هذيـن الوفـدين، وتركت الكثير من الفوائد لئلا يخرجني ذلك من مقصودي.

أما الناحية الثانية: التي هي ما يـتعلق بالاختلاف الحاصل بـين بعض الروايات، فإني إن شاء الله سوف أجمع بين ما يمكن الجمع بـينه منها، وأذكر ما زاد به بعض من تكلم عليه إن شـاء الله حسب إمكاني وأقارن بينها، وأذكر فائدة زيـادة بعضهم على بعض إلى غير ذلك مما سيقف عليه القارئ الكريم إن شاء الله.

فأقول: إن الروايات قد اختلفت في هذا الوفـد الذي قدم على نبينا صلوات الله وسلامه عليه وهو بمكة، فقد ذكر بعض أهل السير كابن إسحاق وغيره أن ذلك الوفد من الحـبشة، وفي بـعض الروايـات أنه من قوم الـنجاشـي وأن آيات القـصص المتقـدمة الذكر نـزلت في شأنـه، كما ذكر ابن إسـحاق أيضاً أن نصـارى نجران قدم منـهم وفد عليـه ﷺ بمكة، وعددهـم عشرون رجلاً أو قـريب من ذلك، لـكن أعاد ذكرهـم في

---

(١) ملخـصاً من زاد المعـاد ٣/ ٥٠ فما بعـدها، وفتح البـاري ٨/ ٩٥ مع زيادة كثـيرة وتغيـير في بعض العبارات وتقديم وتأخير.

الوفود بالمدينة، قال ابن حجر فلعلهم قدموا مرتين(١).

وعلى هذا: فإننا نرى ابن إسحاق يقول: قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد، والمراد بالمسجد المسجد الحرام بدليل ذكر أبي جهل وما دار بينه وبينهم، ثم يقول بعد ذلك، ويقال: إن النفر كان من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان.. الخ كلامه.

وقد تقدم اعتراضي على الزهري قوله: إن قوله تعالى: ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً.. ﴾ نزل بسبب هذا الوفد، لأننا نقطع بقدومه في مكة، وسورة المائدة مدنية بل من آخر القرآن المدني نزولاً، وأقول: اللهم إذا قلنا إن هذه الآية وما معها من الآيات نزلن مرتين مرة بمكة، ثم بعد ذلك لما نزلت سورة المائدة نزل جبريل على النبي ﷺ يذكره بنزولها السابق، وهذا لا مانع منه كما تقدم إلا أن يحتاج إلى نقل يعتمد عليه ويعضده.

قلت: الذي يبدو لي أن هذا الوفد كان من نصارى الحبشة لا من نصارى نجران وذلك أن محمد بن إسحاق صرح بأنه من الحبشة، وذكر أن آيات القصص المتقدمة نزلت بسببه، ثم حكى بعد ذلك إمكان كونه من نصارى نجران بقوله: ويقال.. الخ.

وثانياً: إن كثيراً من المفسرين يذكرون أن سبب نزول آيات القصص هذه وفد نصارى الحبشة على رسول الله ﷺ وقراءته عليهم القرآن ففاضت أعينهم من الدمع.

وثالثا: إن رواية البيهقي فيها التصريح بأن الوفد من أصحاب النجاشي وفيه قوله

---

(١) طالع فتح الباري ٨/٩٤.

ﷺ: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، ومعلوم أن الذين كانوا يكرمون أصحابه ﷺ أهل الحبشة بدينهم فلقيهم النجاشي بالترحيب والإكرام والأمان كما هو معلوم لدى كل أحد رغم معارضة سفير قريش عمرو بن العاص لذلك كما هو مبسوط في محله.

لهذه الأمور التي ذكرت يتبين للناظر في شأن هذا الوفد الذي قدم بمكة أنه من نصارى الحبشة لا من نصارى نجران، والمتأمل فيما ورد من الأخبار لا يجد خبراً يجزم بأنه من أهل نجران، فابن إسحاق يقول: ويقال.. الخ وابن حجر يقول بانياً على قول ابن إسحاق: فكأنهم قدموا مرتين، يعني نصارى نجران، وهذا يدل على أن الوفد الأول منهم أي من نجران، والعلم عند الله تعالى.

قلت: ويمكن الجمع أيضاً بين القولين بأن الوفدين كانا من نجران، ولكن ذلك كان بأمر من ملك الحبشة، وقول الرسول ﷺ «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين»، المقصود منه مطلق النصارى لا هؤلاء بأعيانهم، ولكن هذا فيه عندي بعد، لأن أهل الحبشة في ذلك الزمن يطلق عليهم أهل الحبشة، وأهل نجران تابعون لليمن وإن كان نصارى نجران تبعا لملك الحبشة، والعلم عند الله تعالى.

وعليه فنرجع إلى الترجيح الذي قدمته، وإن كان الجمع مقدماً على الترجيح في الصناعة.

أما بالنسبة لقضية اختلاف النقلة الذين نقلوا إلينا قصة هذين الوفدين وكيف كانت معاملته ﷺ، وكيف كانت معاملة خلفائه الراشدين من بعده لهم فإنها لا شك تختلف في السياق، وإن كان موضوعها واحداً وهو اتفاق جميعها على قدوم وفد نصارى نجران ودعوة النبي ﷺ لهم بالحكمة إلى الدخول في الإسلام ورفضهم ذلك وهمه ﷺ بمباهلتهم وعدم تنفيذ ذلك، وعقده الصلح معهم، وإرساله معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح إلى غير ذلك مما اتفقت عليه الروايات في قضية هذين

الوفدين، ومع هذا فإنها لا تخلو من بعض الملاحظات التي ينبغي التنبيه عليها، فمن ذلك على سبيل المثال ما زاده البيهقي في روايته لقصة وفد نجران في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان ـ يعني سورة النمل ـ إلى أن قال: فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب.. الخ، فإن هذه العبارة تلوح عليها لوائح عدم الصحة، فإن هذا الوفد الذي تتكلم عنه الرواية، وفد نجران الذي قدم سنة تسع ، وسورة النمل مكية بالإجماع كما نص على ذلك العلماء(١)، فكيف يكون ﷺ كتب لأهل نجران وهو بالمدينة قبل أن تنزل عليه سورة النمل التي نزلت بمكة ولم يقل أحد إنه كتب إليهم وهو بمكة ولا كتب لغيرهم، كذلك أيضاً ذكره في هذا الكتاب الجزية، وإيذانه بالحرب لهم إن لم يعطوها كل ذلك دليل واضح إن صحت به الرواية على أن القضية بالمدينة؛ لأن الجزية إنما أمر بأخذها من أهل الكتاب بعد مدة طويلة من المرحلة المدنية، والجهاد كذلك إنما شرع بالمدينة، وعليه ففي هذه الرواية ما يوهم أنها بالمدينة لذكر الجهاد والجزية فيها، ومع هذا فإن القول الحق أنها بالمدينة لما تقدم من قدومهم عليه ﷺ في مسجده، وتركه لهم يصلون فيه، وأخذه الحسن والحسين، وثبوت كون ذلك كان سنة تسع إلى غير ذلك مما يؤكد أن الوفد النجراني قدم عليه ﷺ وهو بالمدينة.

كذلك في رواية البيهقي التي تقدمت أنه كان يكتب باسم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذا غير معهود ؛ لأن المعهود منه ﷺ أنه كان يكتب بسم الله الرحمن الرحيم كما تقدم في جميع كتبه، وهناك دليل على أنه كتب باسمك اللهم تارة، وذلك لما أراد الصلح مع قريش فقال لعلي بن أبي طالب: اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال

---

(١) انظر جمال القراءة وكمال الإقراء للسخاوي ص ٢ مصورة في قسم المخطوطات بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم فكتبها(١)، ولم يؤثر عنه ﷺ أنه كتب باسم إله أحد سوءا أكان نبياً أو غيره إلا ما ورد في هذه الرواية مما اطلعت عليه والله أعلم.

مقارنة بين رواية البخاري ومسلم في هذه القصة:

إن المتأمل في رواية البخاري ومسلم لقصة وفد نجران يجد رواية البخاري لها أوسع من رواية مسلم حيث أن البخاري سمى اثنين من الوفد، ونص على قضية المباهلة كما بينت رواية البخاري أيضاً أن رئيسي الوفد هما اللذان طلبا منه ﷺ على مال يدفعونه حيث قالا بعد ما تشاورا في شأن المباهلة وعلما أنها لم تكن في صالحهما، ولا في صالح قومهما، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، بينما رواية مسلم لم يورد فيها إلا مجرد قدوم أهل نجران، أو أهل اليمن في روايته الأخرى على النبي ﷺ يطلبون منه أن يرسل معهم رجلاً أميناً يعلمهم الإسلام، فمن تأمل رواية مسلم هذه في موضعيها من صحيحه ربما فهم منها أن هذا الوفد الذي قدم كان أهله مسلمين، أو أنهم أسلموا بعد قدومهم عليه ﷺ؛ لأنه لم يزد في روايته على مجرد قدومهم وسؤالهم أن يرسل معهم رجلاً أميناً يعلمهم الإسلام، ولكن رواية البخاري الأولى التي قدمنا تدل على أن هؤلاء الوافدين امتنعوا من الإسلام بدلالة أنه ﷺ هَمَّ بمباهلتهم، وكذلك طلبهم الصلح معه إذ لو كانوا أسلموا لما هم بمباهلتهم، ولما صالحوه إذ لا موجب للصلح بعد الإسلام، وفي بعض الروايات روايات هذه القصة: فإن أبيتم ما أقول فهلم أباهلكم.

كذلك عند المقارنة بين رواية مسلم هذه، وروايتي الترمذي نجد سياق الترمذي في إحدى روايتيه قريباً من سياق مسلم إلا أنه سمى السيد والعاقب كالبخاري، وزاد

---

(١) انظر قسم السيرة من تاريخ ابن كثير ٣/٣٢٠ وابن هشام ٣/٢٠٣ المصدر السابق، والقرطبي ١٦/٢٧٥.

في روايته الثانية أن هذا الوفد كان سبباً في نزول آية المباهلة التي تقدم ذكرها من سورة آل عمران، كذلك عند مقارنة رواية الترمذي على العموم برواية ابن ماجة نجد ابن ماجة أخصر بكثير من الترمذي حيث أنه لم يزد في روايته على أن قال: إنه ﷺ قال لأهل نجران: سأبعث معكم رجلاً أميناً حق أمين، فروايته هي أخصر الروايات، كما نرى الرواية التي نقلها ابن حجر عن ابن أبي شيبة، ورواية الإمام أحمد تتفقان في ناحية وهي: إخبارهما بأن نصارى نجران لو باهلوه لهلكوا، وقد وافقهما الكثير في هذه النقطة ممن تكلم على هذه المسألة، فإن في رواية ابن أبي شيبة قال: لقد أتاني البشير بهلكة نجران لو بقوا على الملاعنة، وفي رواية الإمام أحمد عن ابن عباس... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً.

وبالمقارنة بين ما تقدم من الروايات ورواية البيهقي نجد البيهقي أفادنا إفادة مهمة وهي: أن سببَ قدوم وفد نصارى نجران على نبينا ﷺ كتابٌ كتبه صلوات الله وسلامه عليه لهم يدعوهم فيه إلى الإسلام أو إلى دفع الجزية، وإلا فليستعدوا للحرب، وإن كان بعضهم ذكر هذا السبب.

إلا أنه فصل تفصيلاً لم يذكره غيره حيث ذكر لنا قصة وصول الكتاب لأسقف نجران وما جرى بينه وبين ذوي الرأي منهم والمشورة واستشارته لهم واحداً واحداً حتى أجمعوا على أن يبعثوا إليه ﷺ وفداً... الخ القصة التي سألوه في آخرها فقالوا له: ما تقول في عيسى وكان ذلك سببا في نزول قوله تعالى: ﴿أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ (١) .

وإذا قارنا بين الرواية التي ذكر ابن هشام مع غيرها وجدناها تزيل إشكالاً يلوح مما تقدم من الروايات فكأنها بينت لنا ما أشكل في غيرها، فأنت ترى رواية البخاري الأولى لم يزد فيها على ذكره العاقب والسيد من الوفد، وكذلك إحدى روايتي

الترمذي، مع أن في بعض الروايات أن عدد الوفد أربعة عشر رجلاً كما هو عند ابن سعد، بينما الدكتور حميد الله في الوثائق السياسية يذكر عن بعض المصادر التي نقل منها أن عدده أربعون رجلاً، ورواية ابن هشام، التي أوردها عن ابن إسحاق بينت أن عدد الوفد ستون راكباً، وأن فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وأن من هذه؟؟ الأربعة عشر ثلاثة يدور أمرهم عليهم، ومن الثلاثة: العاقب والسيد، فكأن بعض الرواة اقتصر على العاقب والسيد لأنهما رئيسا الوفد، وأن كان لهما ثالث دونهما في الشهرة، وهو أبو حارثة فاكتفى بذكرهما دونه، واكتفى بعضهم بذكر الأربعة عشر الذين هم أشرافهم فذكرها، والرواية الثالثة بينت أن الوفد ستون من جملة تلك الستين الأربعون المذكورة، والأربعة عشر، والاثنان، وبهذا تتفق الروايات ويجمع بينها والله تعالى أعلم.

هذا وقد تبين من هذا العرش الذي ذكرنا، ومن معاملته ﷺ لوفود أهل الكتاب أنها عليه السلام كانت حياته كلها دعوة إلى الله وأنها منهج متكامل للدعاة إلى الله يقتدون به ويتبعونه حيث ظهر من خلال ما ذكرت أنه لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم سواء أكانوا يهودا أو نصارى أو مجوسا؟ حتى توفاه الله، وكذلك أصحابه من بعده لم يزالوا كذلك وبهذا قام الدين الإسلامي وأظهره الله على جميع الأديان ولو كره الكافرين فينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يجعل جميع حياته دعوة إلى الله تعالى، ولا يكل الدعوة إلى غيره، بل المفروض أن كل انسان كائنا من كان يحتسب أنه هو السؤال عن الدعوة وحده، وعن شؤن المسلمين في سائر أقطار العالم لا يفرق بين مسلمي قط، ومسلمي قطر آخر، ولا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا العربي والعجمي لأن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بمكانة من الأهمية لا تدرك، وكيف لا؟ وهو وظيفة النبيين والمرسلين، وعباد الله الصالحين، فهي من الأمور التي لا غنى للبشرية عنها قديما وحديثا، فدعوة الرسل عليهم الصلاة والتسليم تنقذ الناس من

ظلمات الكفر إلى نور الايمان، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ودعوة العلماء تبين للعباد معالم الدين ومزاياه وتوضح لهم ثمرة الإيمان بالله التي هي سعادة الدارين، وتحملهم على التمسك بمبادئه، وتنهاهم عما ينكره الشرع وتأمرهم بمعروفه على ضوء ما جاءت به الرسل من عند الله، فدور الدعاة المخلصين من هذه الأمة لا يقل أهمية عن دور الرسل في دعوة الناس حيث لم يبق الآن من تراث الأنبياء إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فلا بد أن يأخذوا بحظهم مما ورثوه ، ولم يزل الناس قديماً وحديثاً محتاجين إلى الدعوة، ولا سيما في عصرنا الحاضر الذي شاع فيه الإلحاد وانتشر في أقطار المعمورة وعم بلاد المسلمين إلا من رحم الله، فقد صار المنكر في أغلب البلاد معروفاً، والمعروف منكراً، وذاع القول بإنكار الخالق؛ سبحانه عما يقولون، فالحاجة إلى الدعوة الآن لا تقل أهمية عن الحاجة إليها زمن بعثة الرسول صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الناس قبل بعثته ﷺ كانوا فاقدي الأخلاق تعمهم الفوضى، عيشهم السلب والنهب يعبدون الأحجار والأشجار والكواكب، كذلك الآن يعدون الشخصيات بحيث يغالون في تعظيمها ويرجون منها ما لا يرجى إلا من خالقها، وكذلك يعبدون القبور التي صار أهلها رميماً يسكنون عندها ويرجون منها قضاء حوائجهم، ويطلبون منها ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وهكذا كان صنيع أهل الجاهلية، وقد كانت العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة متباغضة ذوي ديانات مختلفة إلى غير ذلك من شؤونهم، كذلك اليهود والنصارى في غاية التنافر والتباغض والاختلاف في الديانة كما حكى القرآن الكريم ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء... ﴾(١).

---

(١) جزء من الآية: ١١٣ من سورة البقرة.

وقال تعالى عنهم: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله...﴾ (١) .. إلى غير ذلك من أحوال العالم السياسية والاجتماعية في ذلك الزمن.

وإذا قارنا بين أحوال العالم في ذلك الوقت الذي بزغت فيه شمس الرسالة وهدى الله الناس برسالة محمد ﷺ فبين لهم طريق النجاة والسعادة، إذا قارنا بين حالهم وبين حال عالمنا الذي نعيش فيه الآن وجدنا تقارباً كبيراً بين حالنا وحالهم:

قالا يكنها أو تكنه فانه * أخوها غذته أمه بلبانها(٣).

فكل ما كان موجوداً في العالم قبل البعثة النبوية من الاضطرابات والانحلال والتقليد الأعمى والاختلاف في النزعات الدينية، وفساد الأخلاق الاجتماعية وغير ذلك كل ذلك موجود في عالمنا اليوم مما يؤكد الدعوة إلى الله عز وجل، ويبين شدة حاجة الناس إليها لأن العالم الآن ينقسم إلى أربعة أقسام:

شيوعيين ملحدين، وأهل كتاب، ووثنيين، ومسلمين.

وكل صنف من هؤلاء الأصناف يحتاج إلى دعوة، فالشيوعيون يحتاجون إلى من يبصرهم ويفهمهم بوجود الخالق سبحانه وتعالى، وأنه هو الموجد لهذا العالم كله سمائه وأرضه، حيه وجماده، ولم يوجد صدفة، ولم توجده طبيعة ولا غيرها.

---

(١) جزء من الآية: ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) قاله أبو الأسود الدولي يخاطب مولى له يشرب الخرينـدبه إلى تركها ويخبره إلى النبيذ يقوم مقامها فإن لم يكن خمراً فإنه أخوها.

انظر شرح العيني لشواهد ابن مالك مع الأشموني ١/٧٧ - ٧٨، ط أولى دار أحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

وأهل الكتاب يحتاجون إلى دعاة مهرة لهم صلة قوية بالعلوم الشرعية وبعلوم الكتب السابقة ليبينوا لهم أن الإيمان بأي نبي من الأنبياء لا ينفع صاحبه بعد أن بلغته دعوة نبينا محمد ﷺ على الوجه الحقيقي وأن من كفر بنبي واحد من أنبياء الله فقد كفر بجميعهم، وليبينوا لهم أيضاً أن كتب أنبيائهم تأمرهم باتباع محمد ﷺ، وفيها البشارة به.

وكذلك الوثنيون يحتاجون إلى دعاة يدعونهم إلى ترك عبادة ما لا ينفع ولا يضر وإفراد من بيده النفع والضر والموت والحياة بالعبادة.

كذلك المسلمون فإنهم في نظري أشد حاجة إلى الدعوة من جميع الأقسام المتقدمة وذلك أن الكثيرين من المسلمين انحرفوا عن طريق الإسلام والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه إلا من رحم الله، فالغالبية من المسلمين جهلاء بالإسلام، لا يعرفون منه غير اسمه ولا يفهمون منه إلا بعض أشكاله وصوره، فهم بين عبدة أضرحة، وعبدة أشخاص، وبين أتباع، ومقلدين لمشايخ وعلماء في زعمهم لا يتبعون ما صح عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، هذا حال العامة والعلماء.

أما المثقفون فإنهم إذا علموا شيئاً فعن غير الإسلام، وإذا دعوا إلى شيء فهو مما يدعون إليه أعداء الإسلام، وقد اقتسمتهم الحضارة الغربية والشيوعية الماركسية فصار فريق يوالي أولئك، وفريق يوالي هؤلاء، وهناك طائفة متمسكة بدينها الحنيف ومبادئه القيمة وأخلاقه السامية، بيد أنه يخاف عليها؛ لأنها محاطة بما ذكر من الأجواء السيئة، فتحتاج كغيرها للدعوة إلى التمسك بما هي عليه، وأن تعض عليه بالنواجذ حتى يأتي أمر الله، فظهر من هذا أن الحاجة إلى الدعوة إلى الله ماسة وأن المسؤولية إنما هي على عاتق العلماء المخلصين الذين لهم معرفة بدين الإسلام، ويعرفون كيف يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

وقد ذكرت نبذة قليلة أول الفصل الأول من الباب الأول في أهمية الدعوة ثم بدا لي أنني لا بد أن أزيد الكلام عليها فجعلت تلك الزيادة خاتمة لهذا الفصل، والله ولي التوفيق.

* * *

الباب الثالث

منهجه ﷺ في الجهاد

منهجه ﷺ في الجهاد

تمـهيـد

إن لقائل أن يقـول كيف كان الجهاد منهـجاً من مناهج الدعوة إلـى الله للدخول في الإسلام؟.

والجواب: أن جـميع غزواتـه ﷺ لأهل الكـتاب منهـج من منـاهج دعوته لـهم، ويظهر ذلك بعد التأمل الدقيق في جميع غـزواته لهم فمن تأملها وجد ذلك يكمن في أمرين:

الأول: منهما إظهار قوة الإسلام وعدم ضعفه أمام أعدائه.

والثاني: بيان رغبة المسلمين في الشهادة في سبيل الله، وإظهار شجاعاتهم.

وهذان الأمران يتضمنان الدعوة لأهل الكتاب بلا شك.

وعند العـرض لبيان ما وقع في جمـيع غزواته لأهل الكتـاب وأسبابها يتـضـح ما ذكرته.

أولاً: بنو قينقاع:

كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق كما هو مسجـل في كتاب الموادعة الذي تقدم عنـدما قدم ﷺ المدينة حيـث أنهم من جملة اليـهود الذين وقع معهـم الصلح، ولكنهم بعد وقعـة بدر شرقوا بها، وأظهروا الحسد والبغي وسولت لـهم أنفسهم أنهم قادرون علـى قمع المسلـمين والانتقـام لقريش، ويدل لـذلك الكلام الذي قـالوه لنبـينا محمد ﷺ لما بلغه عنهـم أنهم غدروا فناداهم فجمع رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد، وكان الجـواب من رؤسائهـم أن قالوا: يا محمد لا يغـرنك ما لقيت من

قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن إنا نحن الناس(١)، وقد كان يهود بني قينقاع أشجع اليهود فكانت الشجاعة معروفة فيهم(٢)، فلما رأى غدر بني قينقاع ونقضهم العهد وأحساسهم بشجاعتهم التي لم يتمالكوا أن باحوا بها أمام الرسول ﷺ ، وما ذاك إلا لاستصغارهم للمسلمين، كان من المناسب لدعوتهم إلى الإسلام أن تظهر لهم قوة المسلمين وشجعاتهم، وأن الإسلام غير ضعيف، وأن قوته تتزايد يوماً بعد يوم، وأن معتنقيه لديهم كفاءة متكاملة على القتال وصبر وأعطوا شجاعة لم تكن كشجاعة بني قينقاع ولا تقاربها، فإظهار هذا لبني قينقاع منهج من مناهج دعوتهم إلى النظر في أمر الإسلام، وكذلك لمن هو في حكمهم، إذا تأمل الجميع الحوادث التي جرت، ولذلك لما تيقن بنو قينقاع أنهم كاذبون في زعمهم أنهم إذا حاربوا نبي الله غلبوه؛ وعلموا أن الإسلام وأهله في قوة ومنعه من الله طلب منه عدو الله (ابن أُبيّ صديقهم وحليفهم أن يمن عليهم بأن يخلي سبيلهم ويجليهم، وقد فعل ذلك لما حصل المقصود، فظهور قوة الإسلام وأهله ونصرهم المتواصل ورغبة أهله فيما عند الله من الثواب من أعظم الدواعي للدخول فيه طواعية.

ثانيا : غزوه ﷺ لبني النضير :

إن بني النضير نقضوا العهود التي كانت بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين كسائر قبائل اليهود، ومع ذلك فإنهم استصغروا المسلمين واستخفوا بهم استخفافاً لم تفعله قبيلة من قبائل اليهود في المدينة، ذلك أنهم هموا بقتل نبيهم صلوات الله عليه ضحوة، فلو كانوا يحسبون للمسلمين والإسلام حساباً ويعتقدون أن للإسلام أمة، وعلى تقدير أنهم لو تمكنوا مما أرادوا من قتل نبيهم لن يضر ذلك الإسلام، ولن يمنع

---

(١) ذكر هذا الكلام عنهم محمد الخضري بك في كتابه نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١١٩.

(٢) انظر زاد المعاد ٧٩/٢ المصدر السابق.

المسلمين من السير قدماً في نشر الإسلام والدعوة إليه وأخذ الثأر ممن غدر بهم بنبيهم، لو كانوا يحسبون لهذا أي حساب ما فعلوا ذلك أبداً، لكنهم كانوا يظنون أنهم لو قتلوا محمداً ﷺ تمكنوا من أصحابه وقتلوا من أحبوا قتله، وأكرهوا من أرادوا إكراهه على الرجوع عن الإسلام وتركوا من أرادوا تركه، وتفرقت بقيتهم في البلاد وانقطعت الدعوة إلى الله جل وعلا وقضي على الإسلام وأهله، فلهذا كان من المناسب تغيير فكرتهم هذه الخاطئة بغزوهم حتى يتبين لهم أن أهل الإسلام على حق ويقين من إيمانهم وشجاعة كاملة، كذلك في غزوهم والانتصار عليهم ما يقنعهم بصحة رسالة نبينا ﷺ، وأن الله جل وعلا تكفل له بالنصر على أعدائه حتى يظهر دين الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون، ففي ذلك إقامة الحجة عليهم إذا تأملوا بعقولهم أمره ﷺ من مبدئه إلى حصاره لبني النضير فوجدوا أمره يزداد يوماً بعد يوم ويتوالى نصره على أعدائه، كل ذلك كان من حقه أن يكون سبباً في استجابتهم لدعوته لهم إلى الدخول في الإسلام، ولكن القوم لا يفقهون.

فظهر من هذا العرض السريع أن هذه الغزوة فيها منهج حكيم من مناهج دعوة أهل الكتاب الذين يسكنون المدينة مثل القبائل الثلاث المعروفة ولغيرهم ويوضح ما سبق أنه ﷺ لَمَّا قدر عليهم المقدرة الكاملة، وأحيط بهم من كل جانب، وتيقنوا قوة المسلمين وشجاعتهم وثقتهم في ربهم تركهم أحياء ولم يقتل منهم أحداً لعلهم يدركون بعقولهم أن الذي يدعوهم إليه هو الحق، فيدخلون في الإسلام فيكونون من جملة المسلمين، ولكن اليهود غلبت عليهم الشقوة.

ويدل لما ذكرته أننا لو قارنا بين قوة المسلمين، وقوة اليهود في ذلك الزمن وجدنا بينهما تفاوتاً كبيراً وتحققنا أن المسلمين لا يقاتلون بقوة ولا كثرة وإنما ينصرون بتأييد من الله وعون، يدل لذلك ما كان لليهود والنصارى في ذلك الزمن من القوة، المنعة، وما كان فيه المسلمون في تلك الآونة من القلة عدداً وعدة، وما هم فيه من كثرة

الأعداء، فإذا نظرنا إلى أهل خيبر وما ذكره العلماء من عدد مقاتلي خيبر حيث قالوا: إن في يهود خيبر عشرة آلاف مقاتل وقيل أحد عشر ألفاً، وكذلك يهود المدينة كانوا معجبين بشجاعتهم لاسيما بنو قينقاع حيث كانوا أشجع اليهود كما حكاه أهل التاريخ عنهم، وتقدم عزوه، وكذلك النصارى في الشام كانت لهم قوة هائلة كما سيأتي عدد المقاتلين منهم في غزوة مؤتة إن شاء الله وما تجمع منهم تهيئاً للقتال بعد ذلك فكان سبباً في غزوة تبوك، كما سيأتي إن شاء الله، فبالمقارنة بين قوة المسلمين في ذلك الوقت وقوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتضح ما ذكرته، والعلم عند الله تعالى.

ثالثاً: غزوة بني قريظة:

إن من تأمل غزوة بنى قريظة يجدها منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة، وبيان ذلك أن القرظيين كانوا من جملة اليهود الذين بينهم وبين المسلمين عهد، بأن لا يظاهروا عليهم عدواً ولايغدروا بهم، ولكن بني قريظة لما رأوا الجموع الكثيرة المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل تجمعت من قريش وأحلافها، ومن غطفان بقيادة أبي سفيان بن حرب، وغزوا المسلمين في عقر دارهم وأحاطوا بهم، فحوصر المسلمون مادياً وعسكرياً وتألبت عليهم أهل الجزيرة، لما رأت بنو قريظة ذلك ظنوا أن الإسلام والمسلمين على وشك الأنتهاء، فما كانوا يظنون إلا أن الجمعين يلتقيان فيقضي جمع المشركين على جمع المسلمين ويستأصلون فيقضون على الإسلام والمسلمين، فلذلك أعلنوا الحرب ضد المسلمين ونبذوا إليهم عهودهم، فلما كشف الله جنود الأحزاب دون أن ينالوا من المسلمين أي شيء مما كانوا يقصدون من أجل حماية الله لنبيه وللمؤمنين كان من المناسب أن يظهر المسلمون لبني قريظة أنهم ما ضعفوا وما جبنوا وأن دعوة الإسلام باقية كما هي، وأن أهله لن يزيدهم ما حل بهم في الخندق إلا إيماناً وتصديقاً وشجاعة فبادر ﷺ بغزو بني قريظة بعد الخندق مباشرة بل في اليوم

الذي قدموا فيه من الخندق إلى بني قريظة إظهاراً أن المسلمين لن يثنيهم أي شيء عن دينهم وعن التمسك به والأخذ بمبادئه، فكان في مواصلة هذه الحروب بعضها ببعض دون إظهار عجز ودون توان مظهر باهر من مظاهر قوة الإسلام وشجاعة أهله وشدة تمسكهم؛ مما يؤكد لمن لم يعتنقه أنه دين حق وأن صاحب الرسالة الذي جاء بها صادق فيما أخبر به عن ربه من رسالته إياه، فمن هنا يظهر المنهج ويتضح، وسيأتي الكلام على التفرقة بين العقوبات التي عوقبت بها قبائل اليهود الثلاث التي كانت تسكن المدينة ان شاء الله، ومع هذا فإنه ﷺ لما حاصر بني قريظة دعاهم إلى الدخول في الإسلام كما سيأتي إن شاء الله عن أبي نعيم الأصبهاني وابن شهاب الزهري.

وبهذا يتضح أنها غزوة منهجية للدعوة إلى الله تعالى بحيث ظهرت فيها قوة قلوب المسلمين، وبيان أن دينهم حق، وأن الله تكفل بنصر من ينصره كما قال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوة الدنيا..﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (٢).

رابعاً: غزوه عليه السلام ليهود خيبر:

كان من المناسب في وقته وكان دعوة منهجية أيضاً، وذلك أن نبي الله والمسلمين لما صدوا عن البيت الحرام عندما وصلوا الحديبية، وكانوا يريدون العمرة فصدهم المشركون، وعقدوا معهم ذلك الصلح الذي ظاهره هضم للمسلمين وباطنه نصر، وعاقبته محمودة كما هو معلوم، ورجعوا ولم يصلوا مكة، فرحت اليهود بهذا وظنوا أن أمر النبي ﷺ ينقشع ما دام رد عن البيت الحرام، ولم يمكنه أن يطوف به لا

(١) جزء من الآية: ٥١ من سورة غافر.

(٢) جزء من الآية: ٤٠ من سورة الحج.

هو ولا أصحابه، طمع اليهود حينئذ، وصاروا يحرضون على الحرب ضد المسلمين لظنهم ضعفهم وعدم مقدرتهم على مقاومة أعدائهم بعدما صدوهم عن الحرم، فرجعوا ولم يعتمروا، و«لله في ذلك حكم لا تحصى؛ فلهذا كان من المناسب قمع اليهود بغزو خاص بهم حتى يتيقنوا من جديد قوة الإسلام وصلابة أهله فيه، وشجاعتهم ورغبتهم في الثواب الذي عند الله لهم، وأن المسلمين ما رجعوا جبناً ولا ضعفاً ولا شكاً في إنجاز الله وعده لهم، ولكنهم رجعوا لما أخبرهم ﷺ أن المصلحة في رجعوهم، وفي عقد ذلك الصلح المبارك الذي دخل في الإسلام، في زمنه، كثير ممن كانوا وقت الصلح أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن الغرض من غزوهم إرغامهم بالسيف على الدخول في الإسلام، ولا إبادتهم، بل ليتبين لهم خلاف ما كانوا يظنون من ضعف المسلمين، وأن الأمر على العكس، ولذلك فإنه ﷺ لما قارب بلادهم بات حتى طلع الفجر وتحرى هل يسمع الأذان أو لا؟ فلما لم يسمعه دخل خيبر كما يأتي إن شاء الله.

ولما أعطى الراية علي بن أبي طالب مع علمه أن الله يفتح عليه كما أخبر بذلك في الحديث الصحيح الآتي إن شاء الله أمره ألا يقاتل اليهود حتى يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم بما يجب عليهم من الإيمان بالله ورسوله، وأخبره أن هداية رجل واحد على يده خير له من أن تكون له حمر النعم، ولما تغلب على اليهود في خيبر وصاروا قبضة يده رفع عنهم وأبقاهم أحياء وعاملهم على أرض خيبر يعملون فيها ويعيشون، وبذلك تظهر قوة الإسلام وسماحته في آن واحد، وذلك بلا شك أدعى للدخول فيه، وما كان يهود خيبر يفكرون في غزو رسول الله ﷺ لشدة منعتهم وحصانة حصونهم وكثرتهم، فقد كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: محمد يغزوننا؟ هيهات!! وكان من بقي من يهود المدينة فيها يقولون حين تجهز المسلمون إلى خيبر: ما أمنع والله خير منكم!! لو رأيتم خيبر وحصونها

ورجالها لرجعتم دون أن تصلوا إليهـا، حصون شامخات في ذرى الجبـال، والماء فيها واتن أي دائم لم ينقطع، يقال وتن الماء وغيره إذا دام ولم ينقطع(١).

وما كانـت أسد وغطفـان يمتنعون مـن العرب إلا بهم إلـى غير ذلك مـن إعجاب اليهود بأنفسهم وكبرهم وسقوط غير اليهود من أعينهم(٢).

خامسـاً: غزوة مـؤتـة:

وسببهـا أيضاً لا يخرج عن إظهار قـوة الإسلام والمسلمين وشجـاعة أهل الإسلام ورغبتهم في الدار الآخرة وتصديقهم بمـا أخبرهم به رسول الله، فلقد كان رسول الله ﷺ أرسل الحرث بـن عمير الأزدي بـكتاب إلى ملـك بصرى فعـرض له شرحبـيل بن عمـرو الغسـاني فأوثـقه رباطـاً ثم قدمـه فضـرب عنقـه، ولقد كـان من المعـروف لدى المسـلمين وغيـرهم أن الرسـل لا تقتل، ولـكن هـذا الـنصراني لشدة ازدرائه بـالإسلام وأهله ولقلتهم في عينه في ذلك الوقت وكثرة النصارى والمتنصرين من العرب في تلك البلاد؛ لهذا فإنه لم ينظر إلى المسلمين إلا نظرة سوء ولم يفكر في عاقبة، ولم يخطر له ببال أن المسلمين قـادرون على غزو الروم في تخوم الشام، فكان المـناسب بعد هذا أن يبـعث الـرسول صلـوات الله وسلامـه إليـهم جيـشاً فـي بلادهم لـيريـهم قـوة الإسلام وشجاعة أهـله، ويتمثل ذلك فـي قلتهم حيث كـانوا ثلاثة آلاف، وقابلوا مـائتي ألف وخمسين من النصـارى، ولما تشاوروا ماذا يفعلون قال لهم عـبد الله بن رواحة: يا قوم والله للذي تـكرهون للذي خـرجتم تطلـبون (الشهـادة) وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثـرة، وما نـقاتـلهم إلا بـهذا الـدين الذي أكـرمنـا الله به فـانطلـقوا فـإنما هـي إحدى الحسنيين: إما ظفر، وإما شهادة، فقاتلوا حتى فتح الله على أيديهم فانتصروا كما يأتي التـصريح بـذلك فـي رواية الـبخـاري الآتـيـة إن شاء الـله، فـمن هـذه المعركة عـرف

(١) انظر الصحاح للجوهري مادة وتن.

(٢) انظر الواقدي في مغازيه ٦٣٧/٢ المصدر السابق.

النصارى ما للمسلمين من شجاعة وقوة في إيمانهم، وعلموا أن الذي يقاتلون به وينتصرون ليس بعدد ولا عدة وإنما هو أمر إلهي يدل على صدق محمد ﷺ وعناية ربه به، وفي هذا مدعاة لدخول النصارى في الإسلام بلا شك حيث تؤيده نصوص الكتب التي بأيديهم، وعلى هذا فتكون غزوة مؤته لا تخرج عن منهجه ﷺ في دعوة أهل الكتاب، والعلم عند الله تعالى.

سادساً: غزوة تبوك:

إن من نظر في غزوة تبوك وظروفها المحيطة بها علم أنها لا تخرج عن منهج سابقاتها من غزوات أهل الكتاب، وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن الروم قد تجمعت له وجمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة، وانضمت إليه لخم وجذام وعاملة، وغسان، وتقدموا إلى البلقاء استعداداً لغزو المسلمين(١)، فقد روى الطبراني من حديث عمران بن حصين. قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون، فهلكت أموالهم، فبعث عظيماً من قومه وجهز معه جيشاً أربعين ألفاً لغزو المسلمين(٢).

فكان من المناسب بعد أن أشاع النصارى أن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه هلك، وأن المسلمين أصابتهم سنون أفنت أموالهم وأوهنت أجسامهم، المناسب بعد هذا أن يظهر المسلمون للروم أن ما أشاعوه كذب، وأنهم في قوة عظيمة، وأن رسول الله ﷺ موجود بين ظهرانيهم. ولذلك خرج ﷺ إليهم بنفسه لئلا يبقي للشك مجال، وتأهبوا للقاء الروم في ظروف قاسية في حر شديد حين بلغت درجة الحرارة غايتها العظمى وطابت الثمار، واستطيبت الظلال، خرجوا إلى تلك المسافة البعيدة

---

(١) طالع الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٦٥، وفتح الباري ٨/١١١.

(٢) بواسطة نقل ابن حجر في فتح الباري ٨/١١١ أيضا.

التي تقدر بحوالي مسافة خمسة عشر يوماً حتى وصلوا تبوك وعلم الروم بخروجهم ومكثوا هناك مدة طويلة حتى شاع أمرهم بين سكان الشام من النصارى والعرب المتنصرين حتى علموا أن للإسلام والمسلمين قوة عظيمة وشجاعة هائلة، وسيأتي تفصيل هذه الغزوة في الفصل الرابع إن شاء الله كما سيأتي تفصيل غزوة قريظة وخيبر ومؤته، في الفصل الأول والثاني والثالث من هذا الباب.

وبهذا أكون قد أعطيت للناظر لمحة عن منهجية الغزو لأهل الكتاب وبينت أنه منهج من مناهج الدعوة، فالمتأمل فيه يجده منهجاً متكاملاً، لأن إظهار قوة الإسلام وتجددها حيناً بعد حين، وضعف قوة الكفر وتدهور أعداء الإسلام ونقصانهم وزيادة المسلمين مصداقاً لقوله تعالى، على أحد التفسيرات في الآية الآتية: ﴿أو لم يروا أنا نأت الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾(١).

فقد ذكر العلماء أن معنى نقصانها من أطرافها ظهور المسلمين على المشركين ودخول بلادهم قرية بعد قرية(٢).

كل ذلك من أعظم الدواعي للنظر في هذا الدين الذي هذا شأن أهله والدخول فيه عن رغبة لمن أعطاه الله قلباً يعقل به وسمعاً يبصر به وأذناً يسمع بها.

وانطلاقاً من هذا فلا بد وأن نتكلم قبل الشروع في ذكر الغزوات الأربع التي وعدت بأن أفردها بفصول، لابد من الكلام قبل ذلك على الجهاد بالعموم وذكر الدوافع التي تدفع إليه، وبيان أن المقصود منه هو إعلاء كلمة التوحيد وليس الغرض منه إرغام الناس على الدخول في الدين عن طريق القهر والإكراه وبيان الحكم التي

---

(١) الآية: ٤١ من سورة الرعد.

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية من سورة الرعد.

شرع من أجلها الجهاد، والأحكام الشرعية التي شرعت فيه وغير ذلك من مزاياه العظام، وسوف يكون ذلك بإيجاز إن شاء الله؛ لأن تفاصيل ذلك تحتاج إلى أوقات طويلة وعناية خاصة كما أبين ان شاء الله أن لكل غزوة من غزواته ﷺ سبباً خاصا كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وبيان الحكمة في تأخير مشروعية الجهاد إلى المرحلة المدنية، وتدرج مشروعيته إلى غير ذلك مما سيقف عليه القارئ الكريم، فأقول:

ذكرت في خطة هذه الرسالة أنني سوف أقتصر على أربع غزوات ﷺ من غزواته لأهل الكتاب، وقد اخترت اثنتين من هذه الغزوات تختص باليهود واثنتين تختص بالنصارى، أما اللتان لليهود فهما: غزوتا بني قريظة، وخيبر وأما اللتان للنصارى فهما: غزوتا مؤته وتبوك، وها أنا ذا أتمشى مع ما رسمته في الخطة إن شاء الله فأقول:

لا شك أن للجهاد دوره العظيم في نشر الدعوة الإسلامية وإظهار الدين الإسلامي على جميع الأديان، وفيه إظهار قوة الإسلام واظهار شجاعة المسلمين ورغبتهم فيما عند الله من الثواب، وفيه تكذيب لما أشاعه كفار مكة من أن المسلمين هربوا من مكة، وأن دينهم مقضي عليه لا محالة، وأن أتباعه في حالة من الضعف جعلتهم يفرون تاركين وطنهم، وأنه بذلك سيقضي عليه(١)، فمن هنا تبدو أهمية الجهاد كوسيلة للدعوة الإسلامية من حيث إشعار أهل مكة بقوة المسلمين وشجاعتهم، ويظهر ذلك في التضحيات الإسلامية التي أبرزت روح الرجل المسلم وحبه للقاء الله جل وعلا، أضف إلى ذلك أن الجهاد شرع بسببه كثير من الأحكام الشرعية، كصلاة الخوف، وتوزيع الفيء والغنائم، واستحقاق القاتل سلب المقتول، والتفاوت في التكاليف كسقوطه عن الرقيق والمرأة وغير ذلك كالمستضعفين بأنواعهم،

---

(١) الدعوة الإسلامية د. أحمد غلوش ص ٢٦١.

ومع هذا كله فإن الجهاد الإسلامي لم يكن إلا رد الظلم ودفعاً لعدوان وانتقاماً من ظالم، وحماية للدعاة إلى الله في حياتهم وإعانة لهم على تنفيذ مهمتهم، وإعلاء لكلمة الله تعالى، ولقد حاول أعداء الإسلام أن يروجوا بين العوام أن الجهاد الإسلامي كان قائماً على الاعتداء والغدر، وإني أريد أن أبين في هذا التقديم أن ذلك كذب وافتراء، وأنه لم يكن إلا رد الظلم كما سيتضح ذلك في أسباب الغزوات الآتية إن شاء الله، والله جل وعلا يقول: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾(١)، وهذا مبدأ عدل وحق فإن الناس لو تركوا وظلمهم لعم الفساد، فمن رد عنه ظالماً أو مفسدا لا لوم عليه، بل اللوم على من ترك الظالم ولم يأخذ على يديه، قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾(٢) وقال تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ (٤) فالجهاد الإسلامي لا يعدو نوعاً من مدافعة الباطل، ويظهر ذلك في تشريعه ، وفي وقائعه عند المتبع لها، أما تشريعه، فإنه قد شرع على التدرج، وذلك أنه أذن فيه للمسلمين دون أن يحتم عليهم لأن أول آياة نزلت في شأنه آية الحج التي استدل بعض العلماء بها على أن سورة الحج مدنية(٥)، وهي قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾(٦) فقد روى

---

(١) جزء من الآية: ٩٤ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٥١ من سورة البقرة.
(٣) جزء من الآية: ٤٠ من سورة الحج.
(٤) الآيتين ٤١ – ٤٢ من سورة الشورى.
(٥) محمد نبي الإنسانية ص ٢٠٠ تأليف على الجملاطي.
(٦) الآية ٣٩ من سورة الحج.

الترمذي في سننه وحسنه أن هذه الآية نزلت لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فقال: حدثنا سفيان بن وكيع، أخبرنا أبي وإسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثوري عن الأعمش عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، ليهلكن، فأنزل الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾(١) الآية فقال أبو بكر علمت أن سيكون قتال، ثم قال: هذا حديث حسن، وقد رواه عبد الرحمن بن مهدي وغيره عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ فيه عن ابن عباس. وقد رواه غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير مرسلاً، وليس فيه عن ابن عباس(٢)، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس، وعروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حبان، وقتادة وغيرهم إن هذه أول آية نزلت في الجهاز(٣)، وقد شرع الله جل وعلا لنبيه وأصحابه الجهاد في الوقت الأليق؛ لأنهم لما كانوا بمكة كانوا قلة، وكان المشركون أكثر منهم بأضعاف مضاعفة، فلو أُمِرَ المسلمون في المرحلة المكية بالجهاد لشق ذلك عليهم، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم من مسقط رأسه، وهموا بقتله وشردوا أصحابه حتى تفرقوا فذهب جمع منهم الى الحبشة وطائفة الى المدينة، فلما قدم عليهم ﷺ واجتمع عليه أهل المدينة وآووه ونصروه، وصارت المدينة دار إسلام شرع الله الجهاد فنزلت عليه صلوات الله وسلامه عليه هذه الآية المذكورة إذناً في الدفاع وبأنه تعالى قادر على نصرهم بدون قتال، ولكنه يريد من عباده المؤمنين أن يبذلوا جهدهم في طاعته تعالى، ويتبين

---

(١) تقدمت.

(٢) سنن الترمذي ٥/٧ المصدر السابق.

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية من سورة الحج ٣/٢٥٥.

المسارع في إمتثال الأمر من غيره، فكانت هذه حكمة تأخير مشروعية الجهاد ليلاً يتناقل المسلمون لضعفهم فيعصون، وقيل إن أول آية نزلت في المدينة في شأن القتال قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١)..

والمتأمل في جهاده ﷺ لأعدائه يجده لا يخرج عن كونه دفاعاً وإن كان في نفس الوقت دعوة إلى الله، فهو دفاع ومنهج من مناهج الدعوة إلى الله كما تقدم تقرير ذلك، لأن فيه إظهار الحق، وإبطال الباطل وفيه نشر الإسلام بين البلاد التي فتحت بسبب الغزو إلى غير ذلك، فمثلاً أن بدراً أراد الله جل وعلا فيها القتال لحكم وأسرار يعلمها الله مع أن نبينا صلوات الله وسلامه عليه ما خرج إلى بدر يريد قتالاً، ولا استعد للقتال، فقد ذكر بعض أهل السير كالبدوي في مغازيه وأقره على ذلك شارح غزواته حسن مشاط أنه ﷺ خرج إلى بدر وفي جيشه ثمانية سيوف فقط(٢)، كما ذكر أهل السير أنه ﷺ لم يكن في جيشه من الخيل إلا اثنتين(٣) وقد نظم أحمد البدوي هاتين المسألتين في مغازيه التي نظمها أو جلها من عيون الأثر لابن سيد

---

(١) الآية: ١٩٠ من سورة البقرة، وانظر تفسير ابن كثير عندها.

(٢) انظر المغازي للبدوي الشنقيطي وشرحها ١/٣٥.

قلت: يظهر أن هذا التحديد غير صحيح لأنني لم أجد من ذكره غير البدوي وشرحه، ولما يعطيه واقع المعركة من المبارزة التي وقعت في بدر والقتال الذي وقع بالسيوف، فإذا نظرنا إلى قتلة أبي جهل، وإلى المبارزين الثلاثة، عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة، وعلي، وما ذكر غير ذلك من السيوف كسيف عمير بن الحمام وغيره يتبين من خلال ما ذكر أن هذا التحديد غير صحيح كما أن واقع العرب على خلاف هذا فالعربي لم يكن يخرج إلا وسيفه معه والعلم عند الله تعالى.

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البرص ١١٤، والواقدي ١/٢٧ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٢.

الناس فقال:

وليس عندهم من السيوف * غير ثمان للعدا حتوف

ولا من الخيل سوى اثنتين * وقد كفتهم أهبة التمكين

وإنما خرج ﷺ معترضاً غير قريش، وذلك انتقاماً مما فعله قريش له ﷺ ولأصحابه، فخرجت قريش من مكة على استعداد للقتال، ولذلك لما تيقن عليه السلام وقوع القتال خطب في قومه، وركز في كلامه على الأنصار دون المهاجرين؛ لأن الأنصار اشترطوا له أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم فكان يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصره حتماً عليها إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأنهم ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم للقتال، ولما قال: أيها الناس أشيروا علي، قام أبو بكر فقال وأحسن، ثم عمر كذلك، ثم المقداد بن عمرو فقال قولته الشهيرة وهي قوله: ... لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا... ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك...(١)، فدعا له ثم قال: أيها الناس.. فقام إليه سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تعنينا يا رسول الله، قال: أجل فقال سعد رضي الله عنه مقالته المشهورة أيضاً وهي قوله: «قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنّا لصبر في الحرب صدق في اللقاء.. الخ كلامه»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٨٨ المصدر السابق.

والغرض أنه ﷺ لم يخرج لقتال، ولكنه لما لقي قريشاً بعددهم وعددهم يريدون قتاله قاتلهم حينئذ دفاعاً عن المسلمين، وذباً عن الدعوة الإسلامية، كذلك قتاله لقريش يوم أحد فإنه من المعلوم أن قريشاً قدموا من مكة يريدون الإغارة على المدينة فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيش من أصحابه دفاعاً عن المدينة وساكنيها من المسلمين.

كذلك ما وقع في الأحزاب فإن قريشاً وأحلافها خرجوا من مكة وتجمعت منهم عشرة آلاف وحاصروا المدينة فخرج إليهم ﷺ أيضاً في جيش من المسلمين دفاعا عن الاسلام والمسلمين، إلى غير ذلك من الوقائع التي وقعت بينه وبين قريش، أما غزواته عليه السلام لأهل الكتاب فإنها كلها لأسباب دفاعية وانتقامية، وذلك أنه عليه السلام لما قدم المدينة صالح يهودها كما تقدم في الباب الثاني من هذه الرسالة على أن لا يحاربوه، ولا يعينوا عليه عدواً من أعدائه، وكتب بذلك كتاباً بينه وبينهم، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً أن نقضوا تلك العهود والمواثيق التي أخذت عليهم قبيلة قبيلة، فنقضت بنو قينقاع أولاً تلك العهود فغزاها، ثم بنو النضير، ثم قريظة إلى غير ذلك مما تقدم من أسباب غزوه، ومما يدلنا على أن الجهاد منهج من مناهج الدعوة الإسلامية وأن الهدف منه لم يكن قتل الكفار ولا إبادتهم بالسيف، ولم يكن المراد منه قهرهم به على الدخول في الإسلام، وأنه آخر مراحل الدعوة إلى الله تعالى، يدلنا لذلك ما ثبت عنه ﷺ ما كان يوصي به أمراءه على الجيوش من البدء بدعوة الكفار إلى الله تعالى ليدخلوا في الإسلام ويخرجوا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، فإن قبلوا هذه الدعوة فبها ونعمت، وإن لم يقبلوها عرضت عليهم خطة أخرى وهي مداراتهم عن أنفسهم بمال يعطونه للمسلمين يتقوون به، ويبقون على دينهم إلى وقت آخر، وليس الغرض من تركهم على دينهم أنهم أعطوا مالاً للمسلمين، لا: بل لأجل إظهار الولاء والخضوع للدولة الإسلامية حرصاً على

تحسين العلاقة بينـهم وبين المسلمين، فهذا السبب في أخذ الجزيـة منهم لا أنها مجرد مال يـأخذه المسلـمون في مـقابلـة إبقائهـم على كـفرهم لأن ذلـك خلاف ما بعـثت الرسل من أجله، والله أعلـم. فإن أبوا هذه أيضاً لم يبق حينئذ أمـام الواقع، إلا قتالهم لأنهم بـلغتهـم هذه الدعوة، وأمروا بـالدخول في هذا الـدين الذي بعـث الله به هذا النبـي، وامتنعـوا ثم طلب منـهم دفع مال لـلمسلمـين ويتركون علـى ما هم عليه إلى وقت آخر حتى يفكروا في أمرهم، وينعموا النـظر في هذا الدين فلم يستجيبوا لشيء من ذلك، فلم يبق إلا قتالهم حينئذ.

فقد روى مسلم في صحيحه بسنده إلى بريدة قال: كان رسول الله إذا أمر أميراً على جيش أو سرية(١) أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن مـعه من المسلمين خير، ثم قال: اغزوا بـاسـم الله فـي سـبيل الله، قاتـلوا من كفـر بالله، اغزو ولا تـغلوا(٢)، ولا تغدروا ولا تمثلوا(٣)، ولا تقتلـوا وليداً(٤)، وإذا لقيـت عدوك من المشركين فـادعهم إلى ثلاث خصال، أو خـلال فأيتهن ما أجابوك فـاقبل منهم وكف عنـهم، ثم أدعهم إلى الإسلام(٥)، فإن أجابـوك فاقبل مـنهم وكف عـنهم، ثم ادعـهم إلى التـحول من دارهم إلى دار المهـاجريـن، وأخـبـرهم إنـهـم أن فعـلوا ذلك فـلـهـم ما للمهاجرين،

---

(١) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه.

(٢) الغلول الخيانة في المغنم.

(٣) أي لا تمثلوا في القتلى بقطع الأنوف مثلا وما أشبه ذلك. (٤) أي صغيرا.

(٥) هكذا في نسخ مسلم ثم أدعهم إلى الإسلام، قال القاضي عياض: صواب الرواية: أدعهم لأنه تفسير للثلاثة، وليست غيرها بعدهـا حتى تعطف عليها وكذا هي ساقطة في أبي داود وغيره، وقال المـارزي: ليست ثم هنـا للعطف، وإنما دخـلت لاستفتاح الـكلام والأخذ في تفسير الخصال. انظر الأبي على صحيح مسلم ٥/٤٦.

قلت: قوله ساقـطة في أبي داود وغيره كذلك في رواية ابـن ماجة ساقطة كما سيأتـي فلعله المراد بقول القاضي عياض: وغير والله أعلم.

وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله(١) ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من إن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن إنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا(٢) ؟.

فتراه ﷺ يقول للأمراء الذين يرسلهم أمراء على الجيوش فإن أجابوك ـ أيها الأمير ـ إلى الإسلام فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أجابوك إلى الجزية فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن قيل: فأين دخولهم في الإسلام عندما يصرون على دفع الجزية ويبقون على دينهم؟ فالجواب: أن في اعطائهم الجزية إظهار الولاء للمسلمين، وإعلاء لدين الإسلام حيث يعطونها عن يد وهم صاغرون، وبإظهار ذلك الولاء يتدرج الأمر حتى يدخلوا في الإسلام، وقد تقدم مثل هذا.

فلو كان القصد من الجهاد غير دخول الناس في الدين بأن كان القصد منه إبادة الكفار، وإكراههم على الدخول في الدين الإسلامي غير مقتنعين به لما كان ﷺ

---

(١) ذمة الله أي عده، وكذلك ذمة رسوله.

(٢) صحيح مسلم ٣/١٣٤٧ - ١٣٥٨ كتاب الجهاد والسير باب تأمير الأمام الأمراء على البعوث ووصيته اياهم بآداب الغزو وغيرها ـ المصدر السابق.

وانظر التمهيد لابن عبد البر ٢/٢١٧ وما قبلها وما بعدها فقد تكلم في المسألة كلاما جيدا رجح فيه أن الدعاء أحسن وأصوب.

يقول لأمرائه اقبلوا الإسلام من المشركين إذا أسلموا بل لما قال لهم: ادعوهم إلى الإسلام، ولكن الهدف من الجهاد هو إعلاء كلمة اللّه تعالى في الأرض، وإعلاؤها يكون باعتراف العباد بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا حصل ذلك عند أول الأمر حصل المقصود من الدعوة، وإن لم يحصل أولاً طولب الكفار بدفع الجزية، فإذا اختلطوا مع المسلمين وأظهروا لهم الولاء وخالطوهم في المعاملات، ورأوا وفاءهم لأهل العهود وسماحة الإسلام ونهيه عن الغدر والخديعة والظلم، والسلب والنهب وإعطاءه للمسلم حريته الكاملة فيما يبيحه الشرع إلى غير ذلك، إذا رأوا هذا دخلوا في الإسلام طوعاً ولا كرهاً فرادى وجماعات.

قلت: إن في هذا الحديث أحكاماً كثيرة ولا بد أن ألم إلماماً سريعاً بالأهم منه دون المهم، ذلك أن في هذا الحديث الشريف الأمر بدعاء المشركين عامة قبل البدء بقتالهم بحيث يشمل ذلك كل مشرك كان سواء أكان كتابياً أو وثنياً، فظاهر الحديث يدل على أنهم لا يجوزقتالهم إلا بعد الدعاء، وقد اختلف في ذلك فذكر الخطابي عن مالك بن أنس.أنهم لا يجوز قتالهم إلا بعد الدعوة، أو يؤذنوا بالحرب، وقال الحسن البصري، والثوري وأصحاب الرأي والشافعي وأحمد: يجوز قتالهم قبل الدعوة إذا كانت الدعوة بلغتهم، واحتج الشافعي بقتل ابن الحقيق، أما من لم تبلغه الدعوة ممن بعدت داره فلا يقاتل حتى يدعى(١).

كذلك ظاهر الحديث يدل على جواز قبول الجزية من كل مسلم كائناً من كان سواء أكان كتابياً أو وثنياً أو غير ذلك؛ لأنه ﷺ يقول: فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، بعد ذكره لفظاً عاماً يدخل فيه كل مشرك، وقد قدمنا أن اليهود والنصارى مشركون، وإن كانوا أهل كتاب وذكرنا دليل ذلك من القرآن وهو آيتا التوبة اللّتان

---

(١) انظر شرح الخطابي معالي السنن على أبي داود ٣/٨٣.

قدمنا وهما قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله.. إلى قوله يشركون ﴾.

ومع هذا فإن العلماء اختلفوا في هذه المسألة، فذكر الخطابي في المصدر السابق أن الأوزاعي يقول بأخذها من كل كافر، وأن مذهب مالك قريب من ذلك، وحكي عنه أنها تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، وحكي عن الشافعي أنه قال: لا تقبل إلا من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً ومن المجوس ولا تقبل من مشرك سواهم. وحكي عن أبي حنيفة أنه قال: إنها تؤخذ من كل مشرك من العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب.. إلى أن قال: فلا يجوز أن يصرف هذا الخطاب عن العرب إلى غيرهم، وليس هذا محل بسط الكلام على أحكام الجزية.

وقد شهد أهل الكتاب للإسلام بالسماحة، وأن القوة لم تكن عاملاً أساسياً في تحويل الناس إلى الإسلام، وإنما دخلوا عن رغبة واقتناع، يقول المستشرق «سير توماس أرنولد» في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» :... ويمكننا من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام فمحمد ﷺ نفسه عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة، وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبي ﷺ وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم للدخول في الإسلام عن طواعية لمؤازرة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة الرسول ﷺ(١).

(١) الدعوة إلى الإسلام للمستشرق سير توماس أرنولد ص ٦٥ – ٦٦ ترجمة حسن إبراهيم، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي.

وقال المستشرق المذكور في موضع آخر مقرراً سماحة الإسلام أيضاً، وأن صحابة رسول الله ﷺ سلكوا طريقته بعد وفاته في معاملة الناس بالرفق واللين، وذكر أن المسيحيين يعترفون بذلك.

قال في شأن فتح المسلمين بلاد الشام وفلسطين: إن المسيحيين حين علموا أن أبا عبيدة وصل الأردن كتب عند ذاك المسيحيون في تلك البلاد إلى العرب المسلمين يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا، وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق(١).

ثم قال الكاتب في موضع آخر من كتابه بعد ذكره بعض ما وقع من الاضطهادات بين الطوائف غير المسلمة كما وقع بين الطائفة النسطورية والكنيسة الأرثوذكسية .

وذكر أن عدد ضخماً من رجال الكنيسة الأرثوذكسية يبلغ ٧٨٠٠ مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا في هذه الاضطهادات بسبب إغراء (بوصما) أسقف نسطوري ملك الفرس بأن دبر لهم ذلك.. إلى أن قال: ولكن مبادئ التسامح الإسلامي، حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس، مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء البيزنطيين ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها لهم بعد أن أثبتوا ملكيتهم لها، وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد علي هذا النحو إلى رعايا

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣.

المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق[1].

وقال في موضع آخر: وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم - يعني من أسلم من أهل الكتاب - عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح.. بل كثير منهم دخل في الإسلام قبل أن يتم الفتح إلى غير ذلك مما ذكره من محاسن الإسلام وعدم قهره للناس على الدخول فيه[2].

وإنما نقلنا كلام هذا المستشرق مع أننا عندنا من الأدلة النقلية والواقعية في ديننا ما يكفي لإثبات ما أردنا، ولكنا أوردنا كلامه ليكون من باب: وشهد شاهد من أهلها، ولنرجع إلى تشريع القتال فأقول: إن القتال بعد الإذن دون عزيمة على المسلمين به نزلت بعد ذلك آيات تدل على قتال من يلي المسلمين في بلادهم من الكفار فالذين يلونهم، ونزلت آيات تدل على قتال المشركين حيثما وجدوا، وأخذهم وإحصارهم والترصد لهم إلى أن يتوبوا من كفرهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وعند ذلك يخلى سبيلهم، ونزلت آيات أخرى في شأن أهل الكتاب خاصة فأمرت بقتالهم حتى يعطوا الجزية للمسلمين وهم في حالة من الصغار والمذلة، وعند ذلك يكف عن قتالهم هكذا شرع الله جل وعلا، لنبيه محمد ﷺ ولأمته الجهاد، ومن الآيات التي حتمت الجهاد على المسلمين ولكنه في نطاق محدود بحيث لا يتجاوز من يليهم من الكفار قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[3] فقد أمر الله تعالى نبيه

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٨٧ ، ٨٨ المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) الآية: ١٢٣ من سورة التوبة.

والمؤمنين بقتال الكفار الأقرب فالأقرب، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله مكة والطائف وخيبر وغير ذلك من جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله، شرع بعد ذلك في قتال أهل الكتاب؛ لأنهم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، فخرج حتى بلغ تبوك كما سيأتي إن شاء الله، ثم اشتغل في السنة العاشرة بالحج، وبعد ذلك انتقل للرفيق الأعلى.

ثم بدأ خلفاؤه الراشدون في تنفيذ ذلك الأمر حتى فتح الله على أيديهم الكثير من البلاد، كما هو معلوم في مواضعه(١)، ومن الآيات التي حتمت قتال المشركين حيثما حلوا قوله تعالى ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (٢).

وقد امتثل ﷺ أمر ربه في جميع خطوات مراحل الجهاد فقاتل من كان يقاتله أولاً وكف عمن لم يقاتله، وقاتل من يليه من الكفار قبل الكفار البعيدين عنه، ثم خرج إلى البعيدين عنه، ولما نزلت عليه الآيات في شأن أهل الكتاب امتثل كذلك أوامر ربه، فكل من أعطى الجزية منهم تركه على دينه، وأقره على ما هو عليه، وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على سنته فيهم، فلم يشرع ﷺ في أمر بعد الأمر بالتريث فيه، ولم يعتد على أحد ولم يظلم أحداً من المشركين، ولا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، ولم يخرج قيد شبر في جهاده لأعداء الله عن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى فكان جهاده كله منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة إلى الله رسمه لأمته من بعده فاتبعت سنته فيه، فكان ﷺ إذا أراد الإغارة(٣) على قوم تحرى هل يسمع أذاناً

---

(١) انظر تفسير ابن كثير هنا في سورة التوبة عند هذه الآية بتصرف فيه.

(٢) آية: ٥ من سورة التوبة.

(٣) أخرج ذلك البخاري في صحيحه في كتاب الأذان باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

أو لا؟ فإذا سمع أذنا كف عن الإغارة، وكان ينهى عن قتل النساء والصبيان وأهل الصوامع والبيع المنقطعين للعبادة، فعن ابن عباس أنه كان يقول لجيوشه: اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع(١)، فكان ينهى عن المثلة وعن الخيانة إلى غير ذلك مما يجعل المتتبع لوقائعه في الجهاد يحصل له العلم اليقين بأن جهاده كله إنما كان دعوة إلى الله بمنهج وأسلوب قويم، وليس في شيء مما يتصوره أعداء الدين، ويحاولون أن يجعلوه أمراً واقعياً بحيث يزعمون أن الدين الإسلامي دين عنف وقسوة وقهر، وأن الجهاد الإسلامي خال من الرأفة والرحمة والإنسانية، وأن الناس أكرهوا على الدخول فيه لا عن طواعية ورغبة وإنما دخلوا خوفاً من الإبادة، ولكن المنصف منهم، على فرض وجوده، إذا تأمل قضايا الجهاد وأسبابه وما وقع فيه لا بد أن يبوح بالحق إلا إذا كان مصراً على العناد والجحود.

قلت: لا يرد على ما ذكرته من أمره ﷺ لأمراء جيوشه بالدعوة للمغار عليهم إلى الدخول في الإسلام ما جاء في صحيح مسلم من أنه أغار على بني المصطلق وهم غارون أي غافلون حيث قال: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي حدثنا سليم بن أخضر عن ابن عون، قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال قال: فكتب إلي: إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ (قال يحيى أحسبه قال): جويرية، أو قال: البتة ابنة الحارث، وحدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش.

وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن أبي عدي عن ابن عون بهذا الإسناد مثله

(١) رواه الإمام أحمد ٤/٢٤٠.

وقال جويرية بنت الحارث ولم يشك[1].

والجواب في هذا الحديث أنه محمول على قوم بلغتهم الدعوة وعلموا بها ولم يشك في ذلك، ويدل لما قلت أن بني المصطلق ناس من العرب في وسط الجزيرة وديارهم قريبة من مكة كما أنها قريبة من المدينة أيضاً وإن كان القرب نسبياً، ولا يمكن أن يفوتهم أمر الدعوة[2]، بل إن الدعوة الإسلامية بلغتهم وبلغهم أمر قريش يوم بدر وانتصاره ﷺ عليهم، كما بلغهم ما وقوع في أحد، ولهذا لم يحتاجوا إلى إنذار جديد، ولما ذكرته فإن مسلماً رحمه الله لما أراد إخراج هذا الحديث في صحيحه ترجم له هكذا: (باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة)، ثم ساق الحديث فتراه رحمه الله جزم بأن بني المصطلق بلغتهم الدعوة الإسلامية كما قررته ولم يشك في ذلك.

وقد قال النووي مؤيداً ما ذكره مسلم في ترجمته ما نصه: وفي هذا الحديث جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير إنذار بالإغارة، وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب حكاها المازري والقاضي أحدهما: يجب الإنذار مطلقاً قال مالك وغيره وهذا ضعيف، والثاني: لا يجب مطلقا، وهذا أضعف منه أو باطل، والثالث: يجب إن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم لكن يستحب، وهذا هو الصحيح، وبه قال نافع مولى ابن عمر، والحسن البصري والثوري والليث والشافعي وأبو ثور وابن المنذر والجمهور، قال ابن المنذر وهو قول أكثر أهل العلم، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة على معناه، فمنها هذا الحديث، وحديث قتل كعب بن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد: باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة ٣/٣٥٦ المصدر السابق.

(٢) لأن ديارهم حول الفرع، ذكر ذلك ابن حجر ٧/١٣٠.

الأشرف، وحديث قتل أبي الحقيق(١).

قلت: قوله: فمنها هذا الحديث، لم يظهر لي من حديث الإغارة على بني المصطلق وهم غارون استنباط حكم الاستحباب، بل الأولى إن كان هناك استحباب أن يؤخذ من أمره ﷺ لعلي يوم خيبر لما أعطاه الراية وأمره أن يدعو يهود خيبر إلى الإسلام قبل شروعه في قتالهم كما سيأتي إن شاء الله، إذا صرفنا الأمر في ذلك عن الوجوب مع أنه لا يصرف عن الوجوب إلا بوجود قرينة ظاهرة؛ لأن صيغة الأمر من الشارع للوجوب.

وقول نافع كان ذلك أول الإسلام.. الخ، لا يرد عليه أن غزوة بني المصطلق كانت سنة خمس على التحقيق، وأن كانت قيل إنها سنة أربع كما عند البخاري عن موسى بن عقبة، لأنه كثرت بعد السنة الخامسة الغزوات والبعوث فقوله: إنما كان ذلك أول الإسلام مراده بذلك ما كان قبل غزوة المريسع، ويكون ﷺ بعد ذلك لم يغر على أحد حتى يدعوه وكان يوصي أمراءه بذلك، والعلم عند الله تعالى.

أما كون بني المصطلق كانوا يريدون الغدر به ﷺ، فقد صحح ابن عبد البر خلاف ذلك، وأنه أغار عليهم وهم غارون، وقد حكى ذلك، أي قوله الغدر، بصيغة التمريض وصحح خلافه(٢).

فتحصل مما ذكرته أمام غزوه ﷺ لأهل الكتاب أنه كان لا بد من اللجوء إلى السيف من أجل نصرة دين الإسلام حيث لم يكن وضوح الدعوة الإسلامية وسلامتها من جميع الشوائب كافياً في نشرها، وإذا كان الأمر كذلك تعين نشرها حتى باللجوء إلى استعمال القتال لنشر الدعوة:

---

(١) طالع شرح النووي على صحيح مسلم ١١/٣٦ المصدر السابق.

(٢) فانظره في كتابه الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٠٠.

إذ لم يكن إلا الألسنة مركب * فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وعليه فقد كان من الضروري اعمال السيف لإخضاع الكفار الذين حاربوا رسول الله ﷺ، وحاربوا دعوته بشتى الوسائل فكذبوه وآذوه، وأخرجوه، وهموا بفتله مراراً، وآذوا من آمن به، وأخرجوهم وقتلوا بعضهم، وأكرهوهم على الهجرة، فمن أجل هذا كله شرع له القتال صيانة لهذه الدعوة وحماية لأهلها فقد بني على مبدأين أساسيين كما تقدم وهما:

أولاً: الدفاع عن النفس عند التعدي عليها.

ثانياً: الدفاع عن الدعوة إذا وقف في سبيلها معتد أثيم ظالم وحاول إبطالها وتفنيد صاحبها وحال بينها وبين نشرها، ولم يكن القتال مبنياً في الشريعة على ما يقتضيه العقل أو الهوى، بل أنه كان أمراً الهياً من الله تعالى كما تقدمت الآيات الدالة على ذلك، والأحاديث الصحيحة في أول هذه الرسالة في قوله ﷺ مراراً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...» الحديث(١).

فالله جل وعلا أذن لنبيه في قتال أعداء الدعوة الإسلامية الواقفين في طريقها المانعين من نشرها المعادين لصاحبها المصممين على قتله لولا عصمة الله له منهم، ولكنه تعالى عصمه من كيدهم صيانة لهذا الدين ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فأظهر دينه وأعز أهله، وأذل أعداءه، وأخزاهم في الدنيا والآخرة جزاء بما كانوا يعملون فرد كيدهم في نحورهم، وبعد مدة قليلة من الزمن دخل مكة التي أخرج منها وهو كاره لذلك الخروج دخلها بعد بضع سنوات بعشرة آلاف مسلم مسلحين وفتحها، ولسنا بصدد الكلام هل فتحها عنوة أو صلحاً؟ لأن الذي يعنينا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/٥٢ ـ ٥٣.

الآن أنه دخلها وفتحها ضحوة وكسر الأصنام أمام عابديها، وقد كانت معلقة في الكعبة تعبد من دون الله، ولما علم أهل مكة أنه متغلب عليهم لا محالة طلبوا منه الأمان بعد ما كان منهم من التعنت والجفاء فامتن عليهم، وعفا عنهم وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء(١) فجزاه الله من نبي خيرا بعثه الله رحمة للعالمين، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٤/٤١ المصدر السابق.

الفصل الأول

غزوة بني قريظة : سببها

سبب هذه الغزوة:

تقدم لنا فيما مضى أن جهاده ﷺ للكفار سواء أكانوا مشركين أم كتابيين مبني على مبدأين أساسيين هما: الدفاع عن النفس عند الاعتداء عليها، والدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف في سبيلها معتد ظالم يحاول إبطالها، ومما تقدم لنا أيضا أن نبينا ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً ووجد بها الأوس والخزرج، ووجد اليهود يشكلون نسبة كبيرة من سكانها ولا سيما من الناحية الاقتصادية كالزراعة والتجارة وغير ذلك، وعقد معهم صلحاً وكتب ذلك الصلح في الكتاب الذي كتبه بينه وبينهم وبين الأنصار واشترط عليهم الشروط المسجلة في ذلك الصلح والتي جملتها ألا يظاهروا عليه عدواً من أعدائه، وأنهم إن استمروا على ذلك كان لهم حسن الجوار، ولم يغير من حالهم شيء وإن نقضوا العهود التي أخذت عليهم في صلب ذلك الصلح صاروا أهل حرب وعداء واستحقوا أقصى ما يكون من العقوبة، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل اليهود أهل غدر وخيانة قديماً وحديثاً، كما حفلت بذلك كتب التاريخ القديمة ونطق به القرآن الكريم في غير ما آية منه واستفاضت به السنة المطهرة، وشهد له الواقع الآن فإنهم لن يخالج صدر أحد من أهل الزمن الآن شك في غدرهم وخيانتهم كما فعلوا بكل من والاهم وآواهم.

وقد تتابعت قبائل اليهود الثلاث على الغدر واحدة بعد واحدة، فأول من غدر منهم بنو قينقاع، فغزاهم رسول الله ﷺ ولما حاصرهم طلب منه رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أن يهبهم له فوهبهم له وكان ذلك يوم السبت في النصف

من شوال سنة اثنتين من الهجرة إلى هلال ذي القعدة(١)، فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة بعد ما ترك قتالهم بسبب طلب عدو الله لهم، وقد كان هذا بعد قدومه ﷺ من بدر منتصراً فغاظ ذلك اليهود وتحركت ضغائنهم القديمة، فكان أول من تحرك منهم بنو قينقاع فخانوا الله والرسول، ونبذوا العهد لرسول الله صلوات وسلامه عليه، وقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ فجمعهم وقال لهم: يا معشر يهود أسلموا تسلموا فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فقالوا له: يا محمد لا يغرنك من لقيت أنك قهرت قوماً أغمارا(٢)، وإنا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا، ولم يزالوا منهم بوارد الغدر حتى هزؤوا من امرأة من المسلمين كانت عند صائغ منهم يصوغ لها حلياً فكشف عنها ثيابها فضحكوا منها فصاحت فانتصر لها رجل من المسلمين فقتله فاجتمعت بنو قينقاع وقتلوا ذلك المسلم ونبذوا العهد وأعلنوا الحرب وتحصنوا في حصنهم، فكانت غزوة بني قينقاع، ثم بعد ذلك نقضت بنو النضير العهد وهموا بقتل رسول الله ﷺ وذلك أنه قدم عليهم يستعينهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري وهما من بني عامر وقد قتلهما عمرو بعد وقعة بئر معونة بعد أن لقيهما وسألهما من هما؟ فانتسبا له، فقايلهما حتى ناما فقتلهما، وقد كان عندهما عهد وأمان من رسول الله ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو فقدم على النبي ﷺ فأخبره فقال له: لقد قتلت قتيلين لأودينهما فخرج إلى بنى النضير يريد العون علي ديتهما، وكان بين بني عامر وبني النضير عقد وحلف، فلما رأوه في جماعة من أصحابه قليلين في أعينهم حدا بهم حادي الغدر وخلا بعضهم ببعض فقالوا فيما بينهم إنكم لن تروا محمداً على مثل هذه الحال، وقد كان ﷺ جالساً إلى جنب جدار فطلبوا رجلاً منهم يتولى قتله

---

(١) انظر الواقدي ١/١٧٦.

(٢) جمع غمر وهو الجاهل.

فيصعد على سطح البيت فيلقي عليه صخرة فيريحهم منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأخبر ﷺ من قبل الله بما دبره له أعداء الله وأعداء رسوله فخرج من بين قومه مظهرا أنه يقضي حاجة وقال لأصحابه لا تبرحوا ورجع إلي المدينة، واستبطأ أصحابه فأخبروا أنه رجع إلى المدينة فلحقوا به فعند ذلك أعلن حربهم وخرج إليهم وحاصرهم في حصونهم، وكان من أمرهم وأمر المنافقين ما كان وأنزل الله في شأنهم سورة الحشر، وكانت أموالهم فيئاً لرسول الله ﷺ، إلى آخر شأنهم، ثم بعد ذلك نقضت بنو قريظة العهد وأعلنوا الحرب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين لما رأوا قريشاً وغطفان قدموا على المدينة بجموعهم الكثيرة التي بلغت عشرة آلاف، لما رأت بنو قريظة ذلك نقضوا العهد ووالوا قريشاً وغطفان وعزموا على محاربة المسلمين معهم حتى ثبطهم الله عن ذلك، وفشلوا بسبب الدور العظيم الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي لما هداه الله إلى الإسلام، فأستأذن من النبي ﷺ أن يخذل بين القوم فأذن له فكان من أمره ما هو معلوم، وقد نجح في خطته، وحصل الفشل بين الطوائف الثلاث، قريش، وغطفان، وبني قريظة وأرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها، فانهزموا ففرت قريش وغطفان ومن معهم راجعين إلى بلادهم وبقيت بنو قريظة، فأعلن الله عليها الحرب كما أخبر بذلك جبريل النبي ﷺ.

الأحاديث الواردة في شأن غزوة بني قريظة:

قال البخاري في صحيحه: باب مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ثم ساق سنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال فإلى أين؟ قال: هاهنا، وأشار إلى قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم، ثم ساق بسند آخر إلى أنس رضي الله عنه

قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، وبسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب، لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم، ثم ساق بسند آخر إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتى على حمار فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلي سيدكم ـ أو خيركم ـ فقال: هؤلاء نزلوا على حكمك فقال: تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، قال: قضيت بحكم الله وربما قال بحكم الملك، وعن عائشة أيضاً رضي الله عنها قالت: أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة رماه في الأكحل(١) فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعته، اخرج إليهم، فقال النبي ﷺ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه فرد الحكم إلى سعد، قال: فاني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، قال هشام فأخبرني أبي عن عائشة أن سعداً قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها

---

(١) هو بفتح الهمزة والحاء بينهما كاف ساكنة عرق في وسط الذراع يسمى عرق الحياة، يقال: أن في كل عضو من الإنسان شعبة منه ففي اليد الأكحل وفي الظهر الأبهر، والفخذ النساء، فتح الباري ٧/٤١٣.

واجعل موتي فيها فانفجرت من لبته فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً فمات منها رضي الله عنه.

فهذه الأحاديث الخمسة أخرجها البخاري في صحيحه فانظره(١).

وقد روى مسلم بن الحجاج رحمه الله هذه الأحاديث التي رواه البخاري في شأن بني قريظة وقضية سعد بن معاذ وما حكم به في شأن بني قريظة وتأييد النبي ﷺ له وإخباره له بأن هذا الحكم الذي حكم به موافق لحكم الله عز وجل الذي حكم فيهم به، إلا أنه في حديث ابن عمر خالفه فجعل الصلاة التي أمر رسول الله ﷺ بأدائها في بني قريظة صلاة الظهر، فصرح بذلك وهي عند البخاري كما علمت صلاة العصر، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى فقال رحمه الله:

«باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم أهل للحكم».

فذكر حديث أبي سعيد الخدري أولاً فقال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم قال: فقال النبي ﷺ قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك، وهذا اللفظ قريب جداً من لفظ البخاري الذي تقدم، ثم ساق بسنده إلى عائشة رضي الله عنها فذكر الحديث الذي ساقه البخاري عنها وسمى حبان بن العرقة الذي ضرب سعداً في أكحله كما سماه البخاري، ولم يختلف سياقه عنه اختلافاً يذكر.

---

(١) ذكرها البخاري في كتاب المغازي: غزوة بني قريظة.

ثم ذكر عنها حديثاً آخر ذكر البخاري منه جزءاً حيث قال: .. عن عائشة أن سعداً قال، وقد تحجر(١) كلمه للبرء، فقال: اللّهم إنك تعلم أن ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني أجاهدهم فيك، فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها، فانفجرت من لبته فلم يرعهم وفي المسجد معه خيمة من بني غفار ـ إلا والدم يسيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد جرحه يغذو دماً فمات منها، وزاد: قال فذاك حين يقول الشاعر:

ألا يا سعد سعد بني معاذ * فما فعلت(٢) قريظة والنضير
لعمرك أن سعد بني معاذ * غداة تحملوا لهو الصبور
تركتم قدركم لا شيء فيها * وقدر القوم حامية تفور
وقد قال الكريم أبو حباب * أقيموا قينقاع ولا تسيروا
وقد كانوا ببلدتهم ثقالاً * كما ثقلت بميطان الصخور

ثم أخرج حديث ابن عمر الذي يختلف معه فيه في تعيين الصلاة وجزم بأنها الظهر(٣).

وقد حكى الحافظ ابن حجر عن ابن إسحاق أن هذه الأبيات لجبل بن جوال الثعلبي وكان حينئذ كافراً(٤).

(١) تحجر الكلم، إذا يبس وكاد أن يبرأ.
(٢) في بعض النسخ: لما فعلت.
(٣) أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد ٣/١٣٨٨ - ١٣٩١ المصدر السابق.
(٤) فتح الباري ٧/٤١٥.

قلت: قول الشاعر: وقد قال الكريم أبو حباب.. الخ، يعني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول يشير إلى شفاعته في بني قينقاع حتى وهبهم النبي ﷺ له، حيث كانوا حلفاء الخزرج، ولما كان بنو قريظة حلفاء الأوس، وحكم فيهم سعد بما حكم عرض به الشاعر في هذه الأبيات ذماً له في ظنه وهو مدح لسعد، وقد أشار الشاعر إلى ثبوت بني قريظة في المدينة ومقامهم بها فشبههم بثبوت ميطان الذي هو موضع ببلاد مزينة من الحجاز كثير الصخور شبههم به في الثبوت(١).

رواية الترمذي:

أن الترمذي يروي قصة بني قريظة مختصرة، ومع ذلك فإن الحديث الذي رواه فيه زيادة على ما في الصحيحين، قال: وهو:

الحديث السادس:

باب ما جاء في النزول على الحكم، ثم ساق بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: رمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أكحله أو أبجله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده فتركه فنزفه الدم فحسمه أخرى فانتفخت يده فلما رأى ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة - وهذه الزيادة ليست في الصحيحين - فاستمسك عرقه فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل إليه فحكم أن يقتل رجالهم وتستحيا نساؤهم يستعين بهن المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: أصبت حكم الله فيهم، وكانو أربعمائة: فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات، وفي الباب عن أبي سعيد، وعطية القرظي، وهذا حديث حسن صحيح، ثم روى بسنده إلى سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: اقتلوا شيوخ

---

(١) انظر فتح الباري ٧/٤١٥.

المشركين واستحيوا شرخهم، والشرخ الغلمان الذين لم ينبتوا، ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب، ثم ساق بسند آخر إلى عطية القرظي قال: عرضنا على رسول الله ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلي سبيله فكنت ممن لم ينبت فخلي سبيلي، ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم أنهم يرون الإنبات بلوغاً إن لم يعرف احتلامه ولا سنه وهو قول أحمد وإسحاق(١).

قلت: قوله: وهو قول أحمد وإسحاق، وكذلك قول مالك أيضاً، إلا أنه لم يشترط جهل السن بل إذا كانت سنه دون ثماني عشرة سنة ونبت شعر عانته حكم عليه بالبلوغ.

هذا: وقد كانت يهود بني قريظة أعلنت الحرب على رسول الله ﷺ عندما نقضت بنو النضير وأعلنوا حرباً ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فأجلى ﷺ بني النضير، وامتن على بني قريظة وعفا عنهم فتركهم، ومع ذلك فلم يفد فيهم ما فعل حتى شنوا عليه حرباً عندما قدمت قريش وأحلافها وكانت وقعة الخندق فحينئذ حاربهم حرباً حاسمة.

فقد روى أبو داود في سننه بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة بعد ذلك فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا برسول الله فأمنهم وأسلموا وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم، بني قينقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ويهود

---

(١) أخرجها الترمذي في أبواب السير ٣/٧١ – ٧٣.

بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة(١).

قلت: لقد فرق ﷺ في العقوبة بين قبائل اليهود الثلاث وذلك من أجل اختلاف جرائمهم، فبنو قينقاع إنما نقضوا العهد كسائر جميع يهود المدينة، وأضافوا إلى ذلك أنهم قتلوا رجلاً مسلماً مقابل رجل منهم قتله فكانت عقوبتهم أن أخرجوا من المدينة، ولم تؤخذ أموالهم، وإن كان بعض أهل المغازي ذكر أن أموالهم صارت غنيمة كالواقدي(٢) إلا أن الصحيح خلاف ذلك، وأما بنو النضير فإنهم نقضوا العهد أيضاً ولكنهم زادوا كونهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ، وهذه جريمة عظيمة إلا أن الله سلم، وقصارى أمرهم أنهم هموا بقتله ﷺ ولم يتمكنوا من ذلك، والإسلام لا يقتص في مثل هذه الحالة، ولذلك فإن اليهودية التي سمت له الشاة لم يقتلها على الصحيح، وإن كان أبو داود روى في سننه أنه قتلها، وعلى صحة ذلك يمكن أن يكون قتلها بصاحبه الذي أكل معه فمات، وسيأتي لهذا زيادة إيضاح إن شاء الله في غزوة خيبر، ولذلك كانت عقوبتهم فوق عقوبة بني قينقاع ودون عقوبة بني قريظة حيث أعطى لهم من أموالهم ما تحمله إبلهم إلا السلاح فإنه أخذ منهم، ثم أجلوا عن المدينة، وأما بنو قريظة فإن جريمتهم هي أعظم الجرائم، وذلك أنهم نقضوا العهد أولاً، وأعلنوا الحرب ضد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وضد أصحابه تعاطفاً مع إخوانهم النضيريين، ثم مَنَّ عليهم الرسول ﷺ وأبقاهم وأجلى بني النضير، ثم بعد

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب في خبر بني النضير ٤٠٧/٣ المصدر السابق، كما أخرجه مسلم بهذا اللفظ في كتاب الجهاد والسير ١٣٨٧/٣ - ١٣٨٨، وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب المغازي في باب حديث بني النضير، إلا أنه قدم ذكر قريظة على بني النضير، ومعلوم أن إجلاء بني النضير قبل قتال بني قريظة كلهم عن نافع عن ابن عمر.

(٢) فانظره ١٨٨/١.

ذلك تألبوا مع أعداء الله ورسوله والمسلمين في الوقت الذي كان الواجب عليهم فيه أن ينضموا إلى جيش المسلمين ويقاتلوا معهم من هاجمهم بالمدينة، وقد عكس الأمر فقد حاولوا القضاء على رسول الله ﷺ وعلى جميع المسلمين لانضمامهم إلى أهل الخندق من قريش وأحلافها، فاستحقوا بذلك عقوبة أعظم من عقوبة قينقاع والنضير، فقتلت مقاتلتهم وسبيت نساؤهم وأموالهم بينما بنو النضير وبنو قينقاع لم تقتل رجالهم ولم تُسْبَ نساؤهم، هكذا كانت التفرقة بين عقوبات قبائل اليهود الثلاث حسب جرائمهم والله تعالى أعلم.

قلت: يؤخذ من هذا الحديث الثابت في الصحيحين وأبي داود أن المعاهد إذا نقض العهد وأخل بالشروط التي اشترطت عليه، صار بذلك حربياً تجري عليه أحكام الحربي فللإمام المن عليه كما منّ ﷺ على بني قريظة أولاً لما نقضوا العهد مع بني النضير كما تقدم، وله قتالهم وإجلاؤهم وسبي نسائهم وذريتهم وأخذ أموالهم إذا شاء كما فعل ﷺ ببني النضير من الإجلاء وأخذ السلاح وغيره من أموالهم، وكما فعل ببني قريظة في المرة الثانية من قتل مقاتلتهم وسب نسائهم وذراريهم وأخذ أموالهم وتقسيم ذلك بين المسلمين ليستعينوا به، وإلا فهم قبل ذلك كانوا آمنين حتى ظاهروا قريشاً يوم الخندق.

وقد روى قصة تحكيم سعد بن معاذ في قريظة الدارمي في سننه ولكنه رواها مختصرة فقال: (باب نزول أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ) ثم ساق بسنده إلى جابر بن عبد الله وحديثه هو:

الحديث السابع:

قال رمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أبجله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار.. اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، إلى أن ذكر أن عدد

رجالهم أربعمائة كما تقدم عن الترمذي[1].

هذا وإن القرآن الكريم أشار إلى قصة بني قريظة وما أوقع الله في قلوبهم من الرعب وما فعل بهم من القتل والأسر بعد أن استحقوا ذلك كله، ذكر الله ذلك أثناء عرض القرآن الكريم لقصة الأحزاب لما ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً من رسول الله ﷺ ولا من أصحابه وكفاهم الله شر قتالهم قال تعالى في ذلك: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتب من صياصيهم[2] وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ [3].

فالذين ظاهروا الأحزاب هم بنو قريظة، وإن كان معهم حيي بن أخطب كبير بني النضير إلا أنه تبع لهم وإن كان يحرضهم ويغريهم؛ لأن بني قينقاع وبني النضير إذ ذاك لم يكونوا موجودين، وبنو قريظة هم آخر قبائل اليهود في المدينة وغزوهم كان في شوال سنة أربع كما هو رواية موسى بن عقبة ووافقه مالك، وقال ابن إسحاق كانت في شوال سنة خمس وعليه أكثر أهل المغازي والسير[4].

قلت: وهو الحق، وإن كان البخاري استدل بقول موسى بن عقبة هذا معتمداً عليه في ذلك، ثم ذكر تحت الترجمة عرض ابن عمر على النبي ﷺ يوم أحد فلم

---

(١) انظر سنن الدارمي ٢/٢٣٨.

(٢) الصياصي جمع صيصية وهي قرون البقر والمراد بها هنا الحصون شبهت بقرون البقر لأن البقر يتحصن بقرونه، فتقال لكل ما يتحصن به كقرن الثور والظبي وشوكة الديك.
انظر أبا السعود ٧/١٠٠.

(٣) الآيات: من ٢٥ - ٢٧ من سورة الأحزاب.

(٤) انظر الفتح ٧/٣٩٧.

يقبله وقبله يوم الخندق كان بين أحد والخندق سنة واحدة لأن أحداً كانت سنة ثلاث إذ يحتمل أن ابن عمر كان في أحد حينما طعن في الرابعة عشرة وكان في الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقي، كما ذكر أن سبب هذا الاختلاف ناشئ عن الاختلاف في ابتداء الهجرة؛ فمن العلماء من جعل ابتداءها من المحرم الذي بعد الهجرة وعلى هذا تكون غزوة الأحزاب التي تتفق مع غزوة قريظة في التاريخ سنة أربع والجمهور يجعلون ابتداء التاريخ من المحرم سنة هجرته عليه السلام، وعلى ذلك تكون الخندق وقريظة سنة خمس، والله تعالى أعلم(١).

وعلى كل حال فهي بعد وقعة بني النضير، وبني قينقاع وعليه فهم المقصودون في الآية بلا شك؛ لأن الله أنزلهم من حصونهم التي هي المرادة في الآية بالصياصي، وقذف الرعب في قلوبهم، وأسروا وقتلت مقاتلتهم، وسبيت نساؤهم وأولادهم، وأخذت أموالهم، وأورث الله المسلمين أرضهم وديارهم التي كانوا يمتلكونها فاستعانوا بذلك على نشر دعوة الإسلام، وتقووا به، ومنذ فتحت أرض بني النضير، وأخذت قريظة رد النبي ﷺ للأنصار منائحهم التي كانوا منحوه إياها، فإنهم عندما قدم كانوا يعطونه بعض النخلات على طريق المنيحة من بساتينهم، فلما أفاء الله بمال بني النضير، وغنمت أموال قريظة رد للأنصار ذلك(٢).

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله هذه القصة بسياق طويل عن عائشة وسأذكر روايته إن شاء الله لما فيها من الفوائد فقد ساق بسنده إليها... قالت: خرجت يوم الخندق أقفوا الناس فسمعت ويد الأرض ورائي فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة قالت: فجلست إلى الأرض فمر سعد وعليه درع من

---

(١) انظر الفتح ٧/٣٩٣.

(٢) روى البخاري ذلك عن أنس في كتاب المغازي، ومسلم عنه أيضاً في كتاب الجهاد والسير ٣/١٣٩٢٩.

حديد قد خرجت منها أطرافه فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يدرك الهيجا جمل[1] * ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة فإذا نفر من المسلمين، فإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه سبغة له تعني المغفر فقال عمر: ما جاء بك؟ والله إنك لجريئة وما يؤمنك أن يكون بلاء؛ أو يكون تحوز فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض فتحت ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر ويحك إنك أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله عز وجل؟ قالت: ويرمي سعداً رجل من قريش يقال له ابن العرقة وقال: خذها وأنا ابن العرقة ، فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله سعد فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة، قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت فرقأ كلمه وبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ولحق عيينة ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد قالت: فجاء جبريل وإن على ثناياه لنقع الغبار فقال: أقد وضعت السلاح؟ لا والله ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، قالت فلبس ﷺ لامته وأذَّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا فمر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله فقال: من مر بكم؟ قالوا مر بنا دحية الكلبي، وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه السلام، فأتاهم رسول ﷺ الله فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ

(١) اسم رجل كما في تعليق طه عبد الرؤف سعد على سيرة ابن هشام ١٣٦/٣.

فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم أنه الذبح فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال لهم ﷺ: انزلوا على حكم سعد بن معاذ فأتي به على حمار عليه أكاف من ليف قد حمل عليه وحف به قومه فقالوا: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت قالت: ولا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم، قالت: قال أبو سعيد فلما طلع قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، قال عمر: سيدنا الله، قال: أنزلوه، قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، فقال سعد فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله، ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت علي نبيك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، قالت: فانفجر كلمه وكان قد برئ حتى لا يرى منه إلا مثل الخرص[1]، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي وكانوا كما قال الله: رحماء بينهم[2]... وهذا الحديث هو السابع[3].

قال ابن كثير، وهذا الحديث إسناده جيد وله شواهد من وجوه كثيرة، وفيه التصريح بدعاء سعد مرتين، مرة قبل حكمه في بني قريظة، ومرة بعد ذلك[4].

---

(١) الحلقة الصغيرة من الحلي.

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) المسند ١٤١/٦، ووافقه أبو نعيم الأصبهاني إلى قوله: وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية ص ٤٣٥ - ٤٣٦ وفي رواية له فدعاهم إلى الإسلام ص ٤٣٨.

(٤) سيرة ابن كثير ٢٣٦/٣ - ٢٣٨.

وقد ذكر ابن إسحاق كما نقله عنه ابن كثير في سيرته وابن هشام وغيرهما قصة بني قريظة وحكم سعد فيهم، ذكروها مطولة ومختصرة، ولكنها في الواقع لا يوجد بينها اختلاف كبير من حيث الموضوع، وإنما فيها زيادات في بعض الروايات على بعض، كما أن في بعضها زيادات على ما أخرجه أهل الحديث، فرواية المؤرخين وأهل السير تارة تختلف عن رواية المحدثين، فمثلاً تقول الروايات المنقولة عن ابن إسحاق إن عدد رجالهم ستمائة، أو سبعمائة، وأن المكثر لهم يقول: ما بين الثمانمائة، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت قد ألقت رحا على خلاد بن سويد فقتلته فقتلها رسول الله ﷺ به، وتحكي عائشة رضي الله عنها أنها نودي بها للقتل وهي معها تضحك ولا تبالي فسألتها عن شأنها فقالت: أقتل قالت: ولم؟ قالت لها: لحدث أحدثته وهو قتلها خلاداً فتقول عائشة: فو الله ما أنسى طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

ولما انتهى أمر بني قريظة وأقر الله عين سعد بن معاذ فيهم وافاه الأجل فمات رضي الله عنه واهتز عرش الرحمن لموته كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: اهتز لها عرش الرحمن. وفيه أيضاً عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ، وفيه عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال وجنازته موضوعة ـ يعني سعداً ـ : اهتز لها عرش الرحمن(١).

قال ابن إسحاق بعد ذكره اهتزاز العرش من أجل موت سعد، وفي ذلك يقول

---

(١) اخرجها مسلم في كتاب الفضائل ٤/١٩١٥ ـ ١٩١٦، والبخاري في كتاب مناقب الأنصار.

رجل من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من موت هالك * سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

وقد جاء حديث اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ عن عشرة من الصحابة أو أكثر(١).

وقد روى الحافظ البيهقي قصة بني قريظة بسياق قريب مما تقدم، ومع ذلك فإن سياقه لا يخلو من بعض الفوائد ولذلك أوردها كما ذكرها إن شاء الله فقد روى بسنده إلى النبي ﷺ أنه لما رجع من طلب الأحزاب وضع عنه اللامة واغتسل واستحم فتبدى له جبريل عليه السلام فقال: عذيرك من محارب ألا أراك قد وضعت اللامة وما وضعناها بعدُ، فوثب النبي ﷺ فزعاً فعزم على الناس ألا يصلوا صلاة العصر إلا في بني قريظة فلبس الناس السلاح، فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس فاختصم الناس عند غروب الشمس فقال بعضهم بأن رسول الله ﷺ عزم علينا ألا نصلي حتى نأتي بني قريظة، فإنما نحن في عزيمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم، وصلى طائفة من الناس احتساباً وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها حين جاءوا بني قريظة احتساباً فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين، وروى بسند آخر عن عائشة رضي الله عنها وذكر مثل حديثه السابق .. إلى أن قالت: فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة فقال: هل مر بكم أحد؟ فقالوا: مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال: ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب فحاصرهم النبي ﷺ وأمر أصحابه أن يستروه بالجحف(٢) حتى يسمع كلامهم فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير فقالوا: يا أبا القاسم لم تكن فاحشا، فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وكانوا

(١) فتح الباري ١٢٤/٧.

(٢) الجحف جمع جحفة وهي الترس من جلد بلا خشب.

حلفاءه فحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبى ديارهم ونساؤهم[١]، قال ابن كثير ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها.

هذا وقد ذكر الواقدي في مغازيه هذه الغزوة أعني غزوة بني قريظة، وذكرها بأسانيد كثيرة مختلفة عن جماعات كثيرين، وذكرها قطعاً قطعاً بعضها عن بعض الصحابة وبعضها عن بعض آخر، وإني لا أريد ذكرها كما ذكرها، ولكني أتحرى أشياء ذكرها لم يذكرها غيره، فقد جزم في أول كلامه على هذا الغزوة بأنها يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة وذكر أن مدة الحصار خمسة عشر يوماً حيث قال: إن الانصراف من مكان الحصار كان يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة، وأنه استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وذكر رؤيا رأتها امرأة من اليهود أيام الخندق قبل منقلب الأحزاب مضمونها أن النبي ﷺ توجه إلى بني قريظة بعد أن تولى الأحزاب، وأنهم ذبحوا ذبح الغنم، وزاد الواقدي أن الذي أذن في الناس بالخروج بلال بأمره ﷺ، وذكر أن عدد الخيل التي ساروا بها إلى قريظة ست وثلاثين فرسا، وذكر أن الراية حملها في ذلك اليوم علي بن أبي طالب، وقد سمى الموضع الذي سأل فيه ﷺ أناساً هل مر بهم أحد فذكروا له خبر جبريل واعتقادهم أنه دحية بن خليفة، فقال: إن هذا الموضع يسمى (الصورين)[٢] وهو

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي القسم الأخير مخطوطة في قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة ورقة ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) وهو موضع بأقصى البقيع مما يلي طريق بني قريظة، وفاء الوفاء ٢/٣٣٧ هكذا ذكروا وهو غلط والصواب النقيع بالنون فهو تثنية صور موضع بالنقيع قال مالك بن أنس: كنت أتي نافعاً مولى ابن عمر.. وكان منزله بالنقيع من الصورين، وهو على طريق بني قريظة، انظر المغانم المطابة في معالم طابه تأليف مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ص ٢٢٤ حرف الصاد، وقال في حرف النون ص ٤١٥، أن النقيع بالنون نقيعان نقيع الخضمات وذلك علي طريق مكة، والنقيع الآخر وهو الذي به الصوران بالنون أيضا وخطأ =

موضع لبني النجار، وذكر الواقدي رحمه الله أن المسلمين وبني قريظة وقعت بينهم معركة بالنبال، حيث أمر ﷺ برشقهم بالنبال حتى خيمت النبال فوق حصنهم مثل الجراد حتى اختفوا ولم يظهر منهم أحد، ثم ذكر أن رئيسهم كعب بن أسد نادى فيهم يا بني قريظة والله إنكم لتعلمون أن محمداً ﷺ نبي الله وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبياً من بني إسرائيل... فخيرهم بين أن يسلموا، أو يقتلوا أولادهم ونساءهم ويداهموا المسلمين بالقتال، أو يفتكوا يوم السبت بحيث يظن المسلمون أنهم لا يقاتلون في ذلك اليوم الذي نهاهم الله عن الاعتداء فيه، فأبوا عن هذه المسائل الثلاث وكان حيي بن أخطب رئيس بني النضير يحرضهم على التمادي فيما هم فيه.. وذكر قصة إسلام ثعلبة وأسيد ابنا سعية التي قدمنا وأسد بن عبيد عمهم، وذكر الخطبة التي تقدمت في شأن معرفتهم أي اليهود نبوة نبينا محمد ﷺ، وذكرهم أن ابن الهيبان أخبر به ثم ذكر قصة أبي لبابة وما أشار به على بني قريظة من الذبح إذا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وذكر ندامته على ما صدر منه وربطه لنفسه في المسجد النبوي ومكثه فيه مدة حتى تاب الله عليه فحله رسول الله ﷺ بيده الكريمة، ثم ذكر أنه نزل في توبته قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صلحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم﴾ (١)، ثم قال: ويقال: نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمنتكم وأنتم تعلمون﴾(٢) . ثم قال: وأثبت ذلك عندنا قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم..﴾ .

= من قال أنه بالباء على عشرين فرسخا من المدينة.

(١) الآية: ١٠٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية: ٢٧ من سورة الأنفال.

قلت : إن الآية الأولى من سورة التوبة وهي من آخر سور القرآن نزولاً، حيث أنها نزلت عام تسعة، والآية الأولى من سورة الأنفال ومن أول القرآن نزولاً بالمدينة حيث أنها نزلت في رجوعه ﷺ من بدر، وغزوة بني قريظة واسطة بين تي وتلك، اللهم إلا إذا قلنا بتعدد النزول كما تقدم غير مرة، وبينا أنه لا مانع منه ولكنه يحتاج إلى نقل معتمد.

ثم ذكر أن الذين كانوا يتولون قتل القرظيين، علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وأن حيي بن أخطب رئيس بني النضير قتل معهم، ولما قدم للقتل قال له النبي ﷺ : ألم يمكن الله منك يا عدو الله؟ قال: بلى، والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولقد التمست العز في مظانه وأبى الله إلا أن يمكنك مني، ثم أقبل على قومه فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله قدر وكتاب ملحمة كتبت على بني إسرائيل.. إلى آخر ما ذكره رحمه الله(١).

وخلاصة القول في هذه الغزوة: أن نبينا صلوات الله وسلامه عليه لما رجع من غزوة الخندق وكفى الله المؤمنين شر القتال، ورجعت جموع قريش وغطفان إلى بلادهم رجع عليه السلام إلى المدينة، واغتسل، ونزع لأمة حربه، وقيل شرع في الغسل ولم يغتسل ـ ولكن الصحيح أنه اغتسل لاتفاق الشيخين على ذلك فإنهما اتفقا على أنه اغتسل قبل مجيء جبريل له ـ أتاه جبريل بأمر من الله تعالى وأمره بالتوجه إلى بني قريظة، فأمر أصحابه بالتوجه إليهم على الفور بحيث أمرهم ألا يصلوا عصر ذلك اليوم، إلا فيهم فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم حيث فَهِمَ أن المقصود من أمره ﷺ إنما هو المبادرة بالخروج إلى بني قريظة، وأخَّر بعضهم الصلاة حتى وصلوا إلى بني قريظة فقالوا: نحن في عزيمة الرسول ﷺ فلن نصلي حتى

---

(١) انظر كتاب المغازي للواقدي جـ ٢ ملخصا من ص ٤٩٦ ـ ٥٣٠.

نصلهم، ولم يعنف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين، ودفع الراية لعلي بن أبي طالب وحاصرهم عليه السلام خمسة عشر يوماً كما عند الواقدي وبضعاً وعشرين ليلة كما عند ابن عبد البر، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لأنهم يعرفون أنه نبي مرسل، وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم، ويتقدموا لقتال محمد ﷺ، وإما أن يفتكوا في السبت بحيث يظن المسلمون أنهم لا يفتكون فيه، فأبوا عن جميع هذه الخصال الثلاث، ثم بعثوا إلى أبي لبابة وكانوا حلفاء للأوس فلما أتاهم جمعوا أمامه النساء والصبيان وجاروا في وجهه ليستميلوه واستشاروه في النزول على حكم نبينا محمد ﷺ فأشار إليهم أنه الذبح، ومن حينه عرف أنه وقع في خطيئة فخرج إلى المسجد النبوي وربط نفسه فيه وحلف ألا يحله أحد إلا بعد أن يتوب الله عليه ويكون محمد ﷺ هو الذي يتولى حله، وكانت زوجه تحله لكل صلاة ثم يرجع إلى مكانه حتى تاب الله عليه، ونزل في توبته قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾(١) ثم حلف لا يدخل أرض بني قريظة بعد ذلك، ولما نزلت توبته حله رسول الله ﷺ بيده، ولما طال بهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فلما نزلوا على حكمه تواثب إليه الأوس يطلبونه له كما فعل ببني قينقاع لما طلبهم له ابن أبي، فقال لهم يا معشر الأوس، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ فأوتي بسعد من المدينة وأحاط به قومه يقولون له يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإنما ولاك رسول الله ﷺ لتحسن فيهم فقال لهم قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فلما قدم على النبي ﷺ قال لهم: قوموا إلي سيدكم فقال له قومه أيضاً: قد ولاك رسول الله ﷺ أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد: عليك بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت قالوا: نعم، قال: وعلى من هنا؟

---

(١) تقدمت.

من الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عنه إجلالا له فقال رسول الله ﷺ نعم، قال سعد: فإني أحكم بقتل الرجال وسبي الذراري وغنيمة المال فقال له ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة، فجيء بهم إلى المدينة فقتل رجالهم كل من قد بلغ الحلم، وترك من لم يكن بلغ، وكان عددهم يتراوح بين ستمائة إلى سبعمائة، وقيل غير ذلك، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قتلت بخلاد بن سويد قتلته حيث ألقت عليه صخرة أثناء المعركة فقتلته بها فقتلت به، وإلا فإنه لا يقتل النساء ولا الصبيان، ولا أهل الصوامع المنقطعين للعبادة، ولا الشيوخ الفانين كما تقدم بسط ذلك، وكان هذا في آخر ذي القعدة أو أول ذي الحجة من السنة الخامسة على الصحيح، ولما تم أمر بني قريظة، وأقر الله عين سعد بن معاذ فيهم أماته الله، واهتز له عرش الرحمن.

وقد ذكر الإمام أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي قصة بني قريظة مختصرة جداً ومع ذلك فإنه أفادنا بفوائد لم تتقدم لغيره، كما ذكر بعض الاختلاف في الألفاظ، فقد ذكر رحمه الله عن عائشة أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يغتسل كعادته إذا قدم من سفر، فقد حكى أنه جاءه عندما دخل المغتسل ليغتسل.. وقال له: إني ناهض إلى بني قريظة كما ذكر أن جيش المسلمين كان عدده ثلاثة آلاف.. وقال: إن أمتعة بني قريظة كانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وجحفة(١) وجمالاً كانت نواضح إلى أن قال: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة(٢).

فهذا التفصيل الدقيق وتحديد أمتعة بني قريظة وتحديد جيش المسلمين لم يتقدم

---

(١) تقدم تفسيرها.

(٢) طالع الوفا، بأحوال المصطفى للامام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ٢/٦٩٤ - ٦٩٥، والسيرة الحلبية ٢/٦٦٦.

لأحد ممن تكلم في شأن بني قريظة.

ونرى الإمام محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري في مغازيه يخالف الروايات المتقدمة في نقطة وهي: قوله: إن بني قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ وأبوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وذلك مخالف لما تقدم عن البخاري عن عائشة في كتاب المغازي، وعن غيره أيضاً من أن بني قريظة نزلوا على حكمه ﷺ فرد الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ كما جدد لنا أيضاً أنه دعا بني قريظة إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم كما تقدم عن أبي نعيم الأصبهاني أنه لم يقاتلهم حتى دعاهم إلى الدخول في الإسلام فأبوا أن يجيبوه إلى الإسلام(١).

قلت:

ذكر السيد عبد الحميد الخطيب في كتابه أسمى الرسالات تعليقاً على بعض الروايات التي وردت في شأن بني قريظة غير مناسب عندي وذلك أنه لما ذكر الحديث وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات» قال: ولعله يشير بهذا إلى ما ورد في نص التوراة كتابهم الذي يزعمون التمسك به كما جاء في التثنية إصحاح ١٠ إلى ١٥ من قوله: (حين تضرب مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك.فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك)(٢).

---

(١) انظر المغازي النبوية لابن شهاب الزهري ملخصا من ص ٧٩ – ٨٣.

(٢) انظر المرجع المذكور بالحرف ص٩٩ تحقيق حسنين محمد مخلوف.

ووافقه أو وافق هو أبا الحسن علي الحسيني الندوي في كتابه السيرة النبوية[1]، ولعل ما اتفقا عليه غير صواب.

وكونه غير مناسب من وجوه: أحدها قوله: فإن أجابتك إلى الصلح، لا دخل للصلح هنا؛ لأن نبينا ﷺ لم يطلب من بني قريظة صلحاً وإنما طلب منهم الدخول في الإسلام، وثانياً: قوله إن أهل المدينة إذا حوصروا وفتحت كان الموجود من أهلها مسخراً لمن فتحها ويكون أهلها عبيداً لأولئك الفاتحين، فإن حكم الله بعيد من هذا؛ لأن المسلمين إذا فتحوا بلدة فإما أن يسلم أهلها، وإذا أسلموا لم يكونوا مسخرين لأحد، ولم يكونوا عبيداً لأحد اللّهم إلا من أسر أثناء المعركة حاملاً السيف على المسلمين فإن للمسلمين الحق في أن يسترقوه، وإما ان يعطوه الجزية ويبقوا على دينهم غير معبدين ولا مسخرين إلا برضاهم. فكون الكاتب يحمل هذا الكلام المعزو للتوراة التي ثبت عندنا بلا شك أنها محرف فيها ومبدل ولا يمكننا الآن القطع بأن نصاً من النصوص الموجودة فيها من كلام الله، فحمل فعل النبي ﷺ وقوله بعد أن أخبر أن ما حكم به سعد هو حكم الله جل وعلا، حمله على مدلول ألفاظ مما يسمى التوراة لا يليق في نظري لما تقدم في بعض الروايات من قوله: لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله، فما دام الحكم في بني قريظة حكم الله الذي أمر به نبيه ﷺ فيهم يكفينا ذلك دون تطلب مبرراً لهذا الحكم من شرع آخر، ففي شرعنا ما يسعنا، والعلم عند الله تعالى.

ونرى ابن سعد في الطبقات الكبرى يصف استسلام بني قريظة للحكم وتنفيذه فيهم ويزيدنا أيضاً فيقول... فأخذهم من الغم ما أخذهم فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، قال حميد: قال بعضهم:

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص ٢٢٠.

وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار، قال: فقالت الأنصار معارضين: اخواننا كنا معهم فقال سعد: إني أحببت أن يستغنوا عنكم[١]، فزاد في روايته أن سعداً حكم بأن الديار تكون للمهاجرين دون الأنصار ولكني لم أر الزيادة لغيره، ولم أر من نقل أن ذلك نفذ، والذي تقتضيه ظواهر الروايات أن أموال بني قريظة صارت غنيمة كغيرها من سائر الغنائم لا فرق بين المهاجرين والأنصار.

ويقول الكاتب محمد أحمد باشميل في كتابه غزوة بني قريظة إن سعد بن معاذ كان أحد أعضاء الوفد الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى بني قريظة عندما بدأت جيوش الأحزاب في محاصرة المدينة، وذلك بعد أن بلغه ﷺ أن بني قريظة قد خانوا الله والرسول ونقضوا العهد، وانضموا إلى جيش الأحزاب، فكأن سعداً رحمه الله وقف على حقيقة هؤلاء اليهود وسمع جوابهم وكيف كان سبهم للنبي ﷺ وللمسلمين وإصرارهم على المشاركة في استئصال شوكة المسلمين مغتنمين فرصة تجمع قريش وحلفائها، فعلم سعد في ذلك الوقت أن هؤلاء القوم لا خير فيهم ولا عهد عندهم فتأثر تأثراً عميقاً من ذلك لما سمعه ورآه منهم[٢].

هذا: وإن في البخاري وأغلب كتب السير والتاريخ أن الصلاة التي أمر رسول الله أصحابه ألا يصلوها إلا في بني قريظة صلاة العصر، ومع هذا فإن مسلم يروي بسنده عن نافع عن ابن عمر أنها صلاة الظهر فقال في صحيحه:.. عن نافع عن عبد الله قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة فتخوف ناس فوت الوقت... الخ الحديث[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٧٧ - ٧٨.

(٢) انظر الكتاب المذكور بتصرف وحذف ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير: باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين ٣/١٣٩١.

كذلك ابن سعد يروي بسنده إلى ابن عمر أنها الظهر فقال: أخبرنا مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي، أخبرنا جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر أن الأحزاب لما انصرفوا نادى فيهم يعني النبي ﷺ لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة، فتخوف ناس فوت الصلاة فصلوا، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فات الوقت، قال: فما عنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين(١).

ونرى الإمام محمد أبا زهرة في كتابه: (خاتم النبيين) كأنه فطن لهذا الإشكال وتحاشاه في أول كلامه حيث قال: أمر النبي ﷺ مستجيباً لأمر ربه فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين إلا في بني قريظة(٢) فتراه هنا ذكر الأمر بالصلاة في بني قريظة، ولكنه أبهم هذه الصلاة ولم يعينها هل كانت ظهراً أو عصراً؟ وإن كان بعد ذلك في صفحته الثانية ذكر أنها صلاة العصر، فلعله قصد إيهامها أولاً إشارة إلى ما ذكره مسلم وابن سعد والعلم عند الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧٦/٢.
(٢) خاتم النبي ﷺ ٧٩٩/٢.

التعليقات

إن التعليقات على الروايات والوقائع التي وردت في شأن غزوه ﷺ ليهود بني قريظة وما أوقعه بهم من النكال تنحصر في أمرين:

الأمر الأول: هو مبررات هذا الغزو وما نشأ عنه.

والأمر الثاني: الجمع بين الروايات التي اختلف سياقها في شأن قصة بني قريظة، أو ترجيح الراجح منها على المرجوح لأن الجمع بين الروايات إذا أمكن واجب لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما والعمل بواحد منهما.

ويدخل تحت هذا القسم الأخير الفوائد والعبر والأحكام التي تؤخذ من تشريعه ﷺ، وقد قدمنا من فوائد الجهاد الأحكام التي شرعت أثناءه إلى غير ذلك، ولنبدأ الكلام على القسم الأول وهو مبررات هذا الغزو فأقول:

قد تقدم لنا ما فيه الكفاية من ذلك، وسوف أزيد الكلام عليه الآن ونبدأ الكلام بما فيه ما يقنع المنصف وغير المنصف، فنقول: إن هذا الغزو لا دخل للنبي ﷺ فيه، وإنما هو غزو الهي ويدل لذلك ما تقدم لنا من الأحاديث الصحيحة التي دلت على أنه ﷺ ما كان يفكر في غزو بني قريظة في ذلك الوقت الذي غزاهم فيه، وإنما جاءه جبريل عليه السلام أمين الوحي وأمره بغزو بني قريظة وأخبره أن الملائكة ما وضعت سلاحها استعداداً لغزو بني قريظة.

ومعلوم أن جبريل وسائر الملائكة لن يتأهبوا للحرب وزلزلة الحصون وقتل الأنفس وقذف الرعب إلا بأمر من الله جل وعلا، فبنوا قريظة لما خانوا الله والرسول ونقضوا العهد الذي أخذه عليهم رسول الله ﷺ ونبذوه وراء ظهورهم كما أخبر الله جل وعلا عنهم في قوله: ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا

يؤمنون ﴾(١) لما فعلوا هذا كله استحقوا الحرب من الله فحاربهم الله جل وعلا بجنوده وهم الملائكة واستحقوها من رسوله ﷺ فحاربهم الله جل وعلا بجنوده وهم أصحابه عليهم رضوان الله.

فقد كان المفروض طبقاً للمعاهدة التي بينهم وبين النبي ﷺ أن ينضموا إلى جيش المسلمين للدفاع عن المدينة عندما أحاطت بها جيوش الأحزاب وأن يكونوا ضمن جيش المسلمين في مواجهة تلك الجيوش المعتدية وبدلاً من ذلك فقد غدروا وحاولوا ضرب المسلمين في أحرج الظروف حيث زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، ففي هذا الوقت الحرج حاول بنو قريظة القضاء على الكيان الإسلامي حيث نظروا إلى المسلمين فوجدوا جيشهم أقل من جيش أعدائهم بأضعاف كثيرة، وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية فطمعوا في هذا الوقت بالقضاء على الإسلام والمسلمين غير مبالين بالعهود والمواثيق التي في أعناقهم، وغير مبالين بما يترتب على الغدر والخيانة كعادة أسلافهم مع أنهم لم يروا من النبي ﷺ في تلك المدة التي تبلغ حوالي خمس سنوات إلا الوفاء والصدق والأمانة كما اعترف بذلك زعيمهم كعب بن أسد، ولم يروا كذلك من أصحابه إلا الوفاء والوقوف عند عهودهم ومواثيقهم، ولكن بني قريظة ضربوا بذلك كله عرض الحائط فاعتبروا وجود الأحزاب حول المدينة فرصة للتعجيل بإبادة المسلمين إبادة كاملة فلم يتورعوا ولم يخجلوا حتى أعلنوا الانضمام إلى تلك الجيوش المحاربة لرسول الله ﷺ وللمسلمين، ولكن الله جل وعلا رد كيدهم في نحورهم ورد الكافرين بغيظهم ولم ينالوا من المسلمين أي خير فأرسل عليهم ريحاً وجنودا لم يروها فولوا مدبرين وبقي بنو قريظة منعزلين ذليلين خائنين، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بعد ما ولى الأحزاب بأمر من ربه فحكم فيهم بحكم الله تبارك

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة البقرة.

وتعالى فقتل مقاتلهم وسبى نساءهم وذراريهم وأخذ أموالهم وديارهم جزاءاً وفاقاً.

هذا ما كان من مبررات هذا الغزو.

أما الأمر الثاني: وهو الكلام على هذه الغزوة من ناحية الجمع بين رواياتها وفوائدها وعبرها واستنباط بعض الأحكام منها، فإننا سنذكر منه إن شاء الله نبذة غير كثيرة، بحيث نعطي صورة عن عظم هذا الغزو وما نشأ عنه من نتائج ملموسة وتشريع خالد لأمة الإسلام وفوائد وعبر إلى غير ذلك مما سأذكره إن شاء الله تعالى.

ولنبدأ بالعبر فأقول: **أولاً**: أن في قصة بني قريظة لعبراً ومواعظ للمتأمل فهؤلاء بنو قريظة أعز قبائل اليهود وأغناها وأشرفها كانوا يسكنون المدينة قبل الإسلام بأزمان طويلة، وكانوا ينتظرون بعثة نبينا محمد ﷺ ليؤمنوا به حيث كان عندهم علم كامل بمبعثه، وكانوا يستنصرون به على العرب الوثنيين الذين لا علم لهم بالكتب السماوية كالأوس والخزرج فكانوا يقولون لهم سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فهذه عبرة من ناحية، وهي أن إرادة الإنسان وما يعزم عليه وما يؤمله من أمور الخير إذا لم يقدره الله له لا يمكن أن يناله بحال، فهؤلاء كانوا ينتظرون رسالة هذا الرسول عليه السلام، وبعث وجاءهم في دارهم ودعاهم، ومع هذا فلم يؤمنوا به حتى كان هلاكهم على يده.

وقد اختلف في زمن دخول اليهود للمدينة فذكر صاحب وفاء الوفاء نقلاً عن ابن المنذر أنهم دخلوها زمن موسى، وذلك أنه حج منهم كثير مع موسى، فلما قفلوا مروا بالمدينة فعرفوا أنها دار هجرة الرسول ﷺ الذي يجدونه في كتبهم فنزلوا في ديار بني قينقاع فكان ذلك أول سكناهم المدينة. هكذا ذكر فانظره(١).

كما ذكر السهيلي أيضاً ما يدل على سكناهم المدينة في زمن موسى عليه

---

(١) وفاء الوفا ١/١٥٨ وانظر أيضاً فصول من تاريخ المدينة للمعاصر علي حافظ ص١٣ - ١٤.

السلام، فقال حاكياً عن أبي الفرج الأصبهاني أن السبب في سكناهم المدينة وهي وسط أرض العرب أن العماليق كانت تغير على بني اسرائيل من أرض الحجاز فشكوا ذلك لموسى فوجه إليهم جيشاً من بني اسرائيل فقتلوهم جميعاً فرجعوا فوجدوا موسى مات فأبت بنو إسرائيل أن تؤوي الجيش فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها، فكان ذلك السبب في سكناهم المدينة إلى أن قال: وأصح هذا ما ذكره الطبري أن نزول إسرائيل بالحجاز كان حين وطئ بختنصر بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس(١).

وذكر ابن شبة في تاريخ المدينة ما يقتضي وجودهم زمن موسى حيث ذكر أن موسى وهارون خرجا حاجين فلما وصلا المدينة خافا من بني اسرائيل فاختفيا ومات هارون هناك وحفر له موسى قبراً بأحد وقال: يا أخي ادخل فيه فإنك ميت، فدخل فيه فمات فحثا موسى عليه التراب، وقد ذكر هذه الرواية عن جابر بسند(٢) مرفوع.

ولكن الظاهر أن هذا لا يصح لما اشتهر على ألسنة المفسرين والمؤرخين وغيرهم، أن هارون مات في التيه، كما أن نبي الله موسى وكليمه وأخاه هارون لن يخافا من أحد غير الله، فكيف يخافان من قومهما بني إسرائيل حتى يختفيا؟ والله تعالى أعلم.

فالحاصل أن دخول اليهود للمدينة قبل الإسلام بأزمان طويلة لأنه إما أن يكون في زمن موسى عليه السلام، أو يكون في زمن احتلال بختنصر لبيت المقدس وتمزيق اليهود وتفرقهم، وهذا أقرب إلى الصواب والصحة لكثرة قائليه، وإن كان الذي قبله قال به كثير أيضاً إلا أن القرائن تدل على أنهم إنما انحازوا لأرض الحجاز بعد احتلال بيت المقدس من قبل الفرس، وتفرق اليهود.

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ٢/٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) انظر تاريخ المدينة لابن شبية ١/٨٥ - ٨٦ ط السيد حبيب.

فالأقوال في هذا مضطربة، فقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن أول سكناهم المدينة كان بسبب الجيش الذي وجهه موسى إلى العمالقة فقتلوهم وسكنوا مواضعهم كما تقدم(١).

وذكر الدكتور جواد علي روايتين متناقضتين حيث وافق ياقوت في الرواية الآنفة الذكر، ثم قال بعد ذلك: ويقال أن أول من سكن المدينة قوم يقال لهم صعل، فأرسل عليهم النبي داود جيشاً فأهلكم جميعاً وقبورهم في المسمى الآن بالجرف، ومعلوم أن داود بعد موسى عليهما السلام بأزمان طويلة فارجع إليه(٢).

وثانيا: ينبغي للعاقل أن ينظر إلى الدنيا نظرة خاطفة بحيث يعمل بمقتضى تلك النظرة وينظر في سرعة زوال نعمة الله عن عباده إذا لم يقيدوها بالإيمان والشكر، فإن هؤلاء اليهود أصبحوا يومهم ذاك في غاية العز والمنعة والشرف يتمتعون بأموالهم وديارهم ونسائهم وأولادهم ويتحصنون بحصونهم المنيعة، وراحوا أذلاء محاصرين من كل ناحية لا يمكن لأحد منهم أن يرفع رأسه من الحصون، ولم يزالوا كذلك إلى أن استسلموا وانقادوا لتنفيذ الحكم الذي ما كانوا يفكرون في تنفيذه فيهم فصاروا عبرة لمن يعتبر وخبراً لمن يخبر إلى غير ذلك من شأنهم.

وثالثا: يتبين للناظر في شأن اليهود أن الحسد وبال عظيم وخطر جليل على صاحبه فإن رئيس بني قريظة كما تقدم (**كعب بن أسد**) صرح بأنهم ما منعهم من اتباعه ﷺ إلا الحسد للعرب حيث أنهم ما كانوا يكفرون في وجود رسول إلا من بني إسرائيل، فلما بعث ﷺ من العرب حسدوهم على ذلك، فحملهم الحسد على أن أهينوا في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بالخلود الأبدي في النار.

---

(١) فانظره ٥/٨٤.

(٢) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٤/١٢٩.

الفوائد

أما فوائد هذه الغزوة فمن أهمها: **أولا**: تطهير المدينة من جرثومة اليهود التي كانت تحتل منها موقعا كبيرا فطهرها الله تعالى منهم وأبقاها خالية من أخبث عنصر إنساني، وهو العنصر اليهودي إلى وقتنا هذا ولله الحمد.

ثانيا: إن الله تبارك وتعالى فتح على المؤمنين بسبب أموال بني قريظة التي غنموها فقد غنموا أموالاً كثيرة من السلاح والأموال والمواشي والعقارات فأغناهم الله بذلك واستعانوا به على نشر الدعوة الإسلامية في أطراف المعمورة.

وثالثا: إنه بعد تلك الغزوة أعني غزوة الأحزاب التي فشلت فيها العرب واليهود وانتهى بعدها مباشرة وبسببها أمر بني قريظة لن يفكر أحد من العرب ولا من اليهود بعد ذلك في غزو المدينة، فإن طوائف الكفر كلها لقنت درساً عظيماً فما غزيت المدينة بعد هذه الغزوة التي من أجلها استئصلت شوكة اليهود في المدينة فكان ذلك من أعظم نتائج هذه الغزوة وأهم فوائدها.

ورابعا: الوقوف على مسارعة الصحابة عليهم رضوان الله في طاعة رسول الله ﷺ وذلك أنهم في اليوم الذي قدموا فيه على أهليهم بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها في أقصى ما يكون من التعب ومواصلة العمل في حفر الخندق والمرابطة مع شدة البرد والريح والظلام وشدة الجوع، مع هذا كله فإنهم في الوقت نفسه الذي قدموا على بيوتهم يؤمرون بالتوجه إلى عدوهم مرة ثانية فيسارعون بالخروج فرادى وجماعات حتى أنه ورد في بعض الروايات أن جبريل لما قدم على النبي ﷺ وأمره بالتوجه إلى بني قريظة بين له ﷺ حال أصحابه وما هم فيه من التعب والمشقة، ولكن جبريل قدم عازما على الحرب كلف الأمر ما كلف، فهنيئا لهم على مسارعتهم في رضا الله ورسوله.

الجمع بين مختلف الروايات والترجيح:

أما الكلام على اختلاف بعض الروايات عن الرواة في شأن هذه الغزوة فإنه ينقسم إلى قسمين: قسم يمكن الجمع بين مختلف رواياته، وقسم لا يمكن فيه الجمع، ولابد أن يصار فيه إلى الترجيح؛ لأنه عند تعذر الجمع يصار إلى الترجيح مع أن الاختلاف الموجود بين الروايات يسير، فمن الروايات التي يمكن الجمع بينها ما ثبت في صحيح البخاري أن جبريل عليه السلام قدم على النبي ﷺ يغزو بني قريظة بعد أن اغتسل مع رواية ابن الجوزي التي فيها التصريح أيضا بأنه أتاه قبل أن يغتسل فقال: إن دخل المغتسل ليغتسل وقبل الغسل أتاه، فإن هاتين الروايتين على تقدير صحة رواية ابن الجوزي يمكن الجمع بينهما بأن الراوي الذي روى أنه أتاه بعد الغسل نظر إلى أنه دخل مكان الغسل فأطلق عليه أنه اغتسل لأن من دخل مكان الغسل اشتغل بالغسل غالباً، وعبر الراوي الآخر عن مجيئه له قبل الغسل لقلة المدة التي مكث قبل إتيانه له فظن الراوي أنه لم يغتسل وهو اغتسل، والعلم عند الله تعالى.

وقد تقدم أن رواية مجيئه بعد الغسل مقدمة إذا صرنا إلى الترجيح؛ لأن اتفاق الشيخين من المرجحات، وكونه اغتسل اتفق على ذلك البخاري ومسلم.

كذلك تقدم في رواية للترمذي والدارمي أن عدد رجال بني قريظة الذين قتلوا أربعمائة مع الروايات التي وردت عن ابن إسحاق أنهم ستمائة أو سبعمائة إلى ثمانمائة، فيمكن الجمع بين الروايات بأن تحمل رواية الترمذي والدارمي على من كان من أصل بني قريظة، والزائد على ما لم يكن منهم في الأصل، ذكر هذا الجمع الحلبي فانظره[1].

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٦٦٥.

كذلك في رواية محمد بن شهاب الزهري، ورواية أبي نعيم الأصبهاني أن النبي ﷺ دعا بني قريظة إلى الإسلام قبل أن ينزلوا على الحكم، فإن هذه الزيادة لا تنافي الروايات التي لم تذكر فيها الزيادة إذ لا تعارض بينهما، فالمثبت مقدم على النافي مع أن باقي الروايات لم يقع فيه نفي أصلاً، وإنما فيه سكوت عن شيء ذكر في موضع آخر فهو زيادة، وزيادة العدل مقبولة كما هو مقرر في محله، ويؤيد هذه الزيادة ما تقدم من كونه عليه السلام لا يقاتل قوماً حتى يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وإن كان من بلغته الدعوة يجوز قتاله قبل أن يدعى وإن كان ذلك لا يخلو من بعض الخلاف، وتقدم بسطه أول هذا الفصل فليرجع إليه من شاء.

وكذلك ما ورد من الاختلاف من بعض الرواة في قولهم كما في البخاري ومسلم في شأن قدوم سعد بن معاذ: .. فلما بلغ قريباً من المسجد، وفي روايات أخر: فلما بلغ الخيمة، فإن الجمع ممكن بين هاتين الروايتين بحمل الخيمة في الرواية التي وردت فيها على المكان الذي أعده ﷺ للصلاة أيام حصاره لبني قريظة، فإن المسجد يطلق على مكان السجود، فالموضع الذي كان ﷺ يصلي فيه تلك المدة يجوز إطلاق المسجد عليه، وإلا فإن بني قريظة ليس في بلادهم مسجد، ولا يمكن أن يراد به مسجده عليه السلام، لأنه ـ أي سعد ـ أرسل إليه من المسجد النبوي، والنبي ﷺ في بني قريظة، فحمل على حمار، فلما دنا من المسجد قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم فتعين أن المراد بالمسجد المذكور المكان الذي أعده النبي عليه السلام للصلاة زمن حصار بني قريظة سواء أكانت فيه خيمة أم لم تكن، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه يتعين هذا الجمع، وقال: وأخطأ من زعم أنه غلط من الراوي لظنه أنه أراد المسجد النبوي، وقال: ـ أي قال من ظن غلط الراوي ـ إن الصواب ما وقع عند أبي داود عن شعبة بالسند نفسه بلفظ فلما دنا من النبي ﷺ(١).

---

(١) انظر فتح الباري ١٢٤/٧ المصدر السابق.

فإذا حمل اللفظ على ما ذكر زال التعارض بين الروايات.

وقال القاضي عياض: فإن كان الراوي أراد مسجداً اختطه النبي ﷺ هناك كان يصلي فيه مدة إقامته لم يكن وهما، وقرر أن الراوي إذا كان يريد المسجد النبوي فقد أخطأ كما هو واضح وتقدم رده(١).

كذلك الزيادة التي وردت في حديث أحمد وغيره أن سعد بن معاذ سأل الله حينما أصيب يوم الأحزاب ألا يميته حتى تقر عينه في بني قريظة لا تنافي باقي الروايات التي ليست فيها هذه الزيادة لأنها شيء مسكوت عنه في بعض الروايات ومذكور في بعضها، ولا منافاة بين ذلك.

أما اختلاف الروايات في قبولهم حكم سعد، وإبائهم عن حكم الرسول ﷺ كما تشير إليه رواية الإمام أحمد، فإن ذلك أيضاً لا منافاة بينه وبين الروايات التي صرحت بأنهم نزلوا على حكم الرسول عليه السلام فرد الحكم فيهم إلى سعد كما في مسلم؛ لأن المقصود من السياق هو انقياد بني قريظة لتنفيذ الحكم فيهم لما طالت محاصرتهم وعلموا أن الرسول ﷺ والمسلمين لن يفارقوهم حتى يحكم الله فيهم، لهذا تنازل بنو قريظة إلى الحكم فيهم، ومعلوم أن الحكم لله ولرسوله، وكونهم يطلبون أن يكون الحاكم فيهم سعداً لظنهم أن الحلف الذي بينهم وبين الأوس يؤثر في شجاعته وقوة إيمانه لا ينافي أنهم نزلوا على حكم الرسول ﷺ فرد الحكم فيهم إلى سعد لما طلبوا ذلك، وبهذا يرتفع توهم التعارض، والعلم عند الله.

أما بعض الروايات التي لا يمكن الجمع بينهما في نظري، وإن كان بعض العلماء الأجلاء حاول الجمع بينها، فإن من ذلك ما ذكره مسلم وابن سعد في الطبقات الكبرى من أن الصلاة التي نهى ﷺ أصحابه عن صلاتها إلا في بني قريظة، صلاة

---

(١) طالع شرح النووي لصحيح مسلم ١٢/٩٣.

الظهر، فقد أوردا هذه الرواية بسند عال: قال ابن سعد: أخبرنا مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي، أخبرنا جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر أن الأحزاب لما انصرفوا نادى فيهم يعني ﷺ: لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة فتخوف ناس فوت الصلاة فصلوا، وقال آخرون لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فات الوقت، فما عنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين، وهذا لفظ مسلم أيضاً، والسند لا يختلف إلا في الراوي الأول، فابن سعد رواه عن مالك بن إسماعيل أبي غسان النهدي عن جويرية، ومسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء الضبعي عن جويرية.. إلى آخره(١).

فترى هذا الحديث فيه التصريح بأن الصلاة صلاة الظهر، وسياق الأحاديث الأخرى لا يختلف في كونهم تفرقوا في الرأي، فبعضٌ صلى وبعض أخر، وهذا الحديث صحيح في نظري حسبما يقتضيه الحال، وإن كنت لم ألتزم الحكم على أي حديث؛ لأن سنده أربعة رجال فقط: عبد الله بن عمر، ونافع مولاه، وهذان لا يتناولهما الكلام وباقي سند ابن سعد: مالك بن اسماعيل النهدي، وجويرية بن أسماء، وهذان ثقتان كما جزم بذلك ابن حجر حيث قال: مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي مولاهم الكوفي الحافظ، روى عن عبد الوهاب بن سليمان بن الغسيل، وعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، وعن خلق كثير.. وروى عنه البخاري وروى له الباقون بواسطة هارون بن عبد الله الحمال وأبي بكر بن أبي شيبة وغيرهما، قال ابن معين لأحمد: إن سرك أن تكتب عن رجل ليس في قلبي منه شيء فاكتب عن أبي غسان.. وقال أبو داود: كان صحيح الكتاب وكان من العابدين، وقال النسائي: ثقة ذكره ابن حبان في الثقات(٢)، وقال عن جويرية:

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٣٩١/٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ٧٦/٢.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/١٠ - ٣.

جويرية بن أسماء بن عبيد بن مخارق روي عن أبيه ونافع والزهري، ومالك بن أنس، وهو من أقرانه وروي عن غيرهم، وروى عنه ابن حبان بن هلال وحجاج بن منهال وغيرهما، وثقه أحمد وقال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: صالح وذكره ابن المديني في الطبقة السابعة من أصحاب نافع(١).

أما راوي مسلم الذي اختلف فيه مع ابن سعد فهو عبد الله بن محمد بن أسماء الضبعي البصري روى عن عمه جويرية بن أسماء ومهدي بن ميمون وحفص بن غياث وابن المبارك وغيرهم، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود، والنسائي بواسطة الذهلي.. وروى عنه خلق كثير وثقه أبو حاتم، وعظم ابن المديني شأنه(٢).

فهذا الحديث الصحيح مخالف لرواية البخاري بلا شك، وفي نظري، والله أعلم، أن الجمع متعذر كما قدمت؛ لأن التصريح بصلاة الظهر يتنافى مع التصريح بصلاة العصر ، فهذا يثبت أمر ثبوته يتضمن نفي أمر آخر، وذلك كذلك، وكلتا الروايتين صحيحة كما رأيت فما هو المخرج من هذا؟

قلت: يتعينْ في نظري الترجيح هنا بين الروايتين ولا يمكن الجمع، وإن كان ابن حجر ذكر أوجهاً من الجمع عن بعض أهل العلم، ثم ذكر هو ما توصل إليه كما سيأتي إن شاء الله، وذلك لأن الجمع إذا لم يمكن ولم يثبت نسخ صير إلى الترجيح، فالجمع مقدم؛ لأن اعمال دليلين أوْلى من إلغاء أحدهما وإعمال واحد(٣)، وإذا لم يمكن صير إلى الترجيح.

وإذا صرنا إلى الترجيح ترجحت رواية البخاري عندنا وذلك للأمور الآتية:

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/١٢٤ - ١٢٥.

(٢) انظر التهذيب أيضا ٦/ ٥ - ٦.

(٣) طالع التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للأسنوي ص ٥٠٦.

أولاً: أن رواية البخاري مقدمة على رواية غيره بما في ذلك مسلم، وهذا أمر عليه أغلب العلماء خلافا لمن قدم رواية مسلم من المغاربة[١]، وذلك أن الزيادة في الحفظ من المرجحات، قال في مراقي السعود:

قد جاء في المرجحات بالسند * علوه والزيد في الحفظ يعد

وقال صاحب طلعة الأنوار في مصطلح الحديث: مرتباً مراتب الصحة:

أعلى الصحيح ما عليه اتفقا * فما روى الجعفي فرداً ينتقى

فمسلم كذاك في الشرط عرف * ...[٢].

ثانياً: أن غالب أهل السير والتاريخ رووا هذه القصة وصرحوا بأن الصلاة صلاة العصر.

وكثرة الدليل والرواية * مرجح لدى ذوي الدراية

ثالثاً: أن العلماء المحدثين مثل ابن شهاب الزهري، ومحمد بن حزم لما تكلما على هذه القصة أثبتا أنها العصر وأقرا ذلك[٣]، ومن المعلوم أن من المرجحات تقديم الأصح على الصحيح لأن قطب رحا المرجحات هو قوة مظنة التأكد من صحة أحد الخبرين.

أما ابن حجر فإنه ذكر عن بعض أهل العلم أنه جمع بين الروايتين باحتمال أن

---

(١) انظر مقدمة النووي على شرح مسلم ١/١٤ فقد ذكر ذلك عنهم وقال: وافقوا في ذلك أبا علي الحسين بن علي النيسابوري الحافظ شيخ الحاكم.

(٢) انظر طلعة الأنوار لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي ٣٢ - ٣٣.

(٣) طالع كتاب ابن شهاب الزهري في السيرة ٨١، وكتاب ابن حزم في السيرة ١٩١ - ١٩٢.

يكون بعض الصحابة كان قد صلى الظهر قبل الأمر وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها صل الظهر في بني قريظة، وقيل لمن صلاها صل العصر في بني قريظة، وجمع بعضهم بأنهم ذهبوا طائفتين متفاوتتين فقيل للأولى: صل الظهر في بني قريظة، وللثانية صل العصر في بني قريظة، وأقول: إن هذا الجمع قريب مما قبله إن لم يكن هو؛ لأن الطائفة الأولى من الجمع الثاني التي ذهبت قبل صلاة الظهر والله أعلم.

وقد استبعد هذين الجمعين وردهما.

ثم ذكر ابن حجر كلاماً طويلاً يفهم منه ميله إلى ترجيح رواية مسلم، ولكنه قابل للنقاش فانظره في فتح الباري(١).

أما الأحكام الشرعية التي أخذت من هذه القصة فإني سوف أذكر منها نبذة أيضاً غير كثيرة:

أولاً: أخذ من هذا الحديث جواز الاجتهاد في زمنه ﷺ؛ لأن الصحابة، عاليهم رضوان الله، اجتهدوا فأدى اجتهادهم إلى اختلافهم في أداء الصلاة، فبعض قدم، وبعض أخر، ولم يعنف ﷺ واحداً من الفريقين، والقذر قدم إنما قدم ظناً منه أن الأمر إنما يراد منه المسارعة بالخروج إلى بني قريظة فقط لا تأخير الصلاة والمسارعة وقعت، والذي أخر تمسك بظاهر اللفظ والأمر الجديد.

وهذا أمر مختلف فيه بين العلماء والمختار جوازه، وتدل لجوازه أمور وقعت في زمنه ﷺ منها هذه القصة بعينها، ومنها حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، ومنها ما روي من أمره ﷺ لعمرو بن العاص وعقبة بن عامر، أن يحكما بين خصمين وقال لهما: إن أصبتما فلكما عشر حسنات، وإن أخطأتما فلكما حسنة واحدة(٢).

---

(١) ٧/٤٠٧ – ٤٠٩. (٢) انظر الأحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/١٥٢ – ١٥٣.

ثانياً: اختلف في المصيب من الصحابة في نفس الأمر هل هو الذي قدم الصلاة أو الذي أخرها؟ وفي الحقيقة ينبغي القول بأن كلاً مصيب؛ لأنه ﷺ لا يقر على باطل، ولا يؤخر البيان عن وقت الحاجة، فلو كان أحد الفريقين غير محق لأخبره بذلك وأمره بإعادة صلاته الباطلة سواء أكانت صلاة من قدم أم صلاة من أخر، وهذا لم يقع. وكان ابن حزم ممن يقول إن الطائفة التي أخرت هي التي وافقت الصواب دون التي قدمت، وقال: أن عدم تعنيفه ﷺ للذين صلوا لا يدل على أصابتهم؛ لأن التعنيف إنما يقع على العاصي المتعمد المعصية، وهو يعلم أنها معصية، وأما من تأول قصداً للخير فهو وإن لم يصادف الحق غير معنف، ثم قال: وعلم الله أننا لو كنا هناك ما صلينا العصر في ذلك اليوم إلا في بني قريظة، ولو بعد أيام، ولا فرق بين نقله ﷺ صلاة في ذلك اليوم إلى موضع بني قريظة وبين نقله صلاة المغرب ليلة مزدلفة، وصلاة العصر من يوم عرفة إلى وقت الظهر، والطاعة في ذلك واجبة(١).

كذلك يؤخذ من هذا الحديث أن كل واحد من المختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب، قاله السهيلي وغيره، قال: ولا يستحيل أن يكون الشيء صواباً في حق إنسان وخطأ في حق غيره، وإنما المحال أن يحكم في النازلة بحكمين متضادين في حق شخص واحد... فكل مجتهد وافق اجتهاده وجهاً من التأويل فهو مصيب(٢).

وفي هذه المسألة أقوال كثيرة عن الشافعي والأشعري وغيرهما، ومحل بحثها في كتب أصول الفقه فليرجع إليها من شاء فهي طويلة الذيل.

---

(١) انظر كلامه في كتابه جوامع السير ص١٩٢.

(٢) انظر الفتح بواسطة نقل ابن حجر ٧/٤٠٩.

كذلك من المسائل الفقهية التي تؤخذ من الحديث جواز القيام لأهل الفضل فإنه ﷺ قال للحاضرين قوموا إلى سيدكم وفي رواية: خيركم، فدل هذا على أنه يجوز إكرام أهل الفضل والخير بالقيام لهم، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس، ويمثلون قياماً طول جلوسه، قال النووي: قلت: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب وقد جاء فيه أحاديث ولم يصح في النهي عنه شيء صريح، وقد جمعت ذلك مع كلام العلماء في جزء وأجبت عما توهم النهي عنه والله أعلم(١).

وقال الأبي: قوله: قوموا إلى سيدكم فيه ما يلزم من إكبار عظيم القوم وأهل الخير من القيام لهم وحسن اللقاء، وقد قام ﷺ لغير واحد، وليس من القيام المنهي عنه عند المحققين، وإنما النهي عن أن يقام على رأس الجالس كما تفعله العجم بملوكها، وقد بين ذلك عمر بن عبد العزيز حين قام الناس على رأسه: إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، ولما صلى النبي ﷺ جالساً وصلى الناس قياماً نهاهم وقال: إنما تفعله فارس والروم بملوكهم، ومن منع القيام للرجل مطلقاً قال: إنما أمرهم بالقيام لينزلوه من فوق الحمار(٢).

والحق جواز ذلك لأهل الفضل والخير والصلاح والوالدين وغير ذلك ممن لهم شأن حيث لم يكن هناك غلو ولا مجاوزة حد والله أعلم.

وليس بحثنا هذا محل بسط المسائل الفقهية، وإنما نتناول منها الأشياء التي تدعو الحاجة إليها، ومن أراد استيفاء الكلام في مسألة القيام للأشخاص فليراجع شرح هذا الحديث، وحديث من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار(٣)

---

(١) انظر شرح النووي ١٢/٩٣. (٢) طالع الأبي على صحيح مسلم ٥/٩٢ المصدر السابق.
(٣) رواه الترمذي في أبواب الاستئذان والآداب ٤/١٨٤ وقال حديث حسن.

وسببه عن أبي مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر: إجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار(١).

ومما سقته في شأن هذه الغزوة يتضح للناظر أن غزوه ﷺ لبني قريظة منهج حكيم من مناهج دعوته عليه السلام، كما يتضح منه أن القتال لم يكن عن دافع الحمية، ولا العصبية، وإنما هو أمر إلهامي شرعه الله تعالى لنبيه وللمسلمين من بعده؛ فإنه ﷺ أتاه جبريل من ربه وأمره بهذا الغزو، فامتثل أمر ربه تعالى، فسار إلى بني قريظة، ولما وصلهم لم يمنعه غدرهم وخيانتهم ونبذهم العهود والمواثيق من دعوتهم إلى الإسلام فدعاهم لما لم يستجيبوا للإسلام زيادة على نقضهم العهود والمواثيق وموالاتهم أعداء الله ورسوله والمؤمنين، لما فعلوا هذا كله حكم فيهم نبينا ﷺ بحكم الله من فوق سبع أرقعة، فقتل رجالهم البالغين، وسبى نساءهم وأطفالهم، فدخلوا بعد ذلك في الإسلام وأخذ أموالهم وديارهم، فقسمها على المسلمين فاستعانوا بها، وهذا حكم الله فيهم، فظهر أن منهجه في الجهاد لأهل الكتاب إنما هو قائم على أساس الدعوة إلى الله والوقوف عند أوامره جل وعلا، ونواهيه، فإذا أمره ربه بشيء فيهم نفذ ذلك الأمر، وإذا نهاه عن شيء انتهى عنه، فلما نهي عن قتل النساء والصبيان، لم يقتل منهم أحداً إلا امرأة واحدة قتلها بقتيل قتلته من المسلمين قصاصاً. ولما أُمِرَ بقتل الرجال قتلهم، ولما كان مأموراً بالدعوة قبل القتال على العموم دعا بني قريظة إلى الإسلام قبل أن ينفذ فيهم قضاء الله وقدره، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطاهرين الطيبين.

---

(١) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث ٢/٢٠٥ تأليف السيد الشريف السيد إبراهيم ابن السيد محمد بن السيد كمال الدين بن حمزة الحسيني.

الملامـح العامـة للدعـوة

في هذه الغزوة

أولاً: المبادرة بتنفيذ أوامر الله جل وعلا وعدم التواني في ذلك، بحيث لا يعوق عن ذلك ضعف البدن وكثرة المشقة والتعب، يتمثل ذلك في مبادرته بأمره لأصحابه بالخروج إلى بني قريظة في اليوم الذي قدموا فيه من الخندق، فمع ما لاقوا من الحصار وشدة البرد والريح وألم الجوع وإحاطة الأعداء بهم من كل جانب حيث حاصرهم معظم أهل الجزيرة العربية مع ما انضم إليهم من يهود المدينة، مع هذا كله فإنه ﷺ لما أمر بالخروج إلى عدو آخر ذي شوكة ومنعة بادر من حينه، ونادى مناديه في أصحابه ثم خرج هو معهم ولم يتأخر قليلاً عن الخروج، فهكذا شأن الداعية المخلص والذي يجب أن يكون أسوة للدعاة فيتأسوا به فيكون أسوة حسنة لهم بحيث يكون كل داع إلى الله هكذا منهجه في الدعوة يبادر بامتثال الأوامر ولا يتوانى في تنفيذ أمر الله جل وعلا له، فإذا كان كل داع إلى الله يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهيه، وينفذ الأوامر على الوجه المطلوب منه، تكونت أمة من الدعاة يمكن أن تصلح الفرد والمجتمع، وتؤثر في الشعوب المختلفة ديناً وسلوكاً، وذلك أن الداعي في نفسه لا بد وإن ينظر إليه نظرة تفحص فإذا كان مطيعاً قائماً بأوامر الله واقفاً عند حدوده ممتثلا الأوامر ما استطاع مبتعداً عن النواهي كما قال جل وعلا ﴿وما آتيكم الرسول فخذوه وما نهياكم عنه فانتهوا...﴾(١) وكما قال ﷺ: «فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(٢). إذا

---

(١) جزء من آية ٧ من سورة الحشر.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج ٢/٩٧٥ وفي كتاب الفضائل ٤/١٨٣٠ وابن ماجه في مقدمته.

كان الداعية هكذا انصاع له المدعوون واستجابوا له وعلموا أنه محق فيما يدعو إليه مقتنع به، وإذا كان على خلاف ذلك لم يستجب إليه عاقل لعلمه أن ما يدعو إليه لم يكن مقتنعاً به ولا منتفعاً مما تعلمه فهو كالمريض الذي يعطي المرضى علاجاً ولا يستعمله لمرضه، وعليه فهو ممن يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه.

ثانياً: صدق الداعي سبب في نجاح مهمته، ويتمثل ذلك في مبادرة الصحابة عليهم رضوان الله بالخروج إلى بني قريظة في منازلهم وحصونهم مع ما هم فيه من الوهن والضعف لطول المدة التي أمضوها خارج بيوتهم مواصلين السهر ليلاً والعمل نهاراً ومراقبة الأعداء، وما هم فيه من ألم البرد وغير ذلك كما يقف عليه من تتبع أحداث غزوة الخندق، ولكنهم لما وصل إلى أعماق نفوسهم صدق الداعي محمد ﷺ وأنه لا يقول إلاَّ حقاً ولا يمكن أن يقول لهم أن جبريل أمره بالخروج إلى بني قريظة لأجل خطة عسكرية، ولا غير ذلك بل علموا علم يقين أن ذلك الخبر صحيح لا يحتمل الشك لما عرفوه وجربوه من صدقه ﷺ، ولهذا فإنهم من شدة حرصهم على تنفيذ أمره لما حانت صلاة العصر[1] وهم في الطريق اختلفوا فبعضهم صلى في الطريق حفاظاً على الأمر الأول وهو الأمر بالمبادرة بأداء الصلاة عند وجوبها، وبعضهم أخر الصلاة عن وقت الأمر الأول حفاظاً على هذا الأمر الخاص بهذه الصلاة بعينها، كل ذلك أدى إليه صدق هذا الداعي محمد ﷺ، فالصدق منهج له ﷺ لا يخرج عنه قيد شبر، ولما كان كذلك ظهرت نتائج هذا الصدق فيمن تأثر بدعوته حيث تمكن الإيمان الخالص من قلبه، فصار لا يخالجه أي شك فيما يخبر به ويأمر به، وعليه فإننا نحن دعاة العصر تمكننا الاستفادة من هذا المنهج الحكيم منهج

---

(١) تقدم الكلام على الصلاة المذكورة هل هي صلاة العصر كما عند البخاري ومن وافقه، أو هي صلاة الظهر كما عند مسلم ومن وافقه، وقدمنا ما ترجح لدينا في ذلك فارجع إليه إن شئت.

الصدق ليكون ذلك سبباً في نجاح دعوتنا، وإذا عكسنا الأمر انعكست علينا النتائج ففشلنا في دعوتنا، فالداعية إذا جُرِّبَ وعُلِمَ منه الصدق في القول والعمل كان ذلك سببا في تأثيره في المجتمعات وسببا في زيادة الثقة فيه، وكلما ازدادت الثقة في الداعية كان ذلك أدعى لقبول دعوته والاستجابة لها والاستفادة منها، وكلما سُلِبَ الثقة انعدمت الاستجابة له والاستفادة من دعوته، وكثر فشله فصار عقبة في نشر دعوة الإسلام وثمرتها بل صار من المثبطين لها عن النهوض والإذاعة والانتشار؛ لأنه كلما رآه من يعلم حاله الحقيقي جانبه، وأخبر به من جهله، فعليه صار من أعداء الدعوة الإسلامية لا من أنصارها.

ثالثاً: من الملامح العامة للدعوة في هذه الغزوة الإخلاص، ويتمثل ذلك في إخلاص سعد بن معاذ رضي الله عنه، لما قابله حلفاؤه وحلفاء أسلافه من قديم الزمان، لما قابلوه في ذلك الوقت الحرج، وجأرت في وجهه النساء والأطفال وناشدوه بالحلف الذي بينهم وبينه ظناً منهم أنه يكون مثل عبد الله بن أبي بن سلول لما حاصر ﷺ بني قينقاع جاءه يطلبهم له، فوهبهم له فظن بنو قريظة أن سعداً يكون مثل ابن أبي فرقُّوا أمامه وأظهروا له حالتهم وطلبوا منه أن يرثي لهم، ولكن اخلاص سعد ابن معاذ في ايمانه ويقينه بأن بني قريظة قوم خونة لله ولرسوله، لم يرق لهم ولم يعطف عليهم، وم يبال بما كان بينه وبينهم من العهود والمواثيق والصداقة في الجاهلية، فلما خلص في إيمانه تبرأ من ذلك كله وحكم فيهم بالحكم الذي رضيه الله ورسوله، فهكذا ينبغي أن يكون كل داعية مخلصاً في إيمانه، ليكون ذلك أدعى له للتمسك بالحق والثبات عليه، فالواجب على الداعية أن يكون مخلصاً في إيمانه ثابتاً عليه لا يتزعزع ولا تأخذه في الله لومة لائم، كما كان شأن سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث قال لبني قريظة: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

رابعاً: من مناهج دعوته ﷺ لأهل الكتاب في غزوه لبني قريظة عطفه ولين جانبه ورحمته بأمته سواء أكانت أمة إجابة أو أمة دعوة، ويتمثل ذلك في معاملته لبني قريظة، فإنه فحص عن رجالهم البالغين المقاتلين وهم الذين قتلهم وترك من لم يبلغ الحلم رجاء دخولهم في الإسلام فحقق الله رجاءه فأسلموا وكانوا من أنصار الإسلام ودعاته، كذلك لم يقتل النساء أيضاً رأفة منه ورحمة بهن، فحيث كن لا يقاتلن المسلمين ولا يلين إبرام الأمور وحلها مثل نقض العهود والغدر والخيانة، لما كن كذلك تركهن من القتل فلم تقتل منهن إلا امرأة واحدة قتلت رجلاً من المسلمين حيث ألقت عليه رحا من الحصن فقتله فقتلها ﷺ به، وتقدمت لها قصة مع عائشة رضي الله عنها، فهو ﷺ بعد قدرته على جميع بني قريظة رجالاً ونساءً وأطفالاً، قتل الرجال الذين صدرت منهم تلك الأمور التي أوجبت الغزو لبني قريظة، وترك الباقين رأفة بهم ورحمة ورجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده تعالى، وعليه فيمكن للداعية اليوم أن يستفيد من فعله ﷺ بحيث يكون عطوفاً رحيماً لين الجانب للمدعوين غير فظ ولا غليظ، لا يعاقب إلا من يستحق العقوبة لا يعتدي على بريء ولا يظلم أحداً، ولا يضع شيئاً في غير موضعه.

خامساً: الجدل، ويتمثل ذلك في مجادلته ﷺ لبني قريظة ومفاوضته معهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فالجدل وسيلة من وسائل تبليغ الدعوة، وقد استعمله الرسل عليهم الصلاة والتسليم كما قدمنا.

فمفاوضته عليه الصلاة والتسليم مع هؤلاء الغدرة بعد أن أحاطت بهم جيوشه وعلم أنه متغلب عليهم وقادر على التنكيل بهم بأي نوع من أنواع العذاب، وبعد هذا فإنه يتنازل لهم إلى حد المفاوضة بينه وبينهم حتى يقبل لهم النزول على حكم ذلك الرجل المعروف لديهم بالصداقة والوفاء من قبل.

فيمكننا أن نستفيد من هذه الوسيلة التي استعملها ﷺ حيث كان الأسوة الحسنة لنا، فالداعية لا يضره أن يتنازل لمن هو دونه ويتفاوض معه ويقبل له بعض الخطط التي يحرص عليها حيث كان ذلك مع جد وحزم وثقة من نفسه بعد الانهيار أمام المدعوين حيث كانوا مستعصين معاندين، فعليه أن يجادلهم بالتي هي أحسن مع الجد والحزم، فإنه ﷺ إنما قبل لهم النزول على حكم سعد بن معاذ للمكانة التي يعلمها من سعد، فلشدة ثقته فيه علم أنه إذا قبل حكمه لن يخيب أمله فيه فيجب على كل مرؤوس داعية كان أو غيره أن يكون رئيسه له فيه من الثقة به مثل ما كان له ﷺ في سعد بن معاذ، فإذا كانت الأمة الإسلامية هكذا، كانت أمة إسلامية بالمعنى الحقيقي، وإذا كانت على العكس بحيث يكون الرئيس سواء أكان داعية أم غير داعية ليست عنده ثقة فيمن تحته، وكان المرؤوسون لا ثقة لهم فيمن يرأسهم فشلت الأمة الإسلامية بكاملها دعاة وغير دعاة.

وعليه فهذه وسائل وملامح منهجية قابلة للتطبيق والاستفادة منها في كل زمان ومكان ظهرت لنا من خلال تتبعنا لغزوه ﷺ لبني قريظة يتبين منها أن جهاده لليهود ما كان خارجاً عن دعوتهم إلى اللّه، وأنه لم يكن لهوى النفس في قتل من لم يستجب لدعوة الإسلام، بل إنما كان لإعلاء كلمة الله تعالى، ولكن إعلاء كلمة الله تارة يكون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتارة يكون بالمجادلة بالتي هي أحسن، وتارة يتعين السيف حيث لم يفد إلا هو، ولكن إعمال ذلك السيف محدود في نطاق من حارب الله ورسوله والمسلمين فحاربه الله ورسوله والمؤمنون، أما من لم يكن كذلك فإن السيف لا علاقة له به، كما يستفاد من ترك من لم يبلغ من بني قريظة من القتل وقتل المقاتلين وترك النساء أيضاً من القتل.

* * *

الفصل الثاني
غزوة خيبر

تقديم:

إن الكلام على هذه الغزوة سيكون إن شاء الله فيما يلي:

أولاً: ذكر سبب هذه الغزوة الباعث عليها، وأنها لم تخرج من كونها منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة إلى الله جل وعلا.

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث التي وقفت عليها في شأن هذه الغزوة المباركة.

ثالثاً: ذكر جمل مما ذكره أهل المغازي، وكتب التاريخ من أخبار غزوة خيبر هذه.

رابعاً: التعليق على بعض الأحاديث التي ذكرتها في شأن خيبر.

خامساً: ذكر نبذة حسم الأحكام التي شرعت للأمة في غزوة خيبر دون البسط في شأن فتحها هل هو عنوة أو صلحاً؟ مع بعض الكلام على ذلك.

سادساً: نتائج هذه الغزوة على المسلمين.

سابعاً: سوف ألقي نظرة سريعة على ما وقع بعدها مباشرة مع يهود فدك ويهود وادي القرى.

ثامناً: بيان منهجه ﷺ في الدعوة إلى الله في هذه الغزوة وبيان الملامح العامة للدعوة فيها.

* * *

سبب غزوة خيبر

غزوة خيبر كانت في شهر محرم بعد قدومه من الحديبية لأنه قدم منها وجلس شهر ذي الحجة وبعض محرم، ثم خرج إلى خيبر.

وسببها أن الله جل وعلا وعد نبيه محمداً ﷺ منصرفه من الحديبية بفتح خيبر، وذلك لأن جل علماء التفسير مطبقون على أن معنى قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾(١).

أطبقوا على أن الفتح القريب الذي وعدوا به هو فتح خيبر، وأن المغانم الكثيرة التي يأخذونها هي مغانم خيبر، وأن إشارة القرب في قوله: فعجل لكم هذه أنها لخيبر، وإن كان بعضهم يقول: أن المراد بقوله ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ يعني به فتح مكة إلا أن الأكثر والصحيح عند العلماء أن المراد به فتح خيبر، وأما المغانم المذكورة في قوله: ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها...﴾ فإنها مغانم خيبر أيضاً، وأما قوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها..﴾ ففيها خلاف فقال بعضهم إن المراد به كل ما يغنمه المسلمون إلى يوم القيامة ومن جملة ذلك مغانم خيبر(٢)، فكأن الله جل وعلا يشير إلى محمد ﷺ وأصحابه بالتعجيل بأخذ هذه الغنيمة الموعودين بأخذها

---

(١) الآيات من ١٨ – ٢٠ من سورة الفتح.

(٢) انظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الكلبي ٥٤/٤، والشوكاني ٥١/٥، وابن كثير ١٩١/٤ وغيرهم من المفسرين كالدر المنثور ٧٥/٦، وانظر الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع الكلاعي الأندلسي تحقيق د. عبد الواحد ٢٥١/٢.

عندما يقدمون المدينة من سفرتهم للحديبية التي صدوا فيها عن المسجد الحرام، فأخبرهم تعالى أنه رضي عنهم لمبايعتهم رسوله ﷺ، وأنه أعطاهم هذه الغنيمة معجلة فخرجوا يريدون ذلك الشيء الذي وعدوا به.

وثانياً: أن يهود خيبر نقضوا العهد ثانياً، وذلك أن بني النضير الذين أجلوا من المدينة لما هموا بالغدر برسول الله ﷺ وحاصرهم وأجلاهم إلى خيبر، بدؤوا أيضاً يحرشون أعداء الرسول والمسلمين على الحرب ضد الإسلام والمسلمين، فهذا حيي ابن أخطب الذي كان في معسكر الأحزاب يقبل برأيه ويدبر ويرعد ويزبد، وهو السبب في نقض بني قريظة العهد حيث أتى إلى رئيسهم كعب بن أسد ولم يزل به حتى نقض العهد، ولذلك لما رجع جيش الأحزاب ولى عنهم حيي للعهود التي كان كعب ابن أسد أخذ عليه أنهم إذا لم ينتصروا على المسلمين رجع إليهم ليكون شريكهم فيما يصدر لهم من قبل المسلمين ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قتل معهم؛ فعلم الرسول ﷺ علم يقين أنهم لا خير فيهم، وأن بعدهم من المدينة لن يقيه شرهم فخرج إليهم فكانت وقعة خيبر، فمن تأمل سببها وجده شبيهاً بسبب وقعة بني قريظة؛ لأن أهل خيبر لما أجلوا من المدينة إليها وتركوا وشأنهم، فلما لم يتركوا المسلمين من محاولة القضاء عليهم ونصرتهم أعداء المسلمين استحقوا ما فعل بهم، كذلك بنو قريظة كانوا آمنين مطمئنين، فلما خانوا ونكثوا العهود استحقوا ما فعله بهم، وأيضاً فإن إتيان جبريل للنبي ﷺ وأمره له بالخروج إلى بني قريظة على الفور يشبه وعد الله جل وعلا لنبيه وللمسلمين بغنائم خيبر، وإخبارهم بأنه عجلها لهم يتضمن الإذن في الخروج إليهم على الفور، وهذا ظاهر، وعليه فيكون سبب هذه الغزوة ثلاثة أمور:

أولها: الأمر الذي تضمنه الوعد من الله لنبيه وللمسلمين بغنائم خيبر بحيث لا تمكن غنيمة أموال يهود خيبر إلا بعد الذهاب إليهم ومحاصرتهم

ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام، فإذا امتنعوا من ذلك قوتلوا وغنمت أموالهم.

والأمر الثاني: أن فيها نوعاً من الانتقام من يهود خيبر وإظهار قوة الإسلام والمسلمين لهم، وذلك أن يهود خيبر ظاهروا المشركين وبني قريظة في وقعة الأحزاب وألبوهم على القتال، وانضموا إليهم في أسباب القضاء على الإسلام والمسلمين والحيلولة دون نشر دعوة الإسلام.

وثالثاً: أن يهود خيبر لما فشل معسكر الأحزاب ثم جنت بعد ذلك قريظة عاقبة غدرها لم يكن يهود خيبر ليهدؤوا ويتركوا الحرب مع المسلمين بأن شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الذين حولهم ليؤلفوا منهم جبهة ضد الإسلام والمسلمين، ولكن المسلمين كانوا يقظين حذرين ففطنوا لتلك المؤامرة الجديدة فلما رجعوا من الحديبية بادروا بغزو خيبر لكسر شوكة أولئك اليهود الخونة الذين يكونون جبهة في خيبر تعادي الله ورسوله والمسلمين(١).

فكان من المناسب بعد هذا كله إظهار قوة الإسلام وشجاعة أهله ورغبتهم في الحياة الباقية، وزهدهم في الحياة الفانية.

هذا ما كان من سبب غزوه ﷺ ليهود خيبر.

أما كونها لم تخرج عن كونها منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة إلى الله فلما ثبت عنه ﷺ أنه لما قدم خيبر وحاصر أهلها وأعطى رايته لعلي بن أبي طالب، أمره ألا يقاتل أهل خيبر حتى يدعوهم إلى الإسلام بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأخبره أنهم إن فعلو ذلك عصموا منه دماءهم وأموالهم، وأخبره أن هداية الله رجلاً واحداً به خير له من حمر النعم، فقد ثبت في صحيح البخاري بسنده إلى سهيل بن سعد في شأن فتح خيبر قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله

---

(١) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٣٦٨، بتصرف فإنه ذكر السبب الثالث دون الأولين.

على يديه قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله قال: فأرسلوا إليه فأتوني به فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم(١).

فترى النبي ﷺ في هذا الوقت الحرج الذي تقدمه قتال بلا شك؛ لأن الراية لم يُعْطَها علي إلا بعد أن أعطيت لأبي بكر ولم يقدر الله الفتح على يده، ثم أعطيت لعمر كذلك ولم يقدر الله الفتح على يديه، ففي هذا الوقت يأمر أميره على القتال بأن لا يقاتل اليهود حتى يدعوهم إلى الإسلام ويخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فإن تمادوا على كفرهم وعدم استجابتهم للدخول في الإسلام، لم يبق حينئذ إلا قتالهم، ويتعين من أمره لعلي بعدم قتالهم حتى يدعوهم إلى الإسلام أن يكون أمر بذلك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لأن ذلك منهج من مناهج دعوته وسنة من سننه، كان لا يقاتل أحداً إلا بعد أن يدعوه إلى الدخول في الدين الإسلامي في الغالب؛ لأن القصد من بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هو دعوتهم الناس ليخرجوهم بدعوتهم من الظلمات إلى النور، ولأن الناس إذا لم تبلغهم دعوة الرسل لم تقم عليهم الحجة، وإن كان يهود خيبر قامت عليهم الحجة وبلغتهم الدعوة بلا شك، لأن خيبر انتقل إليها قسم كبير من يهود المدينة يشكل نسبة كبيرة من سكان خيبر، وهم بنو النضير ومعلوم أن الدعوة بلغتهم بلا شك، ولكن لطمع الرسول في إنقاذ أي إنسان

(١) أخرج البخاري في كتاب المناقب، وفي كتاب المغازي، وأخرجه غيره أيضا.

من الكفر كان لا يترك منهجه ذلك ما دام يرى فائدة فيه، وكان يتحرى لعل أن يكون بالمدينة المغار عليها مسلمون، يدل لذلك ما أخرجه البخاري في الأذان من حديث أنس بن مالك بسنده عن النبي ﷺ قال: كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم(١) ومساحيهم(٢)، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، والخميس، قال: فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: الله أكبر، الله أكبر خربت خيبر، انا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين(٣).

فظهر من هذا أن غزوه لخيبر لم يخرج عن نطاق الدعوة إلى الله جل وعلا حتى في آخر وقت قبل فتح حصونها، وفي أول وقت عندما قدم بلاد خيبر، وظهر أنه لم يقاتل يهود خيبر إلا بعد أن اضطر إلى قتالهم.

* * *

---

(١) جمع مكتل وهو القفة الكبيرة التي يحمل فيها المتاع.

(٢) جمع مسحاة وهي من آلات الحرث. انظر فتح الباري ٤٦٨/٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، وفي الجهاد أيضا، وروي مسلم طرفه الذي يتعلق بالأذان، والإغارة بعد تحري سماع الأذان رواه في أبواب الأذان، وانظر الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لسليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي تحقيق د. عبد الواحد ٢٥٢/٢.

أحاديث خيبر

لقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب المغازي تحت باب غزوة خيبر ثلاثين حديثاً جلها مسند تتعلق بهذه الغزوة، ولكني لا أريد أن استقصي هذه الأحاديث لأن بعضها أورده في كيفية قسم الغنائم، وبعضها أورده فيما يختص بتصرفه ﷺ بنصيبه من الخمس، وبعضها أورده في تشريع الأحكام التي شرعت في خيبر، وإن كان ذلك القسم لا بد من الإلمام به كما ذكرت في التقديم.

وذكرها مسلم أيضاً بأخصر مما ذكره البخاري، وذكر أبو داود جانباً منها، وذكر الترمذي جزءاً منها مختصراً، وها أنا ذا أذكر منها ما ظهر لي أن الحاجة تدعو إلى ذكره.

روايات البخاري:

ساق، رحمه الله، بسنده إلى سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك(١) ما اتقينا(٢) * وثبت الأقدام إن لاقينا

(١) استشكل قوله: (فداء لك) لأن معناه أفديك بنفسي، وهذا لا يقال في حق الله، ولا يمكن أن يكون يعني الرسول ﷺ بدليل قوله بعده: فأنزلن سكينة علينا، وإن كان قبل به وأجيب بأن هذه لم يرد منه ظاهره بل المراد منه المحبة والتعظيم مع قطع النظر عن ظاهر اللفظ، وهذا في نظري غير متجهه كله، اللّهم إلا أن يكون قصد بذلك النبي ﷺ أي أخبر بأنه فداء له، ثم أمره أن يسأل ربه أن ينزل عليهم السكينة إذا لاقوا العدو وأن يثبتهم.

(٢) أي ما تركناه من الأوامر. انظر فتح الباري ٧/٤٦٥ ذكر هذا كله وزيادة عليه.

وألقين سكينة علينا * إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياع عوفوا علينا

فقال رسول الله ﷺ من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به. فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ثم إن الله تعالى فتحها عليهم، فلما أصبح الناس مساء اليوم الذي فتحت فيه أوقدوا نيراناً كثيرة فقال النبي ﷺ ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال على أي لحم؟ قالو: لحم حمر الأنسية، فقال النبي ﷺ: أهريقوها واكسروها فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها قال: أو ذاك، فلما تصاف القوم كان سيف عامر قصيراً فتناول به ساق يهودي ليضربه ويرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال: فلما قفلوا قال سلمة رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي قال: ما لك؟ قلت له: فداك أبي وأمي زعموا أن عامراً حبط عمله قال النبي ﷺ: كذب من قاله، ان له لأجرين ـ وجمع بين أصبعيه ـ إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها مثله.

ثم ذكر رحمه الله بسنده أيضاً إلى أنس حديثاً صريحاً في تحريم الحمر الأهلية في خيبر مع ذكره علة التحريم فقال عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحي، فلما أبصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس(١)، فقال النبي ﷺ: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين فأصبنا من لحوم الحمر فنادى منادي النبي ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس.

---

(١) سمي بذلك لأنه خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميسرة، والميمنة والقلب، القاموس المحيط.

ثم ساق بسند آخر إلى أنس رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ الصبح قريباً من خيبر لغلس، ثم قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فخرجوا يسعون في السكك، فقتل النبي المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها فقال عبد العزيز بن صهيب لثابت: يا أبا محمد أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ فحرك ثابت رأسه تصديقاً له.

ثم ساق بسنده أيضاً إلى سهل بن سعد فذكر حديث علي في شأن فتح خيبر على يديه فقال: إن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم(١) أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا إلى رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقيل. قال: فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه هو يا رسول الله يشتكي عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم في حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم، وقد تقدم.

ثم ذكر البخاري أيضا أحاديث بأسانيدها ذكر فيها نهيه ﷺ يوم خيبر عن أكل الثوم، وأنه نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية(٢).

---

(١) داك القوم في اختلاط وخصومة: القاموس ٣/٣١٣.

(٢) أخرجها البخاري في كتاب المغازي في باب غزوة خيبر بلفظها، وأخرجها مسلم أيضا في كتاب الجهاد والسير ٣/٤٢٦ فما بعدها وأخرج الترمذي بعضها في أبواب السير ٣/٥٤، والنسائي حديث سلمة بن الاكوع في شأن أخيه.. الشهادة جـ ٦ ص ٣٠ - ٣٢.

وأخرج البخاري بقية الثلاثين حديثاً، ولكن الكثير منها في شأن الأحكام التي شرعت في غزوة خيبر من تحريم الحمر، والمتعة، وكيفية زواجه ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وهل تزوجها أو تسراها وعلى أنه تزوجها هل جعل صداقها مهرها أو أصدقها، وفي الأحاديث التي دلت على أن خيبر فتحت عنوة، وسأذكر من هذه الأحاديث ما كان ظاهرا في الدعوة إلى الله تعالى.

* * *

حسن المعاملة مع أهل الكتاب

منهج من مناهج الدعوة

إن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه لما افتتح خيبر وأمكنه الله من أعدائه وأعداء الإسلام اليهود، رأى ألا يبيد هؤلاء اليهود ويقطع دابرهم وذلك في إمكانه، ولكنه رأى أن يترك هؤلاء على دينهم ويعاملهم معاملة يعيشون بسببها ويستفيد من ذلك المسلمون، فترك يهود خيبر على قيد الحياة وأسند إليهم العمل في النخيل والأراضي، وكان يرسل إليهم كل عام من أصحابه من يخرص نخيل خيبر فيعطي لليهود حقهم كاملاً غير منقوص ويأخذ للمسلمين حقهم.

ففي البخاري بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها، هكذا أخرجه في المغازي، وأخرجه في كتاب الحرث والمزارعة تحت باب المزارعة مع اليهود، فساق السند إلى ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ أعطى خيبر لليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها، وأخرج أيضا تحت باب المزارعة بالشطر ونحوه بسنده عن نافع مولى ابن عمر عن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ عامل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع فكان يعطي أزواجه مائة وسق، وثمانين وسقاً تمراً، وعشرين وسقاً شعيراً، وقسم عمر خيبر فخير أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض، أو يمضي لهن، فمنهن من اختار الأرض، ومنهن من أختار الوسق، وكانت عائشة اختارت الأرض(١).

ثم ذكر البخاري حديثاً آخر فيه التصريح بأن معاملته ﷺ مع اليهود على خيبر

---

(١) أخرج الحديث الأول البخاري في كتاب المغازي، والأخرين في كتاب الحرث والزارعة.

كان منشؤها طلب اليهود منه ﷺ أن يعاملهم على نخيل خيبر وأرضها ليعملوا فيها فيعيشوا وذلك لما سلبت منهم الأرض والنخيل، وأخذت أموالهم وكانوا يعلمون من حلمه ﷺ ورفقه بالعباد ما حملهم على أن طلبوا منه أن يبقيهم في أرضهم يعملون فيها كما كانوا فيعيشون فأجابهم إلى ذلك فمكثوا في خيبر على ذلك الحال حتى أجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته إلى تيماء وأريحاء.

فقد ساق بسنده إلى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد اخراج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين وأراد اخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرهم بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر فقال لهم رسول الله ﷺ: نقركم بها على ذلك ما شئنا فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في المزارعة أيضا، وأخرجها كلها مسلم في كتاب الجهاد ١١٨٦/٣ – ١١٨٨ المصدر السابق.

ذكر قصة

تسميم اليهود له ﷺ الشاة

قال البخاري: باب ما يذكر في سم النبي ﷺ رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ، ثم ساق بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، فقال هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال لهم: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم، فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الطب، وفي كتاب الجزية مسنداً إلى أبي هريرة بعد أن ذكره معلقاً عن عروة عن عائشة عنه ﷺ، ثم ذكره مختصراً أيضا في باب غزوة خيبر مسنداً أيضاً ومختصراً عن أبي هريرة ومعلقاً عن عائشة.

التصريح بفتح خيبر عنوة

قال مسلم في صحيحه وحدثني زهير بن حرب حدثنا إسماعيل (يعني ابن علية عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن رسول الله ﷺ غزا خيبر قال: فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى[1] نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ وانحسر الإزار عن فخذ رسول الله ﷺ وإني لأرى بياض فخذ نبي الله فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، قالها ثلاث مرار. قال: وقد خرج القوم إلى أعمالهم فقالوا: محمد. قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا: والخميس قال: وأصبناها عنوة[2].

وقد روى أبو داود أحاديث تدل على أن خيبر بعضها فتح عنوة وبعضها فتح صلحا ولكن هذه الأحاديث مرسلة وفيها مجهول، فقد ساق بسنده إلى الزهري وعبد الله بن أبي بكر وبعض ولد محمد بن مسلمة قالوا: بقيت بقية من أهل خيبر تحصنوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويسيرهم ففعل. فسمع بذلك أهل فدك فنزلوا على مثل ذلك فكانت لرسول الله ﷺ خاصة[3]، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

ثم أرسل أيضاً عن ابن المسيب أن بعض خيبر افتتح صلحاً وبعضها عنوة

---

(١) أي أجرى ركوبته.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٣/١٤٢٦ - ١٤٢٥ والبخاري في المغازي وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء ٤/٤١٠ المصدر السابق.

(٣) يعني بذلك أموال فدك لأنها هي التي لم يوجف عليها بالخيل ولا بالركاب أي لم يحثث إليها المطايا أي ما ركبت لها الإبل ولا الخيل.

وكذلك أرسل عن ابن شهاب الزهري(١).

وأخرج الترمذي بسنده إلى أنس أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً.. إلخ ما ذكره البخاري قبل(٢).

وقد روى مالك رحمه الله في موطئه أن خيبر فتحت عنوة(٣).

وتقدم عن البخاري ومسلم من حديث أنس أنها فتحت عنوة، وجزم ابن حزم في كتابه جوامع السير أن بعض حصونها فتح عنوة وهو الأكثر وبعضها فتح صلحاً على الجلاء فانظره(٤).

قلت: الحق، والله تعالى أعلم، أن خيبر فتحت عنوة لما تقدم من الأحاديث الصحيحة الصريحة عن أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ الحاضر فتح خيبر، مع أن الروايات التي في أبي داود التي تشير إلى أن بعضها فتح عنوة وبعضها فتح صلحاً، إنما هي أحاديث مرسلة، وعلى تقدير صحتها فهي لا تقاوم ما في الموطأ والصحيحين وغيرها، وأما مجرد روايات يذكرها المؤرخون وأهل السير دون أسانيد فإنها كذلك أيضاً لا تقف أمام الروايات الثابتة عن أعلام المحدثين، والعلم عند الله.

ولما تم هذا الفتح قسم ﷺ الغنائم على من حضر الحديبية من المسلمين سواء أشهد خيبر أم لم يشهدها؛ لأن الله أعطى أموال خيبر لأهل الحديبية دون غيرهم(٥)، وقال موسى بن عقبة: لم يقسم من خيبر شيء إلا لمن شهد الحديبية،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء ٣/٤١٤ - ٤١٥.

(٢) فانظره في أبواب السير ٣/٥٤ وقال حديث حسن صحيح.

(٣) انظر الموطأ مع تنوير الحوالك ٢/٢٠٤ باب إجلاء اليهود من المدينة.

(٤) جوامع السير لابن حزم ص٢١٣.

(٥) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر - ص ٢١٦، وأبو داود في سننه ٣/٤١٣ =

وروى ذلك جماعة من السلف(١).

ثم إن اليهود طلبوا منه ﷺ أن يبقيهم في أرض خيبر ويكفوا المسلمين مؤنة العمل في الأرض فعاملهم ﷺ على أرض خيبر على أن لهم الشطر، وللمسلمين الشطر الآخر، وقال لهم نقركم على ذلك ما أقركم الله، فقروا بها إلى زمن عمر بن الخطاب ؟؟ أجلاهم عنها.

ولما انتهى حصار خيبر أخذ اليهود شاة وملؤوها سماً وقدموها لرسول الله ﷺ، وكان الذي تولى ذلك امرأة سلام بن مشكم زينب بنت الحارث، وأكثرت السم في الذراع لعلمهم أنه كان أحب اللحم إليه الذراع، فلما تناول منه لاكه ورمى به وقال: إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم، وقد أكل منها بشر بن البراء بن معرور فمات من أكلته، فجمع ﷺ اليهود وسألهم قائلاً ماذا حملكم على هذا؟ قالوا: يا أبا القاسم أردنا أن كنت كاذبا استرحنا منك، وأن كنت نبياً لن يضرك، واستشهد من المسلمين خمسة عشر رجلاً، ومات من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً(*).

وقد شرع الله جل وعلا في هذه الغزوة كثيراً من الأحكام الشرعية مثل نهيه ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية فقد نهى عنها أيام خيبر وكذلك نهى عن متعة النساء، وإن كان الكثير من العلماء لا يجعل أيام خيبر ظرفاً للنهي عن المتعة حيث يقول: إنه ما كانت متعة قبل ذلك حتى ينهى عنها، وإنما خيبر ظرف لتحريم الحمر الأهلية، وذكر الرواة معها المتعة في الأحاديث لاشتراكهما في النهي لا في الظرف.

= ــ ٤١٥ في كتاب الخراج، والمصنف لعبد الرزاق ٣٧٢/٥ والمغازي لابن شهاب الزهري ص ٨٤.

(١) انظر الدرر في المرجع السابق نفسه.

(*) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٧/٢ والوفا بأحوال المصطفى لابن الفرج الجوزي ٦٩٩/٢.

قلت: إن ظواهر الأحاديث تقتضي جعل زمن خيبر ظرفاً للنهي عن المتعة، فإن حديث علي بن أبي طالب الثابت في صحيح البخاري يدل لذلك ففي صحيح البخاري حدثني يحيى بن قزعة، حدثنا مالك عن ابن شهاب، عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية(١).

ففي البخاري أربع روايات في صحيحه تدل على أن النهي عن متعة النساء وقع يوم خيبر، أو عام خيبر، أو زمن خيبر فهي واضحة في جعل غزوة خيبر ظرفاً للنهي عن متعة النساء، والعلم عند الله تعالى.

وكذلك نهى ﷺ عن أكل الثوم زمن خيبر، ففي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل الثوم وعن لحوم الحمر الأهلية.

كما شرعت في هذه الغزوة المباركة المزارعة؛ لأنه ﷺ عامل يهود خيبر على العمل في الأرض والنخيل بشطر ما يخرج من ثمر الأرض إلى غير ذلك مما شرع من الأحكام الشرعية في غزوة خيبر مما يتعذر بسطه الآن.

فهذا تلخيص لهذه الغزوة المباركة، ذكرت فيه نبذاً عما جاء فيها للإفادة.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة خيبر في آخر الباب، وأخرجه في كتاب النكاح بلفظ زمن خيبر بدل يوم خيبر، باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة أخيراً، وفي كتاب الذبائح بلفظ: عام خيبر باب لحوم الحمر الإنسية، وفي كتاب الحيل: باب الحيلة في النكاح بلفظ: نهى عنها يوم خيبر.

ملامح[1] الدعوة العامة
في هذه الغزوة

تقدم لنا أن أوضحنا أن جميع غزواته لأهل الكتاب منهج من مناهج الدعوة، ومن جملة تلك الغزوات غزوة خيبر، والآن سأشير إلى ما وقع في خيبر من تطبيق ذلك المنهج فأقول:

أولاً: أن نبي الله صلوات الله وسلامه عليه دعا يهود خيبر في هذه الغزوة إلى الدخول في الإسلام فدعاهم دعوة صريحة، ويتمثل ذلك في قوله لعلي بن أبي طالب: انفذ على رسلك حتى تدعوهم إلى الإسلام وتخبرهم بما يجب عليهم فيه؛ فهذه دعوة صريحة، ولكن اليهود لم يستجيبوا لها ولم يسلموا فلما أبوا عن الإسلام بعد أن دُعوا إليه في ذلك الوقت وعاندوا وكفروا عناداً وحسداً جاء دور قتالهم حتى يخضعوا لقوة الإسلام وشجاعة أهله ونصر الله لهم على كل من أبى الدخول فيه وجانبه، ولا سيما إذا كان ممن يعلم أنه هو الدين الحق الذي لا يقبل الله من الأديان سواه مثل أهل الكتاب الذين يعلمون صفة نبينا محمد ﷺ، ولكنهم لما تبين لهم الحق، وجاءهم ما عرفوا كفروا به فهذه دعوة إلى الله.

ثانيا: حلمه ﷺ عن اليهود وعفوه عنهم بعد القدرة الكاملة عليهم ويتمثل ذلك في أمرين: **الأول منهما**: عفوه عن زينب بنت الحارث اليهودية التي سمت له الشاة وعدم قتله لها، فإن ذلك أمر واضح يظهر من خلاله صفحه ودعوته إلى ربه بالحكمة، ويتضمن الدعوة لها إلى الدخول في الإسلام.

والأمر الثاني: معاملته ليهود خيبر لما فتحها وترك أهلها يعيشون فيها فلم

---

(١) جمع لمحة وهو جمع نادر، انظر القاموس المحيط ١/٢٥٦ مادة المح، وجمع السلامة لمحات.

ينفهم في ذلك الوقت، ولم يقتل مقاتلتهم لما قدر عليهم، وفتح حصونهم حصناً حصناً، فهذا أيضاً يتضمن دعوتهم للدخول في الإسلام، وتجديد النظر في أمره.

عفوه عن اليهودية والمتمالئين معها

اختلفت الروايات في هذه المرأة هل النبي ﷺ قتلها أو تركها؟ ولا بد أن أزيد في الكلام على شأنها حتى يتضح للقارئ أي الروايتين أحق، ثم أبين إن شاء الله أن كلا الأمرين لا يخرج عن الدعوة سواء أكان عفا عنها أم قتلها قودا ببشر بن البراء، فإنه أكل معه من تلك الشاة فمات من أجل ذلك.

وقد كان جَعْلُ اليهوديةِ السمَّ في الشاة بعد مشاورة من اليهود واتفاق على ذلك(١)، وقد روى البيهقي بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سألها: ما حملك على هذا، وقالت له: أن كنت نبياً فيطلعك الله عليه وإن كنت كاذباً فأريح الناس منك، قال فما عرض لها(٢)، وفي رواية عن جابر: فلم يعاقبها، وروى ذلك عبد الرزاق في مصنفه عن أبي بن كعب(٣)، وزاد: فاحتجم على الكاهل قال: قال الزهري: فأسلمت فتركها، قال معمر: والناس يقولون قتلها، وأخرج ابن سعد أنه ﷺ دفعها إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها(٤).

وجزم صاحب حدائق الأنوار بأنه قتلها(٥).

---

(١) روى ذلك الواقدي في مغازيه ٦٧٧/٢ المرجع السابق. (٢) السنن الكبرى ٤٦/٨.

(٣) ذكره عنه ابن حجر في الفتح ٤٩٧/٧.

(٤) هكذا ذكر ابن حجر في الكلام على حديث الشاة المسمومة في آخر غزوة خيبر ٤٩٧/٧ ولكني لم أجد في ابن سعد ما ذكره، وإنما فيه.. فيقال إن رسول الله ﷺ قتلها وهو الثبت عندنا فانظره ١٠٧/٢ وقد عزا ابن حجر لابن سعد أن الواقدي قال: وهو المثبت عندنا، والذي فهمته من كلام ابن سعد أن هذا كلامه لا كلام الواقدي والله أعلم.

(٥) فانظره ص ٦٤٧.

قلت: كثرت الروايات في شأن هذه المرأة وهل قتلها الرسول أو لم يقتلها؟ وهل تركها لكونها أسلمت أو لا؟

والحق الذي تؤيده النصوص الصحيحة الصريحة أنه لم يقتلها ولم يتركها لأجل أنها أسلمت؛ لأن ذلك لم يثبت، وإنما هو مجرد روايات لا يثبت بها أمر بل تركها عليه السلام حلماً منه، ويدل لذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس: قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا شعبة عن هشام بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: لا فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ[1] .

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا شعبة عن هشام بن زيد عن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك، قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك قال: أو قال: (عليّ) قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال لا: قال: فما زلت أعرفها في لهوات [2] رسول الله ﷺ[3].

فتصريح الراوي الذي هو الصحابي الملازم لرسول الله ﷺ وخادمه عشر سنين بأنه نهاهم عن قتل هذه المرأة دليل على أنه لم يقتلها مع أنه لم يثبت لنا دليل آخر بأنه قتلها حتى نضطر إلى القول بأنه أخر قتلها حتى مات بشر بن البراء فقتلها به فلو ثبت هذا لما كان في القول به مانع ولكنه لم يثبت وعلى تقدير ثبوته، فإنما ثبت في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الهبة: باب قبول الهدية من المشركين.

(٢) جمع لهاة وهل اللحمة المعلقة في أصل الحنك.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام ١٧٢١/٤ .

الصحيحين بأسانيد متصلة مرفوعة لا يقاومه غيره البته، وأضف إلى ذلك أن حديث أنس هذا رواه أبو داود عن يحيى بن حبيب بن عربي عن خالد بن الحارث عن شعبة عن هشام بن زيد عن أنس بنحو ما رواه البخاري ومسلم(١).

ورواه أيضاً عن أبي هريرة، ورواه عن جابر أيضاً ولكنه منقطع(٢).

أما ما رواه أبو داود عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ قتلها فإنه لا يقاوم ما تقدم عن أبي داود نفسه ولا ما تقدم عن الصحيحين مع أن الحديث مرسل؛ لأن أبا سلمة بن عبد الرحمن تابعي(٣)، وكذلك ما رواه أبو داود عن كعب بن مالك عن أمه أنه ﷺ قتل هذه اليهودية كل هذا لا يقف أمام ما في الصحيحين، وعلى تقدير صحته أو صحة بعضه فيحمل ما في الصحيحين على أنه نهاهم أولاً عن التعرض لقتلها؛ لأنه لا ينتقم لنفسه، ثم لما مات بشر بن البراء بعد ذلك قتلها به قوداً(٤).

وذلك لا ينافي سماحة الإسلام وعفوه ﷺ ورحمته بجميع الخلق؛ لأن القصاص حق ثابت في الشرع فلا ينافي ما تقدم من حلمه وصفحه وكون ذلك منهجاً من مناهج دعوته عليه السلام استعمله في هذه اليهودية وفي اليهود الذين تواطؤوا معها على المكر به عليه الصلاة والتسليم.

فتبين مما ذكرنا أنه ﷺ لم يقتل هذه المرأة اليهودية التي سمت له الشاه، وكذلك

---

(١) سنن أبي داود ٦٤٧/٤ المرجع السابق.

(٢) سنن أبي داود في المصدر نفسه.

(٣) سنن أبي داود في المصدر نفسه.

(٤) ذكر هذا الجمع السهيلي في الروض الأنف ٦٢/٤ في غزوة خيبر، ولكن الذي نقول به إنه لم يقتلها لقوة الأدلة التي دلت على ذلك كما قدمنا.
كما ذكر هذا الجمع أيضا النووي في شرحه لهذا الحديث ١٧٩/١٤.

اليهود الذين تمالؤوا معها على ذلك لم يقتل منهم أحداً، وبيان منهج الدعوة في هذه القصة أن هؤلاء أعداء الله تمالؤا على قتل رسول الله ﷺ، وقدر على الأخذ بالثأر منهم جميعا هي واليهود الآخرون فعفا عنهم ولم يؤاخذهم بعمليتهم هذه الشنيعة ليراجعوا عقولهم في أمره ويعلموا أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق لا ليكون فظا غليظا كثير الانتقام قليل الصبر، كما يعلمون ذلك في كتبهم من صفاته عليه الصلاة والتسليم، فإن ذلك أدعى لقبولهم للإسلام فيما بعد عن طواعية حيث شاهدوا ما كانوا يعلمونه، فعين اليقين أعمق في المعرفة من علم اليقين، وليس ترك قتلها تعطيلاً للقصاص على تقدير أن ورثة بشر طالبوا بذلك؛ لأن القصاص حق ثابت للشخص فله تركه وله القيام بحقه فيحتمل أنهم تركوه لما رأوا من ترغيب الشرع في العفو، والله أعلم.

والفرق بين بني النضير وهؤلاء اليهود الذين همّ كل منهم بقتله ﷺ، ولم يقع ذلك، وهو نفي بني النضير، ويهود خيبر عفا عنهم ذلك؛ أن يهود بني النضير كانوا معاهدين مؤمنين، فلما نقضوا العهد ونبذوه استحقوا تلك العقوبة التي فعلت بهم وهي النفي، أما يهود خيبر فإنهم أهل حرب، وكانوا في الوقت نفسه يقاتلون الرسول ﷺ والمسلمين، ويعلنون القتل جهاراً، والفرق بين المعاهد والحربي واضح، فالمعاهد إذا غدر كان للإمام أن يعاقبه بما شاء من قتل أو نفي أو غيره من أنواع العقوبات، والعلم عند الله تعالى.

* * *

معاملته ليهود خيبر

إن ترك نبي الله صلوات الله وسلامه عليه يهود خيبر بعد أن أعلنوا الحرب ضد الإسلام والمسلمين، وقاتلوهم وقتلوهم، وأمكن الله جل وعلا منهم نبيه، ومع ذلك فإنه لم يضرب رقابهم، ولم يجعلهم في الوثاق، بل ترك لهم الأرض التي كانت لهم بعد نزعها من أيديهم وخلى بينهم وبينها، يزاولون أعمالهم التي كانوا يألفون باختيارهم ولهم نصف ما خرج من الأرض، فعاشوا بهذا مدة طويلة من الزمن حتى علم ﷺ في آخرحياته أنهم لا خير فيهم، وأن المصلحة للإسلام والمسلمين إخراجهم من الأرض، فأوصى بإخراجهم، فأخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكانت رحمته بهؤلاء الأعداء وتركه لهم وإعانته لهم على العيش منهجاً حكيماً من مناهج الدعوة إن كان هذا كله سبباً في دخولهم الإسلام، ولكن غلبت عليهم الشقوة.

فبان من هذا أن هذه الغزوة غزوة منهجية دعوية فقد ظهرت فيها قوة الإسلام وشجاعة المسلمين، بحيث أن عددهم فيها كما يذكر أهل التاريخ لا يتجاوز ألفاً وخمسمائة في أكثر التقديرات، ويهود خيبر عشرة آلاف مقاتل أو أحد عشر ألف مقاتل كما تقدم، ومع هذا وقع ما وقع من النصر والفتح.

كما ظهرت فيها سماحة الإسلام وعفوه ورحمته بالخلق الشاملة للمؤمن والكافر، ويتمثل ذلك فيما تقدم من شأنه مع اليهود الذين تمالؤوا على قتله عليه السلام إلى غير ذلك مما ظهر في هذه الغزوة من ملامح الدعوة.

* * *

نتائج هذه الغزوة على المسلمين

إن من نتائج هذا الغزو على المسلمين ما فتح الله عليهم به من أموال يهود خيبر، وثمار أرضيهم وحبوبها، فقد كان المسلمون قبل ذلك في حاجة ماسة، وإن كانوا قد استفادوا من أموال بني النضير وبني قريظة، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم ورد عن بعضهم التصريح بأنهم لم يشبعوا حتى فتحت خيبر، وورد عن بعضهم أنه لما فتحت خيبر قال: الآن نشبع من التمر.

فقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أنها لما فتحت خيبر قالت: الآن نشبع من التمر.

وروى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه لما فتحت خيبر قال: ما شبعنا حتى فتحت خيبر[١]، ولا غرابة في هذا فإن الله نوه بهذه الأموال التي أخذت من يهود خيبر وأخبر أنها مغانم كثيرة، وأنه فتح قريب فهو كما أخبر الله فتح على المؤمنين وإظهار الإسلام وشجاعة أهله ورغبتهم في الشهادة في سبيله لنيل ما عنده لهم من الثواب الجزيل.

كذلك من نتائج هذا الغزو أيضاً أن اليهود بعد فتح خيبر لم يفكروا في حرب ضد الإسلام والمسلمين بل صاروا خاضعين لولاء المسلمين منزوين تحت قيادة الإسلام موالين لأهله، ومع ذلك فإن لهم حقوقهم من التزامات بعهود ووفاء بها، وعدم الأعتداء عليهم وعدم غدرهم وعدم خيانتهم فكأن المسلمين بعد وقعة خيبر أطمأنوا من ناحية اليهود وتشويشهم وتحريشهم لأعداء الإسلام ضد المسلمين.

وكذلك من نتائجها أيضاً ما شرعه الله من الأحكام الشرعية الخالدة إلى الأبد،

---

(١) رواهما البخاري في كتاب المغازي.

فقد شرع الله جل وعلا فيها للمسلمين كثيراً من الأحكام، وقد قدمنا الإشارة إلى بعضها، وذلك تمهيد لإكمال الإسلام إلى غير ذلك من نتائج غزوة خيبر على المسلمين.

أما الكلام على أحاديث هذه الغزوة فإني لم أتعرض له بكثير وذلك أني تركت كثيراً من الأحاديث التي تتعلق بشأن غزوة خيبر لكونها غير موضوعية في منهج الدعوة مثل الأحاديث التي تتعلق بالأحكام الشرعية لم أذكر منها إلا القليل، وقد مر بعض الكلام عليها أثناء ذكرها فلا داعي لاعادته، وأغلب ما ذكرته من الأحاديث لا تعارض بينها إلا ما قدمنا في شأن الفتح هل وقع صلحاً أو وقع عنوة، وقد قدمنا أن الصحيح أنه وقع عنوة، وذكرنا أدلة ذلك من الصحيحين وغيرهما، وأجبنا عما رواه أبو داود وما جزم به ابن حزم من أن بعض حصون خيبر فتح عنوة وبعضها فتح صلحا، وسأزيد لك أيها القارئ الكريم ما تقدم بكلام ابن عبد البر في هذا الموضوع بالحرف إن شاء الله.

قال ابن عبد البر: وأما قول من قال إن خيبر كان بعضها صلحاً وبعضها عنوة، فقد وهم وغلط، وإنما دخلت عليه الشبهة بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم، فلما لم يكن أهل ذينك الحصنين من الرجال والنساء والذرية مغنومين ظن أن ذلك صلح، ولعمري إنه في الرجال والنساء والذرية لضرب من الصلح ولكنهم لم يتركوا أرضهم إلا بالحصار والقتال فكان حكم أرض ذينك الحصنين كحكم سائر أرض خيبر كلها غنيمة مغلوباً عليها عنوة مقسومة بين أهلها، وربما شبه على من قال: إن نصف خيبر فتح صلحا ونصفها: نصفاً عنوة بحديث يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين له ونصفاً للمسلمين، وهذا لو صح لكان معناه أن النصف له مع سائر من وقع في ذلك النصف معه، لأنها قسمت على ستة وثلاثين سهماً، فوقع سهم النبي ﷺ وطائفة معه في ثمانية عشر سهماً منها ووقع

سائر الناس في باقيها، وكلهم ممن شهد الحديبية ثم شهد خيبر[1].

وليست الحصون التي أسلمها أهلها بعد الحصار والقتال صلحاً، ولو كانت صلحاً لملكها أهلها كما يملك أهل الصلح أراضيهم وسائر أموالهم، فالحق في هذا والصواب ما قاله ابن إسحاق دون ما قاله موسى وغيره عن ابن شهاب والله أعلم[2]؟؟ منه بالحرف هكذا جزم ابن عبد البر بأن فتح خيبر إنما وقع عنوة وليس شيء منها فتح عن طريق الصلح، وإن كان في الأحاديث التي قدمنا ما يكفي إلا أنه بين الشبهة التي من أجلها قال من قال بتجزئة خيبر فكلامه نفيس في هذا المقام.

* * *

(١) تقدم أن أموال خيبر قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن لم يشهدها وذلك مثل جابر بن عبد الله فإنه شهد الحديبية ولم يشهد خيبر، وقسم له، وقيل أن أهل السفينتين اللتين قدمتا من الحبشة قسم لهم ولم يشهدوا الحديبية ولا خيبر وقسم للدوسيين والأشعريين كل هذا قيل به. عيون الأثر لابن سيد الناس ١٣٩/٢ فما بعدها.
إلا أن المعتمد أن أموال خيبر لأهل الحديبية وما ذكر من القسم يحتمل أن يكون أهل الحديبية قسموا لهم بعد ملكهم الأموال أو يكون الرسول قسم لهم من نصيبه الخاص. انظر ابن حجر هنا ٤٨٧/٧ – ٤٨٩.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

قصــة فَـدَك

قدمنـا في أول هذا الفـصل أننا سنتكلم عـلى ما وقع في رجـوعه من خيـبر، مع يهود فَدَك ويهود وادي الـقرى لأن قصتهـما تعتبـر من تتمه غزوة خيبر، ولما وقـع فيهما من الدعوة لليهود إلى الإسلام صريحاً، كما سيأتي عن الواقدي من تكرر دعوته ﷺ لأهل وادي الـقرى المرة بعـد المرة، وما وقـع مع يـهود فـدك من الصـلح بـعد الـقدرة علـيهم، وقد قـدمنا أن ذلك مـنهج من مـناهج الـدعوة، وقد ذكر كـثير من المؤرخين وعامة أهل الـسير قصة فدك ووادي القرى، ولـكن المحدثين لم يكثروا مـن رواية يهود فدك ووادي القـرى، ولكنهـم لم يتركـوها، فقد ذكـرها أبو داود في سننه وقد تـقدم طرف من ذلـك، وسأذكر الآن إن شاء الله مـا رواه في شأن فدك ومـا وقع من الصـلح مع أهلها.

قال أبو داود: حـدثنا حسين بـن علي العجلـي، حدثنا يحـيى - يعنـي ابن آدم - حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن إسحـاق عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر وبعض ولد محمد بـن مسلمة قالوا: بقيت بـقية من أهل خيبر تحصنـوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يحـقن دمائهـم، ففعـل فسمـع بذلك أهـل فـدك فنـزلوا على مـثل ذلك فكـانت لرسـول الله ﷺ خـاصة؛ لأنه لـم يوجـف عليها بـخيـل ولا ركاب(١)، وقد قدمـنا جواب ابن عبد البر عن بقية الحصـون التي ذكر أبو داود في هذا الحديث مع أن هذا الحديث صرح المنذري بأنه مرسل كما تـرى، وقد تقدم ما يكفي من الجواب عن قول القائلين بفتح بعض حصون خيبر صلحاً.

وقد أشار البخـاري إلى قصة فدك حيث ترجـم لفرض الخمس وقصـة فدك إلا أنه ساق أحاديث فيها ذكر الخمس وفيـها الإشارة إلى أموال فدك؛ لأنها مما أفاء الله به

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفي ٣/٤١١ وقد تقدم.

على رسوله حيث لم يوجف عليها المسلمون بالخيل ولا بالركاب فقد ساق تحت هذه الترجمة حديث علي مع حمزة رضي الله عنهما في بَقْرِهِ خواصر ناقتيه وجَبّه أسنمتهما، وذكر أن إحداهما من الخمس، والأخرى من نصيبه من المغنم يوم بدر، ثم ذكر حديثاً آخر في قصة قدوم فاطمة عليها السلام على أبي بكر الصديق رضي الله عنه تطلب ميراثها مما أفاء الله به على رسوله.

قال العيني في شرحه لهذا الحديث قوله: مما أفاء الله عليه وهو المال الذي بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر، وقال ابن عباس: أموال قريظة والنضير بالمدينة وفَدَك(١).

قلت: وكذلك أموال مخيريق يهود وإن كانت أمواله في بني النضير كما في الفتح نقلاً عن ابن شبة(٢). ثم ذكر البخاري حديثاً آخر فيه إجابة أبي بكر رضي الله عنه لفاطمة رضي الله عنها... وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ؛ فأما صدقته بالمدينة فدفعها عمر إلى علي وعباس، وأما خيبر وفدك فأمسكهما عمر وقال: هما صدقة رسول الله ﷺ كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه وأمرهما إلى ولي الأمر قال: فهما على ذلك إلى اليوم(٣).

قلت: قوله: في الحديث فهما على ذلك إلى اليوم، هذا من كلام الزهري أخبر باستمرار ذلك إلى وقت تحديثه بهذا الحديث(٤).

---

(١) طالع عمدة القارئ شرح صحيح البخارب لبدر الدين العيني ١٥/٢٤.

(٢) جـ ٦ ص ٢٠٣.

(٣) أخرجها البخاري في أول كتاب فرض الخمس.

(٤) ذكر ذلك ابن حجر ٦/٢٠٤.

هكذا ذكر البخاري شأن فدك إلا أنه لم يتعرض لما وقع فيها من الصلح تفصيلا.

قال ابن حجر: وأما فدك وهي بفتح الفاء والمهملة بعدها كاف بلد بينه وبين المدينة ثلاث مراحل(١)، وكان من شأنها ما ذكره أصحاب المغازي قاطبة أن أهل فدك كانوا من يهود فلما فتحت خيبر أرسل أهل فدك إلى النبي ﷺ يطلبون الأمان على أن يتركوا البلد ويرحلوا(٢).

وذكر الواقدي قصة أهل فدك بسياق يدل على أنها دعوة محضة إلى الله، وآخره يدل على أن ما وقع فيها من الصلح وترك يهود فدك بأرضهم وإعطائهم الأمان وعدم التعرض لهم وتركهم يعيشون في مزارعهم ونخيلهم، في هذا كله مدعاة إلى الدخول في هذا الإسلام الحنيف، وعليه فتكون قصة فدك من أولها إلى آخرها دعوة إلى الدخول في الإسلام.

يقول الواقدي: إن نبي الله ﷺ لما دنا من خيبر ذاهباً إليها بعث إلى يهود فدك محيصة بن مسعود يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم غزوه لهم كما غزا أهل خيبر، فلما جاءهم عجبوا من أمره ونوهوا بشأن حصون خيبر ورجالها وقالوا: ما نرى محمداً يقترب منهم إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل، ولم يزالوا كذلك حتى بلغهم ما وقع لأهل خيبر فندموا على ما قالوا وأمروا محيصة أن يكتم عليهم فأرسلوا معه واحداً من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع في جماعة من اليهود فصالحوا رسول الله ﷺ علي حقن دمائهم ويخلوا بينه وبين الأموال وخرجوا، فإذا كان زمن الجذاذ جاؤوا فجذوا ولكن الصلح وقع على أن لهم نصف الأرض بتربتها ولرسول الله ﷺ

---

(١) في معجم البلدان ٢٣٨/٤ بينه وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة.

(٢) انظر فتح الباري ٢٠٣/٦.

نصفها فقبل رسول الله ﷺ ذلك، قال الواقدي وهذا أثبت القولين فأقرهم ﷺ على ذلك فقروا بها، حتى كان زمن عمر رضي الله عنه أجلاهم عنها وقَوَّم نصيبهم فبلغ خمسين ألف درهم أو يزيد فدفع إليهم تلك القيمة، انتهى منه بالمعنى مختصراً(١).

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق قصة أهل فدك وأنهم صالحوه إلا أن في آخرها اختلافاً مع ما ذكره الواقدي وها أنا ذا أسوقها لك بالحرف لاختصاره لها.

قال ابن هشام: خبر فدك: قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم بخيبر، وإلى هنا تتفق رواية ابن إسحاق والواقدي، ثم قال: أو بالطائف أو بعد ما قدم المدينة فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب(٢).

والظاهر أن رواية الواقدي أثبت اللّهم إلا إذا كان هناك موضع يسمى الطائف على جهة خيبر، وإن كان المراد بالطائف أنه صالحهم زمن حصاره لأهل الطائف بعد الفتح فهذا بعيد جداً والعلم عند الله تعالى.

* * *

---

(١) انظر المغازي للواقدي ٢/٧٠٦ – ٧٠٧ المرجع السابق.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٨٢٨.

قصة وادي القرى

لقد مر النبي ﷺ في رجوعه من خيبر بوادي القرى ودعا أهله إلى الإسلام فامتنعوا وحصل بينهم وبين المسلمين قتال فهزموا وسبيت أموالهم وعاملهم رسول الله ﷺ على الأرض كما فعل مع أهل خيبر.

وقد أشار البخاري رحمه الله إلى قصة وادي القرى فقد ساق بسنده إلى أبي هريرة قال: افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر(١) حتى أصاب ذلك العبد فقال الناس هنيئاً له الشهادة فقال رسول الله ﷺ: بلى والذي نفسي بيده أن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نار فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك(٢) أو شراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته فقال رسول الله ﷺ شراك أو شركان من نار(٣).

هكذا ذكروا هذا الحديث الذي فيه مروره بوادي القرى أما تفصيل القصة وما وقع فيها من الدعوة إلى الله ومن القتال والمصالحة فإنها ذكرها أهل المغازي، وسأذكر ان شاء الله كلام الواقدي، وأكتفي به، لأن الكثير منهم ينقل عنه، قلت: نبه علماء الحديث كالحافظ ابن حجر وغيره إلى ما في هذا الحديث من قول أبي هريرة: افتتحنا

---

(١) يقال سهم عائر إذا كان لا يدري من رمى به.

(٢) الشراك سير النعل.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور وفي كتاب المغازي، وأبو داود في كتاب الجهاد ١٥٥/٣ ـ ١٥٦ والنسائي في كتاب الأيمان والنذور ٢٤/٧ والموطأ في الجهاد.

خيبر مع أن أبا هريرة لم يقدم على خيبر إلا بعد أن فتحت، ويؤيد ذلك ما في بعض روايات هذا الحديث عنه أتيت النبي ﷺ بعد ما افتتحوها.

والجواب: أن أبا هريرة حضر قسمة الغنائم في خيبر بلا شك فالغرض من الحديث إنما هو قصة مدعم والتنبيه على شدة الوعيد في الغلول ويكون المراد عند أبي هريرة: افتتحنا يعني المسلمون، وروي ابن إسحاق الحديث بدون لفظة افتتحنا فقال انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى وعليه فيندفع الإشكال(١) هكذا أجاب ابن حجر وكأنه يميل إلى أن ثور بن زيد الديلي الذي عليه مدار الحديث من جميع الروايات التي ذكرت وهم في قوله افتتحنا وقال إن ابن إسحاق استشعر بذلك الوهم فرواه عنه بدونها.

* * *

(١) ذكر هذا الجواب ابن حجر في الفتح ٧/٤٨٨.

رواية الواقدي لقصة وادي القرى

تقدم أن وعدنا القارئ بنقل كلام الواقدي في شأن ما وقع في وادي القرى بين المسلمين واليهود، والآن آن الأوان لذلك.. قال محدثنا عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى... فذكر قصة العبد المهدي له ﷺ وموته رمياً بسهم، كما ذكر أهل الحديث إلى أن قال: وقد استقبلتنا اليهود بالرمي حيث نزلنا، ولم يكن النبي ﷺ على تعبئة... وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم ودفع ألويته وراياته إلى أصحابه، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله.. فأبوا وبرزوا للقتال وطلبوا المبارزة، فبرزت منهم أحد عشر رجلاً كلما برز منهم رجل خرج إليه رجل من المسلمين فقتله، وكلما قتل منهم رجل دعاهم ﷺ إلى الإسلام حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، وقد كانت الصلاة تحضر فيصلي ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام فقاتلهم حتى فتح الله عليه وادي القرى عنوة، فغنم المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وأقام ﷺ بوادي القرى أربعة أيام وقسم الغنائم على أصحابه وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها، فلما بلغ يهود تيماء خبر خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله فلما كان زمن عمر رضي الله عنه أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج يهود تيماء ووادي القرى؛ لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام. انتهى من المغازي للواقدي بتصرف واختصار(١).

---

(١) انظر المغازي للواقدي ٢/٧٠٩ - ٧١١.

فترى الواقدي وافق ابن إسحاق في عدم تصريحه عن أبي هريرة بقوله: افتتحنا، وإنما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، وقد ظهر لك مما ذكرنا أن شأن فدك لم يخرج عن الدعوة إلى الله كما تقدم، وكذلك قصة وادي القرى فإن اليهود عندما رأوا المسلمين بادروهم بالرمي حتى قتلوا رجلاً من جملة جيش المسلمين، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت على تأهب للقتال، وعند ذلك دعاهم الرسول ﷺ إلى الله وإلى رسوله، ولما أبوا خرجوا للقتال صار كلما قتل منهم مبارز دعا بقيتهم إلى الإسلام حتى فتح الله عليه أرضهم فلما فتحها وتغلب عليهم عفا عنهم وتركهم أحياء وعاملهم على أرضهم يأخذون بعضاً من غلتها يعيشون به آمنين لهم ذمة الله وذمة رسوله، وهذا من أعظم الدواعي للدخول في الإسلام وإن لم يكن دعوة صريحة مثل قوله لهم: اشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ولكنه لا يقل في نظري عن الدعوة الصريحة لما فيه من بيان سماحة الإسلام وعطفه على جميع الناس وعدم غدره لمن أمنه، وعدم خيانة أهله، كل ذلك يطلع عليه اليهود في الفترة التي عاشوها في خيبر وفدك ووادي القرى قبل إجلاء عمر بن الخطاب لمن أجلى منهم والعلم عند الله تعالى.

* * *

الفصل الثالث

غزوة مؤتة [١]

وهي سنة ثمان من الهجرة كما جزم به ابن سيد الناس[٢]، وهي موضع من بلاد الشام كما جزم بذلك ابن الأثير في النهاية وجزم بأنها بالهمز موافقاً الجوهري كما تقدم[٣] ، ويشتمل على ما يلي:

أولاً: ذكر سبب هذه الغزوة

ثانياً: بيان منهجية هذه الغزوة في الدعوة إلى الله جل وعلا.

ثالثاً: ذكر الأحاديث التي وردت في شأن هذه الغزوة والتعليق علي ما يحتاج إلى التعليق منها.

رابعاً: ذكر بعض الروايات التي ذكرها أصحاب السير والتاريخ في شأنها.

سبب غزوة مؤتة

كان سببها أن رسول الله بعث الحرث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتاب إلى الشام إلى ملك الروم أو إلى ملك بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، فعلم ﷺ بذلك فاشتد عليه فبعث ﷺ مؤتة[٤].

---

(١) يقال: موته بواو ساكنة ومؤتة بهمزة ساكنة فالأول مذهب المبرد والثاني مذهب الجوهري، ذكر ذلك عنهما ابن حجر في الفتح ٧/ ٥١٠ .

(٢) ٢/ ١٥٣ . النهاية لابن الأثير جـ ٤ ص٣٧١.

(٣) ، (٤) انظر فتح الباري ٧/ ٥١١ وزاد المعاد ٢/ ١٧٣ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف طه.

ولقد كان هذا الجيش الذي سار إلى بلاد الروم لا يتجاوز ثلاثة آلاف رجل وقد أمر ﷺ عليه زيد بن حارثة، وقال لهم: إن أصيب زيد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فخرجوا حتى وصلوا (معان) فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه من لخم وجذام والقيس، وبهراء، وبلى مائة ألف، ويقال: إن الروم مئتا ألف وغيرهم خمسون ألفا، حكاه السهيلي(١) كما حكى أن المسلمين لم يبلغ عددهم ثلاثة آلاف، ولما رأى المسلمون كثرة عدد عدوهم وعددهم تشاوروا في أمرهم فهموا بأن يكتبوا إلى النبي ﷺ أن يمدهم بجيش أو يأمرهم بأمر، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال لهم: يا قوم والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظفر وإما شهادة، فمضوا في سبيلهم ثم دنت الروم وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة فالتقى الجمعان فأخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عبد الله فقاتل حتى قتل، ثم أخذها خالد بن الوليد فقاتل حتى فتح الله على يديه وانتصر المسلمون كما يقتضيه حديث البخاري الآتي إن شاء الله، فإن فيه: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم، فهذه الرواية التي في البخاري تقتضي نصر المؤمنين، وهي رواية عن الواقدي وموسى بن عقبة خلافا لظاهر الروايات المروية عن ابن إسحاق، فإنها إنما تدل على أن خالداً انحاز بالمسلمين حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى دون انتصار، وقد رجح الحافظ البيهقي رواية الواقدي وموسى بن عقبة على رواية ابن إسحاق، ذكر ذلك عنه الحافظ ابن كثير في سيرته فانظره(٢)، كما رجح ابن القيم رواية ابن إسحاق فانظره(٣).

---

(١) انظر الروض الأنف ٨١/٤ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد.

(٢) ملخصا من قسم السيرة لابن كثير ٤٥٥/٣ – ٤٦٨ تحقيق مصطفى عبد الواحد - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) زاد المعاد ١٧٣/٣ – ١٧٤.

منهج الدعوة إلى الله في غزوة مؤتة

تقدم لنا أن إظهار قوة المسلمين وشجاعتهم ورغبتهم في الشهادة كل هذا دعوة إلى الله، وكذلك بيان ظهور الإسلام وتزايده يوماً بعد يوم، وقد ظهر هذا في غزوة مؤتة فلقد كان النصارى والعرب المتنصرون بعد مضي حوالي عشرين سنة من الرسالة وهم يسخرون من الإسلام وأهله ويحتقرونهم ويهمون بالقضاء عليه وعلى أهله، ويظهر ذلك في سبب غزوة تبوك الآتية بعد هذا الفصل إن شاء الله، ويكفي لما ذكرنا أن رسول الله ﷺ لما أرسل رسولاً إلى ملك الروم أو القائم بأمره ببصرى عرض له رجل من نصارى العرب من أمراء قيصر على الشام فقتله، وليس ذلك إلا استخفافاً بالإسلام والمسلمين، وإعجابا بالنصارى وما هم فيه من الكثرة والمنعة عدداً، وعدداً، فلما كان أمرهم هكذا كان من المناسب لإظهار قوة الإسلام على جميع الأديان وشجاعة أهله ونصر الله المستمر لهم أن يغزو المسلمون النصارى في عقر ديارهم ويظهروا لهم قوتهم وقوة دينهم وشجاعتهم وعدم جبنهم ورغبتهم في الثواب الذي أخبرهم به رسولهم ﷺ إذا ماتوا يدعون إلى الله مجاهدين في سبيله شهداء، وقد تمثل ذلك في جيش مؤتة الذي لا يتجاوز ثلاثة آلاف رجل أو أقل من ذلك، حيث التقى هذا العدد القليل مع ما تقدم ذكره من عدد جيوش الروم وما انضم إليهم من نصارى العرب ، فقد قيل إن الجميع مئتا ألف وخمسون ألفاً، وقد قاوم هذا الجيش بشجاعته وإيمانه الكامل هذا العدد من النصارى في معارك متوالية حتى فتح الله جل وعلا عليهم ونصرهم. ومن نظر إلى العدد الذي استشهد منهم في هذه الغزوة علم أنهم كانوا أهل شجاعة كاملة وإيمان كامل، وفي ذلك من الترغيب في الدخول في الإسلام ما لا يخفى على الناظر.

فقول عبد الله بن رواحة: يا قوم إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون

(الشهادة) وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، يكفي في الاستدلال على ما ذكرنا.

وكذلك ما وقع من جعفر بن أبي طالب لما قاتل فقطعت يده فقاتل حتى قطعت يده الأخرى، فاحتضن الراية حتى قتل، ووجد فيه بعد موته بضع وتسعون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ليس في دبره من ذلك شيء كما سيأتي فهذه مظاهر في هذه الغزوة دلت على شجاعة المسلمين أمام النصارى دلالة واضحة، وما ذاك إلا من قوة هذا الدين وبركته على من اعتنقه وصدق بأنه هو الدين الذي لا يقبل الله من الأديان سواه، فالروم مع ما انضم إليهم من العرب الذين يدينون بدينهم إذا رأوا هذه الفئة القليلة من المسلمين التي لا تبلغ إلا حوالي عشر عشرهم، ورأوا قتالهم وشجاعتهم ورغبتهم في الشهادة ونصرة الله لهم علموا أن دينهم حق وأن لديهم عناية من الله جل وعلا وأنهم صادقون فيما يقولون ويعتقدون وعلموا أن نبي الإسلام محمداً ﷺ صادق فيما يخبر به عن ربه وأنه مرسل إليهم وإلى الخلق كافة.

* * *

الأحاديث الواردة

في شأن غزوة مؤتة

ترجم المحدثون والمؤرخون وبعض أهل السير بهذا العنوان (غزوة مؤتة) وإن كان بعض أهل السير جرت عادتهم بأن يسموا كل عسكر حضره ﷺ بنفسه الشريفة غزوة، وما لم يحضره بأن أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو دون أن يخرج معهم سرية أو بعثاً، ولهم في ذلك تفاصيل بين البعث والسرية(١).

قلت: إن غزوة مؤتة هذه يمكن أن يقال: إنه ﷺ حضرها معنى، وذلك أنه عليه السلام ما زال يخبر أهل المدينة بخبرها وينعى لهم ما استشهد من أهلها وما وقع لهم من القتال مع عدوهم وما فتح الله عليهم به، وعليه فإذا لم يكن حضرها بجسمه الشريف، فإن الله أراه ما وقع فيها وما حل بأهلها من كل شيء حتى حدث عنها حديث الحاضر، فعدها من المغازي عند من فرق بين من شهدها عليه السلام بنفسه من الغزوات وبين من لم يشهدها له وجه كبير من النظر والعلم عند الله تعالى.

ولقد روى البخاري رحمه الله في شأن غزوة مؤتة ستة أحاديث مع أن غيره لم يذكر منها إلا القليل، فذكر بعض المحدثين طرفاً من هذه الأحاديث في غير شأن غزوة مؤتة، أما البخاري فإنه ساقها تحت عنوان غزوة مؤتة، فقال: باب غزوة مؤتة من أرض الشام، ثم ساق بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ وهو من ذلك الجيش ـ وهو:

---

(١) انظر أنارة الدجى في مغازي الورى ١/٢٩.

الحديث الأول:

قال: إنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل فعد به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره.

ثم ساق عنه أيضاً.. وهو:

الحديث الثاني:

قال أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله إبن رواحة، قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية.

ثم ساق بسند آخر إلى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

ثم ساق سنداً آخر إلى عائشة رضي الله عنها قالت: لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر ابن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جلس رسول الله ﷺ يعرف فيه الحزن، قالت عائشة وأنا أطلع من صائر الباب[١] تعني من شق الباب فأتاه رجل فقال: أي رسول الله إن نساء جعفر ـ وذكر بكاءهن فأمره أن ينهاهن. قال فذهب الرجل ثم أتى فقال: قد نهيتهن. وذكر أنه لم يطعنه[٢] قال: فأمر أيضاً

---

(١) من صائر الباب أي من شقه ويقال صير الباب أي شقه، كما في الجوهري.

(٢) في رواية أنهن لم يطعنه.

فذهب ثم أتى فقال: قد نيعتهن، وذكر أنه لم يطعنه، قال: فأمر أيضاً. فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبنا فزعمت أن رسول الله ﷺ قال: فاحثُ في أفواههن من التراب، قالت عائشة: فقلت: أرغم الله أنفك، فوالله ما أنت تفعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء» يابن ثم ذكر عن الشعبي أن ابن عمر كان إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ين ذي الجناحين، ثم أخرج عن خالد بن الوليد بسنده أنه قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، وأخرج عنه بسنده أيضاً أنه قال: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصرت في يدي صفيحة لي يمانية(١).

أما الكلام على هذه الأحاديث الذي وعدنا به القارئ في أول الفصل فإنها لا تحتاج إلى كثير من ذلك؛ لأننا لم نذكر منها إلا أحاديث البخاري وليس فيها ما ظاهره التعارض إلا حديث عبد الله بن عمر الأول؛ فإن في رواية أحمد بن صالح عن ابن وهب أن ابن عمر عد خمسين بين طعنة وضربة في جعفر بن أبي طالب وليس شيء منها في ظهره.

وفي رواية أحمد بن أبي بكر عن مغيرة أن ابن عمر وجد جعفرا في القتلى وفيه بضع وتسعون من طعنة ورمية، فظاهر هاتين الروايتين التخالف، وأحسن ما قيل عندي في ذلك أن الخمسين مقيدة بكونها ليس شيء منها في ظهره وإنما هي جميعها في بطنه، أعني المقابل لظهره كما يدل له لفظ الحديث الذي ذكرت فيه الخمسون، فإن فيه: ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره، ويكون ما زاد على الخمسين في سائر جسده، ولا يلزم من ذلك أنه طعن أو رمي أوضرب وهو فار حتى أصابه الرمي والضرب في قفاه، بل إن ذلك تسبب له من اقتحامه جيش الروم حتى توسطه فصاروا

(١) أخرجها البخاري في كتاب المغازي في باب: غزوة مؤتة.

يرمونه ويضربونه من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله[1].

كذلك في قوله ﷺ في حديث أنس: « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » ظاهره يتعارض مع ما يذكره كثير ممن تكلم من أهل السير على غزوة مؤتة من أن المسلمين لم ينتصروا فيها، وإنما معنى هذا الفتح أن خالداً انحاز بهم عن الروم، وأن ذلك يعد نصراً، وسوف أتكلم على هذا إن شاء الله عندما أذكر طرفاً من أخبار أهل السير.

* * *

(١) انظر فتح الباري فقد ذكر هذا الوجه من الجمع ووجهين قبله ٥١٣/٧ .

تلخيص موجز

لكلام أهل السير عن غزوة مؤتة

بعد انصرافه ﷺ من عمرة القضاء جلس في المدينة أشهراً من السنة الثامنة من الهجرة، ثم بعث جيش الأمراء في جمادى الأولى منها كما عند ابن سيد الناس وابن سعد ومن وافقهما، أو في جمادى الأخيرة كما عند ابن عبد البر ومن وافقه، وأمر على الجيش، الذي أقصى حد قيل في عدده أنه ثلاثة آلاف، أمر عليه زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة وودعهم وأمرهم ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث ابن عمير وأن يدعوا من هناك من الروم إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، فلما خرجوا من المدينة سمعت بهم الروم والعرب المنتصرة فجمعوا جموعاً هائلة قيل إنها مئتا ألف وخمسون ألفاً، وأعدوا عدة كاملة والتقى الجمعان بموضع يقال له مؤتة من أرض الشام (فدعوهم إلى الله فأبوا) فاقتتلوا فقتل الأمراء الثلاثة فاصطلح الناس على أن يأخذ الراية خالد بن الوليد فأخذها خالد.

ومن هنا تختلف العبارات عند أهل السير. فابن عبد البر يقول: انحاز خالد بالمسلمين ـ يعني أنه انحاز بهم عن العدو ولم يصرح بهزيمته ـ أما ابن سعد فإنه يقول في أول كلامه: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين... إلى أن قال: فلما قدموا جعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟ فيقول الرسول ﷺ: ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله. ومع هذا فإنه يروي رواية أخرى صريحة في هزيمة المشركين ونصر المسلمين ستأتي إن شاء الله، وقد وافق كثير من أهل السير ابن سعد في هذه الرواية التي فيها إن المسلمين انهزموا أشد هزيمة وأنهم قيل

لهم ذلك بالمدينة، حتى أن بعض الصحابة اختفى برهة من الزمن من شدة الخجل، فذكر ذلك الواقدي والسهيلي كما ذكره ابن إسحاق قبلهما فلعل الجميع رووا ذلك من طريق ابن إسحاق والواقدي؛ لأن الكثير من أهل السير أخذ سيرته عنهما ولا سيما ابن سعد فإنه تلميذ الواقدي والله تعالى أعلم(١).

وقد قدمت أني سوف أتكلم على هذا الموضوع وأبين ما ظهر لي فيه إن شاء الله حسبما وقفت عليه من الأحاديث ومن كلام أهل السير.

وأقول: الذي يظهر لي، والله تعالى أعلم، أن المسلمين في مؤتة انتصروا ولم ينهزموا تدل لذلك الأمور التالية:

أولاً: ظاهر حديث البخاري يفيد ذلك حيث قال ﷺ: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم، فإن التعبير بالفتح لا يتناسب إلا مع الانتصار والظفر بالمطلوب، واحتماله غير ذلك بعيد عندي.

ثانياً: ما رواه أبو داود في سننه من التصريح بأن الله فتح على المسلمين وأنهم غنموا بعض المغنم فقال رحمه الله: (باب في الإمام يمنع القاتل السلب إن رأى، والفرس والسلاح من السلب) حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثني صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك الأشجعي قال: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة فرافقني مددي(٢) من أهل اليمن ليس معه غير سيفه فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددي طائفة من جلده فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرق ومضينا فلقينا جموع الروم

---

(١) ملخصا من عيون الأثر لابن سيد الناس ١٥٣/٢ والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ٢٢٢ وابن سعد ١٢٨/٢.

(٢) المددي نسبة إلى المدد الذي يأتي لإعانة غيره: القاموس مادة مدد.

وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب فجعل الرومي يفري[1] بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمر الرومي فعرقب فرسه فخر وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله عز وجل للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ من السلب قال عوف: فأتيته فقلت: يا خالد أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ولكني استكثرته قلت: لتردنه عليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ فأبى أن يرد عليه، قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد فقال رسول الله ﷺ: يا خالد ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله لقد استكثرته فقال رسول الله ﷺ: يا خالد رد عليه ما أخذت منه، قال عوف: فقلت له: دونك يا خالد ألم أفِ لك؟ فقال رسول الله ﷺ: وما ذلك؟ فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ فقال يا خالد لا ترد عليه هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره[2].

هكذا في أبي داود ومسلم هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ وورد في الأحاديث الصحاح: هل أنتم تاركوا لي، كما في قوله عليه السلام: هل أنتم تاركوا لي صاحبي[3]؟ وكلاهما فصيح.

ثالثاً: ما تقدم من رواية البخاري عن خالد أن دقت في يده في ذلك اليوم تسعة أسياف ولم يبق في يده إلا صفيحة يمانية فلو كان عندما أخذ الراية انكشف

---

(١) أن يبالغ في النكاية بهم وأصل الفري الشق: القاموس المحيط مادة فري.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد ١٦٣/٣ - ١٦٥ وأخرجه مسلم في الجهاد أيضاً ١٣٧٣/٣ وليس في رواية مسلم التصريح بالفتح وقال عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول لابن الأثير: إن اسناد أبي داود صحيح؛ لأن اسماعيل بن عياش قد رواه عن أهل بلده فانظر جامع الأصول ٦٨٩/٢ ط الملاح.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير: باب ﴿قل يا أيها الناس أني رسول الله إليكم جميعا﴾.

بالمسلمين عن العدو وانحاز الروم لما وقع ما ذكر، والذي ذكر يدل على وقوع معركة ضارية دخلها خالد حتى دقت في يده تسعة أسياف وانتهت بفتح الله على يده بالنصر.

رابعاً: في الحديث اشارة خفية تدل على أن خالداً لم ينهزم وهي قوله ﷺ لخالد: إنه سيف من سيوف اللّه، وذلك هو أول يوم سمي سيف الله فلا يمكن بحال أن يكون خالد سيف الله ويغلبه الروم فكأن الحديث يشير إلى قوة المسلمين عندما أخذ خالد القيادة، وأن سيف الله غالب على كل سيف، ولم أقف على من ذكر هذا وقد وضح لي، والله تعالى أعلم.

خامساً: إن هؤلاء الذين ذكروا هذه الهزيمة عن المسلمين لم تثبت رواياتهم بأسانيد تقاوم ما ثبت في صحيح البخاري وأبي داود من التصريح بالفتح على المسلمين ومع ذلك فإن بعضهم روي عنه ما ذكر في الحديثين من النصر وهزيمة المشركين، فابن سعد بعد أن حكى ما ذكر من الهزيمة يروي لنا الخبر التالي: أخبرنا بكر ابن عبد الرحمن... عن أبي عامر قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى الشام فلما رجعت مررت على أصحابي وهم يقاتلون المشركين بمؤتة، قلت: والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ولبس السلاح، وقال غيره أخذ زيد اللواء، وكان رأس القوم ثم حمل جعفر حتى إذا همّ أن يخالط العدو... فأخذ اللواء رجل من الأنصار ثم مشى به إلى خالد بن الوليد، فقال له خالد: لا آخذه منك أنت أحق به، فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك، فأخذ اللواء خالد ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا وقال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته[١].

---

(١) طالع الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٢٩ - ١٣٠.

وكذلك الواقدي لما صرح أولاً بأن خالداً انهزم ، روى بعد ذلك صريحا أنه هزم المشركين وقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم، ثم بعد ذلك قال: والأول أثبت عندنا، يعني ما ذكره من هزيمة خالد أولاً فانظره(١).

أضف إلى هذا أن موسى بن عقبة ذكر مغازيه وهي أصح المغازي كما جزم بذلك الحافظ ابن حجر في الفتح ما نصه: ثم أخذ ـ يعني اللواء ـ عبد الله بن رواحة فقتل، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين(٢).

سادساً: على تقدير أن جيش المسلمين انهزم يوم مؤته وفروا عن الروم، كيف تتلقاهم الجموع من أهل المدينة يذمونهم ويوبخونهم بقولهم يا فرار..؟

مع العلم بأن الله جل وعلا إنما أمرهم في سورة الأنفال التي من أول القرآن نزولاً بالمدينة بمصابرة الرجل الواحد اثنين من الكفار فقط وما زاد على ذلك لم يؤمر بالصبر أمامه وذلك عندما علم الله جل وعلا ـ بأن أظهر علمه للخلق ـ ضعف المسلمين وخفف عنهم بعد أن كانوا ملزمين بأن يثبت الرجل المسلم أمام عشرة من أعدائه فنسخ ذلك الحكم وألزم المسلم بمصابرة اثنين فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾(٣).

---

(١) ٢/٧٦٤ المرجع السابق.

(٢) بواسطة نقل ابن حجر في الفتح ٥١٣/٧، ٥١٤.

(٣) آيتي ٦٥ ــ ٦٦ من سورة الأنفال.

فهذا الحكم الثابت من السنة الثانية من الهجرة إلى السنة الثامنة كيف يخفى على أهل المدينة الذين يعلمون عدد جيش المسلمين وأنه لا يزيد على ثلاثة آلاف، وقد بلغهم عدد جيش الروم وعلموا أن المسلمين ليسوا مطالبين بالمصابرة على أكثر من ستة آلاف منه، وقد بلغ عدد الروم وما انضم إليهم فيما قيل مئتي ألف وخمسين ألفاً، فدل هذا على أن الروايات التي تناقلتها أهل السير غير ثابتة، والعلم عند الله تعالى.

ويدل لما ذكرنا أيضاً أن المسلمين في ذلك اليوم استشهد منهم نحو عشرة فقط(١).

فبان من العرض لهذه الغزوة أنها منهج من مناهج الدعوة لما وقع فيها من الدعوة إلى الله كما قدمنا في تلخيصها عن ابن سعد، ولما ظهر فيها من شجاعة المسلمين ورغبتهم في الشهادة في سبيل الله ثقة بما أخبر به نبينا ﷺ، وقد قدمنا أن ظهور قوة الإسلام وتزايد المسلمين وتتابع نصر الله لأنصار رسل اللّه، قدمنا أن هذا كله مدعاة للدخول في الإسلام لأنه سبب في النظر في هذا الدين، وفي أهله، وكل من تأمل هذا الدين وأهله بدقة ونظر وراجع النظر في سماحته وسماحة أهله، وكيف يعاملون الناس، وكيف يتعاملون فيما بينهم، من نظر في هذا كله، عرف الإسلام على الحقيقة، ومن عرف الإسلام على الحقيقة دخل فيه من حيث لا يشعر.

* * *

(١) انظر جوامع السير لمحمد بن حزم ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

الفصل الرابع

غزوة تبوك

تبوك أرض بين الشام والمدينة(١)، وهي مكان معروف في نصف طريق المدينة إلى دمشق بينها وبين المدينة أربع عشرة مرحلة، واشتقاق اسمها من البوك وهو أخذ الماء بالأواني للتوصل إلى الماء النقي، وقد جاءها النبي ﷺ ووجد جماعة من قومه يغترفون ماء عين بها فقال: ما زلتم تبوكونها فسميت حينئذ تبوك(٢).

وفي القاموس: باك العين ثور ماءها(٣)، وقد كانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع قبل حجة الوداع، وإن كان البخاري ذكرها بعد حجة الوداع، قال ابن حجر: ما أظن ذاك إلا من النساخ وهو خطأ(٤).

أما الكلام على هذه الغزوة فسوف يكون إن شاء الله على النحو التالي:

أولاً: بعد بيان اشتقاق تبوك الذي تقدم أذكر سبب غزوه عليه السلام لتبوك.

ثانياً: أذكر بعض الأحاديث التي تتعلق بهذه الغزوة من حيث الدعوة.

ثالثاً: بيان منهجية هذه الغزوة في الدعوة إلى الله تعالى، ثم أعلق على ما يحتاج إلى التعليق من الأحاديث والأخبار إذا دعت الحاجة إلى ذلك ثم ألخص الغزوة تلخيصاً موجزاً كما فعلت الغزوات قبلها.

---

(١) القاموس مادة باك.

(٢) هكذا في فتح الباري ١١١/٨ ومعجم البلدان ١٥/٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر الفتح ١١١/٨.

سببها

سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ بلغه أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء تعرضاً لغزو المسلمين بالمدينة.

لهذا، ندب ﷺ المسلمين إلى الخروج إليهم وأعلمهم بالمكان الذي يريد الخروج إليه ليتأهبوا تأهباً كاملاً؛ لأن ذلك الوقت كان في حر شديد، وقيظ عظيم، وحث الناس على الإنفاق لتجهيز ذلك الجيش، وكان الفضل في ذلك لله تعالى ثم لعثمان ابن عفان(١).

روى الطبراني من حديث عمران بن حصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: أن هذا الرجل الذي خرج يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم يقال له قياذ وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ولم يكن للناس قوة وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام فقال: يا رسول الله هذه مئتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومئتا أوقية، قال: فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعد هذا(٢).

وروى الترمذي أن عثمان جهز ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فانظره(٣).

ولا تعارض بين هذا وبين رواية الطبراني فإن حديث الترمذي يحمل على أنه أعطى أولاً مائتي بعير، ثم استزاد ﷺ فزاد عثمان مائة حتى صارت ثلاثمائة بعير،

---

(١) طالع الطبقات الكبرى لابن سعد ١٦٥/٢ فما بعدها وفتح الباري ١١١/٨.

(٢) بواسطة نقل ابن حجر في الفتح في المصدر المتقدم قريبا نفسه.

(٣) ٢٨٩/٥.

فيكون عمران بن حصين حدث بما سبق وفاته الأخير، وحدث به عبد الرحمن بن خباب عن الترمذي، كذلك الروايات التي فيها الزيادة الكثيرة على هذا فتبينها رواية أبي عبد الرحمن السلمي عند الترمذي أيضاً عن عثمان لما حوصر.. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة والناس مجهدون معسرون فجهزت ذلك الجيش، قالوا: نعم(١)... فعثمان صرح في هذا الحديث بأنه جهز الجيش فيدخل في ذلك التجهيز كل ما وردت به الزيادة في بعض الروايات على بعض: وقد قال الترمذي بعد تخريجه الحديث المذكور: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان، كما ذكر ابن عبد البر أنه جهز تسعمائة بعير، ومائة فرس وجهزهم حتى لم يفقدوا عقالاً ولا شكالاً، وهو ما تربط به أحدى قوائم الدابة الأمامية مع إحدى قوائمها الأخيرة، وأنفق أيضاً ألف دينار(٢).

أما الواقدي فيقول: إن سبب غزوة تبوك أنه قدم على المدينة قوم من الأنباط تجاراً من الشام كعادتهم وذكروا للمسلمين تهيأ الروم واستعدادهم للقتال وأن هرقل تخلف عنهم بحمص.. ويقول: ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين من الروم، لما عاينوا منهم إذ كانوا يقدمون عليهم تجاراً في الشام فيرون ما لديهم من قوة.. فعند ذلك عزم الرسول ﷺ على غزوهم(٣)..

قلت: وهذا قريب مما ذكره ابن سعد.

---

(١) سنن الترمذي ٥/٢٨٨ المرجع السابق.

(٢) انظر الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص٢٥٣، وانظر جوامع السير لابن حزم ص٢٥٠.

(٣) طالع المغازي للواقدي ٣/٩٨٩ - ٩٩٠ المرجع السابق.

وروى البيهقي في دلائل النبوة أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء فغزا تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى هذه الآيات من بني إسرائيل: ﴿وأن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا﴾ (١).

قال ابن حجر: وإسناده حسن مع كونه مرسلاً(٢)، وقد تقدم الكلام على نزول آيات مدنية في سورة مكية.

هذا ما كان من سبب هذه الغزوة المباركة.

* * *

---

(١) الآية: ٧٦ من سورة الإسراء.

(٢) فانظره ٨/١١٢.

الأحاديث التي تتعلق بشأن الدعوة

في هذه الغزوة

إن نبينا ﷺ دعا أهل الكتاب في غزوة تبوك دعوة صريحة وذلك أنه لما وصل إلى تبوك أرسل إلى قيصر عظيم الروم يدعوه إلى الله عز وجل.

وقد تقدم طرف من هذا الكلام في الباب الثاني: وسؤلم به الآن أيضاً وذلك.

أننا تقدم لنا أنه ﷺ أرسل كتبه إلى عظماء وملوك الأقطار مع جماعة من أصحابه سنة سبع من الهجرة، وصنيع البخاري في روايته لغزوة تبوك يقتضي أنه أرسل أيضاً إلي كسرى وقيصر سنة تسع وهو بتبوك، ووقع التصريح بذلك في رواية التنوخي عند الإمام أحمد وقد تقدمت، وسوف أذكرها إن شاء الله أيضاً والسبب في ذكري لحديث التنوخي مرة أخرى أن البخاري صرح في روايته بأن إرسال النبي ﷺ بكتابه إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام مع دحية بن خليفة الكلبي كان زمن الهدنة التي وقعت عقب صلحه مع قريش عام الحديبية، وذكره الحديث الآتي هنا في آخر باب غزوة تبوك يدل على أنه أرسل إليه كتاباً آخر وهو في تبوك، ويؤيد ذلك ما رواه أهل المغازي من أنه ﷺ لما وصل إلى تبوك كتب إلى قيصر وغيره.

قال الحافظ ابن حجر: وهي غير المرة التي كتب إليه في زمن الهدنة كما صرح به في الخبر وذلك سنة سبع.

قال البخاري رحمه الله (باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر) ثم ساق سنده إلى ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى

فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق(١).

ومحل الشاهد قوله: إلى كسرى وقيصر.

فقول البخاري: باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر هنا يدل على أنه وقعت كتابة وهو في غزوة تبوك كما سيتضح ذلك إن شاء الله من رواية الإمام أحمد، ومن كلام أصحاب المغازي، فكأن البخاري أشار للقصة ولم يخرجها، روى الإمام أحمد بسنده إلى سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص وكان جار إلى شيخاً كبيراً قد بلغ الفند أو قرب فقلت ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلي النبي ﷺ، ورسالة رسول الله ﷺ إلى: هرقل؟ فقال: بلى قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيس الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم باباً فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إلى ثلاث خصال، يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه ما لنا على أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن ما تحت قدمي فهلم نتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا فنخروا نخرة رجل واحد، ثم خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم فأهم ولم يكد وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه فجاء بي فدفع إلى هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل فما ضيعت من حديثه فاحفظ لي منه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة تبوك.

ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إلي بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟ فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء فقلت أين صاحبكم؟ قيل ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته الكتاب فوضعه في حجره ثم قال: ممن أنت؟ فقلت: أنا أحد تنوخ، قال: هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين(١)، يا أخا تنوخ: إني كتبت كتاباً إلى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مخرقه ومخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام العيش في خير، قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي وأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره قلت من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبت في جلد سيفي، فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها إنا سفر مرملون قال: فناداه رجل من طائفة الناس، قال: أنا أجوزه ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار: أنا. فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ قال: تعال يا أخا تنوخ فأقبلت أهوي إليه حتى كنت قائماً في مجلسي

---

(١) الآية: ٥٦ من سورة القصص.

الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره وقال: هاهنا امض لما أمرت له. فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غضون[١] الكتف مثل الحجمة الضخمة[٢].

فتصريح هذا الرواي في هذا الحديث بأنه أرسل الى رسول الله ﷺ من قبل هرقل وهو بتبوك، وقدم عليه بها فإنه قال: قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية... إلخ.

وقال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك.. إلخ وفي الحديث قوله ﷺ يخاطب التنوخي.. وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، كل هذا دليل واضح على أنه ﷺ أرسل كتاباً مع رسول من أصحابه بعدما قدم تبوك إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الله جل وعلا، ولا منافاة بين هذا وبين ما في الصحيح من أنه ﷺ أرسل كتاباً إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي وذلك سنة سبع زمن المادة التي ماد فيها رسول الله ﷺ قريشا وصالحهم على ترك الحرب عشر سنين، وكان ذلك سنة سبع ثم لما كان سنة تسع وسافر إلى تبوك، أرسل أيضاً كتاباً إلى هرقل يدعوه إلى الله سواء أكان هرقل المذكور في الكتاب الثاني هو هرقل الذي أرسل إليه الكتاب الأول، أو كان هرقل والعلم عند الله.

فظاهر هذين الحديثين التعارض لما في حديث الصحيحين من التصريح بالتاريخ، وهو أنه في المدة التي وقعت فيها الهدنة بين المسلمين وقريش أهل مكة، وفي هذا الحديث التصريح بأن هرقل أرسل إليه كتاباً من تبوك وأن هرقل أرسل إلى الرسول ﷺ كتابا مع رسول وقدم عليه به وهو بتبوك، ولكن الجمع ممكن وظاهر، وذلك أن

---

(١) تقدم معنى هذه الآية.

(٢) المسند للإمام أحمد ٣/٤٤١.

الإرسال تعدد فقد أرسل ﷺ سنة سبع عدة كتب منـها كتابه إلى هرقل، ومنها كتابه إلى كسرى، ومنها كتـابه إلى النجـاشي، وحديث الإمام أحـمد صرح بهذه الـكتب الثلاثـة، وأنـهـا مـتقـدمـة على هـذا الكتاب ثـم بـعـد ذلك لمـا وصل ﷺ أطراف الشام (تبوك) بدا له أن يـجدد الدعوة إلى عظيم الروم فأرسل إليه كـتاباً مع دحية بن خليفة الكلبي الذي سبق أن أرسل معـه الكتاب الأول؛ لأنه عرف كيف يلقاه وكيف يبلغه رسالة نبينا محمد ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر بعد شرحه لحديث البخاري الذي قدمنا ما نصه:

تنبيه: في إيراد هـذا الحديث آخر هـذا الباب إشارة إلـى أن إرسال الكتـب إلى الملوك كان في سنـة غزوة تبوك، ولكن لا يدفع ذلك قول من قال إنـه كاتب الملوك في سنة الهدنة كقيـصر، والجمع بين القولين أنه كاتب قيصر مرتـين وهذه الثانية، وقد وقع التصريح بها في مسند أحمد، وكاتب النجاشـي الذي أسلـم وصلى عليـه لما مات، ثم كـاتب النجـاشي الذي ولـى بعده وكـان كافراً، وقد روى مـن حديث أنـس قال: كـتب الـنبـي ﷺ إلـى كل جـبار يـدعـوهم إلـى الله وسـمى مـنهـم كـسرى وقـيصـر والنجاشي، قال: وليس بالنجاشي الذي أسلم(١).

ويدل لما ذكـرنا ما ذكره السهيلي في الروض الأنـف تحت عنوان (الكـتاب إلي هرقل) قال: ولم يذكر ابن إسحاق في غزوة تبوك ما كان من أمر هرقل فإن النبي ﷺ كتب إليه من تبوك مع دحية بن خليفة ونـصه مذكور في الصحاح مشهور، فأمر هرقل منـادياً يـنادي: ألا إن هرقـل قد آمـن بمحـمد واتبـعه فـدخلت الأجـناد فـي سلاحـها وأطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم إنـي أريد أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم فرضوا عـنه، ثم كتب كتاباً وأرسله مع دحية يقـول فيه للنبي ﷺ: إني

---

(١) طالع فتح الباري ١٢٩/٨.

مسلم ولكني مغلوب على أمري، وأرسل إليه بهدية فلما قرأ النبي ﷺ كتابه قال:

«كذب عدو الله ليس مسلم بل هو على نصرانيته»(١).

وحاصل هذه الغزوة أنه ﷺ خرج بنفسه في رجب سنة تسع من الهجرة، وهي آخر غزواته قاصداً الروم في بلاد الشام في شدة من الحر وفي زمن عسرة، وطلب من أصحابه أن يخرجوا معه وكان ذلك في ضيق من الحال فخرج معه نحو ثلاثين ألف رجل، ولما أراد الخروج حث أهل الغنى على الإنفاق، وكان الحظ الأوفر في ذلك لعثمان بن عفان فقد وقف موقفاً لم يكن لأحد سواه فقد تقدم عن ابن عبد البر وابن حزم أنه جهز تسعمائه بعير ومائة فرس وأنفق ألف دينار.

وسار ﷺ حتى وصل تبوك فلما وصلها علم به الروم، وأرسل ﷺ كتاباً إلى هرقل، فلما وصله دعا قسيسي الروم وبطارقتها وأغلق عليهم الأبواب، وأخبرهم أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيره بين ثلاث خصال، أن نؤمن، أو نعطي الجزية والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله إنكم لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن أرضنا فهلم فلنتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا، فأبوا وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز.. وقد قدم عليه ﷺ وهو بتبوك يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل (جرباء) و(أذرح) فأعطوه الجزية وكتب لهم كتاباً، وصورة كتابه ليحنة كالآتي.

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً

---

(١) الروض الأنف ٣٦٣/٧ - ٣٦٤ تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل.

يردونه، ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر، ثم بعث خالد بن الوليد إلى (أكيدر دومة الجندل) وهو أكيدر ابن عبد الملك رجل من بني كندة ملكاً عليها وهو نصراني فخرج إليه خالد فلقيه يصطاد الوحش ففي الليل هو وأخوه فقتل خالد أخاه وأسره هو وقدم به على رسول الله ﷺ، ولما قدم عليه به حقن دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله فخرج إلى بلده، وأقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ثم قفل إلى المدينة، انتهى ملخصاً من السيرة النبوية للحافظ ابن كثير فانظر فيها(١).

وقيل أقام أكثر من ذلك فانظر كتب السير هنا، وهذا ما يتعلق بمنهج الدعوة إلى الله من قصة غزوة تبوك، وإلا فإن أهل الحديث والسير رووا فيها أخباراً كثيرة ولكنها لا تعلق لها بالدعوة تركناها لأجل ذلك، منها حديث كعب بن مالك الطويل في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ وهم مسلمون مخلصون وتخلفوا دون عذر، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع ومنها شأن المنافقين وما وقع منهم في تلك الغزوة وما نزل فيهم من القرآن فقد نزلت في شأنهم آيات كثيرة من سورة التوبة، وكما وقع فيها من دلائل نبوته ﷺ، من تكثير الطعام ومن فوران الماء من عين تبوك، ومن نزول المطر، إلى غير ذلك من القضايا التي لا تعلق لها بمنهج الدعوة وهي كثيرة جداً، ومنها الاختلاف في مدة مقامه بتبوك هل هو عشرون ليلة أو بضع عشرة ليلة، ومنها قصة البكائين الذين قدموا عليه ﷺ يريدون أن يحملهم ولم يجد ما يحملهم عليه، ومنها قصة الجد بين قيس واعتذاره للنبي ﷺ عن الخروج معه مخافة الفتنة بنساء بني الأصفر، ومنها رجوع عبد الله بن أبي بن سلول بطائفة المنافقين عنه إلى غير ذلك مما أكثر منه أهل المغازي، والسير.

* * *

(١) السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ٤/٣٠ ـ ٣٢ المرجع السابق.

بيان ما اشتملت عليه غزوة تبوك

من دعوة أهل الكتاب

قد قدمنا في أول هذا الباب أن اظهار قوة المسلمين أمام أعداء الإسلام من أهل الكتاب منهج من مناهج دعوتهم إلى الدخول فيه، ويتمثل ذلك في غزوة تبوك من حيث أنها كانت في ساعة العسرة كما سماها الله بذلك في قوله: ﴿... الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم..﴾[1] فخروج النبي ﷺ وأصحابه في شدة الحر وقطعهم تلك المسافة البعيدة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بشق الأنفس وتجشمهم تلك المفاوز حتى وصلوا إلى أرض تبوك قاصدين بلاد الشام يريدون الروم في عقر ديارهم مع ما هم فيه من كثرة العدد والعدد، والتأهب للقتال كما قدمنا أول الفصل أن هرقل رزق أصحابه لسنة تأهباً لقتال المسلمين، فالروم وما انضم إليهم من العرب المتنصرة زحفوا إلى البلقاء استعداداً لغزو المسلمين، أضف إلى ذلك أن الخبر الذي قدمنا عن الطبراني من حديث عمران ابن حصين أن نصارى العرب أخبروا هرقل أن هذا الرجل الذي يدعى النبوة، يريدون نبينا محمداً ﷺ، قد هلك وأن أصحابه أصابتهم سنون فهلكت أموالهم وأن هرقل بعث رجلاً من عظماء قومه في أربعين ألف مقاتل يريد غزو المسلمين، فبهذا كان من المناسب اظهار قوة الإسلام والمسلمين وشجاعتهم وتحملهم المشاق وصبرهم على ما يلاقونه في سبيل إظهار قوة الإسلام والمسلمين أمام الروم والعرب المتنصرة حتى يعلموا أن هذا الدين حق، وأن أهله يعملون عن إخلاص وصدق، ويرغبون فيما عند الله، ولا يبالون بكثرة أعدائهم؛ لأنهم يعلمون أن النصر حليفهم، وأن الله ناصرهم.

---

(١) جزء من آية: ١١٧ من سورة التوبة.

ثانياً: أنه ﷺ دعا الروم في هذه الغزوة دعوة صريحة وذلك أنه لما وصل تبوك أرسل إلى هرقل عظيم الروم كتاباً يدعوه إلى الدخول في الإسلام كما أشار إلى ذلك البخاري في آخر غزوة تبوك حيث قال رحمه الله: (باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر) وقد قدمنا قصة هذا الكتاب مبسوطة من حديث التنوخي عند الإمام أحمد، وتقدم ما ذكره السهيلي من أن هرقل آمن بالله لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ حيث نادى ألا إن هرقل آمن بالله بمحمد واتبعه، وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً مع دحية يقول فيه: إني مسلم، وإن كان رسول الله ﷺ قال: كذب عدو الله ليس بمسلم بل هو باق على نصرانيته، وكما أنه دعا هرقل الذي تعتبر دعوته دعوة لجميع الروم؛ لأنه إذا أسلم كان ذلك مظنة لإسلام الروم جميعهم أو جلهم، دعا التنوخي الذي قدم عليه بتبوك رسولاً من عند هرقل حيث قال له: يا أخا تنوخ هل لك في الحنفية ملة أبيك إبراهيم؟ فهو دعا الرئيس والمرؤوس.

ثالثاً: من وسائل الدعوة إلى الله التي استعملها ﷺ في غزوة تبوك عقده الصلح مع كثير من رؤساء النصارى فقد تقدم أنه عقد الصلح مع يحنة بن رؤبة صاحب أيلة وكتب له كتاباً وقد تقدم، كما عقد وهو في تبوك الصلح على دفع الجزية مع أهل جرباء وأذرح.

وقد ذكر ابن القيم عن موسى بن عقبة أن أكيدر ويحنة اجتمعا عند رسول الله ﷺ فدعاهما إلى الإسلام فأبيا، وأقرا بالجزية فقاضاهما رسول الله ﷺ على قضية دومة وعلى تبوك، وعلى أيلة، وعلى تيماء، وكتب لهما كتاباً(١). كما أنه ﷺ منّ على أكيدر دومة الجندل لما أتى به خالد بن الوليد أسيراً وحقن له دمه وقبل منه الجزية، وعلى هذا فإن المتأمل في غزوة تبوك التي هي آخر غزوة غزاها

---

(١) زاد المعاد ٣/٨ المصدر السابق.

رسـول الله ﷺ يجـدهـا كـلهـا دعوة لأهـل الكتـاب، فتـارة تتـمحـض فيـهـا الـدعوة صريـحاً، وتـارة تتضـمن الـدعوة إلى الله تعالـى مثـل خروج المسـلمين في زمـن الحر وقطعهـم المسـافة البعـيدة قاصديـن بلاد الشـام، إظهاراً لقـوتهم ورغبـتهم في الـثواب وتصديقـاً منهم بالوعد الـذي أخبرهم به رسولـهم ﷺ بالخلود الأبدي في الـنعيم إذا نالوا الـشهادة، كل هذا دعـوة لأهل الكتاب ضمـنـاً حيث يلـزمهم أن يفكـروا في أمر هؤلاء النـاس، وكيف أخلـصوا في أعمـالهم، وكيـف تمكن هذا الـدين من قلـوبهم؟ وكيـف كانـت طاعتـهم لـلرسول ﷺ حيـث أطاعـوه في غـزوة العسـرة وخرجـوا من ديارهـم حـيث طابت الثـمار واستقر بـهم القرار يخـرجون إلى قوم أولي بـأس شديد، وقوة هائلة، إذا فكروا فـي هذا علموا أنهم ما خرجوا إلا عن ثقة كـاملة في هذا الدين وفي من جاء به.

وكذلك عقـده الصلح مع يحـنة، وأهل جرباء وأذرح، ودومة الجـندل كل ذلك دعوة إلى الله ضـمنـاً، فإن في عـقد الصلح مـع الروم والعرب المتـنصرة ودفعهـم الجزية للـمسلمـين في ذلك إظـهار الولاء لـلمسـلمين وإظهـار قوة الإسلام حـيث استحـكم الإسلام في جـزيرة العرب كـلها ثم زحف إلـى الشام، ولما زحـف المسلمـون ووصلوا أطراف الشام أظهر الكثـير من أهل البلاد الولاء للمسلمين وأقروا لـهم بالجزية، وبتلك المنـاسبـة يقـع التـلاحم بين أهـل الكـتاب وأهـل الإسلام حـيث استـحكـمت بـينـهم العلاقات والمعـاملات، وأثناء ذلك يطلعون عـلى حقيقة الإسلام وسماحـته، وعطفه، ونهـيه عـن الظلـم، وعن الجـور حتى لـلكافـر الذي لا يـقر بالإسـلام، فإذا قـارن أهل الكتاب بين دين الإسلام وبـين ديانتهم علموا أن هناك فرقاً شـاسعاً، فإن الإسلام دين المساواة والحرية الكاملة الرئيس والمرؤوس فيـه يشملهم الأمر والنهي من الله جل وعلا، ومن رسوله ﷺ ، والمسلمـون في حقوقهم سواء، الضعيف قوي حـتى يؤخذ له حقه من القوي، والقـوي ضعيف حتى تؤخذ منـه للضعيف حقه، فإذا قـارنوا بين هذا وبين

ما يعرفون في أنفسهم من تعظيم ملوكهم وسجودهم لهم وانحنائهم أمامهم، ونصرهم للقوي الظالم على الضعيف المظلوم، إذا راجعوا عقولهم علموا أن هذا الدين الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه هو الدين الذي لا يقبل الله جل وعلا من العباد ديناً غيره وهو دين السهولة حيث لم يجعل الله فيه من حرج، وجعل شريعته شريعة سمحة لا شطط فيها، فالاطلاع علي هذا كله دعوة ضمناً لأهل الكتاب بلا شك مع ما تقدم من صريح الدعوة لهرقل عظيم الروم، وللتنوخي، ولأكيدر، وليحنة، فيتضح مما ذكر أن غزوة تبوك كانت غزوة دعوية تمخضت فيها دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

هذا وقد ذكر أصحاب المغازي والسير شيئاً مما يتعلق بالدعوة إلى الله في غزوة تبوك، وإن كان لا يختص بأهل الكتاب، ذكروا أنه عليه السلام بنى ستة عشر مسجداً بين تبوك والمدينة أولها مسجده الذي بناه بتبوك، وآخرها بناه بذي خشب، موضع على مرحلة واحدة من المدينة، وقد عددها الواقدي واحداً واحداً، وذكر المواضع التي بنيت فيها كما عددها ابن حزم في كتابه جوامع السير واحداً واحداً(١).

قلت: لعل المراد بالمساجد المذكورة ما يسمى مسجداً لغة وهو مكان السجود فلعلهم أرادوا المواضع التي كان ﷺ يخصصها للصلاة إذا بات في موضع أو قال فيه، فإنه ﷺ كان إذا نزل بمكان أول ما يبدأ به أن يهيء مكاناً للصلاة، وقد تقدم في غزوة بني قريظة ما يؤيد هذا في بعض الروايات في شأن سعد بن معاذ، فلما دنا من المسجد، وتقدم أن المراد بالمسجد المكان الذي كان يصلي فيه زمن حصار بني

---

(١) انظر المغازي للواقدي ٣/٩٩٩ المرجع السابق، وجوامع السير لابن حزم ص٢٥٤، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص٢٥٧.

قريظة، وإنما قلت هذا لأنه لا يمكن حمل المساجد المذكورة على أنها مساجد مبنية لأن البناء صعب ولا سيما على قوم سفر ينتقلون كل يوم مع أنه من الممكن أن يكونوا مدة إقامتهم في تبوك التي تقدم الخلاف في تحديدها بنوا مسجداً يتناسب مع قدرتهم على البناء في تلك المدة، وأما غير ذلك من المواضع فلا يمكن أن يبنى فيه مسجد على نحو المساجد المعهودة والعلم عند الله تعالى.

ولكنه ﷺ أخبر أنه جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمته أدركته الصلاة في موضع صلى فيه(١)، بخلاف من قبله من الأنبياء فإنهم كانوا لا يصلون إلا في المواضع المعدة للصلاة كالمساجد والبيع والصوامع(٢)، وأمة محمد ﷺ على خلاف ذلك، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون(٣)، وفي رواية لمسلم: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كلي نبي يبعث إلي قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة(٤)، والمقصود من ذكر هذه الأحاديث بيان أن مكان الصلاة التي وقعت فيه يسمى مسجداً، وعليه فيكون أصحاب السير والمغازي إنما يعنون بالمساجد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التيمم، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٣٧١/١ المصدر السابق.

(٢) انظر فتح الباري ٢٣٧/١.

(٣) صحيح مسلم ٣٧١/١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، وأخرجه الترمذي ٥٦/٣ وقال حسن صحيح ط السلفية.

(٤) مسلم: المصدر السابق نفسه.

التي ذكروا في غزوة تبوك مواضع صلاته وصلاة أصحابه.

ونختتم هذا الفصل بثمرة دعوته ﷺ لأهل الكتاب وأنها أثرت وأسلم بعضهم، وما ذاك إلا ثمرة لهذا المنهج الذي اتخذه ﷺ معهم فإنه دعاهم إلى الله تعالى بشتى الوسائل.

ومن مشاهير من أسلم من اليهود عبد الله بن سلام وقد قدمنا كيف دعاه إلى الإسلام، وكيف أجاب وأسلم من حينه لما تحقق صدق نبينا ﷺ، وقد تقدم ذلك كله، وكذلك أسلم من اليهود أيضاً ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، كما تقدمت الرواية بذلك عن البيهقي.

ومن ذلك إسلام ميمون بن يامين وكان رأس اليهود، وتقدمت قصته وقوله للنبي ﷺ: ابعث إليهم فاجعلني حكماً فإنهم يرجعون إلي فأدخله داخلاً، ثم أرسل فأتوه فخاطبوه فقال:

اختاروا رجلاً يكون حكماً بيني وبينكم قالوا: قد رضينا ميمون بن يامين فقال: اخرج إليهم فقال: أشهد أنه رسول الله فأبوا أن يصدقوا(١).

ومن ثمرة دعوته لأهل الكتاب إسلام الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي الذي كان يدين بدين النصرانية واستجاب للإسلام فصار من أفاضل الصحابة وتقدم الكلام عليه.

وإنما ذكرنا إسلام هؤلاء الجماعة هنا على سبيل الإجمال مع أننا ذكرنا إسلامهم فيما تقدم لنعطي القارئ نبذة قليلة عن تأثيرة هذه الدعوة التي قام بها رسول الله ﷺ لأهل الكتاب حيث صارت منهم مجموعة من أفاضل الصحابة وعلمائهم ودُوِّنَ

---

(١) فتح الباري ٧/٢٧٥.

عنهم الكثير من السنة.

وكذلك من ثمرة الدعوة لأهل الكتاب إسلام مخيريق يهود، أما مخيريق فإنه كان حبراً عالماً بصفة رسول الله ﷺ مما كان يقرأ من الكتب السابقة فلما رأى رسول الله ﷺ وشاهد دعوته علم أنما يدعو إليه حق، فدخل الإسلام قلبه، وكان غنياً كثير الأموال وكان مع ما يعرف من صفة رسول الله ﷺ غلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك الحال حتى إذا كان يوم أحد وهو يوم السبت قال: يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق قالوا: إن اليوم يوم السبت قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت في هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه اللّه، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول الله ﷺ فيما يحكى يقول: (مخيريق خير يهود) وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها(١).

ومخيريق هذا اختلف في نسبه فقيل إنه من بني النضير، وقيل من بني قينقاع، ذكر الواقدي أنه أسلم واستشهد بأحد(٢).

قال الحافظ ابن حجر: أوصى بأمواله للنبي ﷺ، وهي سبع حوائط، وقال ابن شبَّة في أخبار المدينة: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر بن المسور عن أبي عون عن ابن شهاب قال: كانت صدقات رسول الله ﷺ أموالاً لمخيريق اليهودي، قال عبد العزيز بلغني أنه كان من بقايا بني قينقاع،

---

(١) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ٣٦٥/١٦.

(٢) المغازي للواقدي ٢٦٣/١.

ثم رجع حديث ابن شهاب قال: وأوصى مخيريق بأمواله للنبي ﷺ وشهد أحدا فقتل به فقال رسول الله ﷺ مخيريق سابق يهود وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة(١).

ثم بدأ ابن شبة يعدد الحوائط التي أوصى بها لرسول الله ويسميها حائطاً حائطاً، إلى غير ذلك من أخباره.

وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه.

* * *

---

(١) انظر تاريخ المدينة المنورة، تأليف أبي زيد عمر بن شبة النميري البصري المتوفى ٢٦٢ جـ ١٧٣/١.

الخاتمة

الخاتمة

وتشتمل على ما يلي:

لقد توصلت في هذا الكتاب إلى نقاط مهمة ألخص بعضها كالآتي:

١ - بينت دعوة نبينا ﷺ لأهل الكتاب منذ أن بعثه الله إلى أن انتقل للرفيق الأعلى، وذلك أنني بينت دخولهم في عموم دعوته للخلق حيث ذكرت الأحاديث الدالة على ذلك مثل قوله عليه السلام: ... وأرسلت للخلق كافة.. وما أشبه ذلك من الأحاديث التي ذكرت أول الرسالة.

٢ - بينت دعوته ﷺ لأهل الكتاب خاصة، وذلك بذكر الأحاديث التي تنص على دعوة أهل الكتاب، تارة تكون نصاً في دعوة اليهود دون النصارى، وتارة تكون نصاً في دعوة النصارى دون اليهود وتارة تكون نصاً في دعوتهما معاً، فعلى سبيل المثال قوله لليهود: يا معشر يهود أسلموا تسلموا. هذا نص في دعوة اليهود دون النصارى، وقوله ﷺ لقيصر عظيم الروم.. إني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم.. هذا نص في دعوة النصارى دون اليهود، وقوله عليه السلام لهم: ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.. ﴾ فهذه الآية دعوة لأهل الكتاب، وإن كان الخطاب لقيصر، وكذلك قوله ﷺ كما في صحيح مسلم: والله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار، فهذه أيضاً دعوة لجميع أهل الكتاب.

٣ - بينت كثيراً من وسائل الدعوة التي اتخذها ﷺ في دعوة أهل الكتاب، فقد بينت أنه دعاهم إلى الله بشتى الوسائل فقد كاتبهم وأرسل إليهم الرسل، كما

بينت أنه عقد معهم الصلح، وأمنهم.

٤ - بينت أنه عليه السلام كان يدعوهم بالحكمة، ويتمثل ذلك في أمور مثل صفحه ﷺ المتكرر عن اليهود فإنه منَّ على بني قريظة بالعفو لما أعلنوا الحرب أولاً عندما نقضت بنو النضير العهد فتركهم ولم يؤاخذهم بذلك.

وكذلك حلمه وعفوه عن اليهودية ومن تمالأ معها في خيبر على قتله عليه السلام حيث سمموا له الشاة التي أهدوها له.

وكذلك منُّه على يهود خيبر لما فتحها وملك الله رقابهم منّ عليهم وتركهم وأعطاهم أرض خيبر يزرعونها ويعيشون من ثمارها وحبوبها.

كما أوضحت اهتمامه عليه السلام بأهل الذمة وتوعده الوعيد الشديد لمن أخفر ذمة أحد منهم إلى غير ذلك مما ذكر في هذه الرسالة من حلمه المتكرر عنهم.

٥ - بينت في هذه الرسالة كيف كانت معاملته ﷺ لوفود أهل الكتاب الذين وفدوا عليه في مكة وفي المدينة، وأنه كان يدعوهم إلى الله عز وجل، كما كان يحسن معاملتهم وضيافتهم إلى غير ذلك من أنواع الرحمة.

٦ - توصلت إلى جهاده ﷺ لأهل الكتاب يهوداً أو نصارى دعوة إلى الله ولا يخرج عنها قيد شبر، وذلك أن المتأمل لغزواته عليه السلام لأهل الكتاب والمطلع على أسبابها يجدها كلها دعوة إلى اللّه، وذلك أنها لا توجد منها غزوة واحدة إلا بعد احتقار اليهود أو النصارى للإسلام والمسلمين، وإظهار قوتهم وشجاعتهم وإظهار ضعف الإسلام والمسلمين، والعزم على القضاء على الدين الحنيف، وعلى أهله، ولذلك كانت جميع غزواته لهم ناشئة عن أمرين:

الأول منهما: إظهار قوة الإسلام وعدم ضعفه أمام أعدائه.

والثاني: تفوق المسلمين على أهل الكتاب في الشجاعة ورغبتهم فيما عند الله لهم من الثواب.

وكلا هذين الأمرين يتضمن الدعوة إلى الله بلا شك، كما هو موضح في أول الباب الثالث من الرسالة في جميع غزواته لهم.

٧ - أوضحت في هذه الرسالة أن جهاده ﷺ لأهل الكتاب وكذلك جهاده لغيرهم لم يكن القصد منه إبادة الكفار ولا إرغامهم على الدخول في الإسلام عن طريق الإكراه حيث بينت أن أغلبه إنما كان دفاعاً عن الأنفس، وقمعاً للمعترضين لدعوة الإسلام المانعين من نشرها أو انتقاماً من أعداء الإسلام، كما بينت أن القصد من جميع جهاده إنما هو إعلاء كلمة الله تعالى وإظهار دينه دين الإسلام على جميع الأديان، ويتمثل ذلك فيما كان ﷺ يفعله إذا غزا قوماً فإنه كان يبيت حول القرية ويتحرى هل يسمع أذانا أولا؟ فإذا سمع أذاناً كف عنهم، وإلا دنا منهم ودعاهم إلى الله فإن أبو استعان بالله وقاتلهم لإعلاء كلمة اللّه، يمثل ذلك أمره ﷺ لعلي بن أبي طالب لما أعطاه الراية يوم خيبر بأن لا يقاتل يهود خيبر حتى يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك مبيته قربهم وتحريه سماع الأذان إلى غير ذلك مما هو مبسوط في مواضعه من الرسالة.

٨ - بينت أن دعوته لأهل الكتاب أثمرت في حياته عليه السلام وبعد وفاته فقد دخل الكثير من أهل الكتاب في الإسلام، فقد أسلم حبر اليهود وسيدهم عبد الله بن سلام، ومخيريق يهود، وميمون بن يامين، وعدي بن حاتم الطائي الذي كان يدين النصرانية، كما أسلم ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد اليهوديون، كل هؤلاء أسلموا في حياته ﷺ، كما دخل كثير من أهل الكتاب بعد وفاته ﷺ في الإسلام نتيجة لما خلفته دعوته لهم، فتأسى به خلفاؤه من بعده.

وأختم هذه الرسالة بحمد الله تعالى. وشكري له على ما منَّ به عليَّ من نعمه التي من جملتها إتمامي لهذه الرسالة راجياً منه تعالى أن يوفقني في القول والعمل، وأن يجعل قولي وعملي خالصين لوجه الكريم وأن يوفقني لما يرضيه عني إنه ولي التوفيق.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين الطيبين.

يوم الثلاثاء لثمان وعشرين ليلة خلت من ربيع الثاني سنة ١٤٠٤ هـ .

محمد بن سيدي بن الحبيب

* * *

مراجع البحث

أولاً: كتب الحديث والرجال:

١ - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت ٣١١هـ).

صحيح ابن خزيمة.

٢ - أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي (ت١٧٩) **الموطأ.**

٣ - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).

المسند للإمام أحمد.

٤ - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت٢٥٦هـ)

الجامع الصحيح.

٥ - أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ)

سنن الدارمي.

٦ - أبو الحسين: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) **صحيح مسلم.**

٧ - أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (ت٢٥٧هـ)

سنن أبي داود.

٨ - أبو عيسى الترمذي محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت٢٧٩هـ)

سنن الترمذي.

٩ - أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي (ت٣٠٣هـ) **سنن النسائي.**

١٠ - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت٢٧٥هـ) **سنن ابن ماجة.**

١١ - أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الآبي: (ت٨٢٧ أو ٨٢٨هـ) **إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم.**

١٢ - أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي: (ت٨٥٩هـ) **مكمل اكمال الإكمال.**

١٣ - أبو زكريا يحيى محيي الدين بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) **شرح صحيح مسلم.**

١٤ - أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير مجد الدين (ت٦٠٦ هـ) **جامع الأصول لابن الأثير.**

١٥ - أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير مجد الدين (ت٦٠٦هـ) **النهاية في غريب الحديث والأثر.**

١٦ - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (٤٦٣هـ) **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.**

١٧ - أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين (ت٨٥٥هـ) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري.**

١٨ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) **المستدرك.**

١٩ - أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الحنفي الزيلعي (ت٦٧٢هـ) **نصب الراية لأحاديث الهداية.**

٢٠ - أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ) **دلائل النبوة.**

٢١ - أبو بكر: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ) **السنن الكبرى للبيهقي.**

٢٢ - أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي (ت٣٨٨هـ) **معالم السنن للخطابي.**

٢٣ - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠) **دلائل النبوة لأبي نعيم.**

٢٤ - إبراهيم بن محمد كمال الدين الشهير بابن حمزة الحسيني الدمشقي (١١٢٠ هـ) **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف.**

٢٥ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) **فتح الباري شرح صحيح البخاري.**

٢٦ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) **تهذيب التهذيب.**

٢٧ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) **تقريب التهذيب.**

٢٨ - أحمد بن عبد الله صفي الدين الخزرجي الأنصاري (ت٩٢٣هـ) **خلاصة تهذيب الكمال.**

٢٩ - إسماعيل بن محمد العجلوني (ت) ١١٦٢ هـ).

كشف الخفا ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.

٣٠ - عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ) **المصنف لعبد الرزاق.**

٣١ - عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١) **شرح سنن النسائي.**

٣٢ - عبد الرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١هـ).

فيض القدير شرح الجامع الصغير.

٣٣ - محمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطي (ت١٣٦٣هـ) **فتح المنعم شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.**

٣٤ - محمد يوسف بن علي بن سعيد الكرماني البغدادي شمس الدين (ت٧٨٦) **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري.**

٣٥ - **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.**

ترتيب وتنظيم جماعة من المستشرقين.

ثانياً: كتب التفسير وعلوم القرآن:

٣٦ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).

جامع البيان في تفسير القرآن.

٣٧ - أبو السعود محمد بن محمد العماد قاضي القضاة (ت٩٥١هـ) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.**

٣٨ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) **الجامع لأحكام القرآن.**

٣٩ – أبو الفداء إسماعيل بن كثير عماد الدين القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ) **تفسير القرآن العظيم**.

٤٠ – أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**.

٤١ – أبو القاسم علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن القاصح (٨٠١) **سراج القاري**.

٤٢ – الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت٩٤٥هـ) **طبقات المفسرين**.

٤٣ – عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) **الدر المنثور**.

٤٤ – عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) **الإتقان في علوم القرآن**.

٤٥ – عبد الله بن عمر بن محمد بن علي قاضي القضاة ناصرالدين البيضاوي (ت ٦٨٥ وقيل ٦٩١).

٤٦ – محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت٧٤١هـ).

كتاب التسهيل لعلوم التنزيل.

٤٧ – محمد بن عبد الله بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) **البرهان في علوم القرآن**.

٤٨ – محمد بن عبد العظيم الزرقاني ـ معاصر في القرن ١٤ **مناهل العرفان في علوم القرآن**.

٤٩ - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) **فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير.**

٥٠ - محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) **أضواء البيان في تفسير القرآن.**

ثالثا: «كتب المغازي والسير والدعوة»:

٥١ - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) **الوفا بأحوال المصطفى.**

٥٢ - أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ) **الدرر في اختصار المغازي والسير.**

٥٣ - أبو الطاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروز أبادي (ت٨١٦ أو ٨١٧) **المغانم المطابة في معالم طابة.**

٥٤ - أبو الحسن علي الحسين الندوي - معاصر - **السيرة النبوية للندوي.**

٥٥ - أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (ت٦٣٤هـ) **الاكتفا في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخفا** تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد.

٥٦ - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ) **الروض الأنف.**

٥٧ - أبو زهرة محمد: (**خاتم النبيين ﷺ**) (معاصر).

٥٨ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية شمس الدين (ت ٧٥١هـ) **زاد المعاد في هدي خير العباد.**

٥٩ - أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١٣هـ) **سيرة ابن هشام**.

٦٠ - أبو عبد الله، أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٥٠ أو ١٥١ أو ١٥٢ أو ١٥٣).

٦١ - أبو الفداء إسماعيل بن كثير عماد الدين القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ) **سيرة ابن كثير**.

٦٢ - أبو الفتوح التوانسي، وعلي الجنبلاطي (معاصران) **محمد ﷺ نبي الإنسانية والسلام**.

٦٣ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**.

٦٤ - أبو العباس: أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ) **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**.

٦٥ - أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى فتح الدين بن سيد الناس (٧٣٤هـ).

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير.

٦٦ - أبو المجد السيد نوفل (معاصر) **الدعوة إلى الله: خصائصها، مقوماتها، مناهجها**.

٦٧ - أحمد البدوي الشنقيطي (ت١٢٢٠هـ) **الغزوات للبدوي**.

٦٨ - أحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب القسطلاني (ت٩٢٣هـ) **المواهب اللدنية**.

٦٩ - أحمد غلوش (معاصر) **الدعوة الإسلامية.**

٧٠ - حسن مشاط (معاصر) **إنارة الدجى في مغازي خير الورى.**

٧١ - الدكتور زكري (معاصر) **الدعوة إلى الإسلام.**

٧٢ - عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الربيع. **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار.**

٧٣ - عبد الوهاب النجار (ت - ١٣٦٠هـ) **قصص الأنبياء.**

٧٤ - عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) **الخصائص الكبرى للسيوطي.**

٧٥ - عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض والمندوب فوق العادة للمملكة العربية السعودية بباكستان والمدرس بالحرم المكي سابقاً (معاصر) **بحوث في السيرة.**

٧٦ - علي بن أحمد نور الدين السمهودي (ت٩١١ هـ) **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى.**

٧٧ - علي برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهير بالسيرة الحلبية.**

٧٨ - محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٠٦هـ) **مختصر سيرة الرسول ﷺ.**

٧٩ - محمد بن علي بن طولون شمس الدين الدمشقي (ت٩٥٣هـ) **أعلام السائلين عن كلام سيد المرسلين.**

٨٠ - محمد حميد الله: **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.**

٨١ – محمد بن عبد الباقي الزرقاني (١١٢٢هـ) **شرح الزرقاني للمواهب اللدنية**.

٨٢ – محمد أحمد باشميل (معاصر) **الكتاب الرابع من معارك الإسلام الفاصلة**.

٨٣ – محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) (**المغازي النبوية للزهري**).

٨٤ – محمد الغزالي: (معاصر) **فقه السيرة**.

٨٥ – محمد الخضر بك: **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**.

رابعا: كتب الفقه:

٨٦ – أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الشهير بالمواق (ت٨٩٧) **التاج والإكليل لمختصر خليل**.

٨٧ – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت٤٥٦هـ) **المحلى**.

٨٨ – أبو عبد الله محمد بن أبي بكر شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ). **إعلام الموقعين عن رب العالمين**.

٨٩ – أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة (ت١٨٢) **الخراج لأبي يوسف**.

٩٠ – خليل بن إسحاق المالكي (ت٧٧٦ أو ٧٦٩هـ) **مختصر خليل في الفقه المالكي**.

خامساً: كتب أصول الفقه:

٩١ – أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد الآمدي (ت٦٣١هـ) **الأحكام في أصول الأحكام للآمدي.**

٩٢ – أبو العباس أحمد بن إدريس شهاب الدين القرافي (ت٦٨٤هـ) **شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول.**

٩٣ – أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن جلال الدين الأسنوي (ت٧٧٢هـ) **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للإسنوي.**

تحقيق وتعليق وتخريج د. محمد حسن هيتو.

٩٤ – سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي (ت١٢٣٠هـ) **نشر البنود شرح مراقي السعود.**

٩٥ – عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى ابن تمام السبكي (ت٧٧١هـ) **جمع الجوامع لابن السبكي.**

٩٦ – محمد بن أحمد شمس الدين الجلال المحلى (ت٨٦٤هـ) **شرح المحلى لجمع الجوامع.**

سادساً: كتب اللغة والنحو:

٩٧ – أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) **تهذيب اللغة للأزهري.**

٩٨ – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) **المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.**

٩٩ – أسامة ونديم مرعشلي، تقديم الشيخ عبد الله العلائي. **الصحاح في اللغة والعلوم.**

١٠٠ – عبد الله بن عقيل قاضي القضاة بهاء الدين العقيلي المصري (ت٧٦٩هـ) **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.**

١٠١ – محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت٦٦٦هـ) **مختار الصحاح في اللغة للرازي.**

١٠٢ – محمد الخضري (ت١٢٨٧هـ) **حاشية الخضري على ابن عقيل.**

١٠٣ – محمد يعقوب مجد الدين الفيروز أبادي (ت٨١٦ أو ٨١٧ هـ) **القاموس المحيط للفيروز أبادي.**

سابعاً: كتب التاريخ:

١٠٤ – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) **تاريخ الرسل والملوك.**

١٠٥ – أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ) **الاستيعاب في أسماء الأصحاب.**

١٠٦ – أبو الفداء إسماعيل بن كثير عماد الدين القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ) **البداية والنهاية لابن كثير.**

١٠٧ – أبو الطاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروز أبادي (ت٨١٦ أو ٨١٧ هـ) **المغانم المطابة في معالم طابة.**

١٠٨ – أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ) **معجم البلدان لياقوت الحموي.**

١٠٩ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ) **الكامل لابن الأثير**.

١١٠ - أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٢ هـ) **تاريخ المدينة المنورة لابن شبـة**.

١١١ - أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم عز الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ). **أسد الغابة**.

١١٢ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) **الإصابة في تمييز الصحابة**.

١١٣ - أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ) **نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري**.

١١٤ - حسن إبراهيم علي حسن. (معاصر) **تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي**.

١١٥ - حسن بن محمد الحسن الدياربكري.

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس.

١١٦ - الدكتور عون الشريف قاسم (معاصر) **نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ**.

١١٧ - الدكتور جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**.

١١٨ - الدكتور محمد حميد الله: **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**.

١١٩ - عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت١١١١هـ) **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي.**

١٢٠ - عبد الحي الكتاني: **نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية.**

١٢١ - علي حافظ (معاصر) **فصول من تاريخ المدينة.**

١٢٢ - محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ) **الطبقات الكبرى لابن سعد.**

١٢٣ - محمود شاكر (معاصر): **التاريخ الإسلامي ٢ - السيرة.**

* * *

ملحق بالمراجع

«التاريخ»

١٢٤ – خير الدين الزركلي (معاصر) **الأعلام للزركلي**.

١٢٥ – عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨هـ) **تاريخ ابن خلدون**.

١٢٦ – **المجلة الفيصلية**: بقلم عبد الجبار محمود السامرائي عدد ٥٥ ص٧٦ - محرم ١٠٤٢ هـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١ م.

«الحديث»

١٢٧ – سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (١٢٣٠هـ) **طلعة الأنوار في مصطلح الحديث**.

١٢٨ – محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) **نيل الأوطار**.

«النحو»

١٢٩ – أبو الحسن علي نور الدين المعروف بالأشموني (ت٩٠٠هـ) **منهج السالك إلى ألفية ابن مالك**.

١٣٠ – العيني: **شرح الشواهد للعيني**.

«اللغة»

١٣١ – إسماعيل بن حمدان الجوهري (٣٩٣ وقيل ٣٩٨هـ) **صحاح الجوهري**.

١٣٢ - محمد بن مكرم المعروف بابن منظور جمال الدين الأنصاري (ت٧١١هـ) **لسان العرب**.

«الدعوة»

١٣٣ - سير توماس أرلوند المستشرق. **الدعوة إلى الإسلام**.

١٣٤ - محمد بن سيدي بن الحبيب - كاتب هذه الرسالة. **الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل**.

«علوم القرآن»

١٣٥ - علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب أبو الحسن علم الدين السخاوي المقرئ (ت٦٤٣هـ) **جمال القراء وكمال الإقراء**.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـوع **الصفحة**

* * *